الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية



إدواردو غاليانو

ترجمة: علاء شنانة



للثقافة والنشر والإعلام

ادواردو غاليانو

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

ترجمة

ترجمة علاء شنانة

للثقافة والنشر والإعلام

ادواردو غاليانو: الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

Book: Al-Sharayeen almaftouha le Amrica al-latineya

الكتاب: الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

ترجمة: علاء شنانة

تأليف: ادواردو غاليانو

Eduardo Galeano

First Edition: 2016

الطبعة الأولى ٢٠١٦



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 00966210811 1 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

ما كان لهذا الكتاب أن يتم، بدون المساعدة التي قدمها بشكل أو بآخر، سيرجيو باغو، لويس كارلوس بينفينوتو، فيرناندو كارمونا، اديثيا كاستيللو، البيرتو كوريبل، اندري غوندير فرانك، روجيليو غارثيا لوبو، ميغيل لا باركا، كارلوس ليسا، صامويل ليتشتيتنسزتين، خوان أ. اودوني، ادولفو بيريلمان، ارتور بويرنير، خيرمان راما، دارسي ريبيرو، اورلاندو روخاس، خوليو روسيلو، باولو ستيلبنغ، كارل هينز ستانزيك، فيفيان ترياس ودانييل فيدارت.

لهم، وللكثير من الأصدقاء الذين دعموني في عملي خلال السنوات الأخيرة، أهدي النتيجة والتي بالطبع، هم غير مسؤولين عنها.

مونتفيديو، أواخر عام ١٩٧٠

"... لقد حافظنا على صمت أقرب ما يكون إلى الغباء.."

(إعلان العصيان الذي أصدرته

عصبة الدفاع في مدينة لا باث، ١٦ تموز ١٨٠٩)

مقدمة
مائة وعشرين مليون طفل في قلب العاصفة

يتلخص التقسيم العالمي للعمل في أن بعض الدول تختص بالفوز وأخرى تختص بالخسارة. أما منطقتنا في العالم، والتي ندعوها اليوم أمريكا اللاتينية، فكانت سباقة: وتخصصت بالخسارة منذ زمن بعيد عندما وصل "اوروبيو" عصر النهضة عبر البحر وغرسوا أنيابهم في حنجرتها. ومرت القرون وأمريكا اللاتينية تجيد وتحسّن من دورها. فلم تعد مملكة المعجزات حيث تهزم فيها الحقيقة الأسطورة وحيث واجه الخيال الإذلال أمام انتصارات الغزاة ومناجم الذهب وجبال الفضة. وما تزال هذه المنطقة تمارس دور الخادمة. فما زالت تعمل على تلبية حاجات الغير، كمصدر واحتياطي للنفط والحديد، النحاس واللحوم، الفاكهة والقهوة، المواد الأولية والمواد الغذائية الموجهة للدول الغنية ولتحقق الأرباح باستهلاك هذه المواد، أكثر بكثير مما تحققه أمريكا اللاتينية بإنتاجها لهذه المواد. فالرسوم التي يجنيها المشترون أعلى بكثير من الأسعار التي يجنيها البائعون. وفي نهاية المطاف، وكما صرح في تموز ١٩٦٨ كوفي ت. اوليفر، منسق حركة تحالف من أجل التقدم، "أن الحديث عن أسعار عادلة في الوقت الحالي هو مفهوم قرن اوسطي. إننا نعيش في عصر ازدهار التجارة الحرة "وكلما ازادت الحرية

الممنوحة للأعمال التجارية، كلما ازادت الحاجة لبناء سجون أكثر لمن يعانون من هذه الأعمال التجارية، وأن أنظمتنا من المحققين والجلادين لا تعمل فقط من أجل السوق الخارجية المسيطرة، وإنما تحقق أيضاً تدفق شلالات من الأرباح الناتجة من القروض والاستثمارات الأجنبية في الأسواق الداخلية الخاضعة"، جرى حديث عن تنازلات قدمتها أمريكا اللاتينية لرأس المال الأجنبي، وليس عن تنازلات قدمتها الولايات المتحدة لرأس مال البلدان الأخرى، فنحن لا نقدم تنازلات"، هذا ما أعلنه في عام ١٩١٣، الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون. كان واثقا أن أي بلد ـ قال ـ يتملكه ويهيمن عليه رأس المال الذي يستثمر فيه. وكان محقا، ففي الطريق فقدنا حتى الحق في أن نسمّي أنفسنا أمريكيين. رغم أن الهاييتيين والكوبيين كانوا قد ظهروا في التاريخ كشعبين جديدين، قبل قرن من استقرار حجاج مي فلاوار في شواطئ بليموث. أمريكا الآن، بالنسبة للعالم، ليست أكثر من الولايات المتحدة: أما نحن، فإننا نقطن في أميركا فرعية، أمريكا من الدرجة الثانية، بهويَّة ضبابية.

إنها أمريكا اللاتينية، الإقليم ذو الشرايين المفتوحة. فمنذ اكتشافها وحتى أيامنا هذه، ظل كل شيء يتحول على الدوام إلى رأسمال أوروبي، ثم إلى رأسمال أمريكي شمالي، وعلى هذه الشاكلة تراكم ويتراكم في مراكز السلطة البعيدة. كل شيء: الأرض بثمارها وأعماقها الغنية بالمعادن، البشر واستطاعتهم على العمل والاستهلاك، الموارد الطبقية والبشرية. وعلى ذلك، فإن شكل الإنتاج وبنية الطبقات لكل منطقة كان له الأثر الشديد تباعا، من الخارج، في اندماجهما في العجلة العالمية للرأسمالية. فقد تم اسناد وظيفة معينة لكل طرف، لتكون دائماً في صالح التطور المدني الأجنبي السائد، لتصبح سلسلة التبعية المتتالية

لا نهائية، ولها أكثر من ارتباطين بكثير، والذي يتضمن بالمناسبة، أن يكون داخل أمريكا اللاتينية، تعرض الدول الصغيرة للاضطهاد من قبل جاراتها الأكبر، وفي الحدود الداخلية لكل بلد، الاستغلال الذي تمارسه المدن الكبيرة والموانئ على المصادر الداخلية لإمدادها بالمؤن والايدي العاملة. (وقد نشأت بالفعل منذ أربعة قرون، ست عشرة مدينة من المدن العشرين الأكثر ازدحاما بالسكان اليوم في أمريكا اللاتينية).

بالنسبة لمن يتصورون التاريخ باعتباره منافسة، فإن تخلف وبؤس أمريكا اللاتينية ليسا سوى نتيجة فشلها. نحن خسرنا، وكسب آخرون. وتصادف أن من ربحوا، كانوا قد ربحوا لأننا خسرنا: فإن تاريخ تخلف أمريكا اللاتينية يتضمن تاريخ تطور الرأسمالية العالمية، كما ذكرنا. كانت هزيمتنا متضمنّة في الانتصار الأجنبي دائما، لقد ولدّت ثروتنا فقرنا بشكل دائم كي تُغذّي تطوّر الآخرين: الامبراطوريات ومديروها المحليون. فيتحول الذهب في كيميائية الاستعمار والاستعمار الحديث إلى خردة، والغذاء إلى سُم. فسقطت بوتوسي، زاكاتيكاس وأورو بريتو من قمة مجد المعادن النفيسة إلى الثقب العميق لسراديب المناجم الموحشة، وكان مصير سهول البامبا التشيلية هو الخراب حيث النترات وغابات الأمازون حيث المطاط، الشمال الشرقي المنتج للسُّكّر في البرازيل أو غابات الارجنتين التي تنتج خشب الكبراتشو، أو بعض القرى التي تنتج النفط على بحيرة ماراكايبو فإن لديهم جميعا أسباب موجعة لكي يصلوا إلى الاعتقاد بفناء الثروات التي تقدمها الطبيعة وتغتصبها الإمبريالية. إن المطر الذي يروي مراكز السلطة الامبريالية تقود في النهاية إلى الموت غرقا لأطراف النظام المترامية. وعلى نفس الشاكلة، وبالتناظر، فإن رفاهية طبقاتنا المسيطرة ـ المسيطرة نحو الداخل، والمسيطر عليها نحو الخارج ـ هي لعنة شغوبنا المحكوم عليها أن تعيش حياة الحيوانات.

وتستمر الهوّة الفاصلة بالاتساع. ففي منتصف القرن الماضي، كان مستوى المعيشة في البلاد الغنية يزيد عن مستوى المعيشة في البلدان الفقيرة بنسبة خمسين بالمائة. لكن التنمية تزيد من التفاوت: فقد أعلن ريتشارد نيكسون، في نيسان عام ١٩٦٩، في خطابه أمام منظمة الدول الامريكية، أنه في نهاية القرن العشرين سيكون دخل الفرد في الولايات المتحدة أعلى بخمس عشرة مرة مما هو عليه في أمريكا اللاتينية. تقوم قوة مجموع منظومة النظام الإمبريالي على أساس عدم التساوي بين الأجزاء التي تشكله، وهذا التفاوت يزداد بشكل مضطرد ليشكل في النهاية أبعادا درامية مخيفة، لتصبح البلدان الظالمة، وبالتدريج، أغنى بشكل مطلق، لكنها تصبح أغنى بكثير بشكل نسبي، وذلك لديناميكية التفاوت المتزايد باضطراد. إن الإمبريالية المركزية تستطيع أن تمنح نفسها ترف الاعتقاد والايمان بأساطير ثرائها، لكن الأساطير لا تُسمن من جوع، وهذا ما تعرفه جيداً البلدان الفقيرة التي تشكل أطراف الرأسمالية الواسعة. إن متوسط دخل الفرد في أمريكا الشمالية يفوق سبع مرات متوسط دخل الأمريكي اللاتيني ويتزايد باضطراد بمعدل عشر مرات أسرع. والمتوسطات خادعة، نتيجة ازدياد الأعماق التي لا يمكن سبرها، في جنوب نهر البرافو، بين الفقراء العديدين وقلة أغنياء الإقليم. وبالفعل، ووفق ما تقوله الأمم المتحدة، فهناك في القمة ستة ملايين لاتيني أمريكي يحتكر نفس الدخل الذي يناله مائة وأربعون مليونا موجودون في قاعدة الهرم الاجتماعي. فهناك ستون مليونا من الفلاحين تبلغ ثروتهم خمسة وعشرين سنتا من الدولار يوميا، بينما في الطرف المقابل، يمنح سماسرة الشقاء أنفسهم ترف تكويم خمسة آلاف مليون دولار في حساباتهم الخاصة في سويسرا أو الولايات المتحدة، ويغدقون على المظاهر وعلى الترف العقيم ـ المستفز والمتطرف ـ وعلى

استثمارات غير منتجة، والتي تمثل ما لا يقل عن نصف الاستثمار الكلي، رؤوس الأموال هذه التي كان يمكن لأمريكا اللاتينية أن تكرسها إلى تجديد، وتوسيع، وخلق مصادر للإنتاج والعمل. نظرا لارتباط طبقاتنا الحاكمة، منذ البداية، بمنظومة السلطة الإمبريالية، ليس لديها أدني اهتمام بالتأكد مما إذا كانت الوطنية مربحة أكثر من الخيانة، أو إذا ما كان التسوُّل هو الشكل الوحيد الممكن للسياسة الدولية. يرهنون السيادة الوطنية "لأنه ليس هناك حل آخر"، لتختلط الذرائع لدى هذه الطغمة بشكل مقصود بين عجز طبقة اجتماعية معينة وبين الفراغ المزعوم في مصير كل أمة.

أعلن جوسوي دي كاسترو: "أنا، الذي تلقيت جائزة دولية للسلام، أعتقد، لسوء الحظ، أنه ليس هناك حل لأمريكا اللاتينية سوى العنف". فهناك مائة وعشرون مليون طفل متواجدين في قلب هذه العاصفة. فسكان أمريكا اللاتينية يتزايدون أكثر من غيرهم؛ فلقد تضاعفوا أكثر من ثلاث مرات خلال نصف قرن. ويموت طفل كل دقيقة من المرض أو الجوع. لكن سيكون هناك في عام ٢٠٠٠ ستمائة وخمسون مليونا من الأمريكيين اللاتين، وعمر نصفهم أقل من خمسة عشر عاما: إنها قنبلة زمنية. وبين المائتين وثمانين مليون من الأمريكيين اللاتين هناك في نهاية عام ١٩٧٠، يوجد بينهم خمسون مليونا من العاطلين أو الذين يعملون بشكل متقطع وما يقرب من المائة مليون من الأميين؛ كما يعيش نصف الأمريكيين اللاتين متكدسين في مساكن غير صحية. وأكبر ثلاثة أسواق في أمريكا اللاتينية ـ وهي الأرجنتين، البرازيل والمكسيك ـ غير قادرة في مجموعها على أن تعادل القدرة الاستهلاكية لدول مثل فرنسا أو المانيا الغربية، بالرغم من أن مجموع سكان بلداننا الثلاثة الكبار يفوق بكثير سكان أي بلد أوروبي. تنتج أمريكا اللاتينية اليوم، بالنسبة لعدد

سكانها، أغذية أقل مما كانت تنتجه قبل الحرب العالمية الأخيرة، وانخفضت صادراتها بالنسبة للفرد ثلاث مرات، بأسعار ثابتة، منذ عشية أزمة عام ١٩٢٩. إن هذا النظام هو في غاية العقلانية من وجهة نظر سادته الأجانب وبورجوازيتنا ومن السماسرة، الذين باعوا أرواحهم للشيطان بثمن بخس كان يمكن لفاوست أن يخجل منه. لكن هذا النظام لا عقلاني بالنسبة للجميع فهو كلما تطور كلما زاد من حدة توتراتهم واضطراباتهم، وتناقضاتهم الساخنة. وحتى التصنيع، التابع والمتأخر، الذي يتعايش وبارتياح مع الإقطاعية ومع بُنى التفاوت، فإنها تساهم على بذر ثمار البطالة بدل أن تساعد على حلّها؛ ليتمدد الفقر ولتتركز الثروة عند قلة في هذا الإقليم الذي يمتلك فيالق ضخمة من القوى العاطلة التي تتضاعف بدون توقف. تنشأ مصانع جديدة دائماً في الأقطاب المحظوظة للتنمية ـ ساو باولو، بوينس آيريس ومدينة المكسيك ـ لكن تقل الحاجة إلى الأيدي العاملة باستمرار. لم يحسب النظام حساب هذه المعضلة الصغيرة: إن ما يفيض عن الحاجة في حقيقة الأمر هم البشر. والبشر يتكاثرون. يمارسون الحب بحماس ودون احتياطات. ويتزايد الناس، باستمرار، على قارعة الطريق، بلا عمل في الريف، حيث تسود الإقطاعية بأراضيها الشاسعة غير المزروعة، وبلا عمل في المدينة، حيث تسود الآلة: يتقيأ النظام بشرا. وتقوم البعثات الأمريكية الشمالية على تعقيم النساء على نطاق واسع، وتنشر حبوبا وأغشية وعوازل مطاطية، وتقاويم ذات علامات، لكنها تحصد في النهاية أطفالاً؛ ويواصل أطفال أمريكا اللاتينية وبإصرار على التوالد، مطالبين بحقهم الطبيعي في الحصول على رقعة تحت الشمس في هذه الأرجاء العظيمة التي يمكنها أن تقدم للجميع ما ينكرونه على الجميع تقريبا.

أكد ريتشارد نيكسون في أوائل تشرين ثاني عام ١٩٦٨، وبصوت

عال، بأن "التحالف من أجل التقدم" قد أتم سبع سنوات، وأنه بالرغم من ذلك، فسوء التغذية وندرة الغذاء في أمريكا اللاتينية قد تفاقما. وكتب "جورج و. بول" قبل ذلك ببضعة أشهر في مجلة لايف قائلاً: خلال العقود القادمة، على الأقل، لن يعني سخط الشعوب الأشد فقرا أي تهديد بتدمير العالم. ومهما كان ذلك مخجلا، فقد عاش العالم، ولأجيال، ثلثاه فقراء وثلثه غني. ومهما كان ذلك جائرا، إلا أن سلطة البلدان الفقيرة محدودة". كان بول قد ترأس وفد الولايات المتحدة لحضور المؤتمر الأول للتجارة والتنمية في جنيف، وكان كان قد صوّت ضد تسعة من المبادئ العامة الإثني عشر التي وافق عليها المؤتمر بهدف تخفيف أعباء الدول النامية في التجارة الدولية. إن مذابح البؤس في أمريكا اللاتينية سرية؛ وكل عام تتفجر ثلاث من قنابل هيروشيما، بصمت، وبدون ضجة، وفق رؤوس هذه الشعوب التي اعتادت أن تعاني بينما تجزّ على أسنانها. إن هذا العنف المنهجي، الغير ظاهر لكنه حقيقي، وهو آخذ في الازدياد: لا تنتشر جرائمه في الصحف الماركسية، بل في إحصائيات مُنظَّمة الأغذية والزراعة العالمية. يقول بول أن الإفلات من العقاب ما زال ممكناً، لأنه لا يمكن للفقراء إشعال فتيل حرب عالمية، لكن تبقى الإمبراطورية قلقة: لأنها لا تملك القدرة على مضاعفة الخبز، فإنها تحاول كل ما أمكنها لتقليل عدد الجالسين على المائدة "كافح الفقر، اقتل متسولا!" هكذا كتب أستاذ، دعابة سوداء على أحد جدران مدينة لاباث. ما الذي يقترحه ورثة مالتوس سوى قتل كل المتسولين في المستقبل قبل أن يولدوا؟ روبيرت ماكنامارا، رئيس البنك الدولي الذي كان رئيسا لمؤسسة فورد ووزيرا للدفاع، يؤكد بأن الانفجار السكاني يمثل العقبة الأساسية أمام تقدم أمريكا اللاتينية ويعلن بأن البنك الدولي سيعطي البلدان التي تطبق خططا

لتحديد النَّسل الأولوية في منحها القروض. ويُبيِّن ماكمنارا بحزن أن عقول الفقراء تفكر بدرجة نسبة خمسة وعشرين بالمائة أقل، ويقوم التكنوقراطيين في البنك الدولي الذين ولدوا بوخز أجهزة الكمبيوتر لاستنتاج الغازات بالغة التعقيد حول مزايا ألا يولد المرء: فاذا ما استطاع بلد نامي متوسط دخل الفرد فيه من ١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار سنوياً بالانقاص من خصوبته بنسبة ٥٠ بالمائة خلال فترة ٢٥ عاماً، فإن متوسط دخل الفرد فيه بعد ٣٠ عاما سيكون أعلى بنسبة ٤٠ في المائة على الأقل عن المستوى الذي بدون ذلك يكون قد بلغه، وسيكون أعلى بمرتين بعد ٦٠ عاما. هذا ما تؤكده إحدى وثائق البنك الدولي. وقد ذاع صيت عبارة ليندون جونسون" إن خمسة دولارات تستثمر في الحد من النمو السكاني هي أكثر فعالية من مائة دولار تستثمر في النمو الاقتصادي". تنبأ أيضاً دوايت آيزنهاور بأنه إذا ما استمر سكان الأرض في التضاعف على نفس الوتيرة فلن تزداد حدة خطورة الثورة فقط، وإنما سينتج كذلك "تدهور في المستوى المعيشي لكل البلدان، بما فيها شعبنا".

إن الولايات المتحدة، لا تعاني داخل حدودها، من مشكلة الانفجار السكاني، لكنهم أكثر الدول اهتماما بنشر وفرض مسألة تنظيم الاسرة، في أركان الأرض الأربعة. وهذا الاهتمام لا يعني الحكومة الأمريكية فحسب، فإن روكفيللر ومؤسسة فورد أيضاً تعانيان من كوابيس ملايين الأطفال اللذين يتقدمون، مثل الجراد، من آفاق العالم الثالث. لقد انشغل افلاطون وأرسطو بهذه المشكلة قبل مالتوس وماكمنارا؛ رغم أن كل هذا الهجوم العالمي في أيامنا، يحقق مهمة محددة تماماً: يطرح تبرير التفاوت في توزيع الدخل بين البلدان وبين الطبقات الاجتماعية،

وإقناع الفقراء بأن الفقر هو نتيجة الأطفال الذين لا تتجنبهم هذه المجتمعات، ووضع سدّ أمام سخط الشعوب وتقدمها نحو الحركة والتمرد. إن موانع الحمل التي توضع داخل أرحام النساء تتنافس مع القنابل والرشاشات، في جنوب شرق آسيا، في محاولة عرقلة النمو السكاني في فيتنام. أما في أمريكا اللاتينية، فيصبح صحيا وفعالا أكثر قتل مقاتلي العصابات في الأرحام من قتلهم في الجبال أو الشوارع. لقد قامت عدة بعثات أمريكية شمالية بالعمل على تعقيم آلاف النساء في إقليم الامازون، رغم أن هذه المنطقة تعتبر من أقل مناطق كوكب الأرض القابلة للسكنى ازدحاما بالسكان. لا يزيد السكان عن الحاجة في غالبية بلدان أمريكا اللاتينية: بل ينقصون. فيقل عدد السكان في البرازيل لكل كيلو متر مربع ٣٨ مرة عن بلجيكا؛ وفي الباراغواي، يقلّون ٤٩ عن إنجلترا؛ وفي البيرو؛ يقلّون ٣٢ مرة عن اليابان. أما في هاييتي والسلفادور، الخلية البشرية المكتظة لأمريكا اللاتينية، فإن كثافة السكان فيهما أقل مما هي عليه في إيطاليا. إن تلك الذرائع تهين الذكاء، أما النوايا الحقيقية فتدفع إلى الإحساس بالمهانة، وفي نهاية المطاف فإن ما لا يقل عن نصف أراضي بوليفيا، البرازيل، تشيلي، اكوادور، البارغواي وفنزويلا لا يقطنها أحد. ما من شعب أمريكي لاتيني يتزايد بمعدل أقل من الأوروغواي، بلد العجائز، ورغم ذلك، لم تعاني أمة أخرى، خلال السنوات الأخيرة، مثلما عانت الأوروغواي من الأزمة التي يبدو أنها تشدها إلى أعماق الجحيم. فالأوروغواي خاوية رغم أنه يمكن لمراعيها الخصبة أن تقدم الطعام لعدد أكبر بكثير من الذين يعانون اليوم، على أرضها، من كل هذا البؤس.

منذ أكثر من قرن من الزمان، ذكر أحد المستشارين في غواتيمالا

كما ولو أنها نبوءة: "سيكون من الغريب أن يولد الدواء أيضاً من حيث أتى الداء، من نفس ثدي الولايات المتحدة، فبعد أن مات وتم دفن، التحالف من أجل التقدم"، فتبادر الإمبراطورية، بسبب الرعب أكثر من كونه كرما، إلى حل مشاكل أمريكا اللاتينية بإبادة الأمريكيين اللاتين مقدما. فلقد أصبح لدى واشنطن أسباب تدفعهم للشك في أن الشعوب الفقيرة لا تفضل على أن تكون فقيرة. ولكن لا يمكن أن يرغب المرء بالغاية دون أن يستخدم الوسائل: إن من ينكر الحرية على أمريكا اللاتينية، ينكر أيضاً نهضتنا الوحيدة الممكنة ويبرؤون، أثناء ذلك، البنى القائمة. إن عدد الشباب في تضاعف مستمر، وينهضون وينصتون: فما الذي يقدمه لهم صوت النظام؟ فالنظام يتحدث إليهم لغة سوريالية: يطرح تحديد النسل في هذه الأراضي الخاوية؛ يظن أن هناك نقصا في رؤوس الأموال في بلدان تفيض فيها رؤوس الأموال عن الحاجة لكنها تُهدر. ليطلق اسم المساعدة على عملية تشويه العظام التي تمارسها القروض وعلى استنزاف الثروات الذي تمارسه الاستثمارات الأجنبية؛ إنه يدعو الإقطاعيين إلى إنجاز إصلاح زراعي والطُغمة إلى ممارسة العدالة الاجتماعية. لا وجود لصراع طبقي ـ يتخذ قرار بهذا الشأن ـ ويتم نبذ العملاء الأجانب الذين يؤججون هذه النار، لكن بالمقابل فإن الطبقات الاجتماعية موجودة، واضطهاد بعضها لبعض يسمى نمط الحياة الغربي. أما الحملات الإجرامية لجنود المارينز الأمريكية فإن هدفها إرساء النظام والسلام الاجتماعي، وتؤسس، الدكتاتوريات المطيعة لواشنطن، دولة القانون في السجون وتحظر الاضطرابات وتصفّي النقابيين من أجل حماية حُرِّية العمل.

هل كل شيء ممنوع علينا باستثناء أن نبقى مكتوفي الأيدي؟ ليس

الفقر هو القدر المكتوب على الجبين؛ والتخلف ليس ثمرة مخطط غامض صنعه الرَّب. فهناك سنوات تهب فيها الثورات، وهناك أزمنة خلاص. لقد انغمست الطبقات المسيطرة في الترف، وتعلن الجحيم للجميع في نفس الوقت. وبمعنى ما، فإن اليمين مُحِق حين يوّحد بينه وبين الهدوء والنظام: فهو نظام إذلال يومي للأغلبية، لكنه نظام في نهاية المطاف: هدوء أن يظل الظلم جائرا والجوع قائما. فإذا ما تحوّل المستقبل إلى صندوق مفاجآت، فيُصرِّح المحافظ، وله كامل الحق: "لقد تعرضت للخيانة"، أما مُنظرّو العجز، وهم العبيد الذين ينظرون إلى أنفسهم بعيون الأسياد، فهم لا يتوانون عن إطلاق صرخاتهم. نسر مايني البرونزي، يرقد الآن مهجورا، وجناحيه مهشمان، تحت إحدى بوابات الحي القديم في هافانا. بدءاً من كوبا فصاعدا، فهناك بلدان أخرى بدأت بدورها تجربة التغيير بأشكال ووسائل مختلفة: إن إطالة أمد النظام الحالي للأوضاع هو استمرار للجريمة.

إن الاشباح التي واجهتها جميع الثورات التي أُخمدت أو تمت خيانتها على مدار التاريخ الأمريكي اللاتيني المعذّب تتكشف في التجارب الجديدة، مثلما أفرزت تناقضات الماضي وتناقضات العصر الحاضر، وولدت إشكالياته.

إن التاريخ هو عبارة عن نبيٍّ يوجه بصره إلى الخلف: لِما كان، وضد ما كان، ويعلن ما سيكون. ومن أجل ذلك فيسعى هذا الكتاب، أن يقدم سردا للنهب ويَقُصّ في نفس الوقت آلية الاستنزاف العالمية وميكانيكيتها، يظهر المغزاة في سفنهم الشراعية، وبجانبهم، التكنوقراطيين في طائراتهم النفاثة، هرنان كورتيس ومشاة البحرية

الأمريكية، قضاة ومفوضو المملكة وبعثات صندوق النقد الدولي، أرباح المهربين وجنرال موتورز. أيضاً الأبطال المهزومين وثورات الوقت الحاضر، الفضائح والآمال الميِّتة والمنبعثة، والتضحيات العظيمة. عندما أجرى اليكساندر فون هومبولت تحقيقاته حول عادات السكان الأصليين القدماء لهضبة بوغوتا، عرف بأن الهنود كانوا يطلقون اسم "كيهيكا" على ضحايا الاحتفالات الطقسية. وكلمة " كيهيكا " تعني باب: وموت كل شخص مختار كان يفتح دورة جديدة من مائة وخمسة وثمانين قمراً.

القسم الأول

فقر الإنسان كنتيجة لثراء الأرض

حمّى الذَّهب، حمّى الفضة

إشارة الصليب على مقابض السيوف

عندما انطلق كريستوفر كولومبوس عابرا الأبعاد المترامية الخاوية، كان قد قَبِلَ تحدي الأساطير. فستتلاعب الأعاصير المرعبة بسفنه، كما ولو أنها قشور جوز، وتقذف بها إلى أفواه الوحوش الخرافية؛ ستكون بالمرصاد، الأفعى الضخمة لبِحار الظلمات، متضورة جوعا للّحم البشري. لم يكن متبقيا سوى ألف سنة قبل أن تلتهم نيران يوم الحساب المُطهرة العالم، حسب الاعتقادات السائدة في القرن الخامس عشر، وكان العالم حينئذ هو البحر الأبيض المتوسط بشواطئه ذات التمدد الغامض نحو إفريقيا والشرق. كان البحارة البرتغاليون يؤكدون على أن ريح الغرب تجلب جثثا غريبة وترمي بكتل خشبية ذات نقوش عجيبة أحيانا، لكن لم يكن ثمة من يتصور أن العالم سرعان ما سيتضاعف بصورة مخيفة.

لم تكن أمريكا بدون اسم فحسب، فالنرويجيون لم يكونوا يعلمون بأنهم كانوا قد اكتشفوها منذ زمن طويل، وكولومبوس نفسه كان قد مات، بعد كل رحلاته، وهو مقتنع بأن ما كان قد وصل إليه ليس سوى آسيا من بوابتها الخلفية. في عام ١٤٩٢ حين وطأت القدم الإسبانية للمرة الأولى في رمال جزر الباهاما، ظن الأدميرال أن هذه الجزر هي

تكملة لليابان. كان كولومبس يحمل معه نسخة من كتاب ماركو بولو، ممتلئة بالحواشي على هوامش الصفحات. "لقد كان سكان سيبانغو - يذكر ماركو بولو - يمتلكون ذهبا بكميات هائلة والمناجم التي يجدونه فيها لا تنضب أبدا.. كما يوجد في هذه الجزيرة لآلئ شرقية ذات بريق ساطع بكميات كبيرة. لها لون وردي، مستديرة وذات حجم كبير وتتجاوز في قيمتها اللآلئ البيضاء". كان ثراء سيبانغو قد بلغ مسامع قبلاي خان العظيم، وأيقظت الرغبة العارمة في صدره لغزوها، لكنه أخفق في ذلك. من الصفحات اللماعة لماركو بولو كانت تحلّق كل خيرات الخليقة؛ كان هناك نحو ثلاث عشرة ألف جزيرة في بحر الهند بجبال من الذهب واللآلئ، واثني عشر نوعا من التوابل بكميات رهيبة، علاوة على الفلفل الأبيض والأسود.

كان الفلفل، الزنجبيل، القرنفل العطر، جوزة الطيب والقرفة مشتهاة مثل الملح لحفظ اللحم في الشتاء دون أن يتعفن أو يفقد طعمه. لذا قرر ملك إسبانيا الكاثوليكيان تمويل مغامرة الوصول إلى المنابع مباشرة، كي يتخلصا من سلسلة السماسرة والوسطاء المتعبة، كانوا يحتكرون تجارة التوابل والنباتات الاستوائية، الأقمشة والأسلحة البيضاء القادمة من بلاد الشرق الغامض. بالإضافة إلى أن الشغف بالمعادن النفيسة، والتي هي وسيلة الدفع في التبادل التجاري، حفّز بدوره عبور البحار الملعونة. أوروبا بأكملها كانت بحاجة إلى الفضة؛ فقد كانت على وشك النضوب مناجم بوهيميا، ساكسونيا والتيرول.

كانت إسبانيا تعيش مرحلة إجلاء العرب. ولم يكن عام ١٤٩٢ مجرد عام اكتشاف أمريكا، العالم الجديد المولود من ذلك الخطأ ذي النتائج المهولة. كان عام استعادة غرناطة كذلك. ففرناندو ملك أراغون وإيزابيل ملكة قشتالة، اللذين كانا قد تجاوزا بزواجهما تمزّق ممالكهما، نجحا

في أوائل عام ١٤٩٢ على إخضاع آخر معقل للمسلمين على أراضي إسبانيا. وكان قد استغرق استعادة ما خسروه في سبع سنوات نحو ثمانية قرون[١]، وكانت الحرب قد أنهكت وافرغت الخزانة الملكية، لكن تلك كانت حرب مقدسة، إنها الحرب المسيحية ضد الإسلام، ولم يكن من قبيل الصدفة أنه في نفس هذه السنة ١٩٤٢، مئة وخمسين ألف يهودي تم طردهم من البلاد. لقد اكتسبت إسبانيا واقعها كأمة بينما كانت تشهر السيوف التي تحمل مقابضها إشارة الصليب، وأصبحت الملكة ايزابيل راعية لمحاكم التفتيش المقدسة. إن انجاز اكتشاف أمريكا لا يمكن تفسيره بدون التقاليد العسكرية لحروب الحملات الصليبية التي كانت سائدة في قشتالة في العصر الوسيط، ولم تتباطأ الكنيسة في إضفاء طابع القداسة على غزو الأراضي المجهولة في الطرف الآخر من البحر. وقد جعل البابا ألكسندر السادس والذي كان من بلنسية الإسبانية، جعل من الملكة ايزابيل مالكة وسيدة للعالم الجديد. لقد كان توسع مملكة قشتالة يوّسع مملكة الرب على الأرض.

بعد ثلاثة أعوام من اكتشاف أمريكا، قاد كريستوفر كولومبس بنفسه الحملة العسكرية ضد سكان الدومينيكان الأصليين. قامت مجموعة من الفرسان، ومئتان من المشاة، وبعض الكلاب المدربة خصيصا في الهجوم على الهنود وتمزيقهم إربا. وقد تم إرسال أكثر من خمسمائة منهم إلى إسبانيا، وبيعوا كالعبيد في اشبيلية وماتوا بائسين[٢]. وقد احتج بعض اللاهوتيين وحُظر استعباد الهنود رسميا مطلع القرن السادس عشر. وفي الواقع، فإنه لم تحظر هذه التجارة بل بوركت: فقبل كل حملة عسكرية، كان يجب على قواد الغزو أن يقرؤوا أمام الهنود، أمام كاتب عمومي، إنذارا واضحا وبليغا يحثهم على اعتناق العقيدة الكاثوليكية المقدسة: "وإن لم تفعلوا، أو أبديتم في ذلك إبطاء بسوء نية، فإنني

أشهدكم على أنني وبعون الرب سأشن عليكم الحرب بسطوة في كل مكان وبكل الطرق التي أستطيعها، وسأخضعكم لطاعة الكنيسة وصاحبة الجلالة، وسآخذ نساءكم وأبنائكم وأجعل منهم عبيدا، وسأبيعهم كعبيد، وسأتصرف فيهم كما تأمر صاحبة الجلالة، وسأستولي على أملاككم وأوقع بكم كل ما أستطيع من شرور وأذى"(٣).

لقد كانت أمريكا هي إمبراطورية الشيطان الشاسعة، بخلاص مستحيل أو مشكوك فيه، لكن الحملة المتعصبة ضد هرطقة السكان المحليين كانت تمتزج بالحمى التي أطلق عنانها، بين حشود الغزو، لمعان كنوز العالم الجديد. يكتب بيرنال دياز ديل كاستيلو، والذي كان الصديق الوفي لهيرنان كورتيس في غزو المكسيك، يكتب بأنهم حضروا إلى أمريكا "لخدمة الرب وصاحبة الجلالة ولنيل الثروات أيضا".

حينما وصل كولومبوس جزر سان سلفادور المرجانية، أذهلته شفافية الكاريبي الزاهية، والمشاهد الخضراء، وعذوبة ونقاء الهواء، الطيور الرائعة والفتية "ذوي الجسم الممشوق، أناس بالغو الجمال" وشديدو الوداعة" الذين يقطنون تلك الأماكن. وكان قد أهدى الهنود "بعض القبعات الملونة وقطع من الزجاج التي توضع حول العنق، والكثير من الأشياء ذات القيمة القليلة والتي جعلتهم سعداء جدا وأصبحوا منا وكان شيئاً رائعا". لقد أظهر لهم السيوف. لم يكونوا يعرفونها، فأمسكوا بها من النصل، وجرحوا أنفسهم. واثناء ذلك، كما يقص الأدميرال في يوميات الرحلة "لقد كنت منتبها وحاولت معرفة ما إذا كان ثمة أثر للذهب، ورأيت أن بعضهم يحملون قطعة معلقة من ثقب في أنوفهم، ومن خلال إشاراتهم فهمت أنه في حال السير جنوبا أو بالدوران حول الجزيرة من ناحية الجنوب، فإن هناك مَلِك لديه أواني كبيرة من هذا المعدن، ولديه الكثير الكثير"، لأن "من الذهب تُصنع

الكنوز، ومن يمتلكه يفعل كل ما يشاء في الدنيا ويصل إلى درجة إدخال الأرواح إلى الجنة". وظل كولومبوس معتقدا في رحلته الثالثة بأنه يتجول في بحر الصين عندما ولج شواطئ فنزويلا؛ ولم يمنعه هذا من أن يذكر أنه بدءا من هناك كانت تمتد يابسة لا متناهية تصعد نحو الفردوس في الأرض. كذلك أميريكو فيسبوتشيو، مكتشف ساحل البرازيل عند مطلع القرن السادس عشر، كان قد ذكر للورينزو دي ميديشيس: "تبلغ الأشجار من الجمال والرقة أننا أحسسنا أننا في الجنة"[٤]. كولومبوس، بحنق، للملكين من جامايكا في عام ١٥٠٣: عندما اكتشفت جزر الهند، قلت بأنها أعظم مملكة غنية في العالم. تحدثت عن الذهب، اللآلئ، الأحجار الكريمة وكافة أنواع التوابل.

في العصر الوسيط، كان كيس واحد من الفلفل يساوي أكثر من حياة رجل، وكانا الذهب والفضة هما المفتاحين اللذين استخدمتهما النهضة لفتح أبواب الجنة في السماء وأبواب النزعة التجارية الرأسمالية على الأرض. لقد اختلطت ملحمية الإسبان والبرتغاليين في أمريكا بين نشر الديانة المسيحية ونهب الثروات المحلية. لقد كانت السلطة الأوروبية تنتشر وتمتد لتطوّق العالم. فالأراضي البكر، الكثيفة بالغابات والمخاطر، كانت تثير شهوات وجشع القواد، الفرسان والنبلاء، والجنود بأسمالهم منقضّين لكسب غنائم الحرب الرهيبة.

كانوا يؤمنون بالأمجاد، وبالجرأة. "الحظ يساعد المقدامين"، كان يقول كورتيس. وكان كورتيس نفسه قد رهن كل ممتلكاته الشخصية لتجهيز حملة المكسيك. وما عدا استثناءات معدودة مثلما في حالة كولومبوس أو ماجلان، فلم تكن تكاليف هذه المغامرات تمنحها الدولة، بل يقدمها الغزاة أنفسهم، أو التجار والمصرفيون الذين يمولونهم[٥].

وولدت أسطورة الدورادو، الملك الذي يسبح في الذهب، والتي اخترعها الهنود لأبعاد الدخلاء. ومن غونثالو بيثارو وحتى والتر راليغ، اقتفى الكثيرون أثره عبثا عبر غابات ومياه الأمازون والأورينوكو. وقد أصبح سراب "النبع الذي يفيض فضة" حقيقة في عام ١٥٤٥، عند اكتشاف بوتوسي، ولكن قبل ذلك كان قد مات، مهزومين من الجوع أو المرض أو سهام الهنود، الكثيرون من أعضاء الحملات الذين حاولوا، دون جدوى، بلوغ نبع الفضة في نهر البارانا.

ونعم، كان هناك ذهب وفضة بكميات ضخمة، متراكمة في هضبة المكسيك وفي هضبة الالتيبلانو الأنديزية. ولقد كشف هرنان كورتيس لإسبانيا، عام ١٥١٩، الحجم الخرافي لكنز ازتيكا في موتيزوما، ولتصل بعد خمسة عشر عاما إلى اشبيلية الغنيمة الهائلة، حجرة مملوءة بالذهب وحجرتان مملوءتان بالفضة، والذي فرض فرانشيسكو بيزارو دفعها على الانكا اتاهوالبا قبل شنقه. وقبل ذلك بسنوات، وبالذهب المنتزع من جزر الأنتيل دفع التاج أجور البحارة الذين رافقوا كولومبوس في رحلته الأولى[٦].

وكف سكان جزر الكاريبي عن دفع الجزية، في النهاية، لأنهم اختفوا: لقد ابيد الهنود تماماً في مصافي الذهب، في التعب الفظيع في تقليب الرمال المحتوية على الذهب بينما أجسادهم مغمورة في الماء حتى خصرهم، أو يحرثون الحقول وقد تجاوزهم الاجهاد، وظهورهم محنية على أدوات الفلاحة الثقيلة التي كان أحضرها الغزاة من إسبانيا. كثيرون من هنود الدومينيكان استبقوا المصير الذي فرضه عليهم المضطهدون البيض الجدد: فقتلوا أبنائهم وانتحروا جماعيا. المؤرخ الرسمي فيرنانديز دي اوفييدو فسّر في القرن السادس عشر، هذه المذابح على النحو التالي: "إن الكثيرين منهم، ومن أجل تسليتهم، قتلوا أنفسهم بالسُّم كي لا يعملوا، وخنق آخرون انسفهم بأيديهم"[٧].

عندما مر كولومبس بجزيرة تينريفي، وهي إحدى جزر الكناري الحالية، خلال رحلته الأولى، شهد انفجارا بركانيا رهيبا. وكان ذلك بمثابة نذير حول كل ما سوف يجري بعدها في الأراضي الشاسعة الجديدة والتي ستعترض الطريق الغربي نحو القارة الآسيوية. هناك كانت أمريكا موجودة، تخمن بذلك سواحلها اللامتناهية: ليتسع نطاق الغزو، في موجات، مثل تيار هائج. كان المقدمون يتبعون الأدميرالات وتتحول طواقم الجنود إلى حشود هادرة. كانت قد قُدِّمَت المراسيم البابوية تنازلا عن أفريقيا للتاج البرتغالي، ومنحت تاج قشتالة تلك الأراضي "المجهولة كما تلك التي اكتشفها مبعوثوكم حتى الآن وتلك التي ستكتشف في المستقبل...". لقد وهبت أمريكا إلى الملكة إيزابيل. ومُنِح مرسوم جديد للتاج الإسباني، عام ١٥٠٨، وبصفة دائمة، العشور الضرائبية التي تُجبى في أمريكا: كانت الوصاية الشاملة المرتقبة على كنيسة العالم الجديد تتضمن حق تقديم التاج لكل المزايا الكنسية[٨].

لقد سمحت اتفاقية torديسياس، التي عقدت عام ١٤٩٤، للبرتغال باحتلال أراضي أمريكية أبعد من الخط الفاصل الذي رسمه البابا، وأنشأ مارتيم ألفونسو دي سوسا القرى البرتغالية الأولى في البرازيل طاردا الفرنسيين. وكان قد تقدم الإسبان كثيرا، في ذلك الوقت، في عملية الاستكشاف والغزو، مارِّين بغابات جهنمية وصحراوات لا منتهية. توهَّج المحيط الهادي على مرأى عيون فاسكو نونييز دي بالبوا في عام ١٥١٣، وفي خريف ١٥٢٢، عادوا إلى إسبانيا من بقي حيا من بعثة هيرناندو دي ماجللانيس، الذين عبروا كلا المحيطين للمرة الأولى وأثبتوا أن الأرض كروية بالدوران حولها دورة كاملة؛ وقبل ذلك بثلاث

سنوات، كانت سفن هرنان كورتيس العشر قد غادرت جزيرة كوبا، متوجهة إلى المكسيك، وأنطلق بدرو دي البارادو في عام ١٥٣٣، فاتحا أمريكا الوسطى؛ ودخل فرانشيسكو بيزارو إلى كوثكو منتصرا في عام ١٥٣٣، ليسيطر بذلك على قلب إمبراطورية هنود الأنكا؛ وعبر بيدرو دي بالديبيا صحراء اتاكاما في عام ١٥٤٠، وأنشأ مدينة سانتياغو دي تشيلي. واكتشفوا العالم الجديد من البيرو إلى مصب أكثر الأنهار تدفقا في كوكب الارض.

كان سكان أمريكا الاصليون من كل نوع: فتجد فلكيون وآكلو لحوم بشر، مهندسون وبدائيون من العصر الحجري، ولكن أيا من هذه الثقافات لم تعرف لا الحديد ولا المحراث، ولا الزجاج ولا البارود، ولم تستخدم أي منها العجلة. وكانت الحضارة التي فتكت بتلك الأراضي قادمة من الجانب الآخر للبحر تعيش حالة انفجار خلاّق لعصر النهضة. لقد بدت أمريكا كما ولو أنها اختراع آخر. واندرجت، مع البارود، الطباعة، الورق والبوصلة في ميلاد العصر الحديث الصاخب. إن عدم التكافؤ في تطور كلا العالمين، يفسر السهولة النسبية التي خضعت بها الحضارات المحلية. لقد حط هرنان كورتيس في فيراكروث مصطحبا معه ما يقارب مائة بحار و٥٠٨ من الجنود؛ وكان معه ١٦ حصانا، ٣٢ منجنيقا، عشر مدافع برونزية، بضع قربينات وبنادق ومسدسات. بالرغم من أن عاصمة الأزتيك، تينوتشيتيتلان، كانت حينذاك أكبر من مدريد بخمس مرات، وكان سكانها ضعف سكان اشبيلية، أكبر مدن اسبانيا. ودخل كاخاماركا بصحبة ١٨٠ جندي و٣٧ حصاناً.

لقد هزم السكان الأصليون، في البداية، بسبب الذهول. تلقى الإمبراطور موكتيزوما الأخبار الأولى في قصره: تلال ضخمة تتحرك في

البحر، بعدها وصل رُسل آخرون: "وقد سبب خوفا شديدا له سماع أصوات المدافع، وكيف كان يهدر دويّها ويصُم الآذان. وحين كانت تسقط القذيفة، يخرج من أحشائها شيء مثل كرة من الحجر تمطر لهيبا".. لقد أحضر الأجانب "ايائل" حيث كانت تبقيهم "مرتفعين مثل السقوف". وجاؤوا من كل الأرجاء وأجسامهم مكسوّة، لا تظهر سوى وجوههم. وهي بيضاء، شبيهة بالجير. بشعور صفراء، رغم أن شعر بعضهم أسود. وبذقون طويلة"[٩]. لقد ظن موكتزوما بأن من عاد هو الإله كويتزالكواتل. فقد كان ثمانية عرافين قد تنبأوا بعودته، قبلها بقليل. وكان الصيادون قد أحضروا إليه طائرا في رأسه إكليل مستدير على هيئة مرآة، وتنعكس عليها السماء والشمس عند المغيب. رأى موكتيزوما في هذه المرآة أسراب المحاربين تزحف على المكسيك. جاء الإله كتزالكواتل من الشرق وكان قد مضى باتجاه الشرق: كان أبيضا وملتحيا. وهكذا كان هويراكوتشا أبيضا وملتحيا. وكان الشرق هو مهد الأسلاف الأسطوريين لهنود المايا[١٠].

الآلهة المنتقمة تعود الآن لتصفية الحسابات مع شعوبها جالبة معها دروعا وزرودا، وأغطية سروج مزركشة تصدّ الحراب والحجارة؛ وأسلحة تطلق برقا قاتلا محوِّلة الجو ظلاما بأدخنة لا يمكن استنشاقها. كما أن الغزاة كانوا يمارسون، ببراعة سياسية، أسلوب الخيانة والتآمر. لقد عرفوا، على سبيل المثال، استغلال سخط الشعوب الخاضعة لسيطرة الأزتيك الإمبراطورية والانقسامات التي كانت تمزق سلطة الأنكا. فأصبحوا التلاكسكالتيكاس حلفاء لكورتيس، واستخدم بيزارو لصالحه الحرب بين وريثي إمبراطورية الأنكا، هواسكار واتاهوالبا، الأخوين العدوين. وكسب الغزاة أعوانا من بين الطبقات الوسطى السائدة، من كهنة، موظفين وعسكريين، وعندما تم الإجهاز عليهم،

وصلوا إلى القيادات العليا. لكنهم استخدموا أيضاً أسلحة أخرى، أو بالأحرى، كانت هناك عوامل أخرى ساعدت بشكل موضوعي على انتصار الغزاة. كالخيول والبكتيريا، على سبيل المثال.

لقد كانت الخيول، كما الجمال، أصولها من أمريكا[١١] لكنها كانت قد انقرضت في هذه البلاد. وبعد أن أدخلها الفرسان العرب إلى أوروبا، فقدمت للعالم القديم منفعة عسكرية واقتصادية ضخمة. وعندما عادت للظهور في أمريكا من خلال الغزو، أسهمت في إضفاء قوى سحرية للغزاة على مرأى من عيون الهنود المذهولة. وحسب إحدى الروايات، فعندما رأى الأنكا اتاهوالبا الجنود الإسبان الأوائل، وهم يمتطون خيولا متوثبة مُزيَّنة بالأجراس والريش، تجري مثيرة الرعود والغبار بحوافرها السريعة، كان قد سقط على ظهره من الدهشة[١٢]. أما الزعيم تيكوم، الذي كان على رأس ورثة المايا، فقد جز بحربته رأس حصان بدرو دي البارادو، وهو الذي كان واثقا أنه يشكل جزءا من الغازي: فنهض البارادو وقتله[١٣]. خيول معدودة، مغطاة بزخارف الحرب، تُفرِّق حشود الهنود وتنشر الرعب والموت. "ليتمدد القساوسة والمبشرون أمام الخيال العامي"، أثناء مرحلة الاستعمار، "إن الخيول من أصل مقدس، حيث أن سانتياغو، حامي إسبانيا، كان يمتطي صهوة جواد أبيض، وكسب معارك مهمة ضد العرب واليهود، بمساعدة العناية الإلهية"[١٤].

أما بالنسبة للبكتيريا والفيروسات فتلك كانت أشد الحلفاء فعالية. فمما جلبه الأوروبيون معهم، كانت الأوبئة الانجيلية، الجدري والتيتانوس، وعدة أمراض رئوية ومعوية وتناسلية، والتراكوما، التيفوس، الجذام، الحمى الصفراء وتسوس الأسنان الذي كان يفسد الأفواه ويجعلها تتعفن. كان الجدري اسبقها في الظهور. أليس عقابا الهيا ذلك الوباء المجهول والمقرف الذي يلهب نار الحمى ويفتت اللحم؟

قال أحد الشهود الهنود: "ذهبوا ليعيشوا في تلاكساكلا. وانتشر الوباء عندئذ: سعال، دماميل ملتهبة، تحرق"، ويقول شاهد آخر: "الكثيرون ماتوا بسبب مرض الدمامل، الثقيل، اللزج"[١٥]. وصار الهنود يموتون مثل الذباب؛ ولم تكن أجسادهم تمتلك الدفاعات الكافية ضد الأمراض الجديدة. أما من نجى منهم فقد أصبح ضعيفا وغير نافع. ويقدّر الأنثروبولوجي البرازيلي دارسي ريبيرو أن أكثر من نصف السكان الأصليين لأمريكا، وأستراليا، وجزر المحيط ماتوا نتيجة العدوى بعد الاتصال الأول بالرجل الأبيض[١٦].

"متلهفين إلى الذهب كخنازير متضورة من الجوع"

تقدَّم الغزاة المعدودون فاتحوا أمريكا الذين لا يلينون، بطلقات القربينة، وضربات السيوف، وطعنات الطاعون. هذا ما تحكيه أصوات المهزومين. بعد مذبحة تشولولا، يرسل موكتيزوما رسلا جدد للقاء هيرنان كورتيس، الذي كان يتقدم نحو وادي المكسيك. يهدي المبعوثون إلى الإسبان عقود من الذهب ورايات من ريش كويتزال. "كان الإسبان مسرورين، كانوا يرفعون الذهب مثل القرود، وهم يشعرون بأنهم في قمة النشوة، كأنه ينعشهم ويضئ قلوبهم. كما ولو أنهم، وهذا مؤكد، يتلهفون عليه بعطش بالغ. وتتمدد أجسادهم بسببه، ويتلهفون على الذهب مثل خنازير متضورة" هذا ما يذكره نصر بلغة الناهواتل المحفوظ في المخطوطات الفلورنسية. وحين وصل كورتيس، فيما بعد، إلى تينوتشيتيتلان، عاصمة الأزتيك الرائعة، دخل الإسبان إلى دار الخزانة و"صنعوا كرة ضخمة من الذهب، وأضرموا النار في كل ما تبقى، مهما كانت قيمته، ليحترق كل شيء. أما بالنسبة للذهب، فقد حوله الإسبان إلى قضبان".

وتدور رحى الحرب، ويعود كورتيس أخيراً، والذي كان قد خسر تينوتشيتتلان، ليستردها في عام ١٥٢١ "لم يعد لدينا دروع، ولا هراوات، ولم يعد لدينا ما نأكله". لقد سقطت المدينة المُدَّمرة، مشتعلة ومغطاة بالجثث. ولم تكن المشنقة والتعذيب كافيين: فلم تكن الكنوز المنهوبة تشبع أبدا غليل خيالهم، وظل الإسبان لسنوات طويلة يحفرون قاع بحيرة المكسيك بحثا عن الذهب والأشياء النفيسة التي افترض الإسبان أن الهنود كانوا قد أخفوها.

لقد انقض بيدرو دي البارادو ورجاله على غواتيمالا و"بلغ من كثرة الهنود الذين قتلوا، أن تشكّل نهر من الدم، ليصبح نهر الأوليمتيبيكوي"، وأيضا "أصبح النهر ملونا بسبب غزارة الدم الذي سال ذلك اليوم "وقبيل المعركة الفاصلة"، عندما نظر الهنود المعذبون إلى أنفسهم، توسلوا للإسبان ألا يعذبوهم أكثر من ذلك، وأن هناك الكثير من الذهب والفضة، اللآلئ والزمرد التي كان يملكها قواد نيهايب اكسكين، نيهايب النسر والأسد. ثم اعطوها للإسبان وبقوا معهم"(١٧).

وقبل أن يقطع فرنشيسكو بيزاررو عنق الأنكا اتاهواليا، انتزع منه غنيمة "ألواح من الذهب والفضة فاق وزنها عشرين ألف مارك، من الفضة الخالصة، ومليونا وثلاثمائة وستة وعشرين ألف اسكودو من الذهب فائق النقاء"... وانقض بعدها على كوثكو. وأعتقد جنوده أنهم يدخلون مدينة القياصرة، فلقد كانت عاصمة إمبراطورية الأنكا فائقة البهاء، لكنهم سرعان ما خرجوا عن ذهولهم وشرعوا في نهب معبد الشمس: بينما هم يتصارعون، ويتقاتلون فيما بينهم، وكل يحاول الخروج بنصيب الأسد من الكنز، كان الجنود، ذوي الزرد، يدوسون الجواهر والتصاوير، ويطرقون الأدوات الذهبية بالمطارق لتصبح ذات حجم أسهل وأيسر حملا... ألقوا كل كنز المعبد في البوتقة، كي يحولوا

المعدن إلى قضبان: الصفائح التي كانت تغطي الجدران والأشجار المسبوكة الفائقة الجمال، والطيور ومختلف متعلقات الحديقة"[١٨].

واليوم، في الثوكالو، في الميدان الضخم في قلب عاصمة المكسيك، ترتفع الكاتدرائية الكاثوليكية فوق أطلال أهم معابد تينوتشيتيتلان، ويقع قصر الحكومة فوق مقر كوالوهتيموك، الزعيم الأزتيكي الذي شنقه كورتيس. تم احراق تيوتشيتيتلان. ولقيت كوثكو، في البيرو، مصيرا مماثلا، لكن لم يستطيع الفاتحين هدم جدرانها الضخمة تماماً، واليوم، يمكن أن يشاهد، على أبواب المباني الاستعمارية، البرهان المعماري على عمارة الأنكا الشامخة.

أمجاد البوتوسي: مرحلة الفضة

يقال أنه حتى حوافر الخيل كانت من الفضة في زمن قمة ازدهار مدينة بوتوسي[١٩]. وكانت مذابح الكنائس وأجنحة الملائكة في المواكب الدينية من فضة: وفي عام ١٦٥٨، وبمناسبة الاحتفال بعيد القربان، أزيلت الحصى من شوارع المدينة، من مركز المدينة حتى كنيسة ريكوليتوس، وكسيت بكاملها بقضبان من الفضة. وشيدت في بوتوسي الفضة معابدا وقصورا، وأديرة وبيوت قمار، وكانت مسببة للمأساة، وأسالت الدم والنبيذ، وأشعلت الجشع وأطلقت العنان للتبذير والمغامرة. وسارا السيف والصليب متلاصقين خلال الغزو والنهب الاستعماري. ومن أجل نهب فضة أمريكا، اجتمعا في بوتوسي القوّاد والنسّاك، مصارعي الثيران والرُسُل. الجنود والرهبان. وراحت أحشاء التل الثري بعد تحويلها إلى سبائك تغذي تطور أوروبا بشكل أساسي. "يساوي بيرو"، كانت هذه العبارة أسمى مديح للأشخاص أو الأشياء منذ أن أصبح بيزارو سيد كوثكو، ولكن ما اكتشف التل، وكان دون

كيشوت دي لا مانشا قد قال بكلمات أخرى: "تساوي بوتوسي"، منبها سانشو. ولان بوتوسي هي الشريان الرئيسي لأراضي نائب الملك، وينبوع الفضة في أمريكا، فقد بلغ سكانها ١٢٠ الفا حسب تعداد عام ١٥٧٣، ولم تكن قد مضت سوى ثماني عشرة سنة منذ أن بدأت تتفتح في براري الأنديز وسكانها قد بلغوا، وكأنما بفعل سحري، نفس تعداد سكان لندن وتجاوزوا سكان اشبيلية أو مدريد، أو روما، أو باريس. وفي عام ١٦٥٠ قُدِّر تعداد جديد لسكان بوتوسي بلغ ١٦٠ ألفا. لقد كانت واحدة من أكبر المدن وأغناها في العالم، وسكانها عشرة أضعاف سكان بوسطن، في وقت لم تكن فيه نيويورك قد تكنَّت باسمها بعد.

لم تكن بوتوسي قد ولدت مع قدوم الإسبان. فقبل الغزو بزمن، كان الأنكا هواينا كاباك قد سمع معاونيه يتحدثون عن السوماج اوركو، أي التل البديع، واستطاع أخيراً أن يراه حين جعلهم يحملوه، مريضا، إلى عيون تارابايا الساخنة. من الغابات في قرية كانتوماركا، تأملت عين الأنكا للمرة الأولى ذلك المخروط بالغ الكمال والذي يعلو، شامخا، بين القمم العالية لسلاسل الجبال. ووقف مشدوها. درجات الألوان اللامتناهية الضاربة إلى الحمرة، والشكل الممشوق، والحجم الهائل للتل باعثا على الاعجاب والعظمة خلال الأزمنة التالية. لكن الأنكا كان قد توقع أن يضم التل في أحشائه أحجارا كريمة ومعادن ثمينة، وأراد أن يضيف حلة جديدة إلى معبد الشمس في كوثكو. فالذهب والفضة اللذان كان الأنكا قد استخرجوهما من مناجم كولكي بوركو وانداكابا لم يتخطيا حدود المملكة: لم يستخدما في التجارة، وإنما في تمجيد الالهة. ولم يكد مستكشفو المناجم الهنود يضربون في عروق الفضة للتل البديع، حتى أفزعهم صوت مدو، كان قويا كالرعد، يخرج من أعماق التجاويف ويقول، بلغة كويتشوا: "إنه ليس لكم؛ إن الآلهة

تحتفظ بهذه الثروة لمن يأتون من بعيد". وهرب الهنود فزعين وغادر الأنكا التل، ولكنه غير اسمه أولا. وأصبح اسمه بوتوسي، التي تعني "يُرعد، يتفجر".

"والذين سيأتون من بعيد" لن يتأخروا كثيراً في الظهور. وشق قُوّاد الغزو طريقهم. وكان هواينا كاباك قد مات عند وصولهم. وفي عام١٥٤٥، عندما كان الهندي هوالبا يقتفي آثار حيوان لاما هارب مما اضطره لقضاء الليل في التل. ثم أشعل نارا كي لا يموت من البرد. فأضاءت النار عرقا أبيض برّاق. كان من الفضة الخالصة. ليندفع إثرها السيل الإسباني.

أخذت الثروة تتدفق. وسرعان ما عبّر الامبراطور كارلوس الخامس بأن منح بوتوسي لقب المدينة الإمبراطورية وشعار يحمل النقش التالي: "أنا بوتوسي الغنية، أنا كنز العالم، أنا ملكة الجبال وموضع حسد الملوك". ولم تمضِ إحدى عشرة سنة بعد اكتشاف هوالبا، حتى كانت المدينة الإمبراطورية الحديثة النشأة تحتفل بتتويج فيليب الثاني في احتفالات دامت أربعة وعشرين يوماً وتكلفت ثمانية ملايين بيسو ذهبي. وتهافت الباحثون عن الثروات على هذا المكان الغامض. لقد كان التل، الذي يقع على ارتفاع نحو الخمسة آلاف متر، بمثابة مغناطيس شديد القوة، لكن الحياة أسفله كانت قاسية، لا ترحم: كان البرد يلسع وكأنه ضريبة مفروضة وفي غمضة عين نشأ مجتمع مزدهر غني وغير منظم في بوتوسي، بجانب الفضة. إنها فترة قِمّة ازدهار وصعود المعادن: لقد أصبحت بوتوسي "عصب المملكة الرئيسي"، حسب ما عرّفها نائب الملك هورتادو دي ميندوزا. وفي أوائل القرن السابع عشر، كان يوجد بالمدينة ست وثلاثون كنيسة ذات زينة رائعة، وعدة بيوت للقمار، وأربع عشرة مدرسة للرقص. وكانت الصالونات، المسارح وصالات

الرقص في الأعياد تتألق بسجاجيد مبهرة، وستائر، وأسلحة وحلي؛ وكانت تتدلى من شرفات البيوت أقمشة الدمشق الملونة، والأنسجة الذهبية والفضية. كانت أصناف الحرير تأتي من غرناطة، الفلاندر وكالابريا؛ والقبعات من باريس ولندن، والماس من سيلان، والأحجار الكريمة من الهند، واللآلئ من بنما؛ الجوارب من نابولي؛ والكريستال من فينيسيا؛ السجاجيد من بلاد فارس؛ والعطور من بلاد العرب، والخزف من الصين. كانت تتزين النبيلات بالأحجار الكريمة والألماس والياقوت والجواهر، ويستعرض النبلاء الألبسة الفاخرة المشغولة في هولندا. وإثر مصارعة الثيران كانوا يلعبون القمار ولم يكن الجو يخلو أبدا من المبارزات على طريقة العصور الوسطى، متعلقات الحب والكبرياء، بخوذات حديدية مرصوفة بالزمرد والريشات الزاهية، والمقاعد والمناضد المطرزة بالذهب، سيوف من طليطلة ومهور تشيلية مُسخَّرة للاستعراضات.

وقد اشتكى القاضي ماتينزو في عام ١٥٧٩ قائلا؛ "يوجد هناك دائماً ابتكارات، وتبجحات، وقلة حياء" وكان هناك في بوتوسي حينئذ ثمانمائة مقامر محترف ومائة وعشرون عاهرة شهيرة، يتوافد أصحاب المناجم الأغنياء على صالوناتهن. واحتفلت بوتوسي في عام ١٦٠٨ بأعياد القربان المقدس بستة أيام من الكوميديا وستّ ليال من الاحتفالات التنكرية، وثمانية أيام من مصارعة الثيران، وثلاثة أيام من الحفلات الراقصة، ويومان من المباريات، بالإضافة إلى احتفالات أخرى.

كان لدى إسبانيا البقرة، بينما كان يشرب الحليب آخرون

تم اكتشاف مناجم الفضة الغزيرة في بوتوسي ما بين عامي ١٥٤٥ و١٥٥٨، في بوليفيا الحالية، كذلك مناجم ثاكاتيكاس وغواناخواتو في المكسيك؛ وتم في نفس هذه الفترة تطبيق دمج الزئبق، والذي سمح

باستغلال الفضة لأقصى درجة. وسرعان ما انتزع "الإقبال" على الفضة مكان الصدارة من استخراج الذهب. وعند أواسط القرن السابع عشر شكلت الفضة أكثر من ٩٩ في المائة من الصادرات التعدينية لأمريكا الهيسبانية.

في ذلك الوقت، كانت أمريكا، عبارة عن منجم ضخم مركزه في بوتوسي، بالدرجة الأولى. ويؤكد بعض الكتاب البوليفيين، وقد ألهبهم الحماس الزائد، أنه كانت إسبانيا قد تلقت من بوتوسي خلال ثلاثة قرون معدنا يكفي لمد جسر من الفضة يربط بين قمة التل وبين بوابة القصر الملكي على الجانب الآخر من المحيط. تبدو الصورة خيالية بعض الشيء، بلا شك، ولكنها على أية حال تشير إلى واقع يبدو مخيفا بالفعل: لقد بلغ تدفق الفضة أبعادا جد مخيفة. ولا تظهر الصادرات السّريَّة الكميّات الكبيرة من الفضة، التي هُرّبت إلى الفلبين، الصين وإسبانيا نفسها، لا تظهر في حسابات إيرل. ج. هاملتون[٢٠]، والذي يُقدِّم أرقاما مذهلة، على أية حال، على أساس البيانات المسجلة في الغرفة التجارية، وذلك في كتابه المعروف حول هذا الموضوع. فما بين عامي ١٥٠٣ و١٦٦٠، وصل إلى ميناء اشبيلية ١٨٥ ألف كيلو غرام من الذهب و١٦ مليون كيلو غرام من الفضة. إن الفضة التي نقلت إلى إسبانيا فيما لا يتجاوز قرن ونصف تجاوزت ثلاث مرات إجمالي الاحتياطات الأوروبية. وهذه الأرقام، المختصرة، لا تتضمن التهريب بالطبع.

لقد حفَّزت المعادن المنهوبة من المستعمرات الجديدة على النمو الاقتصادي الأوروبي إن لم تكن قد جعلتها ممكنة في الواقع. وحتى الآثار التي تركها الاستيلاء على الكنوز الفارسية التي صبَّها الاسكندر المقدوني على العالم الهلليني لا يمكن باي حال من الأحوال أن تقارن

بحجم الإسهام الأمريكي الضخم في تقدم الآخرين. ليس تقدم إسبانيا، بالمناسبة، رغم أن إسبانيا كانت تملك مصادر الفضة في أمريكا اللاتينية، وكما كان يقال في القرن السابع عشر، "إسبانيا مثل الفم الذي يتلقى الغذاء، فيلوكه، يطحنه ويرسله للتو إلى الأجهزة الأخرى، ولا يحتفظ منه لنفسه سوى بطعم عابر أو بفتات صغيرة تعلق بالصدفة بأسنانه"[٢١]. كان لدى الإسبان البقرة، لكن آخرين كانوا يشربون الحليب. كان مقرضو المملكة، وأغلبهم أجانب، يُفرِغون وبصورة منتظمة، خزائن الغرفة التجارية بإشبيلية المخصصة لحفظ كنوز أمريكا، والتي كان لها مفاتيح ثلاثة موزعة على ثلاثة اشخاص مختلفين.

لقد كان التاج مرهونا. كان يتنازل مقدما عن كل شحنات الفضة تقريبا للمصرفيين من المانيا، جنوا وبلاد الفلمنك وإسبانيا[٢٢]. كما كانت الضرائب المحصلة داخل إسبانيا تلقى نفس المصير، وبدرجة كبيرة: ففي عام١٥٤٣، خصص ٦٥ بالمائة من إجمالي العائدات الملكية لدفع أقساط الديون السنوية. وفقط وبدرجات دنيا لم تندرج الفضة الأمريكية في الاقتصاد الاسباني؛ ورغم أنها مسجّلة رسميا في اشبيلية، إلا أنها كانت تنتهي إلى أيدي عائلة فوغير، وهم المصرفيون العتاة الذين كانوا قد أقرضوا البابا المبالغ اللازمة لإنهاء كنيسة القديس بطرس، وإلى أيدي كبار المقرضين الآخرين لتلك الفترة، مثل آل وايزر، وآل شيتس، وآل غريمالدي. كما أن الفضة كانت توّجه لدفع ثمن صادرات سلع غير إسبانية متجهة إلى العالم الجديد.

لقد كان لتلك الإمبراطورية عاصمة حديثة فقيرة، رغم أن وهم الرخاء فيها كان يطلق فقاعات ويزداد حجمها باستمرار: فقد كان التاج يفتح جبهات في كل مكان بينما كانت الارستقراطية تُكرِّس نفسها للتبذير، وتضاعف أعداد القساوسة والمحاربين، والنبلاء والشحاذين،

على الأرض الإسبانية، بنفس المعدل المحموم الذي كانت ترتفع به أسعار الأشياء وأسعار الفائدة. لقد كانت تموت الصناعة ما أن تولد في تلك المملكة ذات الإقطاعيات الواسعة العقيمة، ولم يستطع الاقتصاد الإسباني المريض أن يقاوم التأثير الحاد لارتفاع الطلب على الأغذية والبضائع التي كانت نتيجة حتمية للتوسع الاستعماري. لقد كان الازدياد الكبير على الإنفاق العام والضغوط الخانقة للضروريات الاستهلاكية في ممالك ما وراء البحار يزيد من حدة العجز التجاري ويطلق العنان للتضخم المتسارع. وقد كتب كولبيرت قائلاً "كلما زادت تجارة إحدى الدول مع إسبانيا، كلما زادت الفضة التي تملكها". لقد دار صراع حاد بين دول أوروبا على غزو السوق الإسبانية التي كانت تتضمن سوق وفضة أمريكا. ويعطينا كتاب أثري فرنسي من أواخر القرن السابع عشر فكرة عن أن إسبانيا لم تكن تسيطر، عندئذ، إلا على خمسة بالمائة من التجارة مع "ممالكها" المستعمرة وراء المحيط، رغم وهم الاحتكار القانوني: فقد كان نحو ثلث مجموع هذه التجارة في أيدي الهولنديين والفلمنكيين، وربعها تنتمي للفرنسيين، وكان أهل جنوا يسيطرون على أكثر من عشرين بالمائة، والإنجليز على عشرة بالمائة والألمان على أقل من ذلك بقليل[٢٣]. لقد كانت أمريكا تجارة أوروبية في مجموعها.

كان كارلوس الخامس، وريث القياصرة على عرش الإمبراطورية المقدسة وبانتخاب مدفوع الثمن، كان قد قضى في إسبانيا ما لا يزيد عن ستة عشر عاما من أعوام ملكه الأربعين. ذلك العاهل ذو الذقن المدببة والنظرة الحمقاء، والذي كان قد اعتلى العرش دون أن يعرف كلمة واحدة من اللغة القشتالية، كانت تحيط به حاشية من الفلمنكيين الجشعين وظل يمنحهم تصاريح يُخرجون بها من إسبانيا بغالا وخيولا محملة بالذهب والجواهر، كذلك كان يكافئهم مانحا لهم مناصب

الأساقفة وكبار الأساقفة، وكانت مناصب بيروقراطية، كما منحهم أول ترخيص لجلب العبيد السود إلى المستعمرات الأمريكية. وكان مندفعا لمطاردة الشيطان في كل أوروبا، ليفرغ كنز أمريكا في حروبه الدينية. ولم تنقطع سلالة الهاسبورغو بموته؛ فقد كان على إسبانيا أن تعاني في ظل مملكة سلالة نمساوية خلال قرنين من الزمان. وكان ابنه فيلب الثاني هو بطل الإصلاح المضاد. ومن القصر والدير في نفس الوقت الذي كان يسكنه في الاسكوريال، عند سفوح جبل غواداراما، أدار فيليب الثاني، على نطاق شامل، الماكينة الرهيبة لمحاكم التفتيش، وأطلق جيوشه على مراكز الهرطقة. كان مذهب كالفن قد انتزع هولندا، إنجلترا وفرنسا، وكان الأتراك يجسدون خطر عودة الإسلام. لقد كانت فلسفة النجاة مكلفة: والأشياء الذهبية والفضية القليلة، وهي من أعاجيب الفن الأمريكي، والتي لم تصل مصبوبة جاهزة من المكسيك والبيرو، نُهبت بسرعة من الغرفة التجارية بإشبيلية وألقيت بين ألسنة النيران في الأفران.

كذلك التهمت النيران الهراطقة والمشكوك في هرطقتهم، أحرقتهم النار المُطهِّرة لمحاكم التفتيش؛ ولقد أحرق توركويمادا الكتب بينما كان ذيل الشيطان يظهر في كل الأركان: لقد كانت الحرب ضد البروتستانتية حربا ضد الرأسمالية الصاعدة في أوروبا. ذكر اليوت في كتابه المذكور آنفا "لقد كان استمرار الحرب الصليبية يتضمن استمرار التنظيم الاجتماعي العتيق لدى أمة من المحاربين الصليبيين" إن معادن أمريكا، سبب بهجة ودمار إسبانيا، وسائل القتال ضد القوى الناشئة للاقتصاد الحديث. وكان كارلوس الخامس قد سحق البرجوازية القشتالية في الحرب ضد رجال الكوميونة، التي تحولت إلى ثورة اجتماعية ضد النبلاء، وممتلكاتهم وامتيازاتهم. وهزمت الانتفاضة بدءا من خيانة مدينة بورغوس، والتي ستصبح عاصمة الجنرال فرانسيسكو فرانكو بعد ذلك

بأربعة قرون؛ عاد كارلوس الخامس إلى اسبانيا بصحبة أربعة الآف جندي ألماني. وفي ذات الوقت، غرقت في بحر من الدم الانتفاضة الشديدة الراديكالية التي قام بها النساجون، والغزّالون والحرفيون الذين استولوا على السلطة في مدينة بلنسية ومدوا سيطرتهم إلى مجمل المنطقة.

لقد كان الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية مجرد قناع للنضال ضد التاريخ. كان طرد اليهود ـ إسبان ويدينون باليهودية ـ قد حرم إسبانيا، في زمن الملكين الكاثوليكيين، من الكثير من الحرفيين المهرة ومن رؤوس أموال لا غنى عنها. كما طُرد العرب ـ إسبان، وفي الحقيقة، يدينون بالدين الإسلامي ـ بالرغم من أنه في عام ١٦٠٩ ليس بأقل من ٢٧٥ ألفا سيقوا إلى الحدود وكان لهذا آثار كارثية على الاقتصاد في فالنسية، وعلى الحقول الخصبة جنوبي نهر الايبرو التي دُمِّرت، وفي اراغون، قبل ذلك، كان فيليبي الثاني قد طرد، لأسباب دينية، آلافا من الحرفيين الفلمنكيين الذين يعتنقون أو المشكوك في اعتناقهم البروتستانتية: لتحتضنهم إنجلترا على أراضيها ليعطوا على إثرها دفعة غاية في الأهمية للصناعات البريطانية.

لم تكن المسافات الهائلة ولا الاتصالات الصعبة، كما يتضح، هي العقبات الأساسية التي كانت تعرقل التقدم الصناعي لإسبانيا. فالرأسماليون الإسبان تحولوا إلى أصحاب دخول، من خلال شراء ديون التاج، ولم يستثمروا أموالهم في التنمية الصناعية. وتحولت العائدات الاقتصادية إلى مجالات غير منتجة: كان الأغنياء القدامى، أرباب المشنقة والسّكين، ملاك الأراضي وألقاب النَّبَالة، وهم يشيِّدون القصور ويكدِّسون الجواهر؛ وكان الأثرياء الجدد، المضاربون والتجار، يشترون الأراضي والألقاب. وكانوا جميعا لا يدفعون الضرائب تقريبا، ولا يمكن

إيداعهم السجون لوفاء ديونهم. ومن يشتغل في نشاط صناعي كان يفقد تلقائيا لقب النبالة(٢٤).

ولقد منحت اتفاقيات تجارية متوالية، وقعت بدءا من هزائم الإسبان العسكرية في أوروبا، امتيازات لتنشيط حركة التجارة البحرية بين ميناء قادش، الذي يربط اشبيلية، وبين الموانئ الفرنسية والإنجليزية والهولندية وموانئ اتحادات المدن التجارية الألمانية. وكانت، في كل عام، ما بين ثمانمائة وألف سفينة تفرغ في إسبانيا المنتجات التي صنعها الآخرون. محملة بالفضة من أمريكا والصوف الإسباني، المتوجه إلى مصانع النسيج الأجنبية لتعود وقد نسجته الصانعة الأوروبية الآخذة في التوسع. واكتفى المحتكرون في قادش على دمغ المنتجات الصناعية الأوروبية المرسلة إلى العالم الجديد. فإذا كانت المنتجات الإسبانية غير كافية لقضاء حاجة السوق الداخلية، فكيف بإمكانها اشباع احتياجات المستعمرات؟

لقد كانت الدانتيلات من مدن ليل وأراز، والمنسوجات الهولندية، والسجاجيد من بروكسل، والأعمال المطرزة من فلورنسا، والكريستال من فينيسيا، والأسلحة من ميلانو، والنبيذ والكتان من فرنسا، كانت تغرق الأسواق الإسبانية، على حساب الإنتاج المحلي، من أجل اشباع رغباتهم الملحة في التفاخر، بالإضافة إلى استهلاك الأغنياء الطفيليين الذين كانوا يزدادون عددا وقوة في بلد يزداد فقرا(٢٥). لقد ماتت الصناعة قبل أن تولد، وعملت سلالة الهاسبورغو كل ما بوسعها لتعجيل موتها. وفي منتصف القرن السادس عشر بلغ الأمر بهم إلى إعطاء تصريحات لاستيراد منسوجات أجنبية في حين حظروا تصدير الأقمشة القشتالية ما لم تكن متجهة لأمريكا(٢٦).

وعلى العكس من ذلك، وكما أوضح راموس، لقد كانت توجهات

هنري الثامن واليزابيث الأولى في إنجلترا مختلفة تماما. فلقد حُظر خروج الذهب والفضة في هذه الأمة الصاعدة، وتم احتكار السندات، كما عرقلا استخراج الصوف، وطردوا من الموانئ البريطانية بضائع رابطة اتحاد المدن التجارية الألمانية لبحر الشمال. وكانت الجمهوريات الإيطالية تحمي تجارتها الخارجية وصناعتها من خلال فرض الرسوم الجمركية، والامتيازات، وطرق حظر صارمة: فلم يكن الصنّاع المهرة يستطيعون الخروج من بلادهم تحت طائلة عقوبة الإعدام.

لقد عم الخراب كل شيء. فمن بين ١٦ ألف معمل نسيج التي كانت موجودة في اشبيلية عام ١٥٥٨، عند وفاة كارلوس الخامس، لم يبقَ سوى أربعمائة عند وفاة فيليبي الثاني، بعدها بأربعين عام. وتقلص عدد الماشية في مقاطعة الأندلس من سبعة ملايين إلى مليونين. وقد وصف سرفانتس في روايته الواسعة الانتشار دون كيشوت دي لا مانشا، مجتمع عصره جيدا. وكان قد صدر مرسوم في أواسط القرن السادس عشر جعل من المستحيل استيراد الكتب الأجنبية ومنع الطلاب من الدراسة خارج إسبانيا؛ وتقلص عدد طلاب مدينة سالامنكا إلى النصف خلال عقود قليلة؛ كان يوجد تسعة الآف دير وتضاعف الكهنة بنفس سرعة تضاعف النبلاء أصحاب العباءة والسيف؛ كان ١٦٠ الفا من الأجانب يحتكرون التجارة الخارجية، كما حكمت، مظاهر الترف لدى الارستقراطية، على إسبانيا بالعجز الاقتصادي. ونحو العام ١٦٣٠، كان هناك ما يزيد قليلاً عن المائة والخمسين من الدوقات، والماركيزات، والكونتات، والفيسكونتات يحصلون على ريع سنوي يقارب الخمسة ملايين دوكاو، لتشبع بريق ألقابهم الطنانة. كان لدى دوق ميديناثيلي سبعمائة من الخدم، ولدى دوق اوسونا ثلاثمائة، وللسخرية من قيصر روسيا كانوا يلبسون هؤلاء الخدم معاطف جلدية(٢٧).

لقد كان القرن السابع عشر هو عصر التشرد والجوع والأوبئة بامتياز. كان عدد المتسولين الإسبان لا نهائي، رغم أن هذا لم يمنع من تدفق المتسولون الأجانب عليها من كافة أرجاء أوروبا. وبحلول عام ١٧٠٠ كان يوجد في إسبانيا ٦٢٥ ألف نبيل، من أسياد الحرب، رغم أن إسبانيا كانت تفرغ من سكانها: فقد انخفض عدد سكانها إلى النصف خلال قرنين من الزمان، وكان تعداد سكانها مساويا لتعداد السكان في إنجلترا، التي كانت قد ضاعفت سكانها خلال نفس الفترة. يعتبر عام ١٧٠٠ هو نهاية نظام سلالة هابسبورغو. وكان الإفلاس شاملا. بطالة مزمنة، اقطاعيات شاسعة مقفرة، عملة ضعيفة، صناعة مدمرة، وحروب خاسرة، وخزائن خاوية، وسلطة مركزية غير معروفة في الأقاليم: لقد كانت اسبانيا التي استلم عرشها فيليبي الخامس "اقل موتا بقليل من سيدها الميت"[٢٨].

وأعطت سلالة البوربون البلاد مظهرا أكثر عصرية، ولكن كانت الكنيسة الإسبانية عند نهاية القرن الثامن عشر تضم ما لا يقل عن مائتي ألف عضو ولم يكن بقية السكان غير المنتجين بقادرين على إعاقة نمو هذا الهدر. وفي ذلك الحين، كان يوجد في إسبانيا أكثر من عشرة الآف قرية ومدينة خاضعة للسلطة القضائية للنبلاء، وخارجة بالتالي عن السيطرة المباشرة للملك. بقيت الإقطاعيات ومؤسسة البكورة دون أن يمسهما أي تغيير. واستمر نفوذ الغيبية والقدرية. لم تكن فترة حكم فيليبي الرابع قد تم تجاوزها بعد: فلقد اجتمع مجلس من اللاهوتيين في عصره لفحص مشروع إنشاء قناة لتربط بين نهري المانثانارايس والتاخو لينتهي الأمر بإعلان" لو كان الرب يريد أن يتيح الملاحة في الأنهر، لكان قد خلقها كذلك بنفسه".

توزيع المهام بين الحصان والفارس

كتب كارل ماركس في المجلد الأول من كتاب رأس المال: "إن اكتشاف منابع الفضة والذهب في أمريكا، حملة الإبادة، العبودية، ودفن السكان الأصليين في المناجم، وبدء وغزو ونهب الهند الشرقية، وتحويل القارة الإفريقية إلى ساحة لصيد العبيد السود: كل الوقائع تشير إلى بدء عصر الإنتاج الرأسمالي. هذه العمليات الملحمية تمثل عوامل رئيسية أخرى في حركة التراكم الأولي".

كان النهب، الداخلي والخارجي، هو الوسيلة الأهم لتحقيق التراكم البدائي لرؤوس الأموال والذي أتاح، منذ العصر الوسيط، ظهور مرحلة تاريخية جديدة في التطور الاقتصادي العالمي. وبقدر ما كان الاقتصاد النقدي ينتشر، بقدر ما كان التبادل غير المتكافئ يتسع ليضم شرائح اجتماعية أكثر، ومناطق أكثر من العالم. لقد أحصى ارنست مانديل قيمة الذهب والفضة التي نهبت من أمريكا حتى عام ١٦٦٠، والغنيمة التي نهبتها من اندونيسيا الشركات الهولندية في جزر الهند الشرقية من ١٦٥٠ حتى عام ١٧٨٠، وأرباح رأس المال الفرنسي من تجارة العبيد خلال القرن الثامن عشر، والأرباح التي تحصلت من عمل العبيد في جزر الأنتيل البريطانية والنهب الإنجليزي للهند خلال نصف قرن: لتكون المحصلة تفوق قيمة كل رأس المال المستثمر في كافة الصناعات الأوروبية في حوالي عام ١٨٠٠[(٢٩)].

يشير ماندل على أن أهمية هذه الحصيلة الضخمة من رؤوس الأموال خلقت مناخا مناسبا للاستثمارات في أوروبا، وحفّز هذا على خلق "روح الشركة" ومُوِّلت بشكل مباشر إنشاء صناعات كانت قد أعطت دفعة قوية للثورة الصناعية. ولكن، وفي نفس الوقت، فإن هذا التركيز

العالمي الفريد للثروة، أعاق، الانتقال إلى تراكم رأس المال الصناعي في البلاد المنهوبة "إن المأساة المزدوجة للبلدان النامية تكمن في أنها لم تقع فقط ضحية لعملية التراكم هذه، بل أنها اضطرت أيضاً فيما بعد إلى محاولة تعويض تأخرها الصناعي، أي تحقيق التراكم الأولي لرأس المال الصناعي، في عالم كانت قد أغرقته المواد المُصنّعة من قبل صناعة أصبحت ناضجة، ألا وهي الصناعة الغربية"[٣٠].

لقد اكتشفت المستعمرات الأمريكية وفتحت، واستعمرت ضمن إطار عملية توسع رأس المال التجاري. لقد مدت أوروبا ذراعيها كي تطال العالم باسره. ولم تكسب إسبانيا ولا البرتغال من فوائد التّقدُّم الكاسح للعملية التجارية والاقتصادية الرأسمالية. رغم أن مستعمراتهما هي التي كانت قد قدمت، وبشكل أساسي، الذهب والفضة اللذين غذيا ذلك التوسع. وكما رأينا، فإذا ما كانت معادن أمريكا النفيسة قد أضاءت الحظ العاثر لنبلاء إسبانيا الذين كانوا يعيشون في عصرها الوسيط بصورة متأخرة ومتناقضة مع التاريخ، فإن هذه الطبقة في نفس الوقت كانت قد سببت خراب إسبانيا في القرون التالية. لقد كانت هناك بلاد أخرى هي التي استطاعت احتضان الرأسمالية الحديثة، مستفيدة، بدرجة كبيرة، من مصادرة ملكية شعوب أمريكا اللاتينية. فبعد سرقة الكنوز المُكدسة كانت قد حانت مرحلة الاستغلال المنهجي، في المناجم والمنابع، في عمل السخرة للهنود والعبيد الزنوج الذين اختطفهم من أفريقيا تجار العبيد.

كانت أوروبا بحاجة للذهب والفضة. وتضاعفت وسائل دفع القيمة التبادلية دون توقف، وكان من الضروري تغذية حركات الرأسمالية في لحظة ولادتها: لقد سيطرت البرجوازية على المدن وأقاموا البنوك، وأنتجوا وتبادلوا السلع، وفتحوا أسواقا جديدة. ذهب، فضة، سكر: لقد تشكل الاقتصاد الاستعماري، الذي يقدم من المواد أكثر مما

يستهلك، لتلبية متطلبات السوق الأوروبية واحتياجاتها. لقد ظلت قيمة الصادرات الأمريكية اللاتينية من المعادن النفيسة، خلال فترات طويلة من القرن السادس عشر، تفوق قيمة الواردات بأربع مرات، مكونة في المقام الأول من العبيد، ملح، نبيذ وزيت، أسلحة، أقمشة ومواد فاخرة. وأخذت الموارد تتدفق لكي تراكمها الأمم الأوروبية الصاعدة. كانت تلك هي المهمة الرئيسية التي حملها الرواد الأوائل، رغم أنهم استخدموا الانجيل بالإضافة إليها، وبنفس تواتر استخدامهم للسوط ضد الهنود المعذبين. لقد ولدت البنية الاقتصادية للمستعمرات الايبيرية تابعة للأسواق الخارجية، وبالتالي، متمركزة حول قطاع التصدير، الذي كان يتمركز حوله الدخل والسلطة.

وخلال هذه العملية، بدءاً بمرحلة المعادن ومرحلة الإمداد بالأغذية التي تلتها، كانت هوية كل إقليم حسب ما ينتجه، وكان ينتج ما كان ينتظر منه في أوروبا: كل منتج، محمّل في أقبية السفن العابرة للمحيط، تحول إلى مهنة وإلى مصير. إن تقسيم العمل، كما نشأ مع الرأسمالية، كان يبدو وكأنه توزيع المهام بين الفارس والحصان، كما يذكر بول باران. لقد نمت أسواق العالم الاستعماري وكأنها مجرد ملحقات للسوق الداخلية للرأسمالية حديثة الولادة[٣١].

وينبه ثيلسو فورتادو بأن السادة الإقطاعيون الأوروبيون يحصلون على عائد اقتصادي من سكان المناطق التي يسيطرون عليها، ويستخدمونه بطريقة أو بأخرى، في أقاليمهم، بينما كان الهدف الرئيسي للإسبان الذين تلقوا من الملك مناجم، وأراض وهنود في أمريكا، يتلخص في استخراج أي عائد لكي ينقلوه إلى قارتهم الأم أوروبا. هذه الملاحظة تساهم في توصيف الهدف النهائي للاقتصاد الاستعماري الأمريكي، منذ أن بدأ تطبيقه؛ فبالرغم من أنه كان يعطي ملامح

إقطاعية، إلا أنه كان يعمل في خدمة الرأسمالية الوليدة في أقطار أخرى، وفي نهاية المطاف، فإنه حتى في عصرنا، لا يمكن شرح وجود المراكز الغنية للرأسمالية بدون وجود الأطراف الفقيرة والخاضعة: فهناك تكامل لهؤلاء وأولئك في ذات المنظومة(٣٢).

ولكن العائد لم يكن كله يتجه إلى أوروبا، فقد كان الاقتصاد الاستعماري محكوما بالتجار، وأصحاب المناجم، وكبار ملاكي الأراضي، الذين كانوا يقتسمون حق الانتفاع بالأيدي العاملة للهنود والزنوج تحت نظرة الغيرة المطلقة للتاج وحليفته الأساسية، ألا وهي الكنيسة. لقد كانت تتركز السلطة في أيدٍ قليلة، ترسل إلى أوروبا معادن وأغذية، وتتلقى من أوروبا السلع الفاخرة. ولم يكن لدى الطبقات الحاكمة أدني اهتمام بتنويع الاقتصاديات الداخلية ولا برفع المستويات التقنية والثقافية للسكان: لقد كان لوظيفتهم داخل الإطار الدولي الذي يعملون لصالحه وظيفة مختلفة، وكان الفقر الشعبي الساحق، المُربح جدا من وجهة نظر المصالح السائدة، يعوق نمو سوق الاستهلاك الداخلية.

وتؤكد اقتصادية فرنسية(٣٣) أن أسوأ ميراث استعماري لأمريكا اللاتينية، مفسرا تأخرها الملحوظ الحالي، هو نقص رؤوس الأموال. إلا أن كل المعلومات التاريخية توضح أن الاقتصاد الاستعماري، كان قد أنتج، في الماضي، ثروة هائلة للطبقات المرتبطة به، داخل الإقليم، بنظام السيطرة الاستعماري. فالأيدي العاملة متوفرة، والتي كانت مجانية أو شبه مجانية، والطلب الأوروبي الكبير على المنتجات الأمريكية، كانا قد اتاحا، كما يقول سيرخيو باجو، تراكما مبكرا ووفيرا لرؤوس الأموال في المستعمرات الايبيرية، وأخذت نواة المنتفعين، بدل أن تتسع، تتقلص بالنسبة لمجمل السكان، كما يُستنتج من الحقيقة المؤكدة في أن

عدد الأوروبيين وممن ولدوا في أمريكا اللاتينية وهم من أصول أوروبية العاطلين كان يتزايد باستمرار. لم يكن رأس المال المتبقي في أمريكا بعد خصم نصيب الأسد الذي يصب في علمية التراكم الأولية للرأسمالية الأوروبية، لم يكن يولد، في هذه البلاد، آلية مماثلة لما يجري في أوروبا، من أجل إرساء قواعد التنمية الصناعية، بل كان يتحول إلى إقامة قصور ضخمة ومعابد فارهة، إلى شراء جواهر وملابس وأثاث فاخر، إلى الحصول على عدد كبير من العبيد وإلى التبذير في الاحتفالات. وبدرجة كبيرة، ظل هذا العائد راكدا في شراء أراض جديدة أو واصل دورته في الأنشطة التجارية وأنشطة المضاربة[٣٤].

وعند أفول العصر الاستعماري، سيصادف هومبولت في المكسيك "كتلة ضخمة من رؤوس الأموال مكدسة في أيدي مُلّاك المناجم، وفي أيدي التجار الذين انسحبوا من التجارة. وكان ما لا يقل عن نصف الأصول والرأسمال الإجمالي للمكسيك يخص، حسب شهادته، الكنيسة، التي كانت بالإضافة إلى ذلك، تسيطر على جزء كبير من الأراضي الباقية من خلال الرهونات[٣٥]. وكان أصحاب المناجم المكسيكيين يستثمرون عوائدهم في شراء الإقطاعيات. وفي قروض الرهونات، مثلهم في ذلك مثل كبار مصدري فيراكورث واكابولكو، وكانت الكنيسة تمد ممتلكاتها في نفس الاتجاه. كانت دور الإقامة القادرة على تحويل الشخص العامي إلى أمير والمعابد الشامخة تنبت مثل الفطريات بعد المطر.

وفي البيرو، عند أواسط القرن السابع عشر، كانت رؤوس الأموال التي يملكها الولاة، وأصحاب المناجم، وأعضاء محاكم التفتيش، وموظفو الإدارة الإمبراطورية تصب في التجارة. وكانت الثروات الوليدة في فنزويلا من زراعة الكاكاو، التي بدأت عند نهاية القرن السادس

عشر، بالسوط، وعلى أكتاف فيالق من العبيد السود، تستثمر في مزارع جديدة وزراعات تجارية أخرى، وكذلك في المناجم، والأصول العقارية الحضرية، والعبيد، وقطعان الماشية[٣٦].

أطلال البوتوسي: مرحلة الفضة

وبتحليل طبيعة العلاقات بين "المدينة" و"البلد التابع" عبر تاريخ أمريكا اللاتينية على اعتبار أنها سلسلة من التبعية المتعاقبة، فلقد أبرز اندريه غوندير فرانك، في أحد كتبه، بأن أكثر الأقاليم اليوم حملا لعلامات التخلف والفقر هي تلك الأقاليم التي كانت لها في الماضي روابط أوثق بالحضارة وتمتعت بفترات ازدهار. أنها الأقاليم التي كانت أكبر المنتجين للبضائع المصدرة إلى أوروبا، أو إلى الولايات المتحدة، فيما بعد، والتي كانت أكثر منابع رأس المال تدفقا: وهي الأقاليم التي هجرتها الحضارة حين تدهورت الأعمال لسبب أو لأخر. وبوتوسي هي مثال ناصع على هذا السقوط المدوي.

أما مناجم غواناخواتو وزاكاتيكاس، في المكسيك، فقد عاشت فترة ازدهارها في وقت لاحق. وكان تل بوتوسي، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مركز الحياة الاستعمارية الامريكية: وكان المركز الذي يتمركز حوله، بشكل أو بآخر، الاقتصاد التشيلي، الذي كان يقدم له القمح، واللحوم المجففة، والجلود، والخمور؛ وتربية المواشي والصناعات الحرفية في كوردوبا وتوكومان، وتزودانه بحيوانات الجر والمنسوجات؛ ومناجم زئبق هوانكابيلبيكا وإقليم اريكا حيث كانت تشحن الفضة إلى ليما، المركز الإداري الرئيسي في تلك الحقبة. ويعتبر القرن الثامن عشر علامة على بداية النهاية بالنسبة لاقتصاد الفضة الذي كان مركزه في بوتوسي، ورغم ذلك، ففي فترة الاستقلال، كان تعداد

سكان الإقليم الذي يشكل اليوم بوليفيا، ما يزال يفوق تعداد السكان الذين كانوا يسكنون ما يمثل اليوم الأرجنتين. وبعد ذلك بقرن ونصف، نجد أن سكان بوليفيا أقل بستّ مرات تقريبا من سكان الأرجنتين[٣٧].

مجتمع بوتوسي ذلك، المريض بالبذخ والتبذير، لم يترك لبوليفيا سوى ذكرى أمجاد الماضي، وأطلال ودمار كنائسه وقصوره، وثمانية ملايين جثة للسكان الأصليين. أن أي ماسة من الماسات التي كانت تزين درع فارس غني، كانت تساوي، في نهاية الأمر، أكثر مما يمكن لهندي أن يكسبه مدى حياته في العمل بنظام السخرة، لكن الفارس هرب بالماسات. واليوم، يمكن لبوليفيا، والتي هي واحدة من أفقر دول العالم، بالتباهي - إذا لم يكن عبثا يبعث على الشجن - بأنها غذت ثروة البلدان الأغنى. وفي أيامنا هذه، فإن بوتوسي مدينة فقيرة في بوليفيا فقيرة "المدينة التي أعطت كل شيء وأقل من يملك"، كما قالت لي سيدة عجوز من بوتوسي، ملتفَّة بشال طويل من صوف الإلباكا، عندما كنا نتبادل أطراف الحديث في البهو الأندلسي لبيتها الذي يعود لقرنين من الزمن. هذه المدينة التي حكم عليها في العيش على الحنين، ويعذبها البؤس والبرد، ما زالت جرحا مفتوحا للنظام الاستعماري في أمريكا. وعلى العالم أن يبدأ بطلب الغفران.

نشر الأب الفارو الونسو باربا، في عام ١٦٤٠، في مدريد، في المطبعة الملكية، بحثا ممتازا عن فن المعادن. فلقد كتب باربا بأن "القصدير عبارة عن سُمْ[٣٨]، وذكر تلالا حيث يوجد فيها قصدير كثيف، رغم أن القليلين يعرفون ذلك، ولأنهم لا يجدون الفضة التي يبحث عنها الجميع، فإنهم يلقونه هناك". ويتم الآن في بوتوسي استغلال القصدير الذي ألقاه الإسبان جانبا كما ولو أنه نفاية. وتباع جدران البيوت القديمة على أنها قصدير ذي نقاوة جيدة. من أفواه

الخمسة آلاف نفق التي فتحها الإسبان في التل الغني تدفقت الثروة على طول القرون. وصار لون التل يتغير بقدر ما أخذت تفرغه انفجارات الديناميت وتخفض من مستوى قمته. وأكوام الصخر، المتراكمة حول الثقوب اللانهائية محتوية كل الألوان؛ وردية، بنفسجية، قرمزية، صفراء، رمادية، ذهبية وبنية. غطاء من بقايا. يكسر مستخرجو اليامبيروس الصخر بينما تقوم الفرازات الهنديات، ذوات الأيدي المدربة على الوزن والنقاوة، بالتنقير، مثل العصافير، في البقايا المعدنية بحثا عن القصدير. وما زال عمال المناجم يدخلون في الأنفاق التي لم تغمرها المياه. ومصباح الكربون في يد، وأجسامهم متشابكة، لانتزاع ما يمكن انتزاعه. ليس هناك ثمة فضة، ولا حتى بريقها؛ فقد كنس الإسبان عروق الفضة بالمكانس. يحفرون بالفرازة والمعول والجاروف أنفاقا صغيرة ليستخرجوا عروقا من الفتات. أخبرني أحد العاطلين دون دهشة وهو يغربل الأرض بأصابعه "ما زال التل غنيا. لا بد أن الله موجود، تخيل: المعدن ينمو كأنه نبتة، تماما". وأمام التل الغني لبوتوسي، يرتفع الشاهد على الخراب. إنه جبل يحمل اسم هواكاجتشي، الذي يعني بلغة التكشوا: "التل الذي بكى". من جوانبه تسيل ينابيع كثيرة من الماء النقي، هي "عيون الماء" التي تقدم الماء لعمال المناجم.

في فترات الازدهار، وعند انتصاف القرن السابع عشر، كانت المدينة قد جمعت الكثيرين من الرسامين والحرفيين الإسبان أو الهنود ذوي الخيال الذين تركوا بصماتهم على الفن الاستعماري الأمريكي. وقد ترك ميلتشور بيريز دي هولغوين، وهو كان يسمى الغريكو الإسباني، كان قد ترك مجموعة ضخمة من الأعمال الدينية تَشي، في آن واحد، بموهبة مبدعها وبالروح الوثنية لهذه البلاد: ومن الصعب، على سبيل المثال، نسيان العذراء مريم الرائعة، ذات الذراعين المفتوحتين، التي

تُرضع الطفل يسوع من أحد ثدييها وترضع القديس يوسف من الثدي الآخر. ولقد قام الصاغة، ونقاشو الفضة، وأساتذة الحفر البارز، وصناع الأثاث الخشبي، الصناع المهرة للمعدن، والخشب الثمين، والعاج الراقي، بتزويد الكنائس والأديرة العديدة في بوتوسي بأشغال الحفر والمذابح ذات النقوش اللانهائية، والمصابيح الفضية، والمنابر والمحاريب النفيسة. وقد قاومت الواجهات الباروكية للمعابد، والمشغولة في الحجر، عوادي القرون، لكن لم يحدث نفس الشيء بالنسبة للوحات، التي أتلفتها في أحيان كثيرة عوامل الرطوبة، كذلك لم يحدث مع صور الأشخاص ومع الأشياء خفيفة الوزن. فقد أفرغ السياح والقساوسة الكنائس من كل ما استطاعوا حمله: من الكؤوس والأجراس إلى لوحات الحفر التي يبدو فيها القديس فرنشيسكو بلون الخوخ أو الرماد.

هذه الكنائس التي نُهبت، والتي أغلقت أبواب معظمها، تتهدم بفعل السنين. وإنها لحسرة لأنها ما زالت تشكل، رغم نهبها، كنوزا ثمينة من فن استعماري يصهر كل الأساليب، فن ثمين في عبقرتيه وفي هرطقته: "فالعلامة المدّرجة" لتياهواناكو بدلا من الصليب والصليب بجانب الشمس المقدسة والقمر المقدس، والعذارى والقديسون بشعر طبيعي، والكروم والسنابل وهي ملتفة حول العمدان، حتى تيجانها، بجانب الكانتوتا، الزهرة الإمبراطورية لهنود الإنكا؛ والحوريات، وباخوس والاحتفال بالحياة تتناوب جميعها مع الزهد الروماني، والوجوه السمراء لبعض القديسين والأشخاص ذوي الملامح الهندية. وثمة كنائس أعيد تجهيزها لتقدم، وقد خلت من المؤمنين، خدمات أخرى. قد تحولت كنيسة سان امبروزيو إلى سينما اوميستي؛ وفي شباط من عام ١٩٧٠، وفوق النقوش الباروكية الغائرة للواجهة كان هناك إعلان عن العرض

القادم: "عالم مجنون، مجنون، مجنون"، وتحول كذلك معبد فرقة يسوع إلى دار سينما، ثم إلى مخازن لبضائع شركة غريس، وأخيراً إلى متجر أغذية خيري. إلا أن بضع كنائس قليلة ما زالت، رغم حالتها السيئة، تقوم بعملها: وقد مضى قرن ونصف على الأقل منذ كف سكان بوتوسي عن إشعال الشموع بسبب قلة النقود. وكنيسة سان فرانسيسكو، على سبيل المثال. ويقولون أن صليب هذه الكنيسة ينمو بمقدار بضع سنتيمترات كل عام، وأن لحية السيد المسيح بيرا كروث تنمو كذلك. وهو مسيح مهيب من الفضة والحرير ظهر في بوتوسي، دون أن يحضره أحد، منذ أربعة قرون، ولا ينفي القساوسة أنهم يحلقون لحيته كل فترة معينة، وينسبون إليه، كتابة كذلك، كل المعجزات: التعويذات المتتالية للجفاف والأوبئة، والحروب دفاعا عن المدينة المطاردة.

ولم يستطع السيد دي لا فيرا كروث، رغم ذلك، أن يفعل شيئاً لوقف تدهور بوتوسي. وكان نضوب الفضة قد فُسر على أنه عقاب إلهي على فظاعات وآثام أصحاب المناجم. وأصبحت القداسات الفاخرة من الماضي؛ مثلها مثل المآدب ومصارعات الثيران، وحفلات الرقص والألعاب النارية. كانت العقيدة الدينية بكل بهائها هي الأخرى، في نهاية الأمر ناتجا ثانويا للعمل المستعبد للهنود. كان أصحاب المناجم، في عصر الازدهار، يقدمون هبات كبيرة للكنائس والأديرة، ويقيمون طقوسا جنائزية فخمة. مفاتيح من الفضة الخالصة لبوابات السماء: وقد أمر الفارو بيخارانو، في وصيته عام ١٥٥٩، أن يصاحب نعشه "كل قساوسة وكهنة بوتوسي". كل الشعوذة والسحر قد اختلطا بالديانة الرسمية، في غيبوبة حماس ومخاوف المجتمع الاستعماري. كان تلقي البركة الأخيرة في طقوس باذخة، مثلما فن التعميد، قادرا على شفاء المحتضر. كانت الحمى تحارب بالأناجيل والتراتيل في أحد الأديرة

ترطب الجسم؛ وفي غيره، تعطي حرارة. "كان قانون الإيمان المسيحي منعشا مثل التمر الهندي أو ملح النترات الحلو وكانت صلاة السلام لك يا مريم دافئة مثل ماء الزهر أو ذؤابة الذرة الحلوة"[٣٩].

يستطيع المرء في شارع تشوكيساكا أن يعجب بالواجهة، التي اهترأت عبر القرون، لقصر كونتات كارما وكايارا، لكن القصر أصبح الآن عيادة لطبيب أسنان؛ وشعار القائد العسكري دون أنطونيو لويث دي كيروغا، في شارع لانثا، أصبح يزين الآن مدرسة صغيرة؛ أما شعار الماركيز دي اوتابي، بأسوده النافرة، فما زال يلمع على بوابة البنك القومي. "من يدري في أي مكان يحيون الآن، إلا أنه لا بد أنهم قد مضوا بعيدا"... تحكي لي العجوز البوتوسية، المرتبطة بمدينتها، لقد ذهب الأغنياء في البداية، ثم غادر الفقراء بعدهم: وسكان بوتوسي الآن اقل بثلاث مرات عنهم منذ أربعة قرون. أتأمل التل من فوق أحد أسطح شارع اويوني، وهو حارة كولونيالية ضيقة وملتوية، حيث تبرز من المنازل بشرفات ضخمة من الخشب تلتصق ببعضها من رصيف إلى الآخر بحيث يمكن للجيران يتعانقوا أو يتشاجروا دون حاجة إلى النزول إلى الشارع. وما زالت القناديل القديمة ذات الضوء الشاحب، باقية هنا كما في كل أنحاء المدينة، وإذا ما اقتبسنا عبارة خايمي مولينس، "كانت تُحل خلافات الحب، وينساب، مثل الأشباح، فرسان ملثمون، وسيدات أنيقات، ومقامرون". أصبحت المدينة الآن مضاءة بنور كهربائي، ولكنه غير ملحوظ كثيرا. ففي الميادين المظلمة، وعلى ضوء المصابيح القديمة، يجري اللعب على اليانصيب في الليالي.

وسقطت سوكري، بالإضافة لبوتوسي. المدينة السهلية، ذات المناخ المعتدل، والتي كانت تسمى سابقا تشاركاس، لا بلاتا وتشوكيساكا على التوالي، حيث تمتعت بنصيب كبير من الثروة التي كانت تتدفق من

عروق تل بوتوسي الغني. وكان غونزالو بيزارو، شقيق فرانشيسكو، كان قد أقام بلاطه فيها، باذخا مثل بلاط الملك الذي أراد أن يكونه ولم يستطع؛ وكانت الكنائس المبهرة والدور، والحدائق وأركان التسلية باستمرار مع ازدهار القضاء، الصوفيين والشعراء البليغين الذين منحوا المدينة طابعها قرنا إثر قرن "صمتا، إنها سوكري، صمتا لا أكثر". لقد كانت العاصمة الثقافية لنواب الملك والمقر الرئيسي لكبار أساقفة أمريكا ومقر أعلى محكمة في المستعمرة، المدينة الأكثر تباهياً وعلما في أمريكا الجنوبية. وقد كانت دونيا ثيثيليا كونتريراس دي توربيس ودونيا ماريا دي لاس مرثيدس توريالبا دي غراماخو، وهما سيدتا اوبينا وكولكويتشاكا، تقيمان مآدب للحم الطيور: لقد كانتا تتنافسان على تبديد الريع الرهيب الذي تدره مناجهما في بوتوسي، وحين كانت تنتهي الاحتفالات كانتا تلقيان من الشرفات الأطباق الفضية وحتى الأدوات الذهبية، كي يلتقطها المارة أصحاب الحظ السعيد.

وكان في سوكري برج مثل برج ايفل وكان لها أقواس نصر خاصة بها، ويقال بأن جواهر السيدة العذراء بها كان يمكن تسديد كل الدين الخارجي الضخم لبوليفيا. لكن أجراس الكنائس الشهيرة التي كانت تدق بفرح عام ١٨٠٩ احتفالا بتحرير أمريكا، صارت تصدر الآن دقات جنائزية. وجرس سان فرانشيسكو الأجش، والذي لطالما أعلن عن تمردات وثورات، أصبح اليوم يدق لجمود الموت الذي أصاب سوكري. ولم يعد يهم الأمر كثيراً أن سوكري ما زالت العاصمة القضائية لبوليفيا، وأنه توجد بها المحكمة العليا. ففي شوارعها يمر عدد لا يحصى من صغار المحامين، سقيمين وبوجوه وجلود صفراء، شهود على التدهور: أطباء ما زالوا يستخدمون نظارات بشريط أسود. ومن القصور الضخمة الخاوية، يرسل سادة سوكري البطريركيين خدمهم لبيع

الفطائر عند شبابيك تذاكر السكك الحديدة. وكان هناك من استطاع أن يشتري، في أوقات سعيدة أخرى، حتى لقب أمير.

ولم يبق في بوتوسي سوى أشباح الثروة الميتة. أما في هوانتشاكا، وهي مأساة بوليفية أخرى، فقد استنفدت رؤوس الأموال الأنجلو ـ تشيلية، خلال القرن الماضي، عروق فضة عرضها أكثر من مترين، وذات نقاوة عالية جدا؛ ولم يعد يتبقى الآن سوى الأطلال التي يتصاعد منها الغبار. ما زالت هوانتشاكا في الخرائط، كما ولو أنها موجودة، ومحددة بمركز تعدين ما زال قائما، بعلامة الجاروف والمعول المتقاطعين. هل كان للمناجم المكسيكية حظ أفضل في غواناخواتو وزاكاتيكاس؟ على أساس المعلومات التي قدمها اليكساندر فون هومبولدت، الذي قدر بنحو خمسة الآف مليون دولار حجم العائد الاقتصادي الذي خرج من المكسيك فيما بين عامي ١٧٦٠ و١٨٠٩، أي بالكاد نصف قرن، وذلك من خلال صادرات الفضة والذهب(٤٠)حيث كانت المناجم المكسيكية أهم مناجم أمريكا. وقد قارن الحكيم الألماني الكبير منجم بالينثيانا، في غواناخواتو، بمنجم هيمليس فورست دي ساخونيا، والذي كان أغنى المناجم في أوروبا: فقد كانت بالنثيانا تنتج ٣٦ مرة أكثر من الفضة، عند بداية القرن، ويحقق لمساهميه أرباحاً أعلى بمقدار ٣٣ ضعفا. وقد غلب على الكونت سانتياغو دي لا لاغونا التأثر وهو يصف، في عام ١٧٣٢، مقاطعة ثاكاتيكاس المنجمية و"الكنوز النفيسة التي تخفيها أحشاؤها العميقة"، في التلال "المزدانة بأكثر من أربعة آلاف فتحة، حتى تقدم ثمرة أحشائها خدمة أفضل لصاحبي الجلالة"، و"حتى يهرع الجميع إلى الشراب وإلى المشاركة فيما هو عظيم، ثري، حضري ونبيل"، لأنه "نبع للحكمة، شرطة، وسلاح ونبالة"..(٤١).

ووصف القس مارموليخو، فيما بعد، مدينة غواناخواتو، التي تتخللها الجسور، بحدائق تشبه كثيراً حدائق سمير اميس في بابل والمعابد البهية، المسرح، ساحة مصارعة الثيران، ساحات مصارعة الديكة والأبراج والقباب الشاهقة على منحدرات الجبال الخضراء. لكن كان هذا بلد "غير عادل وغير متكافئ" واستطاع هومبولدت أن يكتب حول المكسيك: "ربما لم يكن عدم التكافؤ مفزعا في أي مكان بقدر ما هو مفزع ها هنا... فعمارة الأبنية العامة والخاصة، وجمال جهاز العرائس، وجو المجتمع، كلها كانت تنم عن غاية العناية التي تتناقض بصورة غير مألوفة مع عري وجهل وريفية العامة". لقد كانت أنفاق المناجم تبتلع الرجال والبغال في مرتفعات الجبال؛ وكان الهنود، "الذين يعيشون فقط لمجرد الخروج من ضوء النهار"، يعانون من الجوع المزمن والأوبئة تقتلهم مثل الذباب، وفي سنة واحدة، هي ١٧٨٤، فلقد حصدت موجة من الأمراض أثارها نقص الأغذية نتيجة برد ساحق، أكثر من ثمانية آلاف شخص في غواناخواتو.

لم تكن رؤوس الأموال تتراكم، وإنما كان يجري تبديدها، وكان يطبق المثل القديم بحذافيره: "أب تاجر، ابن فارس، حفيد متسول". وفي مذكرة موجهة إلى الحكومة، في عام ١٨٤٣، وجه لوكاس الامان تحذيرا خطيرا، بينما أكد على ضرورة الدفاع عن الصناعة القومية من خلال نظام محظورات وضرائب فادحة ضد المنافسة الأجنبية، قائلاً: "من الضروري اللجوء إلى تنشيط الصناعة، باعتبارها مصدرا وحيدا للرفاهية الشاملة، ولن تفيد لمنقطة بويبلا ثروة ثاكاتيكاس، ما لم يكن بسبب الاستهلاك الذي تقدمه لصناعاتها، وفي حال تدهورت الأخيرة مرة أخرى كما حدث من قبل، فسوف يشمل الخراب هذه المنطقة المزدهرة الآن، دون أن يكون بإمكان ثروة تلك المناجم ان تنقذها من

العوز". وقد اتضح أن تلك النبوءة كانت محقة. ففي أيامنا، لم تعد ثاكاتيكاس وغواناخواتو من المدن المهمة في إقليمهما. وكلتاهما على حد سواء محاطتان بهياكل معسكرات ازدهار المناجم. كما تحيا ثاكاتيكاس، الجرداء المرتفعة، على الزراعة وتصدر الأيدي العاملة إلى الولايات الأخرى؛ وتعتبر درجة نقاوة مستخرجاتها الحالية من الذهب والفضة منخفضة جدا، بالنسبة للأوقات الجميلة الماضية. ومن بين الخمسين منجم التي كانت مستغلة في مقاطعة غواناخواتو، لا يكاد يتبقى الآن سوى اثنين. ولا يتزايد سكان المدينة الجميلة، بل يتدفق السياح لتأمل بذخ الأوقات الماضية، والتجوال في الحواري ذات الأسماء الرومانسية، الغنية بالأساطير، وللإحساس بالرعب لرؤية المومياوات المائة التي حفظتها أملاح الأرض سليمة لم تمس. أما عائلات ولاية غواناخواتو، بمتوسط أفراد أكثر من خمسة، فتحيا حاليا في أماكن بائسة وذات غرفة واحدة.

سفك الدماء والدموع، رغم أن البابا كان قد أقَّرَّ بأن للهنود روحاً

أكد فيليبي الثاني، في عام ١٥٨١، أمام محكمة غوادالخارا، بأنه تم إبادة ثلث هنود أمريكا، وأن الأحياء منهم يجدون أنفسهم ملزمين بدفع الجزية عن الأموات. كما قال العاهل أن الهنود يُباعون ويشترون. وأنهم ينامون في العراء. وأن الأمهات يقتلن أبناءهن لإنقاذهم من عذاب المناجم[٤٢]. لكن حدود نفاق التاج كانت أوسع من حدود الإمبراطورية: فقد كان التاج يتلقى خُمس قيمة المعادن التي ينتزعها رعاياه في كل أرجاء العالم الإسباني الجديد، بالإضافة إلى غير ذلك من الضرائب، وحدث نفس الشيء في القرن الثامن عشر، بالنسبة للتاج

البرتغالي في البرازيل. لقد تغلغلت فضة وذهب أمريكا كالحمض المتآكل في مسام المجتمع الإقطاعي الأوروبي المريض، حسب عبارة إنجلز، ومن أجل خدمة التجارة الرأسمالية الوليدة فقد حولت أوروبا أرباب المناجم الهنود والعبيد السود إلى "بروليتاريا خارجية" هائلة العدد لدى الاقتصاد الأوروبي. وانبعثت العبودية الإغريقية الرومانية من جديد، في عالم مختلف؛ ويضاف إلى تعاسة هنود الإمبراطوريات الهيسبانية، المصير المرعب للزنوج المنتزعين من القرى الإفريقية للعمل في البرازيل وفي جزر الأنتيل. لقد كان للاقتصاد الاستعماري الأمريكي اللاتيني أكبر تمركز لقوة عمل عرفت حتى ذلك الحين، من أجل إتاحة أكبر تمركز للثروة لم تستطع امتلاكه أي حضارة في تاريخ العالم على الإطلاق.

تلك الموجة العارمة من الجشع، والرعب، والشجاعة كان ثمنها إبادة السكان المحليين: لقد قدّرت الأبحاث الحديثة الموثوقة المصدر بأن تعداد سكان المكسيك قبل أن يحل عليها كولومبس كان يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين مليونا، ويقدر أنه كان هناك عدد مماثل من الهنود في منطقة الأنديز؛ وكان هناك ما بين عشرة وثلاث عشرة مليونا في أمريكا الوسطى وجزر الأنتيل.. ولقد كان مجموع هنود الأميركتين لا يقل عن سبعين مليونا، وربما أكثر، ليتقلص عددهم إلى ثلاثة ملايين ونصف فقط، قرن ونصف من الزمن بعد ظهور الغزاة الأجانب في الأفق[٤٣]. وحسب رواية الماركيز دي باريناس كان يعيش أكثر من مليوني هندي بين ليما وباتيا، أما في عام ١٦٨٥ فلم يتبق أكثر من أربعة آلاف أسرة هندية. أما كبير الأساقفة لينيان ثيسنيروس فقد أنكر إبادة الهنود: "إنهم يختبئون ـ حسب قوله ـ كي لا يدفعوا الجزية، مسيئين استخدام الحرية التي نمحنها لهم والتي لم تكن متوفرة لديهم في عصر الإنكا"[٤٤].

كان يتم إفراغ المعادن من المناجم الأمريكية بدون رحمة، وكانت تصل من البلاط الإسباني، دون رحمة، أوامر على الورق تضمن حماية وكرامة الهنود، الذين كانوا يعملون دون توقف ليطيلوا عمر المملكة. لقد كانت خرافة القانون تحمي الهندي؛ وكان الاستغلال يدميه. من العبودية إلى تكليفه بالخدمات، ثم فرض الجزية إلى نظام الأجور، لنجد أن المتغيرات في الظروف القانونية لقوة العمل الهندية لم تتغير إلا بصورة سطحية. لقد اعتبر التاج أن الاستغلال الغير إنساني لقوة العمل للهنود في غاية الضرورة، بحيث أصدر فيليب الثالث، عام ١٦٠١، قواعد تحظر العمل الإجباري في المناجم، بينما وفي نفس الوقت، أرسل بتعليمات سرية أخرى آمرة بمواصلته "في حال إذا كان هذا يقلل من الإنتاج[٤٥]".

لقد قام الزائر والحاكم خوان دي سولورثانو بإجراء تحقيق حول ظروف العمل في مناجم الزئبق في هوانكافيلليكا: "ينفذ السُّم في النخاع ذاته، ليضعف كل الأعضاء ويسبب رجفة دائمة، ليموت العمال، بوجه عام، خلال أربع سنوات". ولقد أبلغ مجلس جزر الهند بذلك، إلا أن فيليب الرابع كان قد أمر في عام ١٦٣١، بالاستمرار في نفس النظام، كما جدد خليفته، كارلوس الثاني، المرسوم. كانت مناجم الزئبق هذه تابعة مباشرة للتاج، بخلاف مناجم الفضة، التي كانت ملك مستثمرين أفراد.

وحسب جوسيا كوندير، فخلال ثلاثة قرون، كان تل بوتوسي الغني قد أحرق ثمانية ملايين روح. لقد كان الهنود يُنتزعون من التجمعات الزراعية ويساقون، مع زوجاتهم وأولادهم نحو التل. ومن بين كل عشرة كانوا يمضون نحو القفار العالية المثلجة، سبعة لم يكونوا يعودون أبداً. لقد كتب لويس كابوتشي، والذي كان صاحب مناجم "كانت

الطرق ممتلئة بحيث كان يبدو أن المملكة تنتقل من مكانها". وفي التجمعات، كان الهنود قد رأوا "نساء كثيرات مكلومات يعدن دون أزواجهن وأطفالاً كثيرين يتامى دون آبائهم" وكانوا يعلمون أنه ينتظرهم في المناجم "ألف موت وألف كارثة". كان الإسبان يجوبون مئات الأميال بحثا عن أيدي عاملة. وكان الكثير من الهنود يموتون في الطريق، قبل بلوغ بوتوسي. لكن ظروف العمل القاسية في المنجم هي التي كانت تقتل أغلبهم. وقد أبلغ القس الدومينيكاني دومينغو دي سانتو توماس مجلس جزر الهند، عام ١٥٥٠، بعد فترة قصيرة من مولد المنجم، أن بوتوسي كانت "فوهة الجحيم" الذي كان يلتهم الهنود كل عام بالألاف وأن أصحاب المناجم المتوحشين كانوا يعاملون السكان الأصليين "كما حيوانات بلا مالك". وسيذكر القس رودريغو دي لوايسا فيما بعد: "هؤلاء الهنود المساكين يشبهون سمك السردين في البحر. فكما تطارد الأسماك الأخرى السردين لتلتهمه، فإن الجميع هنا يطاردون الهنود البؤساء"[٤٦]... وكان زعماء الهنود ملزمين على إعطاء رجال جدد من سن الثامنة عشرة إلى سن الخمسين مكان الذين يموتون. وحظيرة التوزيع، حيث كان الهنود يُهدون إلى أصحاب المناجم والمصانع، وهي ساحة ضخمة ذات جدران حجرية، تستخدم الآن ليلعب فيها العمال كرة القدم؛ أما سجن الميتابو، وهو ركام من الأطلال لا شكل له، فيمكن رؤيته اليوم عند مدخل بوتوسي.

لا تنقصنا مراسيم من ذلك العصر في مجموعة قوانين جزر الهند الغربية تؤسس المساواة في الحقوق بين الهنود والإسبان من أجل استغلال المناجم وتحرّم صراحة التعدي على حقوق السكان الأصليين. أن التاريخ الرسمي ـ تلك الحروف الميتة التي تستعيد في عصرنا الحروف الميتة للعصور الماضية ـ ليس لديه ما يشكو منه، لكن بينما

كان يجري الجدل في أكوام لا نهائية من الورق حول تشريع العمل الهندي وتنفجر في حبر عبقرية المشرعين الإسبان، كان القانون في أمريكا "يُحترم ولكنه لا يُطبّق". في الأفعال، كان "الهندي البائس عُمْلَة - إذا أوردنا كلام لويس كابوتشي - يمكن بها تحقيق كل ما هو ضروري، مثلما بالذهب والفضة، وأفضل بكثير. "وكان أفراد عديدون يطالبون أمام المحاكم بإقرار وضعهم كخلاسيين كي لا يُرسلوا إلى المناجم، ولا يُباعوا في السوق المرة تلو المرة.

وكان قد تبرأ كونكولوركورفو في أواخر القرن الثامن عشر والذي كان يجري في عروقه الدم الهندي، من ذويه على النحو التالي: "لا يمكن إنكار أن المناجم تستهلك حياة عددا كبيراً من الهنود، لكن ذلك ليس بسبب العمل الذي يقومون به في مناجم الفضة والزئبق، وإنما بسبب الفسق الذي يعيشون فيه". أما شهادة كابوتشي، الذي كان في خدمته كثير من الهنود، فتعد نموذجية في هذا المقام، فقد كانت درجات الحرارة الثلجية في العراء تتناوب مع الحرارة الأشد جهنمية في أعماق التل. كان الهنود يدخلون الأعماق، "وعادة ما يسحبونهم موتى والآخرون مهشمي الرؤوس أو السيقان، وفي المصانع يجرحون أنفسهم كل يوم" كان الميتايو يفصلون المعدن بحد المعاول ثم يصعدون به حاملينه فوق ظهورهم، على درجات، على ضوء شمعة. وخارج المناجم، كانوا يحركون المحاور الخشبية الطويلة في المصانع أو يسكبون الفضة على النار، بعد طحنها وغسلها.

كان نظام "الميتا" آلة لسحق الهنود. وكان استخدام الزئبق لاستخلاص الفضة بالاتحاد الكيميائي يسمم بنفس درجة الغازات السامة في أحشاء الأرض أو أكثر. كان يُسقط الشعر والأسنان ويسبب ارتجافات لا يمكن السيطرة عليها. وكان من يتسممون من الزئبق يتمددون في

الشوارع طالبين الإحسان. كانت ست آلاف وخمسمائة شعلة تشتعل في الليل على منحدرات التل الغني، ويجري على ضوئها تشغيل الفضة بالاستفادة من الريح التي يبعثها "سان اغوسطين المجيد" من السماء. ولم يعد ثمة زرع أو بذار في مساحة نصف قطرها ستة فراسخ حول بوتوسي بسبب دخان الأفران، ولم تكن الأبخرة أقل قسوة على أجساد الرجال.

كانت التبريرات الأيدولوجية متوفرة دائما.. لقد تحولت مذبحة العالم الجديد إلى عمل من أعمال البِر أو سبب للإيمان. وُلِد مع الذنب شريحة كاملة من الأكاذيب من أجل الضمائر المذنبة. حوّل الهنود إلى حيوانات جر، لأنهم يتحملون أثقالا أكبر مما يتحمل ظهر حيوان اللاما الضعيف، وبالمناسبة، جرت البرهنة على أن الهنود، هم، فعلا، حيوانات جر، واعتبر نائب الملك في المكسيك أنه لا علاج أفضل من العمل في المناجم من أجل شفاء "الشر الطبيعي" لدى الهنود. وأصر خوان غينيس دي سيبولفيدا، ذو النزعة الإنسانية، على أن الهنود يستحقون المعاملة التي ينالوها لأن خطاياهم ووثنيتهم تمثل إهانة للرب. أما الكونت دي بورفون فقد أكد أنه لم يُلاحظ في الهنود، تلك الحيوانات الباردة والضعيفة، "أي نشاط روحي". أما رئيس الرهبان دي باو فقد اخترع أمريكا يتبادل فيها الهنود المنحطون مع الكلاب التي لا تعرف النباح، والبقرات التي لا تؤكل، والجمال العنّينة. وكانت أمريكا فولتير، التي يقطنها هنود كسالى وحمقى، تملك خنازير صرّتها على ظهرها وأسودا صلعاء وجبانة. أما بيكون، ودي ميستر، ومونتسيكينو، وهيوم، وبودلن، فقد رفضوا أن يتعرفوا على أشباه لهم في "البشر المنحطين" للعالم الجديد. وتحدث هيغل عن العجز الفيزيقي والروحي لأمريكا وقال أن الهنود قد ماتوا بنفخة من أوروبا[٤٧].

أكد الأب غريغوريو غارثيا في القرن السابع عشر أن الهنود ينحدرون من سلالة يهودية، لأنهم "كسالى مثل اليهود، لا يؤمنون بمعجزات يسوع المسيح وليسوا ممتنين للإسبان من أجل كل ما فعلوه لهم من حسنات". ولم ينكر هذا الكاهن، على الأقل، بأن الهنود من نسل آدم وحواء: فلقد كان هناك الكثير من اللاهوتيين والمفكرين الذين لم يقتنعوا بمرسوم البابا بولس الثالث الذي صدر عام ١٥٣٧، حيث أعلن فيه أن الهنود "بشر حقيقيون". وقد أثار الأب بارتولومي دي لاس كاساس البلاط الإسباني نظرا لاحتجاجاته ضد قسوة فاتحي أمريكا: وفي عام ١٥٥٧، أجابه أحد أعضاء المجلس الملكي بأن الهنود هم بالغي التدني في سلم البشرية بحيث لا يمكنهم تعلم الدين[٤٨]. وكان لاس كاساس قد كرس حياته للدفاع عن الهنود في وجه تجاوزات أصحاب المناجم والإقطاعيين. وكان يقول أن الهنود يفضلون الذهاب إلى الجحيم حتى لا يصادفوا المسيحيين. كان الغزاة والمستعمرون يفرضوا تعلم الدين على الهنود، إلا أن الوقت المتبقي من استخدامهم في الأعمال الشاقة لم يكن كافيا لإدخالهم في طريق الخلاص المسيحي. وقد تلقى هرنان كورتيس ثلاثة وعشرين ألف تابع، مقابل خدماته؛ وكان يتم توزيع الهنود في نفس الوقت الذي تمنح فيه الأراضي من خلال منح ملكية أو من خلال الانتزاع المباشر. ومنذ عام ١٥٣٦ كان الهنود يسلّمون في الإقطاعات، مع نسلهم، لعمرين: عمر الإقطاعي وعمر وريثه المباشر؛ ومنذ عام ١٦٢٩ أخذ العمل بهذا النظام يمتد في الممارسة. فأصبحت الأراضي تباع بما فيها من هنود[٤٩].

كان الهنود، في القرن الثامن عشر، ومن بقي منهم على قيد الحياة، يضمنون حياة مريحة لأجيال كثيرة قادمة. ولما كانت الآلهة المهزومة باقية في ذاكرتهم، فقد توفرت الأكاذيب المقدسة من أجل الانتفاع بقوة

عملهم من جانب المنتصرين: لقد كان الهنود وثنيين لا يستحقون حياة أخرى. هل كان هذا فقط في الماضي؟ فبعد أربعمائة وعشرين عاما من مرسوم البابا بولس الثالث، أصدرت محكمة العدل العليا في الباراغواي، تعميما يبلغ كل قضاة البلاد، بأن "الهنود مخلوقات بشرية تماماً مثل بقية سكان الجمهورية". ثم قام فيما بعد مركز الدراسات الأنثروبولوجية بجامعة اسونثيون الكاثوليكية باستطلاع مثير للانتباه في العاصمة وفي داخل البلاد" وكانت النتيجة أنه من بين كل عشرة باراغوايين، ثمانية منهم يعتقد أن "الهنود مثل الحيوانات". وفي كاغوازو، وفي البارانا العليا، وفي التشاكو، يُصاد الهنود مثل الوحوش، ويباعون بأثمان بخسة ويُستغلون بنظام يماثل العبودية. ورغم ذلك، فإن كل الباراغوايين تقريبا يجري في عروقهم دم هندي، ولا تمل البارغواي من وضع الأغاني، والقصائد، والخطب في تكريم "روح شخصية الغواراني".

الحنين المقاتل لتوباك امارو

حينما حل الإسبان في أمريكا، كانت إمبراطورية الإنكا الثيوقراطية في قمة ازدهارها، وكانت سلطتها تمتد فيما يعرف اليوم بالبيرو، وبوليفيا، والأكوادور، وتغطي جزءا من كولومبيا وتشيلي وتصل حتى الشمال الأرجنتيني والغابات البرازيلية؛ وكانت وحدة الازتيك قد بلغت مستوى راقيا من الكفاءة في وادي المكسيك، وفي يوكاتان وأمريكا الوسطى كانت حضارة المايا الرائعة متصلة في الشعوب التي ورثتها، والمنتظمة في العمل ومن أجل الحرب.

لقد تركت هذه المجتمعات شواهد كثيرة على عظمتها، رغم الفترة الطويلة من التدمير: آثارا دينية مشيّدة بحكمة تفوق حكمة الأهرامات

المصرية، وإبداع تقنيات فعّالة في الصراع ضد الطبيعة، وأعمالا فنية تشي بعبقرية فريدة. يمكن مشاهدة مئات من الجماجم التي أجريت لها عمليات معقدة وعلاج بشرائح من الذهب والفضة من جانب الجراحين الإنكا. وكان هنود المايا فلكيين عظماء فلقد قاسوا الزمن والمسافة بقوة مدهشة، واكتشفوا قيمة الرقم صفر قبل أي شعب آخر في التاريخ. وقد أذهلت قنوات الري والجزر الصناعية التي خلفها الآزتيك هرنان كورتيس، رغم أنها لم تكن من الذهب.

لقد دمر الغزاة أسس تلك الحضارات. وكان لتطبيق الاقتصاد المنجمي نتائج أسوأ من الدم والنار في الحروب. فقد كانت المناجم تتطلب نقل السكان بأعداد ضخمة وتفكك الوحدات المجتمعية الزراعية؛ فلم تبد حيوات لا تحصى من خلال العمل الإجباري فحسب، بل أنه بالإضافة إلى ذلك، وبصورة غير مباشرة، حطمت نظام الزراعة الجماعي، فسيق الهنود إلى المناجم، واخضعوا لعبودية الإقطاعيين، وأجبروا على تسليم الأراضي التي تركوها أو أهملوها قسرا وذلك دون مقابل. وعلى شاطئ المحيط الهادي دمَّر الإسبان، أو تركوا الزراعات الضخمة من الذرة للخراب. والمنيهوت، واللوبياء، والفاصوليا، والفول السوداني، والبطاطا؛ وسرعان ما التهمت الصحراء امتدادات واسعة من الأرض التي كانت تستقبل الحياة من خلال شبكة دي الآنكا. وبعد أربعة قرون ونصف من الغزو لم يتبق سوى الأحجار والأجمات مكان أغلب الطرق التي كانت تربط الإمبراطورية. ورغم أن الأشغال العامة الضخمة للآنكا قد محاها الزمن، في غالبيتها، أو محتها أيدي المغتصبين، فما زالت باقية، منقوشة على سلاسل جبال الأنديز، تل المصاطب اللانهائية التي كانت وما زالت تتيح زراعة جوانب الجبال. ويقدر خبير تقني أمريكي شمالي عام ١٩٣٦، لو أنشئت هذه المصاطب

في ذلك العام، بالطرق الحديثة، لتكلفت نحو ثلاثين ألف دولار للفدان[٥٠]. لقد أمكن عمل هذه المصاطب وقنوات الري، في تلك الإمبراطورية التي لم تكن تعرف العجلة، ولا الحصان، ولا الحديد، بفضل التنظيم البارع والكمال التقني المتحقق من خلال تقسيم حكيم للعمل، لكن كذلك بفضل قوة الدين الذي يحكم علاقة الإنسان بالأرض - التي كانت مقدسة، وبالتالي، حيَّة دائما.

كذلك كانت استجابات الآزتيك لتحدي الطبيعة مدهشة. وفي أيامنا، يعرف السياح باسم "الحدائق الطافية" تلك الجزر القليلة الباقية في البحيرة المجففة حيث ترتفع الآن، فوق الأطلال الهندية، عاصمة المكسيك، وقد خلقت هذه الجزر بواسطة الآزتيك كحلٍّ لمشكلة نقص الأراضي في الموقع المختار لإقامة مدينة تينوتشتيتلان. فلقد نقل الهنود كمية كبيرة من الطين من ضفاف الأنهار ودعموا الجزر الجديدة بالجير بين جدران رقيقة من الغاب، حتى صلبّتها جذور الأشجار. وبين مساحات الأرض الجديدة انسابت قنوات المياه. وفوق هذه الجزر الخصبة بصورة غير عادية نمت عاصمة الآزتيك القويَّة، بشوارعها وقصورها ذات الجمال المتقشف، وأهراماتها المدرجة: وبعد أن تفتحت بصورة سحرية من البحيرة، قُدّر لها أن تختفي تحت ضربات الغزو الأجنبي. وسوف تظل المكسيك تنتظر أربعة قرون قبل أن يبلغ سكانها نفس العدد الذي كان موجودا في تلك الازمان.

كان الهنود، كما يقول دارسي ريبيرو، هم وقود النظام الإنتاجي الاستعماري. "من الأمور شبه المؤكدة - هكذا يكتب سيرخيو باجو - أنه قد ألقى في المناجم الاسبانية مئات من الهنود النحاتين، والمعماريين، والمهندسين، والفلكيين المختلطين بحشود العبيد، ليقوموا بعمل خشن ومنهك في استخراج المعادن. لم تكن المهارة التقنية لهؤلاء الأفراد تهم

الاقتصاد الاستعماري. كانوا يعدّون فقط باعتبارهم عمالا غير مؤهلين".
لكن لم تضع كل شذرات تلك الثقافات المُدمِّرة. فقد أشعل الأمل في إعادة بعث الكبرياء المفقود انتفاضات هندية عديدة. وليضرب توباك امارو حصارا حول كوثكو في عام ١٧٨١.

هذا الزعيم الخلاسي، السليل المباشر للأباطرة الآنكا، كان قد تزعم أوسع حركة ثورية ساعية إلى الخلاص. اندلع التمرد الكبير في مقاطعة تينتا. ودخل توباك امارو، على صهوة حصانه الأبيض، ميدان تونغا سوكا وعلى صوت دق الطبول والنفخ في الأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات، أعلن أنه قد حكم بالشنق على العمدة الملكي أنطونيو خوان دي ارياغا، ومنع نظام الميتا في بوتوسي، وكانت مقاطعة تينتا قد فرغت من سكانها بسبب الخدمة الإجبارية في مناجم فضة التل الغني. وبعد أيام قلائل، أصدر توباك امارو تعميما جديداً يأمر فيه بتحرير العبيد، وألغى كل الضرائب كما ألغى "اقتسام" الأيدي العاملة الهندية بكل أشكاله. وانضم الهنود، بالألاف إلى قوات "والد جميع الفقراء، وجميع البؤساء وجميع المنكوبين" وعلى رأس محاربيه، اندفع الزعيم نحو كوثكوسار وهو يلقي الخطب: كل من سيموت تحت إمرته في هذه الحرب سوف يبعث لكي يتمتع بضروب السعادة والثروة التي جرده منها الغزاة. وجرت انتصارات وهزائم؛ وفي النهاية، نتيجة لخيانته والقبض عليه من قبل أحد قوّاده، تم تسليم توباك امارو، مكبلا بالسلاسل، إلى الملكيين، وزاره المفتش اريتشي في سجنه، ليطلب منه مقابل وعود كثيرة، أسماء المتواطئين معه في التمرد، فأجابه توباك امارو باحتقار: "لا يوجد هنا متواطئون سوانا أنت وأنا؛ أنت لكونك مضطِهداً، وأنا لكوني مُحرِّراً، وكلانا يستحق الموت"[٥١]

تعرض توباك لأشد أنواع العذاب، مع زوجته، وأبنائه، وأنصاره

الرئيسيين، في ميدان واكابياتا، في كوثكو. قطعوا لسانه، وربطوا رأسه عند حافة المشنقة، وبعثوا بالرأس إلى تينتا. وأرسل أحد ذراعيه إلى تونغا سوكا والآخر إلى كارابايا، وأرسلوا إحدى ساقيه إلى سانتاروسا والأخرى إلى ليبيتاكا، وحرقوا جذعه ونثروا الرماد فوق نهر واتاناناي. واوصوا بإبادة سلالته حتى الدرجة الرابعة.

وفي عام ١٨٠٢ زعيم آخر من نسل الآنكا، هو استوربيكو، قام بزيارة همبولدت. تم ذلك في كاخاماركا، في نفس المكان الذي رأى فيه سلفه، اتاهوالبا، لأول مرة الغازي بيثاررو. صحب ابن الزعيم العالم الألماني لجولة بين أطلال القرية وبين حطام قصر الآنكا العتيق، وحدثه وهما يسيران عن الكنوز الرائعة المختبئة تحت التراب والرماد. فسأله هومبولدت "إلا تشعر أحيانا بالرغبة في التنقيب بحثا عن الكنوز لسد احتياجاتك؟" فأجاب الشاب: "الرغبة لا تأتينا. يقول أبي أن ذلك سيكون خطيئة، فلو امتلكنا الأغصان الذهبية بكل الثمار الذهبية، فسوف يكرهنا جيراننا البيض ويوقعون بنا الأذى"[٥٢].

كان الزعيم يزرع حقلا صغيرا بالقمح، لكن ذلك لم يكن كافيا لجعله في مأمن من الجشع الأجنبي، فالمغتصبون المتلهفون على الذهب والفضة وكذلك على طاقة العبيد للعمل في المناجم، لم يكونوا يتوانون في الانقضاض على الأراضي حين تقدم الزراعات ربحا مغريا. واستمر السلب على طول الزمن، وفي عام ١٩٦٩، حين أعلن الإصلاح الزراعي في البيرو، ظلت الصحف تورد تقارير، متواترة، عن أن هنود التجمعات الجبلية المدمرة كانوا يغزون بين حين وآخر، ناشرين أعلامهم، الأراضي التي سرقت منهم ومن أسلافهم، وكان الجيش يصدهم بإطلاق النيران. وكان لا بد من الانتظار قرنين تقريبا منذ توباك امارو حتى يلتقط الجنرال الوطني خوان بيلاسكو البارادو ويُطبِّق عبارة

الزعيم تلك، ذات الصدى الخالد: "أيها الفلاح، لن يأكل المالك فقرك بعد الآن". !

وهناك بطلان آخران أنقذهما الزمن من الهزيمة هما المكسيكيان هيدالغو وموريلوس، ميغيل هيدالغو، الذي ظل حتى سن الخمسين قِسًّا ريفيا وديعا، وذات صباح جميل أطلق العنان لأجراس كنيسة دولوريس داعيا الهنود للنضال من أجل حريتهم". هل تريدون المساعدة في استعادة الأراضي التي سرقها الإسبان البغيضون من أسلافكم منذ ثلاثمائة سنة؟". ورفع لواء عذراء جواد غوادالوبي، وقبل مرور ستة أسابيع تبعه ثمانون ألف رجل، مسلحين بالسكاكين، والرماح، والمقاليع، والأقواس والسهام. ووضع القِسّ الثوري نهاية للجزية ووزع أراضي غوادالخارا؛ وأمر بتحرير العبيد؛ ووجه قواته نحو مدينة المكسيك، لكنه أُعدم في النهاية، في نهاية هزيمة عسكرية، وعند موته، كما يقولون، ترك شهادة توبة مؤثرة[٥٣].

ولم تتأخر الثورة في العثور على زعيم جديد، هو الكاهن خوسيه ماريا موريليس: يجب أن تعتبروا أن أعداءكم هم كل الأغنياء، والنبلاء، والمستخدمين من الطبقة الأولى...". وبلغت حركته ـ وهي حركة عصيان هندية وثورة اجتماعية ـ حد السيطرة على رقعة واسعة من أراضي المكسيك حتى هزم موريلوس بدوره وأُعدم رميا بالرصاص. أما استقلال المكسيك، بعدها بست سنوات، فقد اتضح أنها صفقة هسبانية، بين أوروبيين وقوم ولدوا في أمريكا... صراع سياسي داخل نفس الطبقة المسيطرة[٥٤].

أصبح القِن عاملا أجيرا وأصبح الإقطاعي مالك أراضي[٥٥].

الجمعة الحزينة للهنود تنتهي دون بعث

كان ملاّك البونغو، في بدايات القرن الحالي، وهم الهنود المكرسون للخدمة المنزلية، ما زالوا يعرضونهم للإيجار عبر صحف مدينة لا باث.

وحتى ثورة ١٩٥٢، التي أعادت للهنود حق المساواة المُمرَّغ بالوحل، كان البونغو يأكلون بقايا طعام الكلاب، الذي ينامون بجواره، وينحنون عند مخاطبتهم لأي شخص ذي جلد أبيض. كان الهنود حيوانات جَرّ يحملون على ظهورهم أمتعة الفاتحين: فقد كانت الدواب قليلة. لكن في أيامنا يمكننا، على طول هضبة الالتيبلانو الأنديزية، أن نرى حمَّالين من هنود الايمارا، والكيتشواس يحملون أحمالا حتى بأسنانهم مقابل رغيف جاف. كان تغبّر الرئة أول مرض مهني في أمريكا؛ وفي الوقت الحاضر، حين يكمل عمال المناجم البوليفيون سن الخامسة والثلاثين، لتبدأ رئاتهم برفض الاستمرار في العمل: اذ يتخلل غبار السيليكا الذي لا يرحم جلد عامل المنجم، ويشقق وجهه ويديه، ويقضي على حاستي الشم والذوق، ويهزم رئتيهم ويصلبّهما ويقتلهما.

يعشق السياح تصوير هنود الالتيبلانو وهم يرتدون ازياءهم التقليدية، لكنهم لا يعلمون أن الزي الهندي الراهن فرضه عليهم كارلوس الثالث في أواخر القرن الثامن عشر. والألبسة النسائية التي أجبر الإسبان الهنديات على استخدامها هي نسخة من الأزياء الإقليمية للفلاحات الإسبانيات في أقاليم اكستريمادورا، والأندلس، وبلاد الباسك، وحصل نفس الشيء مع تصفيفة شعر الهنديات، ذات الفرق في المنتصف، والتي فرضها نائب الملك توليدو، لكن، لم يحدث نفس الشيء بالنسبة لاستهلاك الكوكا، الذي لم يبدأ مع الإسبان؛ فقد كان موجودا في

عصور الآنكا. إلا أن الكوكا كانت توزع بحرص؛ كانت امبراطورية الآنكا تحتكرها ولا تسمح بتوزيعها إلا لأغراض لها علاقة بالشعائر أو من أجل العمل الشاق في المناجم. وقد نشّط الإسبان بصورة حادة استهلاك الكوكا. لقد كانت تجارة رائعة. وكان يُنفق في بوتوسي، في القرن السادس عشر الكثير على الثياب الأوروبية من أجل المستغلين وكذلك من أجل الكوكا للمضطهَدين. وكان يعيش في كوثكو، أربعمائة تاجر إسباني، على ترويج الكوكا؛ وفي مناجم فضة بوتوسي كانت تدخل سنوياً مائة ألف سلة، بها مليون كيلو غرام من أوراق الكوكا، وكانت الكنيسة تُحصّل الضرائب على هذا المخدر. ويخبرنا الآنكا غارثيلاسو دي فيغا، في شروحه الملكية، بأن الجزء الأكبر من دخل الأسقف والرهبان وغيرهم من مسئولي الكنيسة في كوثكو كان يأتي من ضريبة العشور على الكوكا، وبأن نقل وبيع هذا المنتج كانا قد أثريا إسبانا كُثُر. بالنقود القليلة التي كانوا يحصلون عليها مقابل عملهم، كان الهنود يشترون أوراق الكوكا بدل الغذاء: اذ أنهم بمضغها يمكنهم أن يتحملوا أكثر تلك المهام القاسية المفروضة عليهم، وذلك مقابل تقصير أعمارهم بأيديهم. وبالإضافة إلى الكوكا، كان الهنود يستهلكون مشروب الرون، بينما يشكوا مالكوهم من انتشار "الرذائل المشؤومة" ما زال هنود بوتوسي في هذا الوقت من القرن العشرين، يواصلون مضغ الكوكا ليفتكوا بالجوع ويفتكوا بأنفسهم وما زالوا يحرقون أمعاءهم بالكحول الخالص. إنه الانتقام العقيم للمحكوم عليهم. وفي المناجم البوليفية، ما زال العمال يسمون ما يتلقونه من أجر باسم ميتا أي العمل الاجباري للهنود.

منفيون في أرضهم، ومحكوم عليهم بالشتات الأبدي، فقد دُفعوا هنود أمريكا اللاتينية نحو أفقر المناطق، ونحو الجبال الجرداء أو أعماق

الصحراوات، بقدر ما كانت تتسع حدود الحضارة السائدة. لقد عانى الهنود وما زالوا يعانون من لعنة ثروتهم الخاصة ـ وهذا هو مركب دراما كل أمريكا الجنوبية. فحين تم اكتشاف مُتع الذهب لنهر بلويفيلدز، في نيكاراغوا، أقصوا هنود الكارتا بسرعة بعيدا عن أراضيهم على الضفاف، وهذا أيضاً، هو تاريخ هنود كل الوديان الخصبة وأعماق الأرض الثرية من نهر الريو برافو وحتى الجنوب. ولم تتوقف أبدا مذابح الهنود التي بدأت مع كولومبس، وفي اوروغواي وفي باتاغونيا الأرجنتينية، أُبيد الهنود، في القرن الماضي، من قبل الجنود الذين كانوا يبحثون عنهم ويحصدون أرواحهم في الغابات أو في الصحراء، حتى لا يعوقوا التقدم المنظم لإقطاعيات تربية الماشية(٥٦).

في البانتاغونا الأرجنتينية، في نهاية القرن، كان يقبض الجنود المال مقابل تسليم خصي الهنود. وفي رواية دافيد فينياس "أصحاب الأرض" بوينس ايريس، ١٩٥٩ تبتدئ بحفل صيد للهنود: "لأن القتل هو كما الاغتصاب. شيء جيد. ويجب أن أقول أنه محبب: كان يجب أن تركض، وكان يمكن أن تصرخ، ويتصبب العرق ثم لتشعر فيما بعدها بالجوع... كان صوت الطلقات يتباعد. لا بد أن أحد تلك الأجساد قد عَلِق بين الأشجار. جسد لهندي متدلي نحو الخلف، ببقعة سوداء بين الفخذين...".

وقد تعرض هنود الياكي، في ولاية سونورا المكسيكية، لحمام دم حتى يتمكن للملاّك الجدد من بيع أراضيهم، الغنية بالموارد التعدينية والخصبة للزراعة، دون مضايقات لمختلف الرأسماليين الأمريكيين الشماليين. ونُقل من بقوا منهم أحياء إلى مزارع يوكوتان. وهكذا، لم تتحول شبه جزيرة يوكوتان إلى مقبرة الهنود المايا الذين كانوا هم أصحابها فحسب، بل تحولت كذلك إلى مقبرة لهنود الياكي، الذين

قدموا من بعيد: في أوائل القرن، كان ملوك البيتا الخمسين يملكون أكثر من مائة ألف عبد هندي في مزارعهم. ورغم صلابتهم البدنية الاستثنائية، إلا أنه مات ثلثا هنود الياكي خلال العام الأول من العمل العبودي[٥٧].

وفي أيامنا، لا تستطيع الياف البيتا أن تنافس بدائلها الصناعية إلا بفضل مستوى الحياة البالغ الانخفاض الذي يحياه عمالها. لقد تغيرت الأمور، بالتأكيد، لكن ليس كثيراً كما يُظن، على الأقل بالنسبة للهنود في يوكوتان: "إن شروط حياة هؤلاء العمال تشبه كثيراً العمل العبودي"، هذا ما يقوله البروفسور ارتورو بونيبا سانشيز. وفي المنحدرات الآنديزية القريبة من بوغوتا، نجد أن الأجير الهندي مُلزم بالعمل أياما بالمجان حتى يسمح له صاحب المزرعة بأن يزرع أرضه هو، في الليالي التي يطلع فيها القمر؛ "لقد كان أسلاف هذا الهندي يزرعون بِحُرِّية، دون أن يستدينوا، أرض السهل الخصبة، التي لم تكن تخص أحدا، وهو يعمل بالمجان حتى يضمن حق زراعة الجبل المجدب"[٥٨].

وحتى الهنود، المعزولين في أعماق الغابات لا ينجون، في أيامنا، ففي أوائل هذا القرن، كان لا يزال على قيد الحياة مئتان وثلاثون قبيلة في البرازيل، ومنذ ذلك الحين اختفت تسعون منها، مُحيت من على ظهر الكوكب بفعل وبفضل الأسلحة النارية والميكروبات. العنف والمرض، هما السمات المتقدمة للحضارة: وما زال الاتصال بالرجل الأبيض، بالنسبة للهنود، هو اتصال بالموت. والمراسيم القانونية التي تحمي هنود البرازيل منذ عام ١٥٣٧ قد أصبحت ضدهم، فوفق نص كل الدساتير البرازيلية، فإنهم "السادة البدائيون والطبيعيون للأراضي" التي يشغلونها. لكن يحدث أنه كلما كانت هذه الأراضي البكر أكثر ثراء

كلما أصبح الخطر الذي يتهدد حياتهم أكثر حدة؛ وسخاء الطبيعة يحكم عليهم بالسلب والجريمة. وقد انفلت زمام مذبحة الهنود، في السنين الأخيرة، بقسوة عارمة؛ لأن أكبر غابات العالم، المجال الاستوائي الشاسع المفتوح للأسطورة وللمغامرة، قد تحول بغتة، إلى مشهد لحلم أمريكي جديد. وفي سياق الغزو، انقضَّ رجال وشركات من الولايات المتحدة على إقليم الأمازون كما لو كان غربا بعيدا جديداً. وقد اشغل هذا الغزو الأمريكي الشمالي بصورة غير مسبوقة جشع المغامرين البرازيليين، يموت الهنود دون أن يتركوا أثرا وتباع الأراضي بالدولارات للمشترين الجدد. ويظهر الذهب والمعادن الوفيرة الأخرى، والخشب، والمطاط، هذه الثروات التي يجهل الهنود قيمتها التجارية، تظهر مرتبطة بنتائج كل واحد من التحقيقات القليلة التي أجريت. والمعروف أن الهنود قد تعرضوا لنيران المدافع الرشاشة من الطائرات المروحية والطائرات الصغيرة، وأنهم قد عُرضوا لفيروس الجُدري، وأُلقي الديناميت فوق قراهم وأهدي إليهم السُّكر الممزوج بالأسكرتين والملح بالزرنيخ. أما نفس مدير إدارة حماية الهنود، الذي عينه الدكتاتور كاستيلو برانكو لتقويم الإدارة، فقد اتهم، بالأدلة، بارتكاب اثنين وأربعين نوعا مختلفا من الجرائم ضد الهنود، وقد تفجرت هذه الفضيحة في عام ١٩٦٨.

إن مجتمع الهنود، في عصرنا، لا يوجد في الفراغ، خارج الإطار العام للاقتصاد الأمريكي اللاتيني، حقيقة أن هناك قبائل برازيلية ما زالت حبيسة الغابة، وتجمعات في الالتيبلانو معزولة تماماً عن العالم، ومعاقل الهمجية عند حدود فنزويلا، لكن الهنود، بشكل عام، مندمجون في نظام الإنتاج وفي سوق الاستهلاك، ولو بصورة غير مباشرة. إنهم يشاركون، بوصفهم ضحايا، في نظام اقتصادي واجتماعي يقومون فيه بدور شاق هو دور أكثر من يقع عليهم الاستغلال بين

المُستَغَلين. يشترون ويبيعون جزءا كبيراً من الأشياء القليلة التي يستهلكونها وينتجونها، عن طريق وسطاء أقوياء وجشعين يتقاضون الكثير ويدفعون القليل؛ وهم أجزاء في المزارع الضخمة، وأرخص الأيدي العاملة، وهم جنود في الجبال، يقضون أيامهم وهم ينتجون للسوق العالمية أو يصارعون من أجل مستعبديهم. وفي بلدان مثل غواتيمالا، على سبيل المثال، يشكلون عصب الحياة الاقتصادية القومية: فعاما إثر عام، وبشكل دوري، يهجرون أراضيهم المقدسة، الأراضي المرتفعة، المزارع الضئيلة بحجم جثة، ليقدموا مائتي ألف يد عاملة في حصاد البن، والقطن، والسكر في الأراضي المنخفضة. ينقلهم المقاولون في سيارات نقل، مثل المواشي، وليست الحاجة هي التي تقرر دائما: فأحيانا يقرر مشروب الرون، فيدفع المقاولون أجر فرقة موسيقية من عازفي الاكسيلوفون ويديرون الكحول القوي: وحين يفيق الهندي من سكرته، تكون الديون هي نصيبه. وسوف يدفعها بالعمل في الأراضي الحارة التي لا يعرفها، من حيث يعود في ختام بضعة شهور، ربما ببعض الدراهم في جيبه، وربما مصابا بالسلّ أو الملاريا. ويتعاون الجيش بكفاءة في مهمة اقناع المتوانين[٥٩].

إن نزع ملكية الهنود ـ أي اغتصاب أراضيهم وقوة عملهم ـ قد نتج وما زال ينتج موازيا للاحتقار العرقي، الذي يتغذى بدوره على الانحطاط الموضوعي للحضارات التي دمرها الغزو. وقد احالت نتائج الغزو وكل الزمن الطويل من الإذلال التالي له الهوية الثقافية والاجتماعية التي كان الهنود قد بلغوها إلى أشلاء. ورغم ذلك فإن هذه الهوية المسحوقة هي الوحيدة الباقية في غواتيمالا. وهي باقية في المأساة. ففي أسبوع الآلام، تفسح مواكب خلفاء المايا المجال لتبدّيات مفزعة للماسوكية الجماعية، فهم يجرجرون الصلبان الثقيلة، ويشاركون في

ضرب المسيح بالسياط خطوة خطوة خلال الصعود الذي لا ينتهي إلى الجلجلة؛ مع صرخات الألم، يتحول موت المسيح ودفنه إلى عقيدة الموت الذاتي والدفن الذاتي، إفناء الحياة الجميلة القصيّة. وينتهي أسبوع آلام هنود غواتيمالا دون بعث ودون خلاص[٦٠].

فيللا ريكا دي أورو بريتو: بوتوسي الذهب

حمى الذهب، التي واصلت فرض الموت أو العبودية على هنود الأمازون، ليست جديدة في البرازيل، كذلك ليس جديداً الدمار الذي صنعته.

ولقرنين من الزمان بدءا من اكتشاف أمريكا، ظلت تربة البرازيل ترفض، بعناد، منح المعادن لملاكها البرتغاليين، وغطى استغلال الخشب، "البالو برازيل"، الفترة الأولى من استعمار السواحل، وسرعان ما أقيمت مزارع ضخمة للسكّر في الشمال الشرقي، لكن بخلاف أمريكا الإسبانية، بدت البرازيل خالية من الذهب والفضة. لم يكن البرتغاليون قد وجدوا هناك حضارات هندية ذات مستوى راق من التطور، بل وجدوا قبائل همجية ومتفرقة. كان الهنود يجهلون المعادن؛ وكان على البرتغاليين أن يكتشفوا، لحسابهم الخاص، المواقع التي ترسبت فيها رواسب الذهب في الأراضي الشاسعة التي أخذت تتكشف، عبر هزيمة وإبادة الهنود.

كان الرواد البانديرانتيس[٦١] في إقليم ساو باولو قد عبروا المنطقة الشاسعة بين السيرا دي مانتيكيرا ومصب نهر ساو فرنسيسكو، ولاحظوا أن مجاري وضفاف مختلف الأنهار والجداول التي تجري هناك تحتوي على آثار ذهب رسوبي بكميات صغيرة مرئية. كان المطر المتساقط منذ آلاف السنين قد برى عروق الذهب من الصخور ورسبّه في الأنهار،

وفي قيعان الوديان، وفي منخفضات الجبال، وتحت طبقات الرمل، أو الطين، أو الطمي، كان بطن التربة الصخري يقدم شذرات من الذهب من السهل استخراجها من حصى الكوارتز؛ وأخذت طرق الاستخراج تأخذ في التعقُّد بقدر ما تستنفد الكميات الأكثر سطحية. هكذا دخل التاريخ، فجأة، إقليم ميناش غيرايس، واستخرجت أكبر كمية ذهب اكتشفت حتى ذلك الحين في العالم في أقل فترة زمنية.

"هنا كان الذهب غابة"، هكذا يقول المتسول، الآن، ونظرته تطوف أبراج الكنائس، "كان هناك ذهب في الأرصفة، وكان ينمو مثل العشب"، إنه الآن في الخامسة والسبعين من عمره ويعتبر نفسه جزء من تقاليد ماريانا (ريبيرا دو كارمو)، تلك المدينة المنجمية الصغيرة القريبة من أورو بريتو، التي تبقى، مثل أورو بريتو، خارج الزمن. يقول لي الشحاذ: "الموت أكيد، لكن ساعته غير مؤكدة. ولكل واحد زمنه المكتوب"، يبصق فوق الدرج الحجري وينفض رأسه: "كانت النقود تزيد عن حاجتهم"، يحكي وكأنه قد رآهم. "لم يعرفوا أين ينفقون المال ولهذا كانوا يشيدون الكنيسة بجوار الأخرى".

في أزمنة أخرى، كانت هذه المنطقة أهم مناطق البرازيل، والآن. "والآن لا"، يقول لي العجوز: "الآن لا توجد هنا أي حياة. هنا لا يوجد شباب. فالشباب يمضون". يسير حافيا، إلى جواري، بخطوات بطيئة تحت شمس الغروب الدافئة: "أترى؟ هناك، في واجهة الكنيسة، توجد الشمس والقمر. هذا يعني أن العبيد كانوا يعملون ليلا ونهارا. هذا المعبد بناه الزنوج؛ وذلك بناه البيض. وتلك دار المونتسنيور اليبيو، الذي مات في سن التاسعة والتسعين".

خلال القرن الثامن عشر، فاق إنتاج البرازيل من المعدن المشتهى

الحجم الكلي للذهب الذي استخرجته إسبانيا من مستعمراتها خلال القرنين السابقين[٦٢]. وتقاطر المغامرون والباحثون عن الثروة. كان سكان البرازيل عام ١٧٠٠ ثلاثمائة ألف، وبعد ذلك بقرن من الزمن، في ذروة سنوات الذهب، كان السكان قد تضاعفوا أحد عشرة مرة. وهاجر إلى البرازيل ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف برتغالي خلال القرن الثامن عشر. "عدد من السكان... أكبر من العدد الذي جلبته إسبانيا إلى كل مستعمراتها الامريكية"[٦٣]. ويقدر إجمالي عدد العبيد السود المجلوبين من أفريقيا، منذ اكتشاف البرازيل وحتى إلغاء العبودية بنحو عشرة ملايين: وإذا كانت الأرقام الدقيقة للقرن الثامن عشر غير متاحة، فلا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن دورة الذهب كانت تمتص أيدٍ عاملة من العبيد بكميات ضخمة.

كانت سلفادور دي باهيا هي العاصمة البرازيلية خلال دورة السُّكر المزدهرة في الشمال الشرقي، لكن "العصر الذهبي"، لميناش غيرايش نقل المركز الاقتصادي والسياسي للبلاد إلى الجنوب وحول ريو دي جانيرو، ميناء الإقليم، إلى العاصمة الجديدة للبرازيل ابتداء من عام ١٧٦٣. وفي المركز الحيوي للاقتصاد المنجمي الصاخب، نبتت المدن، تلك المعسكرات التي ولدت في مرحلة الرواج ونمت بغتة في دوار الثروة السهلة، "ملاجئ المجرمين، والصعاليك الأشرار" - حسب الكلمات المهذبة لأحد المسئولين الاستعماريين في تلك الفترة. كانت فيلا ريكا دي أورو بريتو قد بلغت مرتبة المدينة عام ١٧١١؛ ولأنها ولدت وسط شلال أصحاب المناجم، فقد كانت خلاصة حضارة الذهب. وقد وصفها سيماو فيريرا ماتشادو، بعد ثلاث وعشرين سنة، فقال "أن سلطة تجار أورو بريتو فاقت بما لا يقاس سلطة أكثر التجار ازدهارا في لشبونة: "الى هنا، تتجه وتوضع في دار النقود كميات

الذهب الضخمة لكل المناجم. وهنا يعيش أفضل الناس ثقافة، سواء العلمانيون أو الدينيون. هذا هو مقر النبالة الكاملة ومقر قوة العسكريين. إنها، بفضل موقعها الطبيعي، رأس أمريكا بأسرها؛ وبفضل قوة ثرواتها، فإنها "الجوهرة الثمينة للبرازيل". عرف كاتب آخر لتلك الفترة في عام ١٧٣٢ وهو فرنسيسكو تافاريش دي بريتو، أورو بريتو بأنها "بوتوسي الذهب"(٦٤).

وكانت تصل إلى لشبونة باستمرار شكاوى واحتجاجات على الحياة الآثمة في أورو بريتو، وسابارا، وساو جواو ديل ريي، وريبيراو دو كارمو، وكل مقاطعات المناجم المائجة. كانت الثروات تأتي وتضيع في غمضة عين، وقد اشتكى الأب انتونيل من أن هناك الكثيرين من أصحاب المناجم المستعدين لدفع ثروة مقابل زنجي يجيد العزف على البوق ولدفع ضعف ذلك من أجل عاهرة خلاسية، "ليغرق معها في الخطايا المخزية"، لكن ذوي الرداء الديني لم يكونوا يتصرفون بطريقة أفضل: إذ يمكن أن نستخلص من المراسلات الرسمية لتلك الفترة شواهد عديدة ضد "اللاهوتيين المنحلين" الذي يشوهون الإقليم. وكانوا يُتهمون باستخدام حصانتهم لتهريب الذهب داخل الأيقونات الخشبية الصغيرة للقديسين. وفي عام ١٧٠٥، كان يتم التأكيد على أنه ليس في ميناش غيرايش قِس واحد مستعد للاهتمام بالدين المسيحي للناس، وبعدها بست سنوات بلغ الأمر بالتاج إلى حد منع إقامة أي فرقة دينية في المقاطعة المنجمية.

وانتشرت، على أية حال، الكنائس الجميلة المشيدة والمزينة على الطراز الباروكي الأصلي الذي يميز الإقليم. فقد جذبت ميناش غيرايش أفضل حرفيي العصر: من الخارج كانت المعابد تبدو هادئة، صافية؛ أما في الداخل، فكان يتلألأ رمز الروح القدس، بالذهب الخالص في

المذابح، وروافدها، وفي الأعمدة، وفي الصور المرسومة بالنقش الغائر؛ لم يكن الناس يضنّون بالمعادن النفيسة، حتى تبلغ الكنائس "أيضا ثروات السماء"، كما نصح الراهب ميغيل دي ساو فرنسيسكو عام ١٧١٠، كانت الخدمات الدينية باهظة الثمن جدا، لكن كل شيء كان غاليا بصورة خيالية في المناجم. ومثلما حدث في بوتوسي، فقد اندفعت أورو بريتو لتبديد ثروتها المفاجئة. واتاحت المواكب والعروض استعراض الملابس والحُلِي ذات الفخامة الباذخة. وفي عام ١٧٢٣، دام أحد الأعياد الدينية أكثر من أسبوع، ولم تكن المواكب تجري فقط على الأقدام، وعلى صهوة الخيول، أو في عربات مزدهيه بالعاج، والحرائر والذهب، في حال تفوق الخيال والتصور، بل كانت تقام كذلك مسابقات في المبارزة، ومصارعات الثيران، ورقص في الشوارع على أنغام الصفارات، وموسيقى القرب والغيتارات(٦٥).

كان أصحاب المناجم يحتقرون زراعة الأرض وقد عانى الإقليم من نوبات المجاعة أثناء مرحلة الازدهار، حوالي عام ١٧٠٠ و١٧١٣ اضطر أصحاب الملايين لأكل القطط، والكلاب، والفئران، والنمل، والصقور. كان العبيد يستنفدون قواهم وأيامهم في مصافي الذهب. كتب لويس غوميز فيريرا: "هناك يعملون، وهناك يأكلون، وكانوا ينامون عادة هناك؛ ولما كانوا يتصببون عرقا حين يعملون، وأرجلهم دائماً على الأرض الباردة، على الأحجار أو في الماء، وحين يستريحون أو يأكلون، تنغلق مسامهم ويتجمدون بحيث يكونون عرضة لكثير من الأمراض الخطيرة، مثل الأمراض الحادة كالتهاب الجنبة، والسكتة، والرعشة، والشلل والالتهاب الرئوي، وكثير غيرها: كان المرض بركة من السماء تعجّل بالموت. وكان ضباط العصا في ميناش غيرايش يتقاضون مكافئات ذهبية مقابل الرؤوس المقطوعة للعبيد الهاربين(٦٦).

كان يطلق على العبيد اسم "قِطَع جزر الهند" حين يقاسون، ويوزنون، ويحملون على السفن في لواندا؛ ومن يبقى على قيد الحياة بعد عبور المحيط، يتحول في البرازيل إلى أيدي واقدام السيد الأبيض. كانت انغولا تصدر العبيد وسن الفيل مقابل الثياب، والمشروبات، والأسلحة النارية؛ لكن أصحاب مناجم أورو بريتو كان يفضلون الزنوج القادمين من ساحل ويداه الصغير، في شاطئ غينيا، لأنهم كانوا أنشط، ويتحملون لفترة أكثر قليلا، ولديهم قوى سحرية لاكتشاف الذهب. وكان كل صاحب منجم يحتاج، بالإضافة إلى ذلك، إلى عشيقة سوداء على الأقل من ويداه حتى يحالفه الحظ في الاستكشافات[٦٧].

ولم يزد انفجار الذهب استيراد العبيد فحسب، بل أنه كذلك امتص جزءا كبيراً من اليد العاملة السوداء المشغولة في مزارع السكر والتبغ في أقاليم البرازيل الأخرى، بحيث بقيت دون يد عاملة. وقد حظر مرسوم لعام ١٧١١ بيع العبيد الذين يعملون في أعمال زراعية بهدف خدمة المناجم، باستثناء أولئك الذين يبدون "شذوذا في الطبع" كان جوع أورو بريتو للعبيد لا يشبع. وكان الزنوج يموتون بسرعة، وفي أحوال استثنائية فقط كانوا يتحملون سبع سنوات متصلة من العمل. حقا: قبل عبور الإطلنطي، كان البرتغاليون يعمدونهم جميعا. وفي البرازيل كانوا ملزمين بحضور القداس، رغم أنه كان من المحظور عليهم دخول المحراب أو الجلوس على المقاعد.

وعند منتصف القرن الثامن عشر كان كثير من أصحاب المناجم قد انتقلوا إلى سيرا دو فريو بحثا عن الماس. كان قد اتضح أن الأحجار البلورية التي كان الباحثون عن الذهب يلقونها جانبا وهم يستكشفون مجاري الأنهار هي قطع ماس. قدمت ميناش غيرايش ذهبا وماسا، وبنسب متساوية، وتحول معسكر تيجوكو المزدهر إلى مركز مقاطعة

الماس وفيه، مثلما في أورو بريتو، أخذ الأغنياء يلبسون وفق آخر موضة أوروبية ويجلبون، من ساحل المحيط الآخر، الملابس والأسلحة، وأفخر الأثاث: إنها أوقات الدوار والإسراف. وهناك عبدة خلاسية، هي فرنسيسكا دا سيلفا، نالت حريتها بالتحول إلى عشيقة المليونير جواو فيرناندیز دي أوليفيرا، الحاكم الفعلي لتيجوكو، ولقد كانت قبيحة وكان لديها طفلين، وقد تحولت إلى السيدة الآمرة[٦٨]. ولما كانت لم ترى البحر أبدا وأرادت أن يكون بقربها، صنع لها فارسها بحيرة صناعية ضخمة وضع فيها سفينة بطاقم بحارة وكل ما يلزم. وفوق سفوح جبل ساو فرنسيسكو شيد لها قلعة، بها حديقة تضم النباتات الغريبة والشلالات الصناعية؛ وكان يقيم على شرفها الولائم الباذخة التي تسيل فيها أفضل الخمور، ويدور الرقص الليلي الذي لا ينتهي وتقدم العروض المسرحية وحفلات الموسيقى. وحتى في عام ١٨١٨، احتفلت تيجوكو احتفالا رائعا بزواج أمير البلاط البرتغالي، وقبل ذلك بعشر سنوات، دهش جون ماو، وهو إنجليزي زار أورو بريتو، لفقرها، فقد وجد منازل خاوية وبلا قيمة، وعليها لافتات تعرضها للبيع عبثا، وأكل طعاما قذرا وقليلا. وقبل ذلك بزمن كانت قد انفجرت حركة التمرد التي تصادفت مع الأزمة في مقاطعة الذهب. كان جوزيه جواكيم دا سيلفا اكسافيير، الشهير بلقب "تيرادنتس"، قد أُعدم ومُزِّق إربا، وكان المناضلون الآخرون من أجل الاستقلال قد رحلوا من أورو بريتو إلى السجن أو إلى المنفى.

مساهمة ذهب البرازيل في تقدم إنجلترا

في نفس لحظة توقيع البرتغال مع إنجلترا لاتفاقية ميثوين، كان قد بدأ تدفق الذهب، عام ١٧٠٣، وكانت هذه الاتفاقية تتويجا لسلسلة من

الامتيازات حققها التجار الإنجليز في البرتغال. ففي مقابل بعض الأفضليات للنبيذ البرتغالي في السوق الإنجليزية، فتحت البرتغال سوقها، وسوق مستعمراتها، أمام المصنوعات البريطانية. ونتيجة عدم التكافؤ في التطور الصناعي الذي كان قائماً عندئذ بالفعل، فإن هذا الإجراء كان يتضمن الحكم بالخراب للمصنوعات المحلية. ولم يكن ثمن المنسوجات الإنجليزية يدفع بالخمور، بل بالذهب، بذهب البرازيل، وفي الطريق، بقيت معامل النسيج البرتغالية مشلولة. ولم تكتف البرتغال بقتل صناعتها الخاصة وهي لا تزال في وضع جنيني، لكنها، وبشكل عرضي، أجهزت كذلك على أي بكتيريا لأي نوع من التطور الصناعي في البرازيل. فقد حظرت المملكة تشغيل أي معامل لتكرير السكر عام ١٧١٥؛ وأعلنت تجريم فتح طرق جديدة في مناطق المعادن في عام ١٧٢٩، وفي عام ١٧٨٥، أمرت بحرق معامل الغزل والنسيج البرازيلية[٦٩].

اما إنجلترا وهولندا، بطلتا تهريب الذهب والعبيد، اللتان جمعتا ثروات ضخمة من التجارة غير المشروعة في اللحم الأسود، فقد اقتنصتا بطرق غير مشروعة، ما يقدر بأكثر من نصف الذهب الخاص بضريبة "الخمس الملكي" التي يجب أن يتلقاها التاج البرتغالي من البرازيل. لكن إنجلترا لم تكتف باللجوء إلى التجارة الممنوعة لتحويل اتجاه الذهب البرازيلي إلى لندن، فقد جربت الطرق المشروعة كذلك، فقد انطوى ازدهار الذهب، الذي تضمن تدفق أعداد كبيرة من السكان البرتغاليين إلى ميناش غيرايش، على تنشيط حاد للطلب الاستعماري على المنتجات الصناعية وأتاح، في نفس الوقت، وسائل دفع ثمنها. وبنفس الطريقة التي كانت فضة بوتوسي تتوقف بها على أرض إسبانيا، كان ذهب ميناش غيرايش يمر فقط بالبرتغال، وتحولت المتروبول إلى

مجرد وسيط. وفي عام ١٧٥٥، حاول المركيز دي بومبال، رئيس الوزراء البرتغالي، إحياء سياسة حماية، لكن الوقت كان متأخرا: فاستنكر أن يكون الإنجليز قد فتحوا البرتغال دون مضايقات الغزو، وأنهم يزوِّدون البرتغال بثلثي احتياجاتها وأن البريطانيين يمثلون مالكي كل التجارة البرتغالية. لم تكن البرتغال تنتج شيئاً من الناحية العملية وأصبحت ثروة الذهب خرافية إذ أنه حتى العبيد السود الذين يعملون في مناجم المستعمرة كانوا يرتدون ملابس يقدمها الإنجليز[٧٠].

وقد أوضح ثيلسو فورتادو أن إنجلترا، التي كانت تتبع سياسة واضحة بشأن التطور الصناعي، قد استخدمت ذهب البرازيل لدفع ثمن واردات أساسية من بلدان أخرى واستطاعت تركيز استثماراتها في القطاع التصنيعي. وقد أمكن تطبيق تجديدات تكنولوجية سريعة وفعالة بفضل هذه الأريحية التاريخية للبرتغال. انتقل المركز المصرفي لأوروبا من أمستردام إلى لندن. وحسب المصادر البريطانية، فإن شحنات الذهب البرازيلي إلى لندن بلغت خمسين ألف رطل أسبوعيا في بعض الفترات. وبدون هذا التراكم الهائل لاحتياطات المعدن: ما كان لإنجلترا القدرة على مواجهة نابليون فيما بعد[٧١].

لم يتبقَّ، على التربة البرازيلية، شيء من الدافع الحيوي للذهب، باستثناء المعابد والأعمال الفنية. وفي أواخر القرن الثامن عشر، ورغم أن الماس لم يكن قد نضب بعد، كانت البلاد متعبة. فلم يكن دخل الفرد بالنسبة للثلاثة ملايين برازيلي يتعدى خمسين دولاراً سنوياً بالقدرة الشرائية الراهنة، وفق حسابات فورتادو، وكان هذا أدنى مستوى خلال كل الفترة الاستعمارية. سقطت ميناش غيرايش بغتة في هاوية الانكماش والخراب. وبشكل لا يصدق. يعرب كاتب برازيلي عن الاعتراف بالجميل ويصر على أن رأس المال الإنجليزي الذي خرج من ميناش

غيرايش "خدم الشبكة المصرفية الضخمة التي حبّذت التجارة بين الأمم وجعلت من الممكن رفع مستوى معيشة الشعوب القادرة على التقدم"[٧٢]. وبعد أن حكم عليها بصورة قاسية بالفقر لصالح تقدم الغير، ظلت الشعوب "غير القادرة" معزولة ووجب عليها أن تكتفي بانتزاع غذائها من الأراضي الفقيرة التي تم استنزافها من المعادن والاحجار الكريمة. احتلت زراعة الكفاف مكان الاقتصاد التعديني[٧٣]. وفي أيامنا، فإن حقول ميناش غيرايش، مثل حقول الشمال الشرقي، ممالك للإقطاعية ولـ "كولونيلات الضرائب"، معاقل راكدة للتأخر. وبيع عمال المناجم إلى الضِّياع الضخمة للولايات الأخرى شائع مثل تجارة العبيد التي يعاني منها أهالي الشمال الشرقي. وقد تجول فرنكلين دي أوليفيرا في ميناش غيرايش منذ زمن قريب، فوجد منازل متهاوية من الخشب، وقرى دون ماء أو كهرباء، وعاهرات متوسط عمرهن ثلاثة عشر عاما في الطريق المؤدي إلى وادي جكيتيهونها، ومجانين وجَوعى على جوانب الطرق. ويقص كل هذا في كتابة الحديث بعنوان "تراجيديا التجدد البرازيلي" وقد قال هنري جورسيكس، عن حق، أن ميناش غيرايش لها قلب من ذهب في صدر من حديد، لكن تصدير رابع أكسيد الحديد الرائع منها يجري، في أيامنا، لحساب شركتي مانا ماينينغ كومباني وبيتلهم ستيل، اللتان اتحدتا لهذا الغرض: وقد سُلمت المناجم عام ١٩٦٤، في ختام حكاية شريرة. الحديد، في أيدي أجنبية، لن يترك أكثر مما تركه الذهب[٧٤].

تفجّر الموهبة هو الذي بقي كذكريات لدوار الذهب، إذا ما تناسينا ثقوب الحفائر والمدن الصغيرة المهجورة. كذلك لم تستطع البرتغال أن تنقذ قوة أخرى سوى الثورة الجمالية. ودير مافرا، فخر الدون جواجو الخامس، الذي كان قد أخرج البرتغال من الانحطاط الفني: فأبراجه

ذات السبعة وثلاثين جرسا، وأوانيه وشمعداناته المصنوعة من الذهب الخالص، لا زالت شاهدة على ذهب ميناش غيرايش. أما كنائس ميناش التي نهبت بدرجة كبيرة حتى أصبح من النادر أن نجد أشياء مقدسة، ذات حجم يمكن نقله، فقد بقيت فيها، وستبقى دوما، شامخة فوق الأطلال الاستعمارية، بأعمالها الباروكية العظيمة، وواجهاتها ومنابرها، ولوحاتها، ومنصاتها، وشخوصها البشرية، التي صممها، وقطعها، ونحتها، أنطونيو فرنسيسكو لشبون، الشهير باسم اليخادينيو وتوليديتو، الإبن العبقري لأحد العبيد من أحد الحرفيين. كان القرن الثامن عشر في نهاياته حين بدأ "الاليجادينيو" في تشكيل مجموعة من الشخوص المقدسة الضخمة من الحجر، عند أقدام محراب بوم خيسوس دي ماتوسينيوس، في كونغوياس دو كامبو. كانت نشوة الذهب من شئون الماضي، وسميت الأعمال باسم الأنبياء، لكن لم تعد هناك أية أمجاد للنبوة. كانت الخيلاء والبهجة قد اختفيا تماماً ولم يبق مكان لأي أمل. لكن الشهادة الأخيرة، العظيمة مثل موكب دفن لحضارة الذهب العابرة تلك، التي ولدت لتموت، قد تركها للقرون التالية أعظم فناني البرازيل موهبة في كل تاريخها. وقد أنجز "الاليجادنيو" علمه العظيم، وقد شوهه الجذام وأكل جسده، وهو يقبض على الإزميل والمطرقة بيدين دون أصابع ويزحف على ركبتيه، كل فجر متوجها إلى محترفه. وتؤكد الأسطورة أنه في كنيسة نوسا سينيورا داس ميرثيدس ميسيكورديا، في ميناش غيرايش، ما زال أصحاب المناجم الميِّتون يحتفلون بالقداس في الليالي الباردة الممطرة، وتظهر عظام وجه الكاهن بارزة، بينما يرفع يديه عند المحراب الكبير.

الملك سكر وملوك زراعيون آخرون

الزراعة، الأراضي والقدر

بلا شك، كان البحث عن الذهب والفضة هو، الدافع الأساسي للغزو، ولقد احضر كريستوفر كولومبس معه، في رحلته الثانية، الجذور الأولى لقصب السكّر، من جزر الكناري، ووزعها في الأراضي التي تسمّى اليوم جمهورية الدومينيكان، وابتهج حين أورقت النباتات بسرعة، بعد زرعها[٧٥]. كان السكّر، الذي يزرع على نطاق ضيق في صقلية، وفي جزر ماديرا والرأس الأخضر، ويُشترى في الشرق بأسعار مرتفعة، كان صنفا مُشتهى من جانب الأوروبيين حتى أنه كان يمثل شيئاً رئيسيا في جهاز الملكات، كان يباع في الصيدليات، ويوزن بالغرام. وكان السكر أهم منتوج زراعي من المزروعات في تلك الأراضي لما يقل قليلاً عن ثلاثة قرون بدءا من اكتشاف أمريكا. لم يكن ثمة، بالنسبة للتجارة الأوروبية، ناتج زراعي أهم من السكر المزروع في تلك الأراضي. لقد امتدت مساحات القصب على طول المنطقة الساحلية الرطبة الدافئة في شمال شرقي البرازيل، وامتدت فيما بعد، في جزر الكاريبي ـ باربادوس، وجمايكا، وهايتي، والدومينيك، وغوادلوبي، وكوبا، وبورتوريكو ـ كما أصبحت فيراكروث وساحل بيرو مواقع ملائمة لاستغلال "الذهب الأبيض" على نطاق واسع[٧٦]. وحضرت

فيالق هائلة من العبيد من أفريقيا لتقدم للملك سكر، قوة العمل العجيبة والمجانية التي يحتاجها: وقود بشري للاحتراق، وخُربت الأراضي بسبب هذا النبات الأناني الذي غزا العالم الجديد وجَرَف الغابات، مرهقة الخصوبة الطبيعية، ولتقضي على الرواسب العضوية التي راكمتها التربة. ونتج عن دورة السكر في أمريكا اللاتينية، أشكال من النجاحات القاتلة كتلك التي نشأت في بوتوسي، واورو بريتو، وثاكاتيكاس، وجوانا خواتو نتيجة فورات الذهب والفضة؛ وفي نفس الوقت، فقد أدت إلى خلق دفعة حاسمة، مباشرة، أو غير مباشرة، للتطور الصناعي لهولندا، وفرنسا، وإنجلترا، والولايات المتحدة.

كانت المزرعة الكبيرة المولودة نتيجة الطلب على السكر فيما وراء البحار، كانت كشركة تحركها رغبة صاحبها في الكسب ووضعت في خدمة السوق الذي اخذت أوروبا تطوره على نطاق عالمي، إلا أنها، في بنيتها الداخلية، كانت بعض سماتها السائدة اقطاعية، إذا أخذنا في الاعتبار أنها مكتفية بذاتها لدرجة كبيرة، ومن ناحية أخرى، كانت تستخدم يدا عاملة من العبيد. ولتمتزج هكذا ثلاثة عصور حضارية مختلفة - هي المركنتيلية والإقطاعية والعبودية - في خلية اقتصادية واجتماعية واحدة، بينما السوق الدولية هي التي كانت في مركز تشكيلة السلطة التي تكاملت في نظام المزارع منذ وقت مبكر.

تأخذ المزرعة الاستعمارية، الخاضعة للاحتياجات الأجنبية والممولة في حالات كثيرة من الخارج، خط مستقيم إلى لاتيفونديا أيامنا الحالية. وهذا واحد من الحبال المشدودة إلى عنق أمريكا اللاتينية والتي تسهم في خنق التطور الاقتصادي، وأحد العوامل الأساسية في فقر الجماهير الأمريكية اللاتينية ووجودها على الهامش. أما اللاتفيونديا الحالية، التي تعمل بشكل ميكانيكي بما يكفي لمضاعفة عائدات اليد العاملة، ولتتمتع

باحتياطيات واسعة من الأيدي العاملة الرخيصة، ولم تعد تعتمد على استيراد العبيد الأفارقة ولا على "العهدة" الهندية، إذ يكفي اللاتيفيونديا دفع أجور تبعث على السخرية، أو إعطاء مقابل عيني للخدمات، أو العمل المجاني مقابل حق العامل أن ينتفع من قطعة أرض صغيرة؛ إنها تتغذى على انتشار قطع الأرض الصغيرة، الناتجة عن توسعها ذاته، وعلى الهجرة الداخلية الدائمة لجيوش العمال التي تنتقل، بفعل الجوع، على إيقاع المواسم المتتالية.

لقد صارت البنية المختلطة للمزرعة، وكذلك اللاتيفونديا، كما ولو أنها مصفاة لتبديد الثروات الطبيعية. حيث شهدت كل منطقة بالتكامل في السوق العالمية دورة دينامية؛ ثم، وبفعل منافسة منتجات بديلة أخرى، أو نتيجة إنهاك التربة، أو بفعل ظهور مناطق أخرى ذات ظروف أفضل، نتج التدهور. وثقافة الفقر، واقتصاد الكفاف، والركود، هذا الثمن الذي يتقاضاه، بمرور السنين، الدافع الإنتاجي الأصلي. لقد كان الشمال الشرقي أغنى مناطق البرازيل، واليوم هو أفقرها؛ وتسكن في باربادوس وهاييتي تجمعات بشرية كالنمل محكوم عليها بالبؤس، وليصبح تحول السكر إلى أهم مفاتيح سيطرة الولايات المتحدة على كوبا، وثمن ذلك هو الزراعة الأحادية والإفقار القاسي للتربة. وليس السكر فقط. وإنما هو تاريخ الكاكاو أيضاً، والذي أنجب ثروة اوليغاريكية في كاراكاس؛ والقطن في مارانياو، ذي العظمة المباغتة والسقوط المباغت. تاريخ مزارع المطاط في الأمازون، التي تحولت إلى مدافن لعمال الشمال الشرقي البرازيلي الذين جُندوا مقابل قروش؛ تاريخ غابات الكبراتشو المدمرة في شمال الارجنتين وفي الباراغواي، تاريخ ضياع البيتا، في يوكاتان، عندما أرسل هنود الياكي ليلاقوا حتفهم. وهو أيضاً تاريخ البُنّ الذي يتقدم مخلفا صحراوات وراءه، وتاريخ مزارع الفاكهة في

البرازيل، وفي كولومبيا، وفي الاكوادور، وفي بلدان أمريكا الوسطى السيئة الحظ. بقليل من الحظ أو بكثير منه، صار كل منتج يتحول إلى قدر ما، إلى قدر عابر في أحيان كثيرة، للبلدان والاقاليم، والبشر. وقد واجهت المناطق المنتجة للثروات التعدينية نفس المصير. فبقدر ما يكون أحد المنتجات مطلوبا بدرجة أكبر في السوق الدولية، بقدر ما يزيد الشقاء الذي يجلبه للشعب الأمريكي اللاتيني الذي يخلقه بتضحياته، أما المنطقة الأقل تضررا من هذا القانون الحديدي، وهي منطقة الريو دي لا بلاتا، التي كانت ترسل الجلود، ثم اللحوم والصوف في تيارات السوق الدولية، ولكنها لم تستطع رغم ذلك أن تنجو من براثن التخلف.

اغتيال التربة في شمال شرق البرازيل

كانت المستعمرات الإسبانية تمنح المعادن، في المقام الأول. فقد اكتشفت فيها الكنوز والمناجم في وقت مبكر جدا. وكان السكر، الذي يحتل المرتبة الثانية، يزرع في سانتو دومينغو، ثم في فيراكروث، وبعد ذلك في ساحل البيرو وفي كوبا. وبالمقابل، كانت البرازيل هي أكبر منتج عالمي للسكر حتى منتصف القرن السابع عشر. وفي نفس الوقت، كانت مستعمرة البرتغال الأمريكية هي السوق الأساسية للعبيد؛ فقد أبيدت بسرعة اليد العاملة الهندية النادرة، في الأعمال الإجبارية، بينما يتطلب السكر فيالق ضخمة من الأيدي العاملة لتنظيف وإعداد الأرض، ولزراعة وحصد ونقل القصب، ثم أخيراً، عصره وتنقيته. وقد ازدهر المجتمع الاستعماري البرازيلي، الذي يعد نتاجا جانبيا للسكر، في باهيا وبرنامبوكو، حتى نقل اكتشاف الذهب نواة هذا المجتمع المركزية إلى ميناش غيرايش.

لقد وهب التاج البرتغالي حق الانتفاع بالأراضي إلى كبار ملاك

الأراضي الأوائل في البرازيل. فقد كان على مهمة الغزو أن تسير بشكل متوازي مع تنظيم الإنتاج. ونتيجة خطاب، تلقى اثني عشر "ضابطا" فقط، كل أراضي المستعمرة الشاسعة التي لم تكتشف(٧٧). ليتم استخدامها في خدمة الملك، بيد أن رؤوس الأموال الهولندية هي التي موّلت، لدرجة كبيرة، هذا الاستثمار الذي أصبح، في نهاية الأمر هولنديا أكثر من كونه برتغاليا. ولم تكتف الشركات الهولندية بالمشاركة في إقامة المعامل وفي استيراد العبيد؛ بل أنها، بالإضافة إلى ذلك، كانت تحصل على السكر الخام في لشبونة، وتكرره لتحصل هكذا على أرباح بلغت ثلث قيمة المنتج. وتبيعه في أوروبا. وفي عام ١٦٣٠، غزت شركة الهند الغربية الهولندية وفتحت الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل، كي تتولى السيطرة المباشرة على المنتج. وكان من الضروري مضاعفة مصادر السكر، من أجل مضاعفة الأرباح، ولذا قدَّمت الشركة للإنجليز في جزيرة باربادوس كل التسهيلات من أجل بدء الزراعة على نطاق واسع في جزر الانتيل. جلبت إلى البرازيل مستوطنين من الكاريبي حتى يكتسبوا، هناك في مستعمراتهم الجديدة، الخبرات التقنية اللازمة والقدرة على التنظيم. وحين طُرد الهولنديون أخيراً من الشمال الشرقي البرازيلي، في عام ١٦٥٤، كانوا قد وضعوا الأسس التي تمكن باربادوس من الاندفاع في منافسة حامية ومُدمِّرة. كانوا قد نقلوا زنوجا وجذور قصب، وكانوا قد اقاموا معامل مزودة بكافة المستلزمات. وانخفضت الصادرات البرازيلية بعنف إلى النصف وانخفضت أسعار السكر إلى النصف عند نهايات القرن السابع عشر. وفي هذه الاثناء، وخلال عقدين من الزمن، كان قد تضاعف عدد سكان باربادوس السود عشر مرات. كانت جزر الانتيل أقرب إلى السوق الأوروبية، وقدمت باربادوس أراض لم تُنهك بعد، وكانت تنتج بمستوى تقني أرقي.

وكانت الأراضي البرازيلية قد أنهكت، وكان المدى الكبير لتمردات العبيد في البرازيل وظهور الذهب في الجنوب، الذي انتزع الأيدي العاملة من المزارع، كانا كذلك قد عجّلا بالأزمة في الشمال الشرقي المنتج للسكر. وكانت أزمة حاسمة، وما زالت تمتد، زاحفة بشكل مؤلم من قرن إلى قرن، حتى أيامنا هذه.

لقد دمّر السكر الشمال الشرقي. فكان الشريط الساحلي الرطب، الذي ترويه الأمطار جيدا، يتمتع بتربة ذات خصوبة عالية، وغنية بالرواسب العضوية والأملاح المعدنية، وتغطيها الغابات من باهيا وحتى شيارا. هذا الإقليم ذو الغابات الاستوائية تحوّل، كما يقول جوزويه دي كاسترو، إلى إقليم من الصفائح[٧٨]. إقليم الغابات الذي خُلق لينتج الغذاء، أصبح إقليما للجوع. حيث كان كل شيء ينبت بوفرة طاغية، وخلّفت لاتيفوديا السكر، المدمرة والكاسحة، صخورا عقيمة، وأراض مكنوسة، وتربة متآكلة. كانت قد أقيمت في البداية مزارع البرتقال والمانجو، "تركت لمصيرها وأصبحت حدائق صغيرة تحيط بمنزل مالك المعمل، مخصصة تماماً لأسرة المزارع الأبيض"[٧٩]. كانت الحرائق التي تفسح الأراضي لزراعات القصب، تُدمِّر النباتات وتُدمر معها الكائنات الحية؛ فقد اختفت الغزلان، والخنازير البرية، والدببة، وحيوانات التابير، والأرانب، وحيوان الباكا، وحيوان التاتو. تمت التضحية بالكساء النباتي، بالزرع وبالحيوانات على مذبح الزراعة الأحادية لقصب السكر. وسرعان ما أنهك الإنتاج الكثيف التربة.

كان يوجد في البرازيل ما لا يقل عن ١٢٠ معملا، في أواخر القرن السابع عشر، يمثلون رأس مال يناهز المليونين من الجنيهات، لكن أصحابها، الذين كانوا يملكون أفضل الأراضي، لم يكونوا يزرعون موادا غذائية، بل كانوا يستوردونها، كما يستوردون منظومة واسعة من

الكماليات، تأتي من وراء المحيط، مع العبيد واكياس الملح. كانت الوفرة والرفاهية، كما هي العادة، موازيتان لبؤس أغلبية السكان، التي كانت تعيش في حالة مزمنة من سوء التغذية. انتقلت تربية الماشية إلى الصحراوات الداخلية، بعيدا عن شريط الساحل الرطب؛ أما السيرتاو، فكان برأسين من الماشية لكل كيلو متر مربع، يقدم (وما زال) اللحوم الصلبة عديمة المذاق، والنادرة دائما.

وولدت العادة من تلك العصور الاستعمارية، التي ما زالت سارية، الا وهي أكل الطين. يولد نقص الحديد فقر الدم؛ وتدفع الغريزة الأطفال في الشمال الشرقي إلى التعويض بالطين عن الأملاح التي لا يجدونها في غذائهم المعتاد، الذي يتلخص في دقيق المينهوت والفاصوليا، واللحم القديد إن حالفهم الحظ. وقديما، كان الأطفال الذين يمارسون هذه "العادة الأفريقية السيئة" يعاقبون بأن توضع على أفواههم كمامة أو بتعليق سلة من الخوص على ارتفاع كبير من الأرض[٨٠].

إن الشمال الشرقي البرازيلي، في الوقت الحالي، هو الإقليم الأكثر تخلفا في نصف الكرة الغربي[٨١]. وكونه معسكر اعتقال كبير لثلاثين مليون شخص، فإنه يعاني اليوم من تركة الزراعة الأحادية للسكر. بينما نبعت من أراضيه التجارة الأكثر ربحا للاقتصاد الزراعي الاستعماري في أمريكا اللاتينية. واليوم، نجد أن أقل من خمس المنطقة الرطبة في برنامبوكو مخصصة لزراعة قصب السكر، بينما لا يستخدم الباقي في أي شيء: وأصحاب معامل التكرير المركزية الضخمة، الذين هم أكبر زارعي القصب، يسمحون لأنفسهم بترف التبديد هذا، بإبقاء لايتفونديتاتهم الشاسعة دون أن تنتج أي شيء[٨٢]. وليست المناطق المجدبة وشبه المجدبة في داخل الشمال الشرقي هي التي يأكل فيها

الناس بشكل أسوأ، كما يُعتقد، فالسرتاو، صحراء الأحجار والشجيرات المتفرقة، والخضرة النادرة، تعاني من المجاعات الدورية: تضرب شمس الجفاف الحارقة الأرض وتحولها إلى مشهد على أرض القمر؛ وتجبر الناس على الهجرة وتبذر أطراف الطرق بصلبان الموتى، لكن الشريط الساحلي الرطب هو الذي يعاني من المجاعات الوبائية. فهناك حيث الوفرة المطلقة، نجد أن الشقاء، في أرض المتناقضات هذه، أكثر ما يكون الشقاء: الإقليم الذي اصطفته الطبيعة لينتج كل الأغذية، ينكرها جميعا: وما زال الشريط الساحلي يُعرف، ويا لسخرية اللغة، باسم "منطقة الغابة"، تكريما للماضي البعيد والبقايا البائسة للغابات المتبقية من قرون السكر. وما زالت لايتفونديات إنتاج السكر، تعيش على بنية تبديد مستمرة، مما يجبر على جلب الأغذية من مناطق أخرى، وخصوصا من إقليم الوسط ـ الجنوبي للبلاد، بأسعار متزايدة. وتكاليف المعيشة في إقليم ريسيفي هي أعلى تكاليف معيشة في البرازيل، ويفوق معدلها ريو دي جانيرو. والفاصوليا أغلي في الشمال الشرقي منها في ايبانيما الشاطئ الفاخر في خليج كاريوكا، ونصف كيلو غرام من دقيق المتيهوت يساوي الأجر اليومي لعامل بالغ في إحدى مزارع السكر، مقابل يوم عمل من شروق الشمس إلى غروبها: وإذا احتج العامل، فإن رئيس العمال يأمر بإحضار النجار ليأخذ مقاسات جسمه. وبالنسبة للملاّك أو مديريهم، ما زال ساريا، في مناطق واسعة، حق "الليلة الأولى" لكل فتاه. وثلث سكان ريسيفي يحيا على هامش الحياة في أماكن بائسة: وفي أحد الاحياء، وهو كازا اماريلا، يموت أكثر من نصف الأطفال الذين يولدون قبل أن يبلغوا عاما من العمر[٨٣]. ودعارة الأطفال، لطفلات في العاشرة أو الثانية عشرة يبيعهن آباؤهن، منتشرة في مدن الشمال الشرقي، وأجر يوم العمل في بعض المزارع

يقل عن أجور الهند المنخفضة. وقد أكد تقدير لمنظمة الأغذية والزراعة، وهي إحدى منظمات الأمم المتحدة، في عام ١٩٧٥، أنه في ضاحية فيتوريا، بالقرب من ريسيفي، يسبب نقص البروتينات "في الأطفال فقدانا للوزن أكثر بنسبة ٤٠٪ مما يلاحظ عموما في أفريقيا". وما زالت توجد السجون الخاصة في عديد من المزارع، "لكن المسئولين عن جرائم الاغتيال بسبب سوء التغذية ـ كما يقول رينيه ديموت ـ لا يسجنون فيها، لأنهم يملكون المفاتيح"[٨٤]. وتنتج برنامبوكو الآن أقل من نصف السكر الذي تنتجه ولاية ساو باولو، وبمحصول أقل لكل هكتار؛ ورغم ذلك، تحيا برتامبوكو من إنتاج السكر ويحيا أغلبية سكانها المتمركزون في المنطقة الرطبة، بينما تضم ولاية ساو باولو أقوى مركز صناعي في أمريكا اللاتينية. في الشمال الشرقي نجد أنه حتى التقدم ليس تقدميا، لأنه حتى التقدم في أيدي قلة من الملاك. وغذاء الأقليات يتحول إلى جوع الأغلبيات. ومنذ عام ١٨٧٠، جرى تحديث صناعة السكر بدرجة كبيرة، بإنشاء معامل التكرير المركزية الضخمة، ومن ثم "تقدم ابتلاع الأرض من جانب اللاتيفونديات بصورة خطيرة، مما زاد من حدة البؤس الغذائي في هذه المنطقة"[٨٥]. وخلال عقد الخمسينات من القرن الحالي، زاد التصنيع الذي يجري على قدم وساق، من استهلاك السكر في البرازيل. ونال انتاج الشمال الشرقي دفعة كبيرة، لكن دون زيادة في الإنتاجية لكل هكتار. وجرى ضم أراض جديدة، ذات نوعية أقل، إلى مقصبات قصب السكر، ومن جديد التهم السكر المساحات القليلة المكرسة لإنتاج الأغذية، أما الفلاح الذي كان يزرع قطعة أرضه الصغيرة، والذي تحول إلى عامل مأجور، فلم تتحسن أحواله بالوضع الجديد، فهو لا

يكسب نقودا تكفي لشراء الأغذية التي كان ينتجها من قبل[٨٦]. وكالعادة، فإن التوسع سيزيد من نطاق الجوع.

الزحف السريع في جزر الكاريبي

كانت جزر الانتيل هي جزر السكّر: فقد اندرجت في السوق العالمية كونها جزرا منتجة للسكر، وصار مكتوبا عليها إنتاج السكر حتى أيامنا، وهي باربادوس، وجزر سوتابنتو، وترينيداد، وتوباغو، وغوادالوبي، وبورتوريكو، وسانتو دومينغو (الدومينيكان وهاييتي). وكونها سجينة الزراعة الأحادية لقصب السكر في اللاتفيفونديات ذات الأراضي الشاسعة المنهكة، فمن الطبيعي لهذه الجزر أن تعاني من البطالة والفقر: فالسكر يُزرع على نطاق واسع، كما يبعث لعناته على نطاق واسع. كذلك لا تزال كوبا تعتمد، بدرجة حاسمة، على مبيعاتها من السكر. ولكن بدأت عملية مكثفة، مع الإصلاح الزراعي في عام، ١٩٥٩ لتنويع اقتصاد الجزيرة، ليضع نهاية للبطالة: فلم يعد الكوبيون يعملون خمسة أشهر بالكاد كل سنة، خلال الحصاد، بل يعملون دون توقف خلال البناء المتصل والصعب لمجتمع جديد.

قال كارل ماركس عام ١٨٤٨ : "قد تعتقدون أيها السادة، أن إنتاج البُن والسكر هو القدر الطبيعي لجزر الهند الغربية، لكن لم تكن الطبيعة منذ قرنين، التي لا علاقة لها بالتجارة، قد زرعت هناك لا شجرة البُن ولا قصب السكر"[٨٧]،إن التقسيم العالمي للعمل ليس هبة وتقدمة الروح القدس، بل أنشأه عمل البشر، أو بشكل أكثر دقة، بسبب التطور الكلي للرأسمالية.

وفي الواقع، كانت باربادوس أول جزر الكاريبي التي زرع فيها السكر للتصدير بكميات ضخمة، منذ ١٦٤١، رغم أن الإسبان كانوا قد

زرعوا القصب قبل ذلك في الدومينيكان وفي كوبا، وكان الهولنديون، كما شاهدنا، هم الذين ادخلوا المزارع في الجزيرة البريطانية الصغيرة. وفي عام ١٦٦٦ كان في باربادوس ثمانمائة مزرعة سكر وأكثر من ثمانين ألف عبد بالفعل، وباحتلالها رأسيا وافقيا باللاتيفونديات الوليدة، لم يكن حظ باربادوس بأفضل حالا من حظ الشمال الشرقي البرازيلي.

كانت الجزيرة تستفيد قبل ذلك من الزراعة المتنوعة؛ فقد كانت تنتج، في إطار الملكيات الصغيرة، القطن والتبغ، والبرتقال، والأبقار والخنازير. والتهمت مزارع القصب المحاصيل الزراعية ودمرت الغابات الكثيفة، باسم ازدهار اتضح فيما بعد أنه مؤقت. واكتشفت الجزيرة وبسرعة، أن أراضيها قد أنهكت، وأنه ليس لديها ما تطعم به سكانها، وأنها تنتج السكر بأسعار خارج المنافسة[٨٨].

امتد السكر إلى جزر أخرى، نحو أرخبيل سوتابنتو وجامايكا، وإلى جويانا، في التربة القاريَّة. وفي أوائل القرن الثامن عشر، كان العبيد، في جامايكا، يفوقون عدد المستوطنين البيض بعشر مرات. وأيضا أنهكت أراضيها خلال وقت قصير. وخلال النصف الثاني من القرن، كان أفضل سُكَّر في العالم ينبت من التربة الخصبة لسهول ساحل هاييتي، وهي المستعمرة الفرنسية التي كانت تسمى حينئذ سانت دومينغو. إلى الشمال وإلى الغرب، أخذت هاييتي تصبح اسطبلاً للعبيد: فقد كان السكر يتطلب أيدي عاملة باضطراد. وفي عام ١٧٨٦، وصل إلى المستعمرة سبعة وعشرون ألف عبد، وفي العام التالي أربعون ألفا. واندلعت الثورة في خريف عام ١٧٩١. وخلال شهر واحد، هو أيلول، كانت مائتا مزرعة قصب قد أصبحت وقودا للنيران. لتليها الحرائق والمعارك دون توقف بينما مضى العبيد المتمردون يصدون الجيوش الفرنسية ويدفعون بهم نحو المحيط. وأخذت السفن تقلع محملة بفرنسيين يتزايدون بانتظام

بينما كان السكر يقل باطراد. ولتسفك الحرب أنهارا من الدم وخُرِّبت المزارع. وكانت حربا طويلة. وبقيت البلاد، التي تحولت إلى رماد، مشلولة؛ وفي أواخر القرن سقط الإنتاج، يقول لبكوفسكي "في تشرين أول عام ١٨٠٣ أصبحت كل المستعمرة تقريبا، والتي كانت مزدهرة من قبل، مقبرة ضخمة من الرماد والحطام"[٨٩]. كانت ثورة هاييتي قد تطابقت وليس في الزمن فقط، مع الثورة الفرنسية، وعانت هاييتي كذلك، بنفسها، من مقاطعة التحالف الدولي ضد فرنسا: فقد كانت إنجلترا تتسيَّد البحار. لكنها أصبحت تعاني فيما بعد، بقدر ما أصبح استقلالها حتميا، من مقاطعة فرنسا. فاستجابة للضغط الفرنسي، حظر كونجرس الولايات المتحدة التجارة مع هاييتي، في عام ١٨٠٦. وفي عام ١٨٢٥ فقط، اعترفت فرنسا باستقلال مستعمراتها السابقة، لكن في مقابل تعويض ضخم بالفعل. وفي عام ١٨٠٧، قبل وقت قصير من سقوط الجنرال توسان ـ ليكلير كتب إلى زوج أخته نابوليون، من الجزيرة يقول: "هاك رأيي بشأن هذا البلد: يجب تصفية كل زنوج الجبال، رجالا ونساء، مبقين فقط على الأطفال الأقل من اثني عشر عاماً، ويجب إبادة نصف زنوج السهول وألا نبقي على خلاسي واحد يحمل رتبة عسكرية"[٩٠]. وقد انتقم خط الاستواء من ليكلير، حيث مات "بمزقة القيء الأسود" برغم الوصفات السحرية لبولين بونابرت، دون أن يستطيع إنجاز خطته، لكن التعويض النقدي أصبح حملا ثقيلا على ظهور أهل هاييتي المستقلين الذين نجوا من حمامات الدم التي قامت بها البعثات العسكرية المتتالية التي أرسلت ضدهم. لقد وُلِد البلد في الحطام ولم يشف من هذا الحطام أبدا: ليصبح اليوم أفقر بلدان أمريكا اللاتينية[٩١].

لقد سببت أزمة هاييتي ازدهار السكر في كوبا، التي تحولت بسرعة

إلى المورد العالمي الأول له، كذلك نال الإنتاج الكوبي من البُن، وهو منتج آخر كان عليه طلب شديد فيما وراء المحيط، نال دفعة كبيرة بسقوط انتاج هاييتي، لكن كان السكر قد كسب سباق الزراعة الأحادية: وفي عام ١٨٦٢ وجدت كوبا نفسها مضطرة لاستيراد البُن من الخارج. وقد بلغ عضو حبيب من "السكروقراطية" الكوبية حد أن يكتب عن "المزايا الحقيقية التي يمكن الحصول عليها من شقاء الاخرين"[٩٢].

وأصبحت الأسعار خيالية جدا إثر الثورة في هاييتي في تاريخ السكر في السوق الأوروبية، وفي عام ١٨٠٦ كانت كوبا قد ضاعفت، في آن واحد، معامل التكرير والإنتاج.

قلاع من السكّر في أراضي كوبا المحروقة

كانت المزارع الصغيرة للتبغ وتربية الماشية، حينئذ، هي أساس الاقتصاد الزراعي للجزيرة عندما سيطر الإنجليز بصورة عابرة على هافانا عام ١٧٦٢. وكانت تحظى هافانا، المنطقة العسكرية القوية، بتطور ملحوظ في الحِرَف، وكان يوجد بها معمل صهر مهم، حيث يتم تصنيع المدافع، كما كان يوجد بها أول ترسانة في أمريكا اللاتينية لصناعة السفن التجارية والحربية على نطاق كبير. وكانت أحد عشر شهرا كافية للغزاة البريطانيين ليُدخلوا إلى الجزيرة كمية من العبيد كان يمكن أن تدخلها في خمس عشرة سنة في الظروف العادية، وتكوّن منذ ذلك الوقت الاقتصاد الكوبي ليلبي احتياجات الخارج للسكر: فسينتج العبيد السلعة المطلوبة المتوجهة إلى السوق العالمية، أما عائدها المثير فسوف تتمتع به منذ ذلك الحين الاوليغاركية المحلية والمصالح الإمبريالية. يصف مورينو فراخينالس، بشكل بليغ، الإزدهار الفظيع للسكر خلال السنوات التي تلت الاحتلال البريطاني. كان الإحتكار التجاري الإسباني

قد تحطَّم؛ وكانت قد تبددت أيضاً المعوقات أمام دخول العبيد. وأخذ معمل التكرير يمتصّ كل شيء من الرجال إلى الأراضي. كان عمال الترسانة ومعمل الصهر والحرفيون الصغار الذين لا يحصون، والذين كان يمكن لإسهامهم أن يكون أساسيا لتقدم الصناعات، كانوا يقصدون معامل التكرير؛ بينما انضم، الفلاحون الصغار الذين كانوا يزرعون التبغ في السهول أو الفواكه في البساتين، بدورهم إلى إنتاج السكر، بعد أن صاروا ضحايا للتربة التي دمرها القصب الوحشي. وأخذ الإنتاج الواسع يقلل من خصوبة التربة. تضاعفت في الحقول الكوبية أبراج معامل التكرير وكان كل معمل يتطلب أراض جديدة باستمرار. التهم اللهب سهول التبغ والغابات ودمر المراعي. وفي عام ١٧٩٢، كان اللحم المقدد، الذي كان قبلها بسنوات قليلة أحد مواد التصدير الكوبية، يأتي من الخارج بكميات كبيرة، وستظل كوبا تستورده إلى عقود بعدها[٩٣].

وسقط إنتاج التبغ فجأة، وكان يمتد يوم العمل لعبيد السكر إلى عشرين ساعة. ولتصبح أقوى سلطة "ارستقراطية السكر" فوق الأراضي التي يتصاعد منها الدخان. وفي أواخر القرن الثامن عشر، وبينما كان الفرح العارم بالأسعار الدولية يبلغ السحاب، كانت المضاربة تبلغ عنان السماء" لتتضاعف أسعار الأراضي عشرين مرة في جونيس؛ وفي هافانا، كانت الفائدة الفعلية على النقود أعلى بثمانية أضعاف القيمة الشرعية؛ وفي كل أرجاء كوبا كانت تعريفة احتفالات التعميد، والدفن، والقداسات تتزايد متناسبة مع ارتفاع الأسعار المنفلت الزمام للعبيد والثيران.

كان مؤرخو عصور أخرى يقولون أنه كان يمكن التجوال بطول كوبا، تحت ظلال النخيل الضخم والغابات الوارفة، التي تتكاثر فيها أشجار الماهوغاني والأرز، والأبنوس والداجام. وما زال المرء يستغرب

لوجود أخشاب كوبا الثمينة في موائد ونوافذ قصر الاسكوريال وفي أبواب القصر الملكي في مدريد، لكن الغزو أحرق أفضل الغابات البكر التي كانت تغطي أراضيها من قبل. وفي نفس السنوات التي كانت كوبا تدمر فيها غاباتها، تحولت إلى المشتري الأساسي لأخشاب الولايات المتحدة. إن الزراعة المكثفة للقصب، هذا النبات السارق، لم تشكل فقط موت الغابات، بل شكلت كذلك، على المدى الطويل، "موت الخصوبة المذهلة للجزيرة". التهمت النيران الغابات ولم يتأخر التآكل من اغتيال التربة العزلاء؛ وجفت آلاف الجداول. وفي الوقت الحاضر، نجد أن المحصول لكل هكتار في مزارع السكر الكوبية يقل أكثر من ثلاث مرات عنه في البيرو، ويقل أربع مرات ونصف عنه في هاواي[(٩٤)]. ويمثل الريّ وإخصاب التربة مهمات ذات أولوية بالنسبة للثورة الكوبية، فالسدود المائية تتضاعف، بين كبيرة وصغيرة، بينما تشق القنوات في الحقول وتنثر الأسمدة فوق الأراضي المتعبة.

تشكلت الثروة الزائفة لـ "ارستقراطية السكّر" في الوقت الذي كانت تتكرس فيه تبعية كوبا. ذلك المصنع المتميز الذي ظل اقتصاده مريضا بمرض السكّر. ومن بين من دمروا أخصب الأراضي بوسائل وحشية كان هناك شخصيات ذات ثقافة أوروبية متميزة، تعرف كيف تفرّق لوحة أصلية لبروغل وتستطيع شراءها؛ وكانوا خلال رحلاتهم المتكررة إلى باريس يجلبون مزهريات اترورية وأواني اغريقية، وأباريق فرنسية، ولوحات ورقية صينية من عهد أُسرة مينج، ومناظر طبيعية وصور أشخاص لأشهر الفنانين البريطانيين. وقد أدهشني أن أكتشف، في مطبخ إحدى قرى هافانا، خزانة ضخمة، ذات شفرة سرية، كانت إحدى الكونتيسات تستخدمها لحفظ الصحون. وحتى عام ١٩٥٩ لم تقم أي مصانع، وإنما قلاع من السكر: كان السكر يعيّن الديكتاتوريين

ويعزلهم، ويقدم العمل أو يمنعه عن العمال، ويحدد إيقاع رقصات الملايين والأزمات المخيفة. مدينة ترينيداد هي، اليوم جثة متألقة. لكن في منتصف القرن التاسع عشر، كان في ترينيداد خمسون معمل تكرير، تنتج ٧٠٠ ألف ربع من السكر. وتم إخراج الفلاحين الفقراء الذين كانوا يزرعون التبغ بالعنف، وأصبحت المنطقة، التي كانت تربي الماشية كذلك، وكانت تصدر اللحوم، أصبحت تأكل اللحوم من الخارج. ازدهرت القصور الاستعمارية، ببواباتها ذات الظلال المتواطئة، وقاعاتها ذات الاسقف العالية، والثريات المزينة بقطرات من البلور، والسجاجيد الفارسية، والصمت المخملي وفي الجو موجات موسيقى الرقص، والمرايا في الصالونات تعكس صورة الفرسان ذوي خصلات الشعر والأحذية ذات المشبك. هنالك، لأن شهادة الهياكل الضخمة من المرمر أو الحجر، وسمو أبراج الكنائس الصامتة، والعربات التي زحفت عليها الأعشاب. وتُسمى ترينيداد الآن باسم "مدينة الذين كانوا يملكون"، لأن من بقوا على قيد الحياة من البيض يتحدثون دائماً عن سلف ما، كان لديه السلطة والجاه. لكن أزمة ١٨٥٧ حانت، وتدهورت أسعار السكر وسقطت معها المدينة، ولن تقوم لها قائمة بعدها أبدا[٩٥].

وعندما وصل محاربو عصابات السييرا مايسترا إلى السلطة، بعد قرن من الزمن، استمرت كوبا في ممارسة قدرها المرتبط بحصة السكر. "إن الشعب الذي يسلم بقاءه لمنتج واحد، ينتحر"، هكذا تنبأ البطل القومي، خوسي مارتي. وفي عام ١٩٢٠، وبينما كان سعر السكر عند ٢٢ سنتا للرطل، حطمت كوبا الرقم القياسي العالمي للصادرات، متخطية إنجلترا كذلك، وحققت أكبر دخل للفرد في أمريكا اللاتينية. لكن، في نفس ذلك العام، في كانون أول، سقط سعر السكر إلى أربع سنتات، وفي عام ١٩٢١، انطلق إعصار الأزمة: أفلست العديد من

معامل التكرير، لتشتريها المصالح الأمريكية الشمالية، كما أفلست كل البنوك الكوبية أو الإسبانية، بما في ذلك البنك القومي ذاته. ولم ينج من هذا الهلاك سوى فروع بنوك الولايات المتحدة[٩٦]. هذا الاقتصاد التابع والقابل للأذى لم يكن باستطاعته التملص، فيما بعد، من التأثير العنيف لأزمة عام ١٩٢٩ في الولايات المتحدة: فقد وصل سعر السكر إلى حد الانخفاض إلى ما يقل كثيراً عن سنت واحد في عام ١٩٣٢، وخلال ثلاث سنوات، انخفضت قيمة الصادرات إلى الربع. أما نسبة البطالة في كوبا في تلك الآونة "قد يصعب أن نجد نظيرها في أي بلد آخر"[٩٧]، وسرعان ما وصل من الولايات المتحدة قرض قيمته خمسون مليونا من الدولارات: ووصل الجنرال كرودر أيضاً في أعقاب القرض؛ وتحت ذريعة تنظيم استخدام الأموال، حكم كرودر البلاد فعليا، ولتصل دكتاتورية ماتشادو إلى السلطة عام ١٩٢٤ بفضل جهوده الحميدة، لكن الكساد الكبير لسنوات الثلاثينات جرف أمامه نظام الدم والنار هذا، بعد أن شَلّ الإضراب العام كوبا.

وما حدث مع الأسعار، تكرر مع حجم الصادرات. فمنذ عام ١٩٤٨، استعادت كوبا حصتها لتغطية ثلث السوق الأمريكي الشمالي من السكر، بأسعار أقل من تلك التي كان يتقاضاها منتجو الولايات المتحدة، لكنها أعلى وأكثر ثباتا من أسعار السوق الدولية. وكانت الولايات المتحدة قبل ذلك قد خفضت الجمارك على واردات السكر الكوبي مقابل امتيازات مماثلة تمنح على دخول السلع الامريكية الشمالية إلى كوبا، كل هذه الأفضال دعمت التبعية. "الشعب الذي يشتري يأمر، والشعب الذي يبيع يخدم؛ لا بد من موازنة التجارة من أجل ضمان الحرية؛ الشعب الذي يريد أن يموت، يبيع لشعب واحد، والذي يريد أن ينقذ نفسه يبيع لأكثر من واحد"، هكذا قال مارتي وكرر تشي غيفارا

في مؤتمر منظمة الدول الامريكية، في بونتا ديل ايستي، عام ١٩٦١، كان الإنتاج يُحدد، تعسفيا، حسب احتياجات واشنطن ـ واستمرار مستوى عام ١٩٢٥، وهو حوالي خمسة ملايين طن، يمثل متوسط سنوات الخمسينات: واستولى الدكتاتور فولخينثيو باتيستا على السلطة، عام ١٩٥٢، إثر أكبر حصاد حصل حتى ذلك الوقت، أكثر من سبعة ملايين طن. وسقط الإنتاج إلى أربعة ملايين، في العام التالي، حسب ما طلبه الشمال[٩٨].

الثورة في مواجهة بُنية العجز

إن القرب الجغرافي وظهور سكّر البنجر، الذي ظهر خلال حروب نابوليون، في حقول فرنسا وألمانيا، قد جعلا الولايات المتحدة الزبون الأساسي لسكر جزر الأنتيل. وكانت الولايات المتحدة في عام ١٨٥٠، تسيطر فعلياً على ثلث تجارة كوبا، وكانت تبيع لها وتشتري منها أكثر مما تفعل إسبانيا، رغم أنها كانت مستعمرة إسبانية، وكان العَلَم ذو الخطوط والنجوم يرفرف على أشرعة أكثر من نصف السفن التي تصل إلى هناك. وقد وجد رحالة إسباني حوالي عام ١٨٥٩، في قرى كوبية نائية في قلب الريف، وجد ماكينات خياطة مصنوعة في الولايات المتحدة[٩٩]. وقد رصفت الشوارع الرئيسية في هافانا بقطع من الغرانيت جلبت خصيصا من بوسطن.

وعلى مشارف القرن العشرين، ظهر في صحيفة لويسيانا بلانتير مقالة: "شيئا فشيئا، تصبح كل جزيرة كوبا في أيدي مواطنين أمريكيين شماليين، وهذه هي أبسط وأضمن طريقة لضمان ضمها إلى الولايات المتحدة". وكان يجري في مجلس الشيوخ الأمريكي الشمالي الحديث فعلا عن نجمة جديدة في العلم؛ وبهزيمة إسبانيا، حكم الجنرال ليونارد

وود الجزيرة. وفي نفس الوقت، انتقلت إلى أيدي الولايات المتحدة الفلبين وبورتوريكو. "سلمت إلينا بالحرب ـ هكذا قال الرئيس ميكينلي مُدرجا كوبا ـ وبمساعدة الرب وباسم تطور البشرية والحضارة، فإن واجبنا هو الاستجابة لهذه الثقة الكبيرة"(١٠٠).

واضطر توماس استرادا بالما في عام ١٩٠٢، إلى التخلي عن الجنسية الأمريكية الشمالية التي كان قد تبناها في المنفى: فقد حولته قوات الاحتلال الأمريكية الشمالية إلى أول رئيس لكوبا. وفي عام ١٩٦٠، أعلن سفير الولايات المتحدة السابق إلى كوبا، إيرل سميث، أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ الفرعية أنه: "حتى صعود كاسترو إلى السلطة، كان للولايات المتحدة في كوبا نفوذ لا يقاوم لدرجة أن السفير الأمريكي الشمالي كان الشخصية الثانية في البلاد، وأحيانا يكون أهم حتى من الرئيس الكوبي".

كانت كوبا تبيع سكرها كله في الولايات المتحدة عندما سقط باتيستا. وكان محام ثوري، قبل ذلك بخمس سنوات قد تنبأ، أمام من كانوا يحاكمونه بتهمة الهجوم على معسكر مونكادا، بأن التاريخ سيبرئه؛ وقال في مرافعة رنانة: "إن كوبا ستبقى مصنعا منتجا للمواد الأولية، وهي تصدر السكر لتستورد السكاكر"(١٠١). ولم تكن كوبا تشتري من الولايات المتحدة السيارات والآلات فقط، والمنتجات الكيماوية، والورق والملابس، وإنما كذلك الأرز والفاصوليا، والثوم والبصل، الشحوم، واللحوم والقطن. وكانت تُجلب أرغفة خبز مثلجة من ميامي وحتى وجبات فاخرة من باريس. كان بلد السكر يستورد نحو نصف الفواكه والخضروات التي يستهلكها، رغم أن ثلث سكانه المنتجين فقط كان لديهم عمل دائم ورغم أن نصف أراضي معامل السكر المركزية كانت امتدادات مقفرة لا تنتج فيها الشركات شيئا(١٠٢). وكان ثلاثة عشر

معملا أمريكي شمالي يتحكمون في أكثر من ٤٧ بالمائة من إجمالي مساحة السكر ويكسبون حوالي ١٨٠ مليونا من الدولارات في كل محصول. وكانت ثروات البلاد ـ النيكل، والحديد، والنحاس، والمنغنيز، والكروم، والتنغستن ـ تشكل جزءا من الاحتياطات الاستراتيجية للولايات المتحدة، التي لم تكن شركاتها تكاد تستغل هذه المعادن إلا حسب الطوارئ المتغيرة للجيش وللصناعة الشمالية. كان في كوبا، عام ١٩٥٨، عاهرات مسجلات أكثر عددا من عمال المناجم[١٠٣]. وكان هناك مليون ونصف من الكوبيين يعانون من البطالة الشاملة أو الجزئية، حسب أبحاث سوريه وبينو التي يوردها نوننيث خيمينيث.

كان اقتصاد البلاد يتحرك حسب إيقاع الحصاد، ولم تتجاوز القدرة الشرائية للصادرات الكوبية فيما بين ١٩٥٢ و١٩٥٦ مستواها قبل ذلك بثلاثين عاماً[١٠٤]، رغم أن الحاجة إلى العملات الصعبة كان أكثر بكثير، وحين دعمت الأزمة تبعية الاقتصاد الكوبي، خلال الثلاثينات، عوضا عن أن تساهم في قطعها، كان الأمر قد بلغ حد تفكيك مصانع كانت قد أنشئت حديثا وذلك لبيعها إلى بلدان أخرى. كان التطور الصناعي لكوبا شديد الفقر وهزيل، عندما انتصرت الثورة، في أول أيام عام ١٩٥٩، وكان أكثر من نصف الإنتاج متمركزا في هافانا وكانت المصانع القليلة ذات التكنولوجيا المتقدمة توجه من الولايات المتحدة. وهناك اقتصادي كوبي، هو ريخينو بوتي، وهو أحد المشاركين في وضع النظريات الاقتصادية لمحاربي العصابات في السييرا، يذكر مثال أحد فروع شركة نستله التي كانت تنتج ألباناً مركزة في بايامو: "عند وقوع حادث، كان الفني يتصل تليفونيا بمنطقة كونكتيكت ويحدد أن

هناك شئ في قسمه لا يعمل. ويتلقى التعليمات على الفور بالإجراءات التي عليه أن يتخذها ولينفذها آليا... وفي حال عدم نجاح العملية، تصل بعد أربع ساعات طائرة تحمل فريقا من الإخصائيين المؤهلين بدرجة عالية ليصلحوا كل شيء. أما بعد التأميم فلم يعد يمكن فعل ذلك فكان قد رحل الفنيون النادرون الذين كان يمكنهم إصلاح الأعطال الثانوية"[١٠٥]. توضح هذه الشهادة وبامتياز العقبات التي واجهتها الثورة منذ أن انطلقت في مغامرة تحويل المستعمرة إلى وطن.

كانت سيقان كوبا مبتورة نتيجة ظروف التبعية ولم يكن بمقدورها أن تشرع في السير بمفردها بكل تلك البساطة. فكان عام ١٩٥٨ نصف أطفال كوبا لا يذهبون إلى المدارس، إلا أن الجهل، كما أعلن فيديل كاسترو مرات عديدة، أوسع وأخطر من الأمية. وقد حشدت حملة عام ١٩٦١ جيشا جرارا من الشباب المتطوعين لتعليم الكوبيين القراءة والكتابة لتدهش النتائج العالم: فتتمتع كوبا الآن، وفق المكتب الدولي للتربية في منظمة اليونسكو، بأقل نسبة من الأميين وبأكبر نسبة من السكان في المدارس، الابتدائية والثانوية، في أمريكا اللاتينية. إلا أن الإرث اللعين للجهل لا يمكن تجاوزه بين عشية وضحاها ـ ولا حتى خلال اثني عشرة سنة. كما أن نقص الكوادر التقنية ذات الكفاءة العالية، وعدم كفاءة الإدارة وسوء تنظيم الجهاز الإنتاجي، والخوف البيروقراطي من الخيال المبدع ومن حرية اتخاذ القرار، ما زالت كلها تضع العوائق أمام تطور الاشتراكية. إلا أن كوبا تنشئ من جديد رغم كل العجز الذي تشكل خلال أربعة قرون ونصف من الاضطهاد، وبحماس منقطع النظير: إنها تحسب وتعرف قواها، وبهجتها واندفاعها، في مواجهة العوائق.

كان السُّكَّر هو السِّكِّين بينما الإمبراطورية هي القاتل

"هل البناء فوق السكر، أفضل من البناء فوق الرمال؟" هكذا تساءل جان بول سارتر عام ١٩٦٠، في كوبا.

في مرفأ ميناء غواياباال، حيث يصدر السكر غير المعبأ، وحيث تحلق الطيور البحرية فوق المستودع الضخم، أدخل وأتأمل، مذهولا، هرما ذهبيا من السكر. وبقدر ما تتفتح فتحات التصريف، من أسفل، حتى تصب الأنابيب الحمولة، دون تعبئة، باتجاه السفن، بقدر ما تسكب فتحة السقف شلالات جديدة من الذهب، من السكر الذي تم نقله للتو من مطاحن معامل التكرير، يتسرب ضوء الشمس ويضفي عليه بريقا. أربعة ملايين دولار تقريبا هي قيمة هذا الجبل الذي أحسه ولا يبلغ بصري حدوده. أفكر في أنه تتلخَّص هنا كل بهجة وتراجيدية هذا المحصول القياسي لعام ١٩٧٠ الذي أراد، ولم يستطع، رغم المجهود الذي يفوق طاقة البشر، بلوغ عشرة ملايين طن، وتتدفق مع السكر، أمام بصري، حكاية أطول بكثير. فأفكر في مملكة شركة فرنسيسكو شوغر كومباني، وشركة الين دولليز، حيث قضيت أسبوعا استمع إلى حكايات الماضي وأشهد مولد المستقبل: أفكر في خوسفينا، إبنة كاريداد رودريغيث، التي تدرس في قاعة كانت سجنا للمعسكر سابقا، في نفس المكان تماماً حيث سجن والدها وعذبوه قبل أن يموت؛ فكرت في أنطونيو باستيداس، الزنجي ذي السبعين عاماً، الذي تعلق ذات صباح بكلتا قبضتيه في رافعة الصفارة لأن المعمل قد تجاوز المستهدف له في الخطة وصاح: "اللعنة!" "إننا ننجز العمل، اللعنة!"، ولم يكن ثمة من يمكنه انتزاع الرافعة من يديه المعرورقتين بينما الصفارة، التي كانت قد ايقظت القرية، توقظ كوبا كلها؛ قصص

فقدان المأوى، والرشاوي، والاغتيالات، الجوع والأعمال الغريبة التي تخلفّها البطالة، الإجبارية خلال نصف كل عام: صيد الصراصير بين المزروعات على سبيل المثال. وأفكر في أن الشقاء له بطن ممتلئة، لقد بت أعرف ذلك الآن. أن من ماتوا لم يموتوا عبثا: امانيثيو رودريغيز، مثلا الذي اخترقته رصاصات كاسري الإضراب أثناء أحد الاجتماعات، والذي كان قد رفض بغضب شيكا على بياض من الشركة، وحين ذهب رفاقه ليدفنوه، تبين لهم أنه لم يكن يملك سراويل داخلية ولا جوارب يحملها في تابوته، أو بيدرو بلازا، مثلا، الذي اعتقل وهو في العشرين وقاد هو بنفسه سيارة الجنود نحو الألغام التي كان قد زرعها بنفسه وتطايرت اشلاؤه مع السيارة والجنود. وآخرون كثيرون، في هذه القرية وفي كل القرى الأخرى: قال لي عامل سكر عجوز: "هنا تكن العائلات حبا كثيراً للشهداء، لكن بعد موتهم، أما قبل ذلك فإنهم مجرد احتجاجات". أفكر في أنه لم يكن صدفة تجنيد فيديل كاسترو ثلاثة أرباع مقاتليه من بين الفلاحين، عمال السكر، وأن تكون مقاطعة اورينتي، في آن واحد، أكبر منبع للسكر وللانتفاضات في كل تاريخ كوبا. كما أني اتفهم الحقد المتراكم: وقررت الثورة عام ١٩٦١ بعد الحصاد الضخم، أن تنتقم من السكر. لقد كان السكر الذاكرة الحية للإذلال. هل كان السكر قدرا، ايضا؟ وهل تحول فيما بعد إلى تكفير عن الذنب؟ وهل يمكنه الآن أن يصبح رافعة، منصة انطلاق ينطلق منها التطور الاقتصادي؟

وعند تزايد نفاذ الصبر، فقد حطمت الثورة مساحات قصب عديدة ورغبت في تنويع الإنتاج الزراعي في غمضة عين: ولم تقع في الخطأ التقليدي لتقسيم اللاتيفونديات إلى قطع أراض صغيرة غير منتجة، لكن كل ضيعة اشتراكية باشرت على الفور بزراعة مزروعات تزداد تنوعا

باستمرار. وكان لا بد من الحصول على واردات واسعة النطاق من أجل تصنيع البلاد، وزيادة الإنتاجية الزراعية وإشباع ضرورات استهلاكية كثيرة زادتها الثورة بدرجة كبيرة، عندما أعادت توزيع الثروة. وبدون الحصادات الكبيرة من السكر، من أين يمكن الحصول على العملات الصعبة اللازمة لتلك الواردات؟ كذلك فإن تطوير صناعات التعدين، لا سيمّا النيكل، يتطلب استثمارات هائلة، يجري توفيرها، كما تضاعف إنتاج الأسماك ثماني مرات بفضل نمو الأسطول، مما استلزم كذلك استثمارات ضخمة؛ ويجري تنفيذ خطط ضخمة لإنتاج الحمضيات، لكن السنوات التي تفصل بين البذار والحصاد تجبر على الصبر. عندئذ، اكتشفت الثورة أنها خلطت بين السكين وبين القاتل. فالسكر الذي كان عامل التخلف، أخذ يتحول إلى أداة للتنمية، لم يكن هناك حل سوى استخدام الزراعة الأحادية والتبعية، التي تولدت عن الحاق كوبا بالسوق العالمية، من أجل قصم ظهر الزراعة الأحادية والتبعية.

والأرباح التي بات يقدمها السكر لم تعد تستخدم في توطيد بنية الخضوع[١٠٦]. وقد زاد استيراد الآلات والمنشئات الصناعية بنسبة حوالي أربعين في المائة منذ عام ١٩٥٨؛ والعائد الاقتصادي الذي يولده السكر من أجل تطوير الصناعات الأساسية وكي لا تبقى هناك أراضي خالية ولا عمال محكوم عليهم بالبطالة. وعندما سقطت دكتاتورية باتيستا، كان في كوبا خمسة الآف جرار زراعي وثلاثمائة ألف سيارة. أما اليوم فيوجد فيها خمسون ألف جرار زراعي، رغم تعرضها للتلف بشكل كبير نتيجة أخطاء التنظيم الجسيمة، ولم يتبق من ذلك الأسطول من السيارات، التي هي موديلات فاخرة في معظمها، سوى بضعة نماذج جديرة بمتحف الخردة. وقد نالت صناعة الإسمنت ومحطات الكهرباء دفعة مذهلة؛ وسمحت مصانع المخصبات الجديدة باستخدام

خمسة أضعاف الأسمدة التي كانت تستخدم عام ١٩٥٨. أما الخزانات، التي أقيمت في كل مكان، فتحتجز اليوم كمية من المياه تفوق إجمالي كميات المياه المخزونة عام ١٩٥٨ ثلاثا وسبعين مرة[١٠٧] وزادت المساحة المرويّة بخطوات عملاقة. كما استطاعت الطرق الجديدة، التي شقت في كل أرجاء كوبا، كسر عزلة كثير من الأقاليم التي بدا وكأنه محكوم عليها بالعزلة الدائمة. ومن أجل زيادة الإنتاج الضئيل من الحليب ومشتقاته، جلبت إلى كوبا ثيران من فصيلة هولشتين، وأُنجب منها بالتلقيح الصناعي ثمانمائة ألف بقرة مهجنة.

وقد أنجز تقدم ضخم في مكننة قطع وغرس القصب، بناءً على الابتكارات الكوبية، إلى حد كبير، رغم أن ذلك ما زال غير كاف. كما يتم وضع نظام جديد للعمل، بصعوبة، كي يحل مكان النظام القديم الغير منظم نتيجة التغيرات التي أحدثتها الثورة. وقد أصبح قاطعوا القصب المحترفون، سجناء السكر، من ذكريات الماضي: فبالنسبة لهم أيضاً، تضمنت الثورة حرية اختيار أعمال أخرى أقل صعوبة، أما بالنسبة لأبنائهم، فصارت هناك إمكانية الدراسة، من خلال الحصول على المنح في المدن. والثمن الحتمي لتحرير عمال القصب كان، بالتالي، اختناقات قاسية بالنسبة لاقتصاد الجزيرة. ففي عام ١٩٧٠، كان لا بد لكوبا أن تستخدم ثلاثة أضعاف العمال في الحصاد، وكان غالبيتهم متطوعين أو جنودا أو عمالا في قطاعات أخرى، مما أصاب الأنشطة الأخرى في الريف والمدينة بالضرر: محاصيل منتجات أخرى، إيقاع العمل في المصانع. ويجب الأخذ في الحسبان، في هذا الشأن، أنه في المجتمع الاشتراكي، بخلاف المجتمع الرأسمالي، لم يعد العمال يتصرفون بدافع الخوف من البطالة أو بدافع الجشع. فعادة ما تعمل دوافع أخرى ـ كالتضامن، والمسئولية الجماعية، واكتساب الوعي

بالواجبات والحقوق التي تجعل الإنسان يتجاوز الأنانية. لكن لا يمكن تغيير وعي شعب بأكمله في لحظة. وحتى لم تكن غالبية الكوبين معادية للإمبريالية حينما استولت الثورة على السلطة، حسب ما يقول فيديل كاسترو.

ازدادت جذرية الكوبيون بجانب ثورتهم، بقدر ما كانت تحصل التحديات والاستجابات، والضربات المضادة بين هافانا وواشنطن، وبقدر ما أصبحت وعود العدالة الاجتماعية تتحول إلى حقائق ملموسة. لقد أنشئت مائة وسبعون مستشفى جديدة وعيادات شاملة متعددة وأصبح العلاج الطبي مجانيا؛ وتضاعف رقم الطلبة المسجلين في كل مستويات التعليم ثلاث مرات كما أصبح مجانيا؛ ويستفيد اليوم من المنح أكثر من ثلاثمائة ألف طفل وشاب وتضاعفت الأقسام الداخلية ورياض الأطفال. كما أن هناك جزء كبير من السكان لا يدفعون إيجارا لبيوتهم وأصبحت خدمات المياه، والكهرباء، والتليفون، والجنازات والعروض الرياضية جميعها مجانية. وقد تضاعفت نفقات الخدمات الاجتماعية خمس مرات خلال سنوات قليلة. أما الآن وقد أصبح لدى الجميع تعليم وأحذية، فقد أخذت الاحتياجات تتضاعف بينما لا يمكن للإنتاج أن يتزايد إلا بتضاعف حسابي. إن ضغوطات الاستهلاك، التي أصبحت اليوم استهلاك الجميع وليس استهلاك القلة، يدفع كوبا على زيادة صادراتها بسرعة أيضاً، ويبقى السكر أكبر مصدر للموارد.

في الحقيقة، تعيش الثورة أوقاتا شاقة، صعبة، للانتقال والتضحية. وقد انتهى الأمر لدى الكوبيون أنفسهم إلى التأكيد على أن الاشتراكية تشيّد بالإصرار وأن الثورة ليست نزهة بالمطلق. والمستقبل أما أن يكون من نصيب هذه الأرض أو أن يكون قد جاء هدية في نهاية المطاف. يوجد هناك نقص في منتجات مختلفة، بالطبع: ففي عام ١٩٧٠، كان

هناك نقص في الفاكهة والثلاجات، والملابس. إن الطوابير، التي أصبحت مألوفة اليوم، ليست نتيجة لسوء تنظيم التوزيع فقط. فالسبب الرئيسي للنقص هو الزيادة الجديدة في المستهلكين: فأصبح البلد الآن يعني الجميع. ويتعلق الأمر هنا بنقص مختلف تماماً عن النقص الذي تعانيه دول أمريكا اللاتينية الأخرى.

وفي نفس الوقت توجد النفقات الدفاعية. فكوبا مضطرة لأن تنام وعيونها مفتوحة، وهذا بدوره أمر باهظ التكلفة، بالتعبيرات الاقتصادية. إن هذه الثورة المُدانة، والتي كان عليها تحمل الغزو والتخريب دون أي هدنة. لا تسقط لأن شعبها المسلح ـ هذه الدكتاتورية الغريبة ـ يدافع عنها. فالذين انتزعت ملكيتهم ثم استعادوا هذه الملكية لا يقبلون ما حدث. ولم تكن الكتيبة التي رست في شاطئ خيرون، في إبريل عام ١٩٦١، تتشكل فقط من الأعضاء السابقين في جيش وشرطة باتيستا، وإنما كان فيها أيضاً أصحاب أكثر من ٣٧٠ ألف هكتار من الأراضي، وحوالي عشرة الآف عمارة، وسبعين مصنعا، وعشر معامل تكرير سكر، وثلاثة بنوك، وخمسة مناجم وأثنى عشر مرقص. وقد منح دكتاتور غواتيمالا، ميغيل يديغوراس أعضاء الحملة معسكرات تدريب مقابل وعود قدمها له الأمريكيون الشماليون، حسب اعترافه هو فيما بعد: نقود عدا ونقدا، لم يدفعوها أبدا، وزيادة في حصة غواتيمالا من السكّر في سوق الولايات المتحدة.

عانى بلد آخر مُنتج للسكر، هو جمهورية الدومينيكان، في عام ١٩٦٥، من غزو نحو أربعين ألفا من جنود المارينز مستعدين "للبقاء إلى أجل غير مسمى في هذا البلد، نظرا للاضطراب الحاصل" حسب ما ذكر قائدهم، الجنرال بروس بالمير. فقد كان السقوط الحاد في أسعار السكر أحد العوامل التي فجرت السخط الشعبي: فانتفض الشعب ضد

الدكتاتورية العسكرية ولم تتأخر القوات الأمريكية الشمالية في إعادة النظام. وخلفوا أربعة آلاف قتيل في المعارك التي شنَّها الوطنيون، جسدا لجسد، بين نهر اوتاما والبحر الكاريبي، في حيٍ معدم من أحياء سانتو دومينغو[١٠٨].

وقد قامت منظمة الدول الأمريكية ـ التي تتمتع بذاكرة كالحمار، لأنها لا تنسى أبدا أين تأكل ـ فقد باركت الغزو ودعمته بقوات جديدة. كان لا بد من قتل جرثومة كوبا أخرى.

بفضل تضحيات العبيد في الكاريبي خرجت إلى النور ماكينة واط ومدافع واشنطن

قال تشي غيفارا إن التخلف هو قزم ذو راس ضخمة وبطن منتفخة: ساقاه الضعيفتان وذراعاه القصيرتان لا تنسجم مع بقية جسمه. كانت هافانا تتلألأ، وتنطلق في شوارعها الفخمة زُمَّارات الكاديلاك، وتتهادى، على إيقاع ليكونا، أجمل النجمات وفي أكبر مرقص في العالم؛ بينما كان واحد فقط من كل عشرة عمال مزارعين يشرب اللبن، ويستهلك اللحوم أربعة في المائة بالكاد في الريف الكوبي، وفي بيانات المجلس القومي للاقتصاد نجد أن ثلاثة أخماس العمال الريفيين يتقاضون أجورا تقل عن تكاليف المعيشة بثلاث أو أربع مرات.

لكن السكر لم ينتج الأقزام فقط، وإنما أنتج العمالقة أيضاً، أو على الأقل، ساهم في تطور العمالقة بشدة، فلقد قدم سكر خط الاستواء الأمريكي اللاتيني دفعة قوية لتراكم رؤوس الأموال لصالح التطور الصناعي لإنجلترا، وفرنسا، وهولندا، والولايات المتحدة، بينما وفي نفس الوقت تشوه فيه اقتصاد الشمال الشرقي البرازيلي واقتصاد جزر الكاريبي وتكرّس الخراب التاريخي لأفريقيا. وكان العصب الرئيسي

للتجارة ثلاثية الأطراف بين أوروبا، وافريقيا، وأمريكا، هو تجارة العبيد المرسلين إلى مزارع السكر وقد قال اوغستو كوتشين: "إن تاريخ حبة سكر هو درس كامل في الاقتصاد السياسي، والسياسة، وكذلك في الأخلاق".

كانت قبائل أفريقيا الغربية تعيش متحاربة فيما بينها، لزيادة أرصدتها من العبيد، من أسرى الحرب. وكانت واقعة تحت السيطرة الاستعمارية للبرتغال، ولم يكن لدى البرتغاليين سفن ولا منتجات صناعية يقدمونها لهذه القبائل في مرحلة ازدهار تجارة العبيد، فتحولوا إلى مجرد وسطاء بين قباطنة تجارة العبيد لدى القوى الأخرى وبين صغار الملوك الأفارقة. ولتصبح إنجلترا هي البطلة الأولى لشراء وبيع اللحم الآدمي، إلى أن أصبح الأمر لا يتماشى مع رغباتها. بيد أن الهولنديين كانت لديهم تقاليد أقدم في هذه التجارة، لأن كارلوس الخامس كان قد أهداهم احتكار نقل العبيد إلى أمريكا قبل زمن من حصول إنجلترا على حق إدخال العبيد إلى مستعمرات الآخرين. أما بالنسبة لفرنسا، فقد كان لويس الرابع عشر، الملك الشمس، يشارك ملك إسبانيا مناصفة في أرباح شركة غينيا، التي تأسست سنة ١٧٠١، خصيصا لجلب العبيد إلى أمريكا، وكانت لدى وزيره كولبير، مهندس التصنيع الفرنسي، دوافع تجعله يؤكد أن تجارة العبيد "ينصح بها من أجل تطور التجارة البحرية الوطنية"[١٠٩].

قال آدم سميث إن اكتشاف أمريكا "رفع النظام التجاري إلى درجة من المجد والعظمة ما كان ليبلغها أبدا دون ذلك". وحسب ما يقوله سيرخيو باجو، فإن العبودية الأمريكية كانت أعظم محرك لتراكم رأس المال المركنتيلي الأوروبي؛ وكان هذا الرأسمال، بدوره "حجر الزاوية الذي تأسس عليه الرأسمال الصناعي الضخم للأزمنة الحديثة"[١١٠].

Twitter: @ketab_n

لقد كان لانبعاث العبودية الاغريقية ـ الرومانية في العالم الجديد خصائص فيها الكثير من الإعجاز: تضاعف عدد السفن، والمصانع، والسكك الحديدية، والبنوك في بلدان لم تكن هي مصدر، باستثناء الولايات المتحدة، ولا غاية العبيد الذين يعبرون المحيط. وبين إشراف القرن السادس عشر على الولادة ونهاية القرن التاسع عشر، عبر المحيط عدة ملايين من الأفارقة، لا يعرف عددهم أحد البتة؛ ولكن المعروف أنهم كانوا أكثر بكثير من المهاجرين البيض، القادمين من أوروبا، رغم أن من بقي منهم على قيد الحياة كانوا أقل بكثير، بطبيعة الحال. شيّد العبيد منازل سادتهم من نهر البوتوماك إلى نهر لابلاتا، وقطعوا الغابات، وقطعوا وعصروا قصب السكر، وزرعوا القطن، وغرسوا الكاكاو، وحصدوا البُن والتبغ، ونقبوا مجاري الأنهار بحثا عن الذهب. كم هيروشيما تعادل إبادتهم المتعاقبة؟ كما قال شايو برادو أنه حتى بدايات القرن التاسع عشر، كان قد وصل إلى البرازيل ما بين خمسة وستة ملايين من الأفارقة؛ عندما كانت كوبا سوقا ضخمة للعبيد تعادل ما كانه، من قبل، كل نصف الكرة الغربي[١١١].

وفي حوالي عام ١٥٦٢، هرّب الكابتن جون هوكينز ثلاثمائة زنجي من غينيا البرتغالية. وغضبت الملكة إيزابيل، وقالت "هذه المغامرة تستدعي انتقام السماء". لكن هوكينز أخبرها أنه في مقابل العبيد كان قد حصل في الكاريبي على حمولة من السكر والجلود واللآلئ والزنجبيل، لتعفو الملكة عن القرصان، ولتتحول إلى شريكته في التجارة. وبعد ذلك بقرن من الزمن، كان دوق يورك يختم بالحديد المحميّ الحرفين الأولين من اسمه، DY، على الإليه اليسرى أو على صدر الثلاثة الآف زنجي الذين تحضرهم شركته سنوياً إلى "جزر السكر". وكانت الشركة الملكيّة الأفريقية، التي يبدو بين مساهميها الملك كارلوس الثاني، تمنح

أرباحاً قيمتها ثلاثمائة في المائة، رغم أنه من بين ٧٠ ألف عبد شحنتهم بين عامي ١٦٨٠ و١٦٨٨، لم يبق حيا إثر عبور المحيط سوى ٤٦ ألفا. فقد كان يموت خلال الرحلة أفارقه عديدون ضحية للأوبئة أو لسوء التغذية، أو ينتحرون برفضهم لتناول الطعام، أو يشنقون أنفسهم بسلاسلهم، أو بإلقاء أنفسهم من السفينة إلى المحيط المزروع بأسماك القرش. أخذت انجلترا تقوّض هيمنة الهولنديين على تجارة العبيد ببطء لكن بحزم،. وكانت شركة بحر الجنوب هي المستفيدة الأساسية من "حق الإقامة" الممنوح للإنجليز من إسبانيا، وكان يرتبط بها أبرز شخصيات السياسة والتمويل في إنجلترا، فقد كانت التجارة تفوق كل ما عداها، وأصابت بورصة الأوراق المالية في لندن بالجنون وأشعلت مضاربة جهنمية.

لقد جعل نقل العبيد ميناء بريستول، الذي كان مقرا لعمال الترسانة، إلى مصاف ثاني مدن إنجلترا، وجعل ليفربول أكبر ميناء في العالم. فكانت السفن تقلع ومخازنها مُحمَّلة بالأسلحة، والمنسوجات، والبُن، والرون، والتوافه والزجاج الملون، التي ستكون وسيلة دفع ثمن البضاعة البشرية في أفريقيا، والتي سيكون ثمنها هو السكر، والقطن، والبُن، والكاكاو من المزارع الاستعمارية الأمريكية. وفرض الإنجليز سيطرتهم على البحار. وعند أواخر القرن الثامن عشر، كانت أفريقيا والكاريبي يوفران عملا لمائة وثمانين ألف عامل نسيج في مانشستر؛ وكانت تأتي السكاكين من شفيلد، ومن برمنجهام ١٥٠ ألف بندقية سنويا[١١٢]. وكان الزعماء الأفارقة يتلقون بضائع الصناعة البريطانية ويسلمون العبيد إلى قباطنة تجارة العبيد. وكانوا يحصلون بهذه الطريقة على أسلحة جديدة وشراب الرون من أجل جولات الاصطياد الجديدة في القرى. كذلك كانوا يقدمون العاج، والشموع، وزيت النخيل. كان

كثير من العبيد يأتون من الغابة ولم يروا البحر أبدا؛ وكانوا يظنون أن هدير المحيط هو عبارة عن زئير وحش مخيف ينتظر أن يلتهمهم أو يعتقدون، حسب شهادة أحد تجار تلك الفترة، وهم مُحقُّون في ذلك بمعنى ما، أنهم "سيقتادون مثل الكباش إلى المذبح، للأن الأوروبيين[١١٣] يقدرون لحمهم جدا". ولم تكن السياط ذات السبع ذيول تفيد كثيراً في احتواء القنوط الانتحاري لدى الأفريقيين.

كانت "حزم الرجال" التي تنجو من الجوع، والأمراض، وتكدس السفن، تعرض في أسمالها، جلدا على عظم، في الساحات العامة، بعد أن تمر في استعراض عبر الشوارع ذات الطراز الاستعماري على أنغام موسيقى القِرَب. أما من يصلون إلى الكاريبي وقد بلغ منهم الإرهاق مبلغه فيمكن تسمينهم في مستودعات العبيد قبل جعلهم يتباهون أمام عيون المشترين؛ أما المرضى فيتركون ليموتوا في المرافئ. وكان العبيد يُباعون نقدا أو بكمبيالات مُدتها ثلاث سنوات. وكانت السفن تقلع عائدة إلى ليفربول حاملة مختلف المنتجات الاستوائية: وفي بدايات القرن الثامن عشر، كان ثلاثة أرباع القطن الذي تغزله صناعة النسيج الإنجليزية يأتي من جزر الأنتيل، رغم أن جورجيا ولويزيانا ستصبحان فيما بعد مصدرها الأساسي؛ وكان هناك في أواسط القرن مائة وعشرون مصنع لتكرير السكر في إنجلترا.

كان يمكن للإنجليزي أن يعيش بحوالي ستة جنيهات في السنة في تلك الفترة. بينما كان تجار العبيد في ليفربول يحصلون على أرباح تزيد عن مليون ومائة ألف جنيه سنويا، إذا حسبنا فقط المال الذي يحصلون عليه من الكاريبي وبدون إضافة أرباح التجارة الإضافية. وكانت عشر شركات كبيرة تتحكم في ثلثي التجارة، وافتتحت ليفربول نظاما جديداً لأرصفة السفن؛ وازدادت السفن طولا وصارت مهيأة لحمولات أكثر.

وكان الصاغة يبيعون "أقفالا وأطواقا من الفضة للزنوج والكلاب". وكانت السيدات الأنيقات تظهرن بين الناس مصحوبات بقرد يرتدي سترة مطرزة وطفل عبد، بعمامة وسروال فضفاض من الحرير. وقد وصف أحد الاقتصاديين في ذلك الوقت تجارة العبيد بأنها "المبدأ الأساسي والرئيسي لكل شيء؛ كالزنبرك الرئيسي الذي يحرك كل قسم من أقسام الماكينة". انتشرت البنوك في ليفربول، ومانشستر، وبريستول، ولندن، وغلاسكو؛ وتراكمت أرباح شركة لويدز للتأمين بالتأمين على العبيد، والسفن، والمزارع. ومنذ وقت مبكر جدا، كانت إعلانات صحفية لندن غازيت تشير إلى أن العبيد الفارّين يجب تسليمهم إلى شركة لويدز. وأقيمت سكك حديد الغرب الإنجليزية الضخمة بأرصدة تجارة العبيد وولدت صناعات مثل مصانع الألواح المدرسية في ويلز. لقد أتاح رأس المال المتراكم من التجارة الثلاثية ـ المنتجات المصنعة، والعبيد، والسكر ـ اختراع الآلة البخارية: فقد دعم تجار راكموا ثرواتهم بهذه الطريقة العالم جميس واط. ويؤكد أريك ويليامز ذلك في دراسته الموثقة حول هذا الموضوع.

وفي مطلع القرن التاسع عشر، تحولت بريطانيا لتصبح المحرك الأساسي للحملة ضد تجارة العبيد. لقد أصبحت الصناعة الإنجليزية بحاجة إلى أسواق دولية لها قوة شرائية أكبر، مما اضطرها إلى تعميم نظام الأجور. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه مع إقامة نظام الأسعار في مستعمرات الكاريبي الإنجليزية، استعاد السكر البرازيلي، الذي تنتجه الأيدي العاملة من العبيد، بعض المزايا بسبب تكاليفه المنخفضة نسبيا[114].

انطلقت البحرية البريطانية تهاجم سفن تجارة العبيد، بينما ظلت التجارة تنمو لتزويد كوبا والبرازيل. وكانوا يلقون العبيد في الماء قبل أن

تصل السفن الحربية الإنجليزية إلى سفن القراصنة: وفي الداخل لم تكن تتبقى سوى الرائحة، وأواني الطهي الساخنة، وقبطان يموت من الضحك على الملأ. ورفع قمع تجارة العبيد الأسعار وأخذت الأرباح تتزايد بشكل كبير. وكان التجار في منتصف القرن يعطون بندقية قديمة مقابل كل عبد قوي ينتزع من أفريقيا، لإعادة بيعه في كوبا بأكثر من ستمائة دولار.

كانت جزر الكاريبي الصغيرة أهم، لإنجلترا، بكثير من مستعمراتها الشمالية. وكان ممنوعا على باربادوس، وجامايكا، ومونتسرات أن تصنع بنفسها إبره أو حدوة حصان. وكان وضع نيو إنجلاند مختلفا تماماً، مما سهل تطورها الاقتصادي، وكذلك استقلالها السياسي.

ومن المؤكد أن تجارة الزنوج في نيو إنجلاند كانت مصدر جزء كبير من رأس المال الذي أشرع الأبواب للثورة الصناعية في الولايات المتحدة الأمريكية. فعند منتصف القرن الثامن عشر، كانت سفن تجارة العبيد الشمالية تحمل من بوسطن، ونيوبورت، أو بروفيدنس براميل مملوءة بالرون متجهة إلى سواحل أفريقيا؛ وكانت تستبدل بالعبيد في أفريقيا؛ وتبيع العبيد في الكاريبي وتحمل المولاس من هناك إلى ماساشوستس، حيث يُقطَّر ويحول إلى رون، لتكتمل الدورة. كان أفضل رون في جزر الأنتيل، وهو الوست إنديان رون، للمفارقة لا يصنع في جزر الأنتيل. وبرؤوس الأموال المجلوبة من تجارة العبيد هذه، أقام الأخوة بروان، من بروفيدنس، فرن الصهر الذي منح الجنرال جورج واشنطن المدافع لاستخدامها في حرب الاستقلال(١١٥). أما مزارع السكر في الكاريبي، والمحكوم عليها بالزراعة الأحادية للقصب. فلا تستطيع فحسب أن تعتبر نفسها المركز الفعال لتطور "المستعمرات الثلاث عشرة" بسبب الدفعة التي اعطتها تجارة العبيد لصناعة السفن

ولمعامل تقطير نيو إنجلاند. بل أنها كانت تمثل السوق الكبيرة لتطوير الصادرات من الأغذية، والأخشاب، ومختلف الأدوات الموجهة إلى معامل التكرير كذلك، مما أتاح جدوى اقتصادية للاقتصاد الزراعي والصناعي الواعي لشمال الأطلنطي. وإلى حد كبير، كانت للسفن المصنوعة في ترسانات المستعمرين الشماليين تحمل إلى الكاريبي أسماكا طازجة ومدخنة، وشوفانا وحبوبا، وفاصوليا، ودقيقا، وزبدا، وجبنا، وبصلا، وخيولا وثيران، وشموعا وصابون، ومنسوجات، وألواحا من خشب الصنوبر والسنديان والأرز من أجل صناديق السكر (وقد نالت كوبا أول منشار بالبخار يصل إلى أمريكا الإسبانية لكنها لم تكن تملك الخشب الذي يقطعه) وأضلاع براميل وأطواقها، وحلقات، ومسامير.

وجرى هكذا سفك الدم خلال كل هذه العمليات. وأخذت تتطور البلدان المتطورة في أيامنا: بينما أخذت تتخلف البلدان المتخلفة اكثر.

قوس قزح هو طريق العودة إلى غينيا

كتب المحامي الونسو ثواثو في عام ١٥١٨، إلى كارلوس الخامس من الدومينيكان يقول: "إن الخوف من أن يتمرد العبيد غير وارد؛ وثمة أرامل في جزر البرتغال رزينات جدا ومعهن ثمانمائة عبد؛ فالأمر كله يتخلص في كيف يُساسون. ووجدت عند وصولي بعض الزنوج العنيدين، وآخرين هربوا إلى الجبل؛ فجلدت بعضهم، وقطعتُ آذان آخرين؛ ولم يبقَ هناك المزيد من المتاعب". واندلعت بعد أربع سنوات أول انتفاضة للعبيد في أمريكا: كان عبيد دييغو كولومبس، إبن مكتشف أمريكا، هم أول من ثاروا لينتهي بهم الأمر إلى أن عُلِّقوا في المشانق في ممرات معمل تكرير السكر[١١٦]. وتلت ذلك تمردات أخرى في

سانتو دومينغو ثم في كل جزر السكر بالكاريبي. وبعد قرنين من انتفاضة دييغو كولومبس، وفي الطرف الآخر لنفس الجزيرة، هرب العبيد الفارون إلى أعلى مناطق هاييتي وأعادوا إقامة الحياة الأفريقية في الجبال: أعادوا زراعة الغذاء، وعبادة آلهتهم، والعادات، وما زال قوس قزح، في الوقت الحاضر يشير إلى طريق العودة إلى غينيا بالنسبة لشعب تاهيتي. وفي سفينة بشراع أبيض... في جويانا الهولندية، عبر نهر كورانتين، وما زالت باقية منذ ثلاثة قرون تجمعات زنوج الديوكاس، المنحدرين من سلالة العبيد الذين فروا عبر غابات سورينام. ما زالت هناك في هذه القرى، "محاريب مماثلة لمحاريب غينيا، وتقام رقصات واحتفالات يمكن أن تحدث في غانا. وتستخدم لغة الطبول، الشديدة الشبه بطبول قبائل الاشانتي"[١١٧]. وقد وقع أول تمرد كبير للعبيد في جويانا بعد مائة عام من هروب زنوج الديوكاس: وقد استعاد الهولنديون المزارع وأحرقوا زعماء العبيد على نار هادئة. لكن قبل زمن من فرار زنوج الديوكاس، كان عبيد البرازيل الثيمارونيس قد نظموا مملكة بالماريس الزنجية، في الشمال الشرقي البرازيلي، وقاوموا ظافرين، طوال القرن السابع عشر، ورغم الحصار لعشرات الحملات العسكرية التي شنها الهولنديون والبرتغاليون، الواحدة تلو الأخرى، لإسقاط هذه المملكة. إلا أن هجمات آلاف الجنود كانت بلا جدوى في مواجهة تكتيكات محاربي العصابات التي جعلت هذا الملاذ الرحيب منيعا، حتى عام ١٦٩٣. كانت مملكة بالماريس المستقلة ـ هذه الدعوة إلى التمرد، وراية الحرية ـ قد نظمت كدولة "على غرار الدول الكثيرة التي كانت توجد في أفريقيا خلال القرن السابع عشر"[١١٨]. وامتدت من المناطق المجاورة لكابو دي سانتو اغوستنييو، في بيرنامبوكو، حتى المنطقة الشمالية لنهر سان فرنسيسكو، في الاغواس: وكانت تعادل

ثلث أراضي البرتغال ويحوطها حزام كثيف من الغابات البدائية. وكان الزعيم الأعلى يختار من بين أكثرهم مهارة وحكمة: كان يحكم من يتمتع "أكثر منزلة وسعادة في الحرب أو في القيادة"[١١٩]. في قمة حقبة مزارع السكر القاهرة، كانت بالماريس هي الركن الوحيد في البرازيل الذي تتطور في زراعة محاصيل متعددة. كان الزنوج يزرعون الذرة، والبطاطا، والفاصوليا، والمنيهوت، والموز وأغذية أخرى، تقودهم خبرتهم التي اكتسبوها بأنفسهم أو اكتسبها أسلافهم في المراعي أو في الغابات الاستوائية الأفريقية. ولم يكن الأمر صدفة، أن يبدو تدمير المزروعات كأنه الهدف الرئيسي للقوات الاستعمارية التي تحاول استرجاع الرجال الهاربون من المزارع بعد أن عبروا البحار والسلاسل في اقدامهم.

كانت وفرة الأغذية في بالماريس تتناقض مع الندرة التي تعاني منها مناطق زراعة السكر الساحلية، في ذروة الرخاء. كان العبيد الذين ظفروا بحريتهم يدافعون عنها ببراعة وشجاعة لأنهم يقتسمون ثمارها: فقد كانت ملكية الأرض مشاعة ولم يكن في دولة الزنوج نقود. ولا توجد في تاريخ العالم أي ثورة عبيد استطاعت أن تمتد قدر امتداد ثورة بالماريس. فقد دامت ثورة سبارتاكوس، التي هزت أهم نظم العبودية في العالم القديم، ثمانية عشر شهرا"[١٢٠]. وحشد التاج البرتغالي أكبر جيش شهدته البلاد حتى استقلال البرازيل ومن أجل المعركة الفاصلة. وقد دافع عن آخر حصون بالماريس ما لا يقل عن عشرة الآف شخص؛ وذبح من بقي منهم على قيد الحياة، أو قُذف بهم من المرتفعات، أو تم بيعهم لتجار ريو دي جانيرو وبوينس آيريس. ولم يستطع الزعيم زومبي الإفلات من قبضتهم بعد عامين بفعل الخيانة، وهو من يعتبره العبيد خالدا. حوصر في الغابة وقطعت رأسه. لكن التمردات لم تتوقف.

ولن يمر وقت طويل قبل أن يعود الكابتن بارتولوميو بوينو دو برادو من نهر داس مورتيش محملا بغنائم الانتصار على انتفاضة جديدة للعبيد. ويحضر معه ثلاثة الآف وتسعمائة زوج من الآذان محملة على ظهور الخيول.

كذلك حصلت تمردات في كوبا، وكان بعض العبيد ينتحرون في جماعات ويسخرون بذلك من السيد المستعمر "بإضراب أبدي وفرار لا منتهي في العالم الآخر" كما يقول فرناندو اورتيث، وكانوا يظنون أنهم، بهذه الطريقة، يُبعثون بأجسادهم وأروحهم، في أفريقيا الأم. وكان السادة يشوهون الجثث، حتى يُبعثوا خصيانا، أو مقطوعي اليد أو الرأس، لإجبارهم على التخلّي عن فكرة الانتحار. وفي حوالي عام ١٨٧٠، حسب الرواية الحديثة لعبد هرب في شبابه إلى جبال لاس فيياس، لم يعد العبيد ينتحرون في كوبا. ومن خلال حزام سحري، "أخذوا يطيرون، يطيرون في السماء، في محاولة بلوغ أرضهم" أو كانوا يضيعون في الجبال لأن "أي شخص يتعب من الحياة. ومن يتعودون تكون روحهم رخوة. لقد كانت الحياة في الجبال أفضل"[(١٢١)].

ظلت الآلهة الأفريقية حية بين عبيد أمريكا مثلما بقيت حية، بفعل الحنين، أساطير وخرافات الأوطان الضائعة، ومن الواضح أن الزنوج عبروا بهذا النحو، في احتفالاتهم، وفي رقصهم، وفي صراعاتهم، عن ضرورة تأكيد هوية ثقافية كانت المسيحية تنكرها. لكنهم لا بد وأنهم قد تأثروا كذلك بحقيقة أن الكنيسة مرتبطة ماديا بنظام الاستغلال الذي يعانون منه. وبينما كان عبيد الجزر الإنجليزية المدانون في جرائم يموتون سحقا بين رحى معاصر السكر، وفي المستعمرات الفرنسية يُحرقون أحياء أو يعذبون مقيدين إلى العجلات، صاغ الراهب الجزويني في أوائل القرن الثامن عشر، انطونيل نصائح رقيقة لأصحاب معامل

السكر في البرازيل، حتى يتجنبوا مثل هذه التجاوزات: "لا يجب أن يوافق المديرون بحال على الضرب بالقدم خصوصاً في بطن النساء الحوامل أو على ضرب العبيد بالهراوات، لأن الغضب يعمي عن الضرب بتعقل ويمكن أن يجرح عبد يساوي مبلغا كبيراً، في رأسه، وتفقده بذلك"[١٢٢].

وفي كوبا، كان رؤساء العمال يجلدون بسياطهم المصنوعة من الجلد أو القنب ظهور العبيد من النساء الحوامل اللاتي ترتكبن خطأ، لكن بعد أن يطرحوهن على بطونهن، والبطن مستقرة في حفرة، حتى لا يفسدوا "المولود" الجديد الذي ما زال يتشكل. أما الكهنة، الذين يتلقون خمسة في المائة من إنتاج السكر كضريبة عشور، فقد منحوا غفرانهم المسيحي: ويعاقب رئيس العمال الخطاة مثل يسوع المسيح. وقد نشر القاصد الرسولي خوان بريينيا أي بيرنات عظاته للزنوج "أيها التعساء، لا تفزعوا من أن تكون العقوبات التي عليكم أن تعانوها بوصفكم عبيدا كثيرة. فقد يكون جسدكم عبدا: لكن روحكم حرة لتطير ذات يوم إلى دار المختارين السعيدة"[١٢٣].

إن رب المنبوذين ليس هو دائماً نفس رب النظام الذي يجعلهم منبوذين. ورغم أن الديانة الكاثوليكية تضم، حسب المعلومات الرسمية، نسبة ٩٤ في المائة من سكان البرازيل، فإن السكان الزنوج يحتفظون، في الواقع، بتقاليدهم الأفريقية حية كما تواصل الحياة عقيدتهم الدينية، متخفية في الأغلب خلف التصاوير المقدسة في المسيحية[١٢٤]. وتصادف العقائد ذات الجذور الأفريقية انتشارا واسعا بين المضطهدين ـ مهما كان لون جلدهم. ونفس الشيء يحدث في جزر الأنتيل، فآلهة الفودو في هاييتي، وآلهة البيمبيه في كوبا والاومباندا والكيمباندا في البرازيل ما زالت نفس الالهة، برغم التحولات التي

طرأت، بدرجة أو بأخرى، على الطقوس والآلهة الأصلية، عند انتقالها إلى الأراضي الأمريكية. وفي الكاريبي وفي إقليم باهيا ينشدون الأناشيد الاحتفالية بلغات الناغو، واليوروبا، والكونغو، وغيرها من اللغات الأفريقية، وفي ضواحي المدن الضخمة جنوبي البرازيل، في المقابل، تسود اللغة البرتغالية، لكن نبتت من شاطئ غرب أفريقيا آلهة الخير والشر التي عبرت القرون لتتحول إلى الأشباح المنتقمة للمنبوذين، أولئك البشر المهانين الذين يتضرعون في الأحياء البائسة في ريو دي جانييرو صارخين:

يا باهيا القوية،

أيتها القوة الأفريقية،

أيتها القوة الإلهية،

تعالي،

تعالي لتساعدينا.

بيع الفلاحين

أُلغي الرِّق في البرازيل في عام ١٨٨٨. لكن لم يتم إلغاء اللاتيفونديا وكتب أحد الشهود في نفس هذا العام من شيارا يقول: "ظل سوق الماشية الآدمي مفتوحا طالما كان هناك جوع، حيث هناك دائماً مشترين. وكان من الغريب أن يكون هناك دخان دون أن يجذب عددا كبيراً من أهالي شيارا"[١٢٥]. وقد هاجر نصف مليون من أهالي الشمال الشرقي إلى منطقة الأمازون، سعيا منهم وراء سراب المطاط، حتى مطلع القرن؛ واستمرت الهجرة منذ ذلك الحين، بدافع نوبات الجفاف

الدورية التي دمرت منطقة السيرتاو ونتجية الموجات المتتالية لتوسع لاتيفونديات السكر في الغابات. وغادر شيارا في عام ١٩٠٠ أربعون ألفا من ضحايا الجفاف، وسلكوا الطريق المعتادة حينئذ: طريق الشمال باتجاه الغابة، ليتغير المسار فيما بعد، فيهاجر في أيامنا سكان الشمال الشرقي إلى وسط وجنوب البرازيل. وقد القى جفاف عام ١٩٧٠ بأفواج من الجوعى نحو مدن الشمال الشرقي. فنهبوا القطارات والمتاجر؛ وهم يتضرعون إلى القديس سان خوسيه صارخين أن يسقط المطر. انطلق "المعذبون" إلى الطرقات. وتذكُر برقية في إبريل عام ١٩٧٠ أن: شرطة ولاية برنامبوكو اعتقلت يوم الأحد الماضي، في بلدية بيلين دو ساو فرانسيسكو، ٢١٠ فلاحا سوف يباعون لمُلاّك زراعيين من ولاية ميناش غيرايش بسعر ثمانية عشر دولار للرأس"[١٢٦]. والفلاحون من بارايبا وريو غراندي دو نورتي، هما أشد الولايات تضررا من الجفاف. وفي حزيران، نقلت البرقيات تصريحات رئيس الشرطة الفيدرالية: أن إدارته لا تملك الوسائل الفعالة بعد من أجل وضع نهاية للتجارة العبيد، ورغم أنه خلال الشهور الأخيرة بدأت عشر عمليات تحقيق، ما زال بيع عمال الشمال الشرقي ممكناً للملاك الأغنياء في المناطق الأخرى من البلاد.

تضمن رواج طفرة المطاط وصعود البُن جيوش ضخمة من عمال الشمال الشرقي. لكن الحكومة كذلك تستفيد من هذا الفيضان من الأيدي العاملة الرخيصة، فهو جيش احتياطي ضخم من أجل الأشغال العامة الكبيرة. ومن الشمال الشرقي قدم، مُساقين كالماشية، الرجال العراة الذين شيدوا في يوم وليلة مدينة برازيليا في قلب الصحراء. هذه المدينة، وهي أحدث مدينة في العالم، يحوطها الآن حزام من الفقر العريض: فبعد انتهاء عملهم القي الكاندانغوس إلى الأحياء الهامشية.

وفي هذه الأحياء يعيش على فضلات العاصمة المتلألئة ثلاثمائة ألف من أهالي الشمال الشرقي، مستعدون على الدوام لأي خدمة.

والآن يفتح العمل العبودي لأهالي الشمال الشرقي الطريق العظيم عبر الأمازون، الذي سيقسم البرازيل إلى قسمين، مخترقا الغابة حتى الحدود مع بوليفيا. كما تتضمن الخطة مشروعا للاستيطان الزراعي من أجل مد "حدود الحضارة". فسوف ينال كل فلاح عشر هكتارات من الأرض، إذا نجى من صنوف الحمّى الاستوائية في الغابات. وهناك ستة ملايين من الفلاحين المعدمين في الشمال الشرقي، بينما يملك خمسة عشر ألف شخص نصف المساحة الإجمالية، ولا يطبق الإصلاح الزراعي في الأقاليم المأهولة فعلا، حيث يظل حق اللاتيفونديين في الملكية مقدسا، بل يطبق في قلب الغابة. وهذا يعني أن "المجلودين" من الشمال الشرقي سوف يفتحون الطريق أمام توسع اللاتيفوندية فوق مساحات جديدة. بدون رأس مال، وبدون وسائل عمل، فما الذي تعنيه عشرة هكتارات على بعد ألفين أو ثلاثة الآف كيلو متر من مراكز الاستهلاك؟ ويستخلص من هذا أن الأهداف الحقيقية للحكومة مختلفة تماماً: هي تقديم أيد عاملة للاتيفونديين الأمريكيين الشماليين الذين اشتروا أو اغتصبوا نصف الأراضي شمالي نهر الريو نيغرو وكذلك لشركة يونايتد ستيتس ستيل، التي تلقت من يد الجنرال غارراستازو ميديش المنابع الغنية للحديد والمنغنيز في الأمازون[١٢٧].

مرحلة المطاط: يفتتح كاروسو مسرحا ضخما في قلب الغابة

ي قُدر بعض المؤلفين أن ما لا يقل عن نصف مليون من أهالي الشمال الشرقي قد راحوا ضحية للأوبئة، والملاريا، والسل أو مرض

البري بري خلال فترة ازدهار المطاط. "لقد كان هذا الكوم المشئوم من العظام، هو ثمن صناعة المطاط"[١٢٨]. كان فلاحو الأراضي الجافة دون أي رصيد من الفيتامينات يقومون بالرحلة الطويلة صوب الغابة الرطبة، وهناك، في مزارع المطاط المليئة بالمستنقعات، كانت تنتظرهم الحُمى. ثم يُحشرون في مستودعات السفن في ظروف تجعل الكثيرين ينهارون قبل أن يصلوا؛ على هذا النحو، كانوا يستبقون مصيرهم القريب. وكان آخرون لا يبلغون حتى ركوب السفن. وفي عام ١٨٧٨، ومن بين سكان شيارا الثمانمائة ألف، مضى صوب الأمازون ١٢٠ ألفا، لكن لم يصل إلى هناك سوى أقل من نصفهم؛ وأخذ الباقون يتساقطون، بفعل الجوع أو المرض، في طرق السيرتاو أو في ضواحي فورتاليزا[١٢٩]، وقبلها بعام، كانت قد بدأت واحدة من كوارث الجفاف السبعة الكبرى بين تلك التي أصابت الشمال الشرقي خلال القرن الماضي.

ولم تكن الحمى وحدها ما ينتظرهم؛ وإنما كان ينتظرهم في الغابة نظام عمل شديد الشبه بالعبودية. فكان الأجر يُدفع عينيا ـ على شاكلة لحمم مجفف، ودقيق منيهوت، وسكر أسمر، ومشروبات كحولية ـ حتى يسدد جامع المطاط (سيرينغويرو) ديونه، وهي معجزة نادرا ما كانت تحصل. وكان هناك اتفاق بين أصحاب الشركات على ألا يعطوا عملا للعمال الذين ما زالت عليهم ديون؛ وكان الحرس الريفيون، الموزعين على حواف الأنهار، يطلقون النار على الفارين. كانت الديون تتراكم فوق الديون، فبجانب الدين الأصلي مقابل جلب العامل من الشمال الشرقي، يضاف الدين مقابل أدوات العمل، المنجل، والسكين، والدلاء، ولمَّا كان العامل يأكل، بل يشرب في المقام الأول، فلم يكن الرون شحيحا في مزارع المطاط؛ فقد كان الدين الذي يتراكم عليه يكبر بقدر أقدميته في العمل. ولأنهم أميون، كان أهالي

الشمال الشرقي يعانون، دون قدرة للدفاع عن أنفسهم، من أحابيل التلاعب في حسابات المديرين.

لاحظ بريستلي، حوالي عام ١٧٧٠، أنه يمكن للمطاط محو ما يكتبه القلم الرصاص على الورق. ثم بعد ذلك بسبعين سنة، اكتشف تشارلز غوديير والإنجليزي هانكوك في وقت واحد، طريقة لمعالجة المطاط بالحرارة، حيث تمنحها اللدونة لتجعله لا يتأثر بتغيرات الحرارة. وفي عام ١٨٥٠، كانت إطارات السيارات تُكسى فعلا بالمطاط. وظهرت في نهاية القرن، صناعة السيارات في الولايات المتحدة وأوروبا، وولد معها استهلاك الإطارات بكميات كبيرة. وتصاعد الطلب العالمي على المطاط تصاعدا رأسيا. كانت شجرة المطاط تُقدِّم للبرازيل، عام ١٨٩٠، عشر أرباح الصادرات؛ وبعد عشرين سنة، زادت النسبة إلى أربعين بالمائة، مما جعل المبيعات تكاد تبلغ مستوى البُن، رغم أن البُن كان، حوالي عام ١٩١٠، في أوج ازدهاره. وكان معظم إنتاج المطاط يأتي في ذلك الحين من إقليم اكرى، الذي انتزعته البرازيل من بوليفيا في ختام حملة عسكرية خاطفة[١٣٠].

وبالاستيلاء على اكرى، أصبحت البرازيل تسيطر على مجمل الاحتياطيات العالمية من المطاط تقريبا؛ كانت الأسعار الدولية في ذروتها وبدا أن الأوقات الطيبة ستستمر إلى الأبد، ولم يستمتع جامعو المطاط بتلك الأوقات، بالتأكيد، رغم أنهم كانوا يخرجون كل شروق من أكواخهم، وبعدة أوعية مربوطة بخيوط على ظهورهم، ويتسلقون الأشجار، أشجار هيفيا براسلينسيس الضخمة، لكي يجرحوها. كانوا يقطعون عدة جروح، في الجذع وفي الأغصان السميكة القريبة من القِمَّة؛ وكانت تنساب العصارة من الجروح، وهي عصارة بيضاء لزجة تملأ الأوعية في ساعتين. وفي المساء، تُطبخ أقراص المطاط المستوية،

التي ستتراكم بعد ذلك في إدارة المزرعة. وكانت الرائحة الحمضية والمنفِّرة للمطاط تملأ مدينة ماناوس، العاصمة العالمية لتجارة المنتج. وكان تعداد سكان ماناوس في عام ١٨٤٩ خمسة الآف؛ وخلال ما يزيد قليلاً عن نصف قرن زاد إلى سبعين ألفا، وشيد أباطرة المطاط هناك دورهم الضخمة ذات المعمار الباذخ والمليئة بالأخشاب الثمينة من اوريينتي، والخزف المطلي بالمينا من البرتغال، والأعمدة المرمرية من كارار، والموبيليات الفرنسية. وكان أثرياء الغابة الجدد يحضرون أغلى الأغذية من ريو دي جانيرو؛ وكان أفضل مصممي الموضة في أوروبا يفصلون بزّاتهم وفساتينهن؛ وكانوا يرسلون أبناءهم ليدرسوا في المدارس الإنجليزية، ويعد مسرح الأمازون، وهو بناء باروكي ضخم سيء الذوق، أكبر رمز لدوار تلك الثروات في أوائل القرن: وقد غنى التينور كاروزو من أجل سكان ماناوس ليلة الافتتاح، مقابل مبلغ خيالي، بعد أن صعد إلى النهر من خلال مروره بالغابة. أما بافلوفا، راقصة الباليه التي كان من المفروض أن ترقص، فلم تستطع تجاوز مدينة بيليم، لكنها أرسلت اعتذاراتها.

وفي عام ١٩١٣، وبضربة واحدة، حلت الكارثة بالمطاط البرازيلي، فالسعر العالمي، الذي كان قد وصل إلى أثني عشر شلنا قبل ثلاث سنوات، هبط إلى الربع. وفي عام ١٩٠٠، كان إقليم اوريينتي قد صدّر أربعة أطنان فقط من المطاط؛ وفي عام ١٩١٤، صبَّت مزارع سيلان وماليزيا أكثر من سبعين ألف طن في السوق العالمية. وبعد خمس سنوات كانت صادراتها قد بلغت أربعمائة ألف طن. والبرازيل التي تمتَّعت بالاحتكار الفعلي للمطاط، أصبحت، في عام ١٩١٩، لا تقدم سوى ثُمن الاستهلاك العالمي، وأخذت بعد نصف قرن، تشتري من الخارج أكثر من نصف المطاط الذي تحتاجه.

فما الذي حدث؟ حوالي عام ١٨٧٣، كان هنري ويكهام وهو إنجليزي يملك غابات مطاط في منقطة نهر الريو تاباخوس، معروفا بولعه بالنباتات، وقد أرسل رسوما وأوراقا من شجرة المطاط إلى مدير حديقة كيو، في لندن، فتلقى أمرا بالحصول على كمية جيدة من البذور، وهي الحبوب التي تحتويها شجرة الهيفيا براسيلينسيس داخل ثمارها الصفراء. وكان لا بد من تهريبها، لأن البرازيل كانت تفرض عقوبات قاسية على تهريب البذور، ولم يكن ذلك أمرا سهلا: فقد كانت السلطات تفتش المراكب تفتيشا دقيقا، ومن ثم، دخلت إحدى سفن شركة إنمان لاين نحو الداخل البرازيلي لمسافة ألفين من الكيلو مترات أكثر من المعتاد، وكان ذلك بدافع المتعة، وعند عودتها، ظهر بين طاقمها هنري ويكهام. كان قد انتقى أفضل البذور، بعد أن ترك الثمار تجف في إحدى قرى الهنود، وأحضرها داخل قمرة مغلقة، ملفوفة في أوراق الموز ومعلَّقة بخيوط من السقف حتى لا تصلها الفئران على سطح السفينة، وكانت بقية السفينة خالية، وفي بيليم دو بارا، في مواجهة مصب النهر، دعا ويكهام المسئولين إلى مأدبة كبيرة. كان الإنجليزي مشهورا بأنه مهووس، وكان معروفا في كل الأمازون بأنه يجمع زهور الأوركيد. وأوضح أنه يحمل، بتكليف من ملك إنجلترا، مجموعة من أبصال الأوركيد النادرة من أجل حديقة كيو. وشرح أن النباتات بالغة الحساسية، ولهذا يحفظها في قمرة مغلقة بإحكام، وفي درجة حرارة خاصة: وإن فَتَحها، فسوف تموت الزهور. وهكذا، وصلت البذور، سليمة، إلى المزارع الآسيوية، المنظمة بطريقة عقلانية، على أساس شتلات كيو الخضراء، لتزيح الإنتاج البرازيلي عن طريقها دون أي صعوبة تذكر.

تحول الازدهار الأمازوني ألى دخان، وسرعان ما عادت الغابة

لتنغلق على نفسها. وهاجر الباحثون عن الثروات إلى مناطق أخرى؛ وتم تفكيك المعسكر الفاخر. طبعا بقي على قيد الحياة، كيفما اتفق، العمال، الذين كانوا قد سيقوا من أنحاء نائية ليوضعوا في خدمة المغامرة الأجنبية. الأجنبية كذلك، بالنسبة للبرازيل ذاتها، التي لم تفعل سوى الاستجابة لغناء حوريات الطلب العالمي على المادة الأولية، دون أن تشارك بأقل ما يمكن في تجارة المطاط الحقيقية: في التمويل، والتسويق، والتصنيع، والتوزيع، وأصبحت الحورية خرساء، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية، واكتسب مطاط الأمازون دفعه عابرة جديدة. فقد كان اليابانيون قد احتلوا ماليزيا وكانت القوات المتحالفة بحاجة يائسة إلى إمدادات المطاط، كذلك اهتزت الغابة البيروانية بدورها، خلال الأربعينات، بفعل المتطلبات العاجلة من المطاط[١٣١]. وفي البرازيل، حشدت ما تسمى باسم "معركة المطاط" سن جديد فلاحي الشمال الشرقي. ووفق تقرير قدم في الكونغرس حين انتهت "المعركة" كان الموتى خمسون ألفا في هذه المرَّة، لتهزمهم الأوبئة والجوع، وليتعفنوا بين مزارع المطاط.

مزارعو الكاكاو يشعلون سجائرهم بأوراق عملة من فئة الخمسمائة ألف رييس

لزمن طويل، كان الكاكاو هو هوية فنزويلا، وهو النبات الأمريكي الأصل، يقول رانخيل[١٣٢]: "نحن الفنزويليين قد خُلقنا لنبيع الكاكاو ولنوزع، في ارضنا، التوافه القادمة من الخارج". وتشكل اوليغاركيات الكاكاو، مع المرابين والتجار "ثالوث مقدسا للتخلف"، وبالإضافة إلى الكاكاو، وكجزء من حاشيته، توجد تربية الماشية في السهول، والنيلة، والسكر، والتبغ، وكذلك بعض المناجم؛ لكن الكاكاو العظيم (الغران

كاكاو) وكان هو الاسم الذي عمّد به الشعب، عن حق، الأوليغاريكية المستعبِدة لكاراكاس. والتي اغتنت هذه على حساب عمل السود، عن طريق إمداد اوليغاركية المناجم المكسيكية والمتروبول الإسباني بالكاكاو. وافتتح منذ عام ١٨٧٣، في فنزويلا عصر البُن؛ ويتطلب البُن مثل الكاكاو، سهولا دافئة. ورغم دخول هذا المتطفل الجديد، إلا أن الكاكاو واصل توسعه، بكل الطرق، وغزا أراضي كاروبانو الرطبة. وظلت فنزويلا بلدا زراعيا، محكوما عليه بالتدهور أو التحسن الدوري في أسعار البُن والكاكاو؛ وكلا المنتجين يمدان العواصم التي تتيح الحياة الطفيلية، حياة الإسراف، لملاكهما، وتُجَّارهما، والمرابين. واستمر الأمر على هذه الحال حتى عام ١٩٢٢، حين تحولت البلاد فجأة إلى منبع للبترول. ليتحكم البترول في حياة البلاد منذ ذلك الحين. وجاء تدفق الثروة الجديدة ليؤكد، بعد تأخير استمر أكثر من أربعة قرون، توقعات المكتشفين الإسبان: إذ أنهم في بحثهم دون طائل عن الملك الذي يستحم في الذهب، كانوا قد بلغوا من الجنون حدا جعلهم يحسبون أن إحدى قرى ماركايبو هي فينيسيا، وهو سراب تدين له فنزويلا باسمها، كما اعتقد كولومبس أن الفردوس الأرضي ولد في خليج باريا[١٣٣]. وخلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، انفتحت شهية الأوروبيين والأمريكيين الشماليين على تناول الشوكولاتة. ومنح تطور الصناعة دفعة قوية لمزارع الكاكاو في البرازيل وحفز الإنتاج في المزارع القديمة في فنزويلا وإكوادور. دخل الكاكاو في البرازيل بقوة إلى الساحة الاقتصادية في نفس الوقت مع المطاط، وقد أتاح مثل المطاط، عملا لفلاّحي الشمال الشرقي. كانت مدينة سلفادور، في باهيا القديسين، واحدة من أهم مدن أمريكا، كعاصمة للبرازيل وللسكر، ولتولد كعاصمة للكاكاو في ذلك الحين. وإلى الجنوب من

باهيا، من الريكونكافو حتى ولاية اسبيريتو سانتو، بين أراضي الشريط الساحلي المنخفضة وسلسلة الجبال الساحلية، لتواصل المزارع في أيامنا، تقديم المادة الخام لجزء كبيرة من الشوكولاتة التي يستهلكها العالم. وكما حصل مع قصب السكر، فقد جلب الكاكاو معه الزراعة الأحادية، وتم حرق الغابات، ونشأت دكتاتورية الأسعار الدولية، والفاقة المتواصلة للعمال. أما أصحاب المزارع، الذين يعيشون في شواطئ ريو دي جانيرو ويعتبرون تجارا أكثر من كونهم مزارعين، فيحظرون تخصيص شبر واحد من الأرض لمزروعات أخرى. ويدفع المديرون الأجور عينيا في العادة، لحما قديدا، ودقيقا، وفاصوليا؛ وحين يدفعون الأجور نقدا، يتلقى الفلاح مقابل يوم عمل كامل أجرا يعادل ثمن ليتر من البيرة، وعليه أن يعمل يوماً ونصف يوم كاملين إذا أراد شراء علبة لبن مجفف.

لقد تمتعت البرازيل لزمن بأفضال السوق الدولية، ورغم ذلك، وجدت في أفريقيا منافسين أقوياء منذ ذروة الرواج. فكانت غانا قد احتلت المركز الأول في العشرينات، فقد طور الإنجليز مزارع الكاكاو على نطاق واسع، وبأساليب حديثة، في هذا البلد الذي كان عندئذ مستعمرة تسمى ساحل الذهب. وتراجعت البرازيل إلى المركز الثاني، وإلى المركز الثالث بعدها بسنوات، كمصدر عالمي للكاكاو. لكن مَرَّت ثمة فترة لم يكن لأحد ليستطيع أن يصدق المصير المتواضع الذي ينتظر الأراضي الخصبة جنوبي باهيبا. هذه الأراضي التي كانت بكر طوال الفترة الاستعمارية، أخذت تضاعف الثمار: كان العمال يقطعون الثمار بضربات السكاكين ويجمعون البذور، ويحملونها في العربات حتى تقودها الحمير إلى الأجران، وأصبح من الضروري قطع المزيد من الغابات، وفتح ثغرات جديدة، وغزو أراضي جديدة بحد السكين

وطلقات الرصاص، ولم يكن العمال يعلموا شيئاً عن الأسعار أو الأسواق. ولم يكونوا حتى يعرفون من الذي يحكم البرازيل: ولسنوات قريبة كان هناك عمال في المزارع الضخمة يعتقدون أن دون بيدرو الثاني، الإمبراطور، ما زال هو الحاكم. وكان سادة الكاكاو يفركون أيديهم: فهم يعرفون، أو يعتقدون أنهم يعرفون. وأخذ يتزايد الاستهلاك وتزيد معه الأسعار والأرباح. كان ميناء الهيوس، حيث يتم يشحن كل الكاكاو تقريبا، يسمى "ملكة الجنوب"، ورغم أنه أصبح مكانا مهجورا الآن، إلا أنه بقيت فيه القصور الغليظة التي اثثها الفازنيدييروس أصحاب المزارع بذوق باذخ وسيء. وقد كتب جورج امادو عدة روايات حول هذا الأمر. ويصف هكذا مرحلة ارتفاع للأسعار: "كانت الهيوس ومنطقة الكاكاو تستحم في الذهب، وتستحم في الشمبانيا، وتنام مع فرنسيات قادمات من ريو دي جانيرو. وفي "التريانون"، أكثر كباريهات المدينة أناقة، كان الكولونيل مانيكا دانتاس يشعل سيجاره بأوراق عملة من فئة خمسمائة ألف رييس، مكررا حركة كل المزارعين التجار الأثرياء في البلاد في موجات الرواج السابقة للبُن، والمطاط، والقطن، والسكَّر" مع ارتفاع الأسعار[١٣٤]. كان الإنتاج يزيد، ثم تنخفض الأسعار. وأصبح عدم الاستقرار أكثر حِدَّة وأخذت الأرض تُغيِّر مالكيها. وبدأ زمن "المليونيرات الشحاذين". فترك أصحاب المزارع مكانهم للمصدرين، الذي تمكنوا من تملك الأرض بممارسة نظام الإقراض.

لقد انخفض السعر العالمي لبذور الكاكاو البرازيلي في أقل من ثلاث سنوات، بين عام ١٩٥٩ و١٩٦١، بمقدار الثلث. واتجاه الأسعار إلى الارتفاع لم يستطع أن يفتح أبواب الأمل فيما بعد،. وتعزو اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية عمرا قصيرا لمنحنى الارتفاع[١٣٥]. فكبار مستهلكي الكاكاو ـ وهم الولايات المتحدة، وإنجلترا، وألمانيا

الإتحادية، وهولندا، وفرنسا ـ أخذوا يثيرون المنافسة بين الكاكاو الأفريقي وذلك الذي تنتجه البرازيل واكوادور، ليحصلوا على شوكولاتة رخيصة. ليثيروا على هذا النحو، بتحكمهم في الأسعار كما يفعلون، فترات من الكساد تدفع العمال الذين يطردهم الكاكاو إلى الطرقات. ويبحث العاطلون عن أشجار ينامون تحتها وعن موزات خضراء يراوغون بها جوعهم ولا يأكلون، بالتأكيد، الشوكولاتات الأوروبية الفاخرة التي تستوردها البرازيل بصورة غير معقولة من فرنسا ومن سويسرا، بينما في الحقيقة أن البرازيل هي ثالث منتج عالمي للكاكاو. ويتزايد سعر الشوكولاتة باستمرار، بينما ينخفض سعر الكاكاو، نسبيا، باستمرار. وفيما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٦٠، زادت مبيعات الإكوادور من الكاكاو بأكثر من ثلاثين في المائة في الحجم، بينما لم تزد في قيمتها سوى بنسبة خمسة عشر بالمائة. والخمسة عشر بالمائة الباقية هدية من الإكوادور للبلدان الغنية، التي أرسلت اليها في نفس الفترة منتجاتها المصنعة، بأسعار متزايدة، ويعتمد اقتصاد الإكوادور على مبيعات الموز، والبُن، والكاكاو، وهي ثلاث أغذية معرضة بقسوة لتقلبات الأسعار، وحسب البيانات الرسمية، فإنه من بين كل عشرة اكوادوريين يعاني سبعة من سوء تغذية أساسي وتعاني البلاد من واحد من أكثر معدلات الوفيات ارتفاعا في العالم.

يد عاملة رخيصة للقطن

تحتل البرازيل المركز الرابع في إنتاج القطن في العالم؛ وتحتل المكسيك المركز الخامس. وفي المجموع، يأتي من أمريكا اللاتينية أكثر من خمس القطن الذي تستهلكه صناعة النسيج في كوكب الأرض بأسرها. وعند نهايات القرن الثامن عشر، تحول القطن إلى أهم المواد

الأولية بين احتياجات أوروبا الصناعية؛ وضاعفت إنجلترا مشترياتها، خلال ثلاثين عاما من هذه الخيوط الطبيعية خمسة أضعاف. إن المغزل الذي اخترعه اركرايت في نفس الوقت الذي سجل فيه واط آلته البخارية، واختراع النول الآلي الذي صنعه كارترايت فيما بعد، أسهمت كلها في إعطاء دفعة حاسمة لصناعة النسيج وفتحت أمام القطن، وهو نبات كان موطنه أمريكا، أسواقا نَهِمَة فيما وراء البحار. إن ميناء ساو لويز دي مارانياو، الذي كان غارقا في قيلولة استوائية طويلة لا يقطعها بالكاد سوى سفينتين في السنة، قد استيقظ بحدة بفعل نشوة القطن: تدفق العبيد السود إلى مزارع شمال البرازيل وكانت تغادر الميناء كل عام ما بين مائة وخمسين ومائتي سفينة محملة بمليون رطل من المادة الخام اللازمة لصناعة النسيج. ومع مولد القرن الماضي، قدمت أزمة الاقتصاد المنجمي للقطن أيدٍ عاملة وفيرة من العبيد؛ مع نضوب الذهب والألماس من الجنوب، بدا أن البرازيل تنبعث من جديد في الشمال. وازدهر الميناء، وأنتج الشعراء ما يكفي لكي يطلق عليه اسم أثينا البرازيل[١٣٦]. لكن الجوع أتى إلى إقليم مارايناو، مع الرخاء، حيث لم يكن أحد يشغل نفسه بزراعة الأغذية. وفي بعض الفترات لم يكن ثمة ما يؤكل سوى الأرز[١٣٧]. وكما بدأت هذه الحكاية، فإنها انتهت: فقد حل الانهيار فجأة. فقد نتج عن إنتاج القطن على نطاق واسع في مزارع جنوبي الولايات المتحدة، على أراضي ذات نوعية أفضل، ونَتَج أن انخفضت الأسعار إلى الثلث وخرجت البرازيل من المنافسة. وحلت مرحلة ازدهار جديدة بسبب حرب الانفصال، التي قطعت الإمدادات الأمريكية الشمالية، لكنها لم تستمر طويلا. وفي القرن العشرين، فيما بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٩، تزايد الإنتاج البرازيلي من القطن بمعدل مثير: فمن ١٢٦ ألف طن أصبح ٣٢٠ ألفا. وعندئذ حلت كارثة جديدة:

فقد أدخلت الولايات المتحدة فوائضها إلى السوق الدولية وتدهور السعر.

والفوائض الزراعية الأمريكية الشمالية، كما هو معروف، هي نتيجة الدعم القوي الذي تقدمه الدولة للمُنتجين؛ بأسعار إغراق وكجزء من برامج المعونات الخارجية، تدفقت الفوائض وأغرقت العالم. هكذا، كان القطن هو ناتج التصدير الأساسي للباراغواي حتى أخرجته المنافسة المدمرة للقطن الأمريكي الشمالي من الباراغواي ليقتصر إنتاج الباراغواي، منذ عام ١٩٥٢، على النصف ولتفقد الأوروغواي تصدير مادة الأرز إلى السوق الكندية. وهكذا فقد قمح الأرجنتين، وهو البلد الذي كان يمكن أن يصبح مستودع غلال للكوكب برامج المساعدات الخارجية، وينتشر الفائض في جميع أنحاء العالم. ليفقد وزنا حاسما في الأسواق الدولية. ولم يمنع الإغراق الأمريكي الشمالي للأسواق بالقطن، شركة أمريكية هي شركة اندرسون كلايتون وشركاه، من الاستيلاء على امبراطورية هذا المنتج في أمريكا اللاتينية، وكذلك لم يمنع أن تشتري الولايات المتحدة، من خلالها، قطنا مكسيكيا لكي تعيد بيعه لبلدان أخرى.

وما زال قطن أمريكا اللاتينية باقيا في الأسواق الدولية، ضرره أكثر من نفعه، بفضل تكاليف إنتاجه البالغة الانخفاض، وحتى الأرقام الرسمية، التي هي أقنعه للحقيقة، تنم عن أجر العمل البائس. ففي مزارع البرازيل، تتبادل أجور الجوع مع عمل الأقنان؛ وفي غواتيمالا، يتفاخر الملاك بأنهم يدفعون أجورا تبلغ تسعه عشر كتزالا في الشهر (والكتزال يساوي الدولار اسميا) وهم أنفسهم يقرون، وكما لو أن هذا ليس كافيا، أن الجزء الأكبر من هذه الأجور يقدم عينيا مقابل مواد يحددون هم سعرها[١٣٨]. وفي المكسيك، فإن العمال الذين يتحولون

من محصول إلى محصول ويتقاضون دولاراً ونصف في اليوم لا يعانون من البطالة فقط، بل يعانون كنتيجة لذلك، من سوء التغذية، لكن وضع عمال القطن في نيكاراغوا أسوأ من ذلك بكثير، أما السلفادوريين الذين يُزوِّدون بالقطن مصانع النسيج اليابانية فيستهلكون سعرات حرارية وبروتينات أقل مما يفعل جياع الهند. ويمثل القطن ثاني مصدر للعملات الأجنبية في اقتصاد البيرو، وقد لاحظ خوسيه كارلوس مارياتيجي أن الرأسمالية الأجنبية، في بحثها الدائم عن أراض، وأيدي عاملة، وأسواق، اتجهت للسيطرة على الزراعات التصديرية للبيرو، من خلال توقيع عجز استيفاء للديون العقارية على ملاك الأراضي المدينين[١٣٩].

وحين وصلت إلى السلطة عام ١٩٨٦ الحكومة الوطنية للجنرال بيلاسكو البارادو، كان يُزرع أقل من سُدس أراضي البلاد القابلة للاستغلال المكثَّف، وكان الدخل لكل فرد للسكان أقل من دخل الفرد في الولايات المتحدة خمس عشرة مرة، وكان استهلاك السعرات الحرارية بين أقل المُعدَّلات في العالم، لكن إنتاج القطن ظَلَّ، مثل إنتاج السُكَّر، تحكمه المعايير الغريبة عن البيرو والتي شجبها مارياتيجي. كانت أفضل الأراضي، وهي أراضي الزراعة الساحلية، في أيدي شركات أمريكية شمالية أو في أيدي ملاك أراضي لم يكونوا وطنيين سوى بالمعنى الجغرافي، مثلما هي حال بورجوازية ليما، كانت خمس شركات ضخمة ـ من بينها اثنتان أمريكيتان شماليتان: هما شركة اندرسون كلايتون وشركة غريس ـ تسيطر فيما بينها على تصدير القطن والسكر وتمتلك كذلك "مجتمعاتها الزراعية ـ الصناعية" الخاصة للإنتاج. وكانت مزارع السكر والقطن الساحلية، والتي يفترض أنها مراكز الرفاهية والتقدم مقابل لاتيفونديات الجبل، كانت تدفع للعمال أجور زهيدة للغاية، حتى صادرها الإصلاح الزراعي لعام ١٩٦٩ وسلَّمها للعمال

على هيئة مزارع تعاونية. ووفقا لما تذكره اللجنة الأمريكية المشتركة للتطور الزراعي، فإن دخل كل واحدة من عائلات عمال الساحل لم يكن يتجاوز خمسة دولارات شهرياً[١٤٠].

وتحتفظ شركة اندرسون كلايتون وشركاه بثلاثين شركة تابعة لها في أمريكا اللاتينية، ولا تعمل فقط في بيع القطن، بل إضافة إلى ذلك، وعلى سبيل الاحتكار الأفقي، لديها شبكة تشمل تمويل وتصنيع القطن ومشتقاته كما تنتج الأغذية على نطاق واسع. وفي المكسيك، على سبيل المثال، تمارس سيطرتها بكل السبل على إنتاج القطن، رغم أنها لا تملك أرضا؛ وفي قبضة يدها، بالفعل، العمال المكسيكيون الثمانمائة ألف الذين يجمعونه، وتشتري الشركة بسعر بالغ الانخفاض تيلة القطن المكسيكي الممتازة، لأنها تمنح قروضا مسبقة للمنتجين مع الزامهم بأن يبيعوا لها المحاصيل بالثمن الذي تفتح به هي السوق. ويضاف إلى مقدمات النقود تقديم الأسمدة، والبذور، والمبيدات، وتحتفظ الشركة بحق الإشراف على أعمال التسميد، والبذار، والحصاد. وتحدد الثمن الذي يروقها من أجل حلج القطن. وتستخدم البذور في مصانع الزيت والدهون والشحوم التي تملكها. وخلال السنوات الأخيرة، فإن كلايتون، "غير مكتفية بالسيطرة كذلك على تجارة القطن، قد ظهرت أيضاً في مجال إنتاج الحلوى والشوكولاتة، واشترت مؤخرا شركة لوكسوس المعروفة"[١٤١].

وشركة اندرسون كلايتون، في الوقت الحاضر، هي الشركة الأساسية المصدرة للبُن في البرازيل، ففي عام ١٩٥٠ اهتمت بهذه التجارة، وبعد ثلاث سنوات، كانت قد انتزعت مكان الصدارة فيها من الأمريكان كوفي كوربوريشن. وهي أول مُنتج للأغذية في البرازيل كذلك، وتندرج بين أقوى خمس وثلاثين شركة في البلاد.

يد عاملة رخيصة للقهوة

هناك من يؤكدون أن البن يكاد يعادل في أهميته البترول في السوق الدولية. وفي بداية عقد الخمسينات، كانت أمريكا اللاتينية تقدم أربعة أخماس البن المستهلك في العالم، وخلال الأعوام التي تلتها، فإن منافسة البن من نوع ربوستا، القادم من أفريقيا، رغم أن نوعيته أدنى لكن بسعر أقل، قد خفضت من مساهمة أمريكا اللاتينية. ورغم ذلك، فإن سدس العملات الصعبة التي يحصل عليها الإقليم من الخارج تأتي، حاليا من البن. وتؤثر تقلبات الأسعار على خمسة عشر بلدا تقع جنوبي نهر الريو برافو. وتعتبر البرازيل أكبر منتج في العالم، وتحصل من البن على نحو نصف عائداتها من التصدير. وتعتمد السلفادور، وغواتيمالا، وكوستاريكا، وهاييتي بدرجة كبيرة كذلك على البن، الذي يقدم علاوة على ذلك، ثلثي العملات الصعبة لكولومبيا.

لقد جلب البن التضخم إلى البرازيل، ففيما بين عام ١٨٢٤ و١٨٥٤، تضاعف سعر الرجل، ولم يستطيع قطن الشمال ولا سكر الشمال الشرقي، بعد أن استنفدت دورات الازدهار، دفع ثمن أولئك العبيد الباهظين الثمن. لتنتقل البرازيل إلى الجنوب. وبالإضافة إلى اليد العاملة من العبيد، استخدم البن الأيدي العاملة من المهاجرين الأوروبيين، الذين كانوا يوردون إلى أصحاب الأراضي نصف محاصيلهم، في نظام مناصفة ما زال يسود حتى اليوم في البرازيل. ويجهل السياح الذين يخترقون اليوم غابات تيجوكا لكي يسبحوا في مياه الشاطئ أنه كانت توجد في الجبال المحيطة بريو دي جانيرو، مزارع بن ضخمة منذ أكثر من قرن. وعبر سفوح الجبال، واصلت المزارع، باتجاه ولاية ساو بأولو، مجزرتها المطلقة العنان للرواسب العضوية في

الأراضي البكر الجديدة. وعند نهاية القرن كان لاتيفونديو زراعة البن قد أصبحوا يشكلون النخبة الاجتماعية الجديدة للبرازيل، وقد بروا أقلامهم وأجروا حساباتهم، فاتضح لهم أن أجور الكفاف أرخص من شراء وإطعام العبيد النادرين. ليتم الغاء العبودية عام ١٨٨٨، وبذلك ظهرت أشكال مختلطة من العبودية الإقطاعية والعمل المأجور ما زالت باقية حتى أيامنا. ومنذ ذلك الحين، ستصاحب فيالق من العمال "الأحرار" جولات البن. تحول وادي نهر بارايبا إلى أغنى مناطق البلاد، لكنه سرعان ما دمره النبات القاتل الذي، بزراعته بنظام مدمر، ظل يترك وراءه غابات محروقة، وموارد طبيعية تنضب شيئاً فشيئا، وتدهورا شاملا. دمر التآكل، الأراضي التي كانت بكرا، بلا رحمة، أخذ يترك نتائجه، مرهقا النباتات ومعرضا لها لأذى الأوبئة. ولتغزو لاتيفوندية البن الهضبة القرمزية الواسعة شرقي ساو بأولو، وبأساليب استغلال أقل وحشية، حولتها إلى "إلى بحر من البن"، وواصلت تقدمها نحو الغرب. وبلغت ضفاف نهر البارانا، وأمام سافانا إقليم الماتو غروسو، استدارت نحو الجنوب بينما تنتقل خلال السنوات الأخيرة نحو الغرب من جديد، متخطية حدود البارغواي.

ونجد في الوقت الحالي أن ساو بأولو هي أكثر ولايات البرازيل تطورا، كونها تضم المركز الصناعي للبلاد، لكن ما زال هناك الكثيرون من "السكان المقيمين" الذين يدفعون إيجار الأرض بعملهم وعمل أبنائهم.

فرض جشع أصحاب مزارع البن الإلغاء الكامل للنظام الذي كان يسمح لعمال المزارع بأن يزرعوا الأغذية لحسابهم خلال السنوات المزدهرة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى. بينما لا يمكنهم عمل ذلك الآن إلا مقابل إيجار يدفعونه بالعمل دون أجر. كما يعتمد

اللاتيفوندي على المستوطنين الذين يؤجرون الأرض بعقود، فيسمح لهم بزراعات مؤقتة، لكن يتم ذلك مقابل أن يزرعوا مزارع بن جديدة لصالحه. وحين تتلون الحبوب الصفراء فوق الغصون بعد أربع سنوات، تتضاعف قيمة الأرض، ويأتي الدور على المستوطن أن يرحل.

وتدر مزارع البن في غواتيمالا عائدا أقل من مزارع القطن. ويقول أصحاب الأراضي في المنحدرات الجنوبية أنهم يدفعون خمسة عشر دولاراً شهريا مقابل عمل آلاف الهنود الذين يهبطون كل عام من هضبة الالتيبلانو نحو الجنوب، ليبيعوا قوة أذرعهم في الحصاد. وتملك الضياع شرطتها الخاصة، وهناك مثلما شرح لي أحدهم، "يكون الرجل أرخص من قبره"، ويتعهد جهاز القمع باستمرار هذا النمط. والموقف أسوأ من ذلك في إقليم بيراباث العليا. فلا توجد هناك سيارات شحن ولا عربات، كون أصحاب الضياع لا يحتاجونها، فإن نقل البن على ظهر الهندي أرخص بكثير.

فيما يخص اقتصاد السلفادور، فيتمتع البن بأهمية أساسية في هذا البلد الصغير الواقع في قبضة حفنة من العائلات الأوليغاركية، فتجبر الزراعة الأحادية البلاد لاستيراد الفاصوليا من الخارج، وهي المصدر الوحيد للبروتين للتغذية الشعبية، وكذلك الذرة، والخضروات، وغيرها من الأغذية التي كانت البلاد تنتجها تقليديا. وربع السلفادوريين يسقطون ضحية نقص الفيتامينات. أما فيما يتعلق بهاييتي، فلديها أعلى معدل للوفيات في أمريكا اللاتينية، وأكثر من نصف سكانها من الأطفال يعاني من فقر الدم. والأجر الرسمي، في هاييتي، يدخل في نطاق الروايات الخيالية، ففي مزارع البن، يتراوح الأجر الفعلي بين سبعة وخمسة عشر سنتا من الدولار يوميا.

وللبن نصيب الأسد في كولومبيا، حيث تتمتع الأرض بالأراضي

المنحدرة. ووفقا لما ذكره تقرير نشرته مجلة تايم عام ١٩٦٢، لا يتقاضى العمال سوى نسبة خمسة بالمائة، من خلال أجورهم، من الثمن الإجمالي الذي يحققه البن خلال رحلته من الغصن إلى شفاه المستهلك الأمريكي الشمالي[١٤٢]. وبعكس البرازيل، فإن بن كولومبيا لا ينتج، في أغلبه، في اللاتيفونديات، بل في ميني فونديات (قطع أراضي صغيرة) تميل إلى الانقسام باستمرار، ففيما بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٠، ظهرت مائة ألف مزرعة جديدة، ذات مساحات ضئيلة في غالبيتها، تقل عن هكتار واحد. والمزارعون الصغار والصغار جدا ينتجون ثلاثة أرباع البن الذي تصدره كولومبيا و٩٦ بالمائة من اللاتيفونديات الصغيرة[١٤٣]. يبتسم خوان بالديس في الإعلانات، ولكن تفتت الملكيات يخفض مستوى معيشة المزارع، ذوي الدخول المتضائلة، ويسهل مناورات الاتحاد القومي لمنتجي البن، الذي يمثل مصالح الملاك الكبار والذي يتحكم فعلياً في تسويق المنتج. وتعطي قطع الأرض الأقل من هكتار واحد دخلا مزريا، مائة وثلاثون دولارا، في المتوسط، سنويا[١٤٤].

أسعار البن تقذف بالمحاصيل إلى النار وتحدد إيقاع الزيجات

ما هذا؟ هل هو رسم لدماغ شخص مجنون؟ لقد كان البن يساوي سنتين في عام ١٨٨٩ وارتفع بعد ستة أعوام إلى تسعة سنتات، ثم انخفض إلى أربعة سنتات بعد ذلك بثلاث سنوات وانخفض بعد خمسة أعوام إلى سنتين اثنين. وكانت تلك فترة إيضاحية[١٤٥]. إن الخطوط البيانية لأسعار البن، مثلها مثل أسعار كل المنتجات الاستوائية، تشبه دائماً الخطوط البيانية الاكلينيكية لداء الصرع، لكن يهبط الخط إلى

أسفل بحدة دائماً حين تسجل قيمة التبادل للبن في مقابل الآلات والمنتوجات الصناعية. وقد اعترض كارلوس ليراس ريستريبو، رئيس كولومبيا عام ١٩٦٧، في هذه السنة كان على بلاده أن تدفع سبعة وخمسين كيسا من البن مقابل شراء سيارة جيب، وفي عام ١٩٥٠ كان الثمن سبعة عشر كيسا. وفي نفس الوقت، أجرى وزير الزراعة في ساوبأولو، هربرت ليفي، حسابات أكثر تراجيدية، فمن أجل شراء جرار زراعي عام ١٩٦٧، كانت البرازيل تحتاج ثلاثمائة وخمسين كيسا من البن، بينما قبل أربع عشرة سنة كانت سبعون كيسا تكفي لذلك فقط. وكان الرئيس غيتوليو فارغاس قد مزق قلبه برصاصة، عام ١٩٥٤، ولم تكن أسعار البن غريبة على المأساة، "جاءت أزمة إنتاج البن ـ هكذا كتب فارغاس في وصيته ـ وتم تحديد قيمة منتجنا الأساسي. فكرنا في الدفاع عن أسعاره وكان الرد ضغطا عنيفا على اقتصادنا، حتى وجدنا أنفسنا مضطرين للتسليم". لقد أراد فارغاس أن يكون دمه ثمنا للإنقاذ.

لو كان محصول عام ١٩٦٤ من البن قد بيع، في سوق أمريكا الشمالية، بأسعار عام ١٩٥٥، لكانت البرازيل قد تلقت مائتي مليون دولار أكثر. فانخفاض سنت واحد في سعر البن يتضمن خسارة مبلغ ٦٥ مليونا من الدولارات بالنسبة لمجموع البلدان المنتجة، ومنذ عام ١٩٦٤، وحيث أن السعر استمر في الانخفاض حتى عام ١٩٦٨، تزايدت كمية الدولارات التي اغتصبها البلد المستهلك للبن، وهو الولايات المتحدة، من البرازيل، وهو البلد المنتج، لكن لصالح من هذا؟ هل هو لصالح المواطن الذي يشرب القهوة؟ كان سعر البن البرازيلي في تموز من عام ١٩٦٨ في الولايات المتحدة قد انخفض بنسبة ثلاثين بالمائة بالمقارنة مع كانون ثاني من عام ١٩٦٤، ورغم ذلك، لم يدفع المستهلك الأمريكي الشمالي ثمنا أقل للبن، بل اشتراه

أغلى بنسبة ثلاثة عشر بالمائة. نال الوسطاء إذا بين عامي ٦٤ و٦٨، هذه الثلاثة عشر وتلك الثلاثين بالمائة، وكسبوا من كلي الطرفين. وفي نفس هذا المرحلة الزمنية، قلت الأسعار التي يتلقاها المنتجون البرازيليون مقابل كل كيس من البن بنسبة النصف[١٤٦]. ومن هم الوسطاء؟ ست شركات أمريكية شمالية تستحوذ على أكثر من ثلث البن الذي يخرج من البرازيل، وتستحوذ ست شركات أمريكية شمالية على أكثر من ثلث البن الذي يدخل الولايات المتحدة، أنها الشركات المسيطرة في كلا طرفي العملية. شركة اليونايتد فروت (التي أصبحت تسمى يونايتد براندز بينما أكتب هذه السطور) تمارس احتكار بيع الموز من أمريكا الوسطى، وكولومبيا، وإكوادور، وفي نفس الوقت تحتكر استيراد وتوزيع الموز في الولايات المتحدة. وبنفس الطريقة، فإن الشركات الأمريكية هي التي تتحكم في تجارة البن، وتشارك البرازيل فقط بوصفها موردا وبوصفها ضحية. والدولة البرازيلية هي التي تتولى المخزون، حين يجبر الإنتاج الزائد على تكويم الاحتياطيات.

أليس هناك اتفاقية دولية للبن من أجل تثبيت الأسعار في السوق؟ نشر المركز الدولي في واشنطن، عام ١٩٧٠، وثيقة مطولة تستهدف إقناع المشرعين حتى تصادق الولايات المتحدة، في أيلول، على سريان القانون التكميلي المتعلق بالمعاهدة. ويؤكد التقرير أن المعاهدة قد أفادت الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، وهي التي تستهلك أكثر من نصف البن الذي يباع في العالم. وما زال شراء حبات البن صفقة مربحة. وفي سوق أمريكا الشمالية، فإن الارتفاع المضحك في سعر البن (لصالح الوسطاء كما رأينا) كان أقل بكثير من الارتفاع العام في تكاليف المعيشة وفي المستوى الداخلي للأجور، وقد ارتفعت قيمة صادرات الولايات، فيما بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٩، بنسبة السدس، وفي نفس

الفترة، انخفضت قيمة واردات البن، بدل أن ترتفع. ويجب، إضافة إلى ذلك، أن نضع في الاعتبار أن البلدان الأمريكية اللاتينية تنفق العملات الصعبة المتضائلة التي تحصل عليها من بيع البن، في شراء هذه المنتجات الأمريكية الشمالية الباهظة الثمن.

إن البن يفيد من يستهلكونه أكثر من الذين ينتجونه. ويولد في الولايات المتحدة وأوربا أرباحاً وفرص عمل ويحرك رؤوس أموال كبيرة، أما في أمريكا اللاتينية، فإنه يقدم أجوراً زهيدة ويزيد من شدة التشوه الاقتصادي لبلاد موضوعة في خدمته. يمنح البن في الولايات المتحدة عملا لأكثر من ستمائة ألف شخص، والأمريكيون الشماليون الذين يوزعون ويبيعون البن الأمريكي اللاتيني يكسبون أجورا أعلى بكثير من البرازيليين، أو الكولومبيين، أو الغواتيماليين، أو السلفادوريين، أو الهايتيين الذين يبذرون ويحصدون البذور في المزارع. ومن جانب آخر، تعلمنا اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، رغم أنه لا يصدق، بأن البن يمنح خزائن الدول الأوروبية ثروة أكبر مما يترك من ثروة في أيدي البلدان المنتجة. وبالفعل، فإنه "في عامي ١٩٦٠ و١٩٦١، تصاعدت الأعباء المالية الإجمالية المفروضة من بلدان السوق الأوروبية على البن الأمريكي اللاتيني إلى نحو سبعمائة مليون دولار"، بينما لم تبلغ دخول البلدان الموردة (بالنسبة لسعر التسليم على السفينة ف. او. ب لنفس الصادرات) سوى ستمائة مليون دولار"[١٤٧].

إن البلدان الغنية، الداعية إلى التجارة الحرة، تطبق أشد سياسات الحماية ضد البلدان الفقيرة، إنهم يحولون كل ما يلمسونه إلى ذهب بالنسبة لهم وإلى صفيح بالنسبة للآخرين ـ بما في ذلك نفس إنتاج الدول المتخلفة. والسوق الدولية للبن شديدة الشبه بالخدعة بحيث أن البرازيل قبلت مؤخرا فرض رسوم عالية على صادراتها من البن السريع الذوبان

لكي تحمي، حماية معكوسة، مصالح الصناع الأمريكيين الشماليين لنفس المنتج. والبن السريع الذوبان الذي تنتجه البرازيل أرخص وأفضل في النوعية من ذلك الذي تنتجه الصناعة المزدهرة للولايات المتحدة، لكن في نظام المنافسة الحرة المطروح، فهناك البعض ممن هم أكثر حرية من الآخرين.

تتحول الكوارث الطبيعية إلى بركات، من السماء، البلدان المنتجة في هذه المملكة من العبث المنظم. فتعديات الطبيعة ترفع الأسعار وتسمح بتحريك الاحتياطات المتراكمة. لقد حكمت موجات الصقيع القوية التي دمرت محصول عام ١٩٦٩ في البرازيل بالخراب على الكثير من المنتجين، لاسيما على أكثرهم ضعفا، لكنها دفعت إلى أعلى الأسعار الدولية للبن وخففت بشدة من المخزون البالغ ستين مليون كيس - والتي تعادل ثلثي الدين الخارجي للبرازيل - التي كانت الدولة قد راكمتها للمحافظة على الأسعار. فالبن المخزون، الذي كانت نوعيته تسوء ويأخذ بفقدان قيمته باطراد، كان يمكن أن ينتهي به الأمر إلى رميه بألسنة النيران. ولن تكون هذه أول مرة. فبسبب أزمة عام ١٩٢٩، التي خفضت الأسعار وقلصت الاستهلاك، واحرقت البرازيل ٧٨ مليون كيس بن، وهكذا أحرقت ألسنة اللهب جهد مائتي ألف شخص خلال خمسة محاصيل(١٤٨). كانت تلك أزمة تقليدية لاقتصاد استعماري، وقد جاءت من الخارج. وقد أثار الانخفاض إلى احتراق البن، اشتعالا في النقود، هذه هي الآلية المعتادة في أمريكا اللاتينية من أجل "اشتراكية الخسائر" للقطاع التصديري، إذ يصبح التعويض من خلال العملة القومية، من خلال خفض قيمتها، مما يجعلها تخسر المزيد من العملات الصعبة.

لكن ليس لارتفاع الأسعار عواقب أفضل. فإنه يطلق العنان لزراعات

أكبر، وزيادة في الإنتاج، وتضاعفا في المساحة المخصصة لزراعة المنتج السعيد الحظ. ويحمل الحافز بطريقة ارتدادية، لأن الوفرة في المنتج تخفض الأسعار وتنذر بالكوارث. وهذا ما حدث عام ١٩٥٨، في كولومبيا، حين تم جمع محصول البن الذي بذر بحماس كبير قبلها بأربع سنوات، وتكررت الدورات المماثلة على طول تاريخ هذا البلد، فإن كولومبيا تعتمد على البن وعلى سعره الخارجي إلى درجة أنه "في أنتيوكيا، يستجيب المنحنى البياني للزواج بشدة لمنحنى أسعار البن. وهذا أمر نمطي بالنسبة لبنية تابعة، فحتى اللحظة المواتية لإعلان الحب في أحد تلال أنتيوكيا تتقرر في بورصة نيويورك"[١٤٩].

عشر سنوات ادمت كولومبيا

كتب الاقتصادي الكولومبي ذو المكانة المرموقة لويس إدواردو نيتو أرتيتا دفاعا عن البن في سنوات الأربعينات. لقد حقق البن ما لم تصله أبدا، في الدورات الاقتصادية السابقة للبلاد، لا المناجم ولا التبغ، ولا النيلة ولا الكينا، حقق مولد نظام ناضج وتقدمي. كانت مصانع النسيج وغيرها من الصناعات الخفيفة قد ولدت، وليس بمحض الصدفة، في المقاطعات المنتجة للبن، أنتيوكيا، وكالداس، ووادي كاوكا وكونديناماركا. حولت ديمقراطية صغار المنتجين الزراعيين، المكرسين لإنتاج البن، الكولومبيين إلى "رجال معتدلين وعاقلين". قال "إن أهم فرضية من أجل إضفاء الاعتيادية على أداء الحياة السياسية الكولومبية كانت هي تحقيق استقرار اقتصادي فريد. وقد أنتجها البن، وأنتج معها الهدوء والاعتدال"[١٥٠].

وانفجر العنف بعد ذلك بوقت قصير. وفي الحقيقة، لم يوقف الثناء للبن، كما ولو أنه بفعل السحر، التاريخ الطويل من الانتفاضات والقمع

الداميين في كولومبيا. وفي هذه المرة، وخلال عشر سنوات، بين ١٩٤٨ و١٩٥٧، شملت الحرب الفلاحية المزارع الصغيرة والكبيرة والصحراوات والأراضي المزروعة، الوديان والغابات والقفار الإنديزية، وطردت إلى المنفى جماعات بأكملها، وولدت جماعات حرب عصابات ثورية وعصابات مجرمين وجعل من البلاد مقبرة، ويقدر أنها أودت بحياة مائة وثمانين ألف شخص[١٥١]. وتصادف حمام الدم مع فترة انتشاء اقتصادي للطبقة المسيطرة، هل يجوز الخلط بين رخاء طبقة ورفاهية بلد؟

بدا العنف كمواجهة بين الليبراليين والمحافظين، لكن دينامية الحقد الطبقي باتت تأخذ طابع الصراع الطبقي. كان خورخي اليثير غايتان، الزعيم الليبرالي الذي كانت أوليغاركية حزبه نفسها تعامله بين الاحتقار والخشية، تسميه باسم "الذئب" أو "الوغد"، كان قد اكتسب مكانة شعبية كبيرة وهدد النظام القائم، وانطلقت الأعاصير حين اغتالوه بالرصاص. وكانت البداية مدا بشريا رهيبا في شوارع العاصمة، و"مذبحة بوغوتا"، ثم انتقل العنف إلى الريف وعلى الفور، حيث كانت العصابات التي ينظمها المحافظون تأتي، منذ زمن، ناشرة بذور الرعب. انفجر الحقد الذي ظل الفلاحون يلوكونه طويلا، وبينما كانت الحكومة تبعث شرطة وجنودا ليقطعوا خصيات الرجال، ويشقوا بطون النساء الحوامل أو يطوحون الأطفال في الهواء تحت شعار "الا يتركوا حتى البذرة" كان دكاترة الحزب الليبرالي قابعين في بيوتهم دون أن يغيروا من سلوكهم أو من اللهجة الفروسية لبياناتهم أو كانوا يمضون إلى المنفى، في أسوأ الأحوال. أما الفلاحون فهم من قدموا الموتى. لقد بلغت الحرب درجات. لا تصدق من القسوة، تدفعها رغبة في الانتقام نمت مع الحرب نفسها. وظهرت أساليب جديدة للموت، ففي "موضة

رباط العنق" كان اللسان يظل معلقا من القفا. وجرت أعمال الاغتصاب، وإشعال الحرائق، والنهب، كانت تقطع أطراف الرجال أو يحرقون أحياء، ويسلخون أو يقطعون إربا ببطء، وكانت الفصائل تحرق القرى والمزارع، واصطبغت الأنهار باللون الأحمر، وكان قطاع الطرق يمنحون الإذن بالحياة مقابل جزية تدفع نقدا أو بأحمال بن وطردت قوات القمع أو طاردت عددا لا يحصى من العائلات التي هربت إلى الجبال بحثا عن ملاذ، وفي الغابات، كانت النساء تلدن. أما زعماء حرب العصابات الأوائل، الذين حركتهم ضرورة الثأر دون آفاق سياسية واضحة، فقد انطلقوا يدمرون من أجل التدمير، ويحتفون بالدم والنار دون أسباب واضحة. وأما أسماء أبطال العنف (الملازم غوريلا، والظل السيء، والكندور والجلد الأحمر، ومصاص الدماء، الطير الأسود، ورعب السهول) فلا توحي بملحمة الثورة لكن لهجة التمرد الاجتماعي انطبعت في الابيات التي تغنيها الجماعات:

أنا فلاح أصيل،
ولم أبدأ العراك،
لكن إن أرادوا ضجيجا
فسوف يرقصون على أقبح الأنغام.

وأصبح الرعب دون تمييز هو المتفشي، مختلطا بمطالب العدالة، في الثورة المكسيكية بقيادة أميليانو ثاباتا وبانشو بيا. أما في كولومبيا، فقد كان الغضب ينفجر بأية طريقة، لكن ليس صدفة أنه من ذلك العقد من العنف ولدت جماعات حرب العصابات السياسية اللاحقة، التي

رفعت الوية الثورة الاجتماعية، ووصلت إلى حد احتلال، والسيطرة على مناطق واسعة من البلاد. هاجر الفلاحون، الذين حاصرهم القمع، إلى الجبال وهناك نظموا العمل الزراعي والدفاع الذاتي. وظلت تدعى "الجمهوريات المستقلة" تقدم الملاذ للمطاردين بعد أن وقع المحافظون والليبراليون، في مدريد، اتفاق السلام. حل زعماء كلا الحزبين، في جو من الانخاب، مشكلة تتابعهم في السلطة في سبيل الوفاق الوطني واتفقوا عندئذ، على سياسة "التطهير" ضد بؤر إزعاج النظام. وفي عملية واحدة فقط، من أجل القضاء على متمردي ماركيتاليا، أطلقت مليون ونصف مليون قذيفة، وقذفت عشرون ألف قنبلة وتم تجهيز ستة عشر ألف جندي، أرضاً وجوا[١٥٢].

في ذروة العنف كان ثمة ضابط يقول: "لا تأتوني بحكايات فارغة. ائتوني بآذان". السادية والقمع ووحشية الحرب، هل يمكن تفسيرها بأسباب مرضية؟ هل كانت نتيجة للسوء الطبيعي لأبطالها؟ رجل قطع يدي قسيس، وأشعل النار في جسده وفي منزله ثم مزقه وألقاه في قناة، وصرخ عندما انتهت الحرب، "لست مذنبا. لست مذنبا، دعوني وحدي". كان قد فقد عقله. لكن كان لديه عقل بمعنى معين، فرعب العنف لم يفعل سوى أن أوضح للعيان رعب النظام. فالبن لم يجلب معه السعادة والتآلف، كما تنبا نييتو ارتيتا، حقيقة أنه بفضل البن نشطت الملاحة في نهر ماجدالينا وولدت خطوك السكك الحديدية والطرق وتراكمت رؤوس أموال صنعت بعض الصناعات، لكن النظام الأوليغاركي والتبعية الاقتصادية لمراكز السلطة الخارجية لم تتضح هشاشتهما خلال عملية صعود البن، بل على العكس، أصبحا أكثر قهرا بما لا يقاس بالنسبة للكولومبيين، وحين وصل عقد العنف إلى نهايته، نشرت الأمم المتحدة نتائج بحثها بشأن التغذية في كولومبيا. ومنذ ذلك

الحين، لم يتحسن الوضع على الإطلاق، كان ٨٨ بالمائة من تلاميذ المدارس في بوغوتا يعانون من نقص الفيتامينات، و٧٨ بالمائة يعانون من نقص الريبوفلافين وكان أكثر من نصفهم يزنون أقل من المعتاد، وبين العمال كان نفس الفيتامينات يصيب ٧١ بالمائة وبين فلاحي وادي تينسا، يصيب ٧٨ بالمائة[١٥٣]. ووضح الاستبيان نقصا بارزا في الأغذية الوقائية ـ اللبن ومشتقاته، والبيض، واللحوم، والاسماك، وبعض الفواكه والخضروات ـ التي تحمل في مجموعها البروتينات والفيتامينات والاملاح". إن المأساة الاجتماعية لا تتكشف فقط في وميض طلقات الرصاص. فالإحصائيات تشير إلى أن معدل جرائم القتل في كولومبيا أعلى منه في الولايات المتحدة سبع مرات، لكنها تشير كذلك إلى أن ربع الكولومبيين في سن العمل يفتقر إلى عمل ثابت. ويدخل إلى سوق العمل كل عام مائتان وخمسون ألف شخص، ولا تخلق الصناعة فرص عمل جديدة. وفي الريف لا تحتاج بنية المزارع الضخمة والمزارع الصغيرة فرص عمل جديدة إلى المزيد من القوى العاملة، بل على العكس، فإنها تطرد باستمرار عاطلين جدد نحو ضواحي المدن. ويوجد في كولومبيا أكثر من مليون طفل بدون مدرسة. لكن هذا لا يمنع النظام من الإبقاء على ترف الحفاظ على واحد وأربعين جامعة مختلفة، عامة أو خاصة، ولكل منها كلياتها وأقسامها المتنوعة، من أجل تعليم أبناء النخبة والطبقة المتوسطة والتي تشكل أقلية في البلاد[١٥٤].

العصا السحرية للسوق الدولية توقظ أمريكا الوسطى

وصلت أراضي أمريكا الوسطى منتصف القرن الماضي دون إزعاجات كبيرة. فبالإضافة للاغذية المتجهة إلى المستهكلين، كانت أمريكا الوسطى تنتج حشرة القرمز والنيلة، برؤوس أموال قليلة، وأيد

عاملة شحيحة، وبأقل ما يمكن من المشاغل. فحشرة القرمز، وهي حشرة تولد وتنمو دون مشاكل على السطح الشوكي للصبار، كانت تتمتع، مثلها مثل النيلة، بطلب مستمر من صناعة النسيج الأوروبية. إلا أن الموت الكيميائي أصاب كلا الصبغين الطبيعيين حين اخترع الكيميائيون الالمان، حوالي عام ١٨٥٠، اصباغ الانيلين وغيرها من الأصباغ الرخيصة لصبغ الاقمشة. وجاء دور البن بعد ثلاثين عاما من هذا الانتصار للمعامل على الطبيعة. وليبدأ التحول في أمريكا الوسطى. فمن مزارعها الحديثة الميلاد كان يأتي، حوالي عام ١٨٨٠ ما لا يقل عن سدس الإنتاج العالمي من البن. وانضم الإقليم من خلال هذا الناتج، بصورة نهائية إلى السوق الدولية. وتبع المشترين الإنجليز المشترون الألمان والأمريكيون الشماليون، وبعث المستهلكون الأجانب الحياة في برجوازية البن المحلية، التي صعدت إلى السلطة السياسية من خلال الثورة الليبرالية لخوستو روفينو باريوس في عام ١٨٧٠. وأيقظ التخصص في الزراعة، والمفروض من الخارج، نهم امتلاك الأرض والبشر، لقد ولدت اللاتيفوندية الراهنة، في أمريكا الوسطى، تحت رايات حرية العمل. وانتقلت هكذا إلى الملكيات الخاصة مساحات كبيرة مقفرة، كانت تخص الكنيسة أو الدولة أو لا تخص أحدا، وجرى الاستنزاف المحموم للتجمعات الهندية. الفلاحون الذين كانوا يرفضون بيع أراضيهم يساقون بالقوة إلى الجيش. وتحولت المزارع إلى ساحات لجثث الهنود. تم أحياء المراسيم الاستعمارية من جديد، مثل التعبئة الاجبارية للأيدي العاملة والقوانين ضد التشرد. وكان العمال الهاربون يطاردون بالرصاص، وجددت الحكومات الليبرالية علاقات العمل وأدخلت نظام الأجور، فتحول العمال إلى ملكية خاصة لأصحاب شركات البن الجدد. ولم يحدث في أي لحظة، طوال القرن المنصرم

منذ ذلك الحين، أن انعكست فترات ارتفاع الأسعار على مستوى الأجور، التي ظلت مقابلا لا يُشبع من جوع دون أن تترجم أسعار البن الأفضل أبداً إلى زيادات في الأجور. وكان أحد العوامل التي منعت تطور سوق استهلاك داخلية في بلدان أمريكا الوسطى[١٥٥]. وكما حدث في كل مكان، ثبّطت زراعة البن في توسعها المطلق العنان، زراعة الأغذية الموجهة للسوق الداخلية، كذلك قدّر لهذه البلدان أن تعاني من الندرة المزمنة في الأرز، والفاصوليا، والذرة، والقمح، واللحوم. وبقيت بالكاد زراعة كفاف بائسة، في الأراضي المرتفعة والمدمرة حيث طردت اللاتيفوندية الهنود عند تملكها للأراضي المنخفضة ذات الخصوبة الأكبر. وفي الجبال، بزراعة قطع أرض ضئيلة بالذرة والفاصوليا التي لا غنى عنهما حتى لا يقعوا ميتين، يحيا الهنود، جزءاً من السنة ثم يؤجرون قوة عملهم خلال الحصاد للمزارع. وهم يمثلون احتياطيات الأيدي العاملة للسوق الدولية. ولم يتغير الوضع، فالمزارع الكبيرة والصغيرة تشكل معا، وحدة نظام يرتكز على الاستغلال غير الإنساني للأيدي العاملة الهندية. وبوجه عام، وعلى الأخص في غواتيمالا، تبدو هذه البنية لامتلاك قوة العمل متوحدة مع نظام كامل للاحتقار العرقي، إذ يعاني الهنود من الاستعمار الداخلي للبيض والهجناء، الذي تباركه الثقافة السائدة أيديولوجيا، على نفس النحو الذي تعاني فيه بلدان أمريكا الوسطى من الاستعمار الأجنبي[١٥٦].

وظهرت كذلك منذ بداية القرن، في هندوراس، وغواتيمالا، وكوستاريكا، أراضي زراعة الموز. كانت قد ولدت بعض خطوط السكك الحديدية بتمويل من رأس المال القومي من أجل نقل البن إلى الموانئ. وسيطرت الشركات الأمريكية الشمالية على هذه السكك الحديدية وأقامت غيرها، من أجل نقل الموز فقط من المزارع، وذلك

في نفس الوقت الذي فرضت فيه احتكار خدمات الضوء الكهربائي، والبريد، والبرق، والهاتف، وغيرها من الخدمات العامة التي لا تقل أهمية، بالإضافة إلى احتكار السياسة، ويساوي البغل في هندوراس أكثر مما يساوي نائب في البرلمان. وفي كل أمريكا الوسطى يمارس سفراء الولايات المتحدة الرئاسة أكثر مما يفعل الرؤساء. وقد ابتلعت شركة اليونايتد فروت منافسيها في إنتاج وبيع الموز، وتحولت إلى أكبر لاتيفونديا في أمريكا الوسطى، كما احتكرت فروعها النقل بالسكك الحديدية والنقل البحري، وأصبحت مالكة للموانئ، وامتلكت جمارك وشرطة خاصة بها. وأصبح الدولار، فعليا، هو العملة القومية في أمريكا الوسطى.

فليصعد القراصنة إلى السفن

في المفهوم الجيوبوليتيكي للإمبريالية، فإن أمريكا الوسطى ليست أكثر من ملحق طبيعي للولايات المتحدة. وحتى ابراهام لنكولن، الذي فكر هو الآخر في ضم أراضيها، لم يستطع الهروب من إملاءات "المصير الواضح" للقوة العظمى على المساحات المجاورة لها[١٥٧].

وعند منتصف القرن الماضي، قام القرصان ويليام ووكر، الذي كان يعمل باسم المصرفيين مورغان وغاريسون، قام بغزو أمريكا الوسطى على رأس عصابة من القتلة يسمون أنفسهم "الكتيبة الأمريكية الخالدين". وبدعم نشيط من حكومة الولايات المتحدة ووكر، قتل واحرق، وأعلن نفسه رئيسا، في حملات متتالية، على نيكاراغوا، والسلفادور، وهندوراس. وأعاد العبودية إلى الأراضي التي قاست من احتلاله المدمر، مواصلا بهذه الطريقة العمل الخيري لبلاده في الولايات التي كانت قد اغتصبت المكسيك قبل ذلك بقليل.

واستقبل في الولايات المتحدة عند عودته كبطل قومي. ومنذ ذلك الحين، جرت أحداث الغزو، والتدخلات، والقصف، والقروض الإجبارية والمعاهدات الموقعة في ظل المدافع. وأكد الرئيس ويليام تافت في عام ١٩١٢ أنه "ليس بعيدا ذلك اليوم الذي تحدد فيه ثلاثة أعلام ذات خطوط ونجوم، امتداد أراضينا في ثلاثة مواقع على مسافة متساوية، واحد في القطب الشمالي. وآخر في قناة بنما، والثالث في القطب الجنوبي. سيكون كل نصف الكرة الغربي ملكنا، مثلما هو ملكنا معنويا، بفضل تفوقنا العرقي"[١٥٨]. وقال تافت أن طريق العدل المستقيم في السياسة الخارجية للولايات المتحدة لا يستبعد بأية طريقة تدخلا نشيطا من أجل ضمان تسهيلات أمام الاستثمارات المربحة لبضائعنا ورأسماليينا. وتذكر الرئيس الأسبق تيدي روزفلت في نفس الحقبة بصوت عال اقتطاعه الناجح لأراضي كولومبية قائلا، "لقد استوليت على القناة"، هكذا قال الرجل المتباهي الحائز على جائزة نوبل للسلام، وهو يحكي كيف جعل بنما دولة مستقلة[١٥٩]. وقد تلقت كولومبيا، بعد ذلك بقليل، تعويضا قيمته خمسة وعشرين مليون دولار، هي ثمن بلد، ولد كي يتاح للولايات المتحدة طريق للمواصلات بين المحيطين. سيطرت الشركات على أراض، وجمارك، وخزائن، وحكومات، كان جنود المارينز يقومون بالإنزال في كل مكان من أجل "حماية حياة ومصالح المواطنين الأمريكيين الشماليين"، وهو العذر المماثل لذلك الذي سيستخدمونه، عام ١٩٦٥، لكي يمحوا بالماء المقدس آثار جريمة الدومينيكان، وكان العلم يلف بضائع أخرى، فقد لخص القومندان سميدلي بوتلير نشاطه الذي كان على رأس الكثير من الحملات، عام ١٩٣٥، بعد أن أحيل إلى التقاعد بقوله، "لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاما وأربعة أشهر في الخدمة العاملة، كعضو في القوة

العسكرية الأكثر حيوية لهذا البلد، في سلاح مشاة البحرية. وخدمت في كل الرتب، من رتبة ملازم ثان إلى جنرال فرقة. وخلال كل هذه الفترة قضيت أغلب الوقت أقوم بمهام قاتل أجير من الدرجة الأولى من أجل الأعمال الضخمة، من أجل وول ستريت والمصرفيين. وبعبارة واحدة، كنت قاتلا أجيرا في خدمة الرأسمالية... هكذا، على سبيل المثال، في عام ١٩١٤، ساعدت على جعل المكسيك، وخصوصا تامبيكو، فريسة سهلة أمام المصالح البترولية الأمريكية الشمالية. وساعدت على جعل هاييتي وكوبا أماكن محترمة لتحصيل الريع من جانب الناشيونال ستي بنك... وفي ١٩٠٩ ـ ١٩١٢، ساعدت على تطهير نيكاراغوا من أجل الشركة المصرفية الدولية براون براذرز. وفي عام ١٩١٦ ساهمت بوضع أساسات ما تسمى جمهورية الدومينيكان، باسم مصالح السكر الأمريكية الشمالية. وفي عام ١٩٠٣، ساعدت على "تهدئة الأوضاع" في هندوراس لصالح شركات الفواكه الأمريكية الشمالية"[١٦٠]. وفي الأعوام الأولى من القرن الحالي، كان الفيلسوف ويليام جميس قد أصدر حكما لا يعرفه سوى القليلين، "إن البلاد قد تقيأت مرة واحدة وإلى الأبد إعلان الاستقلال..." لكي نورد مثالا واحدا، فقد احتلت الولايات المتحدة هاييتي لمدة عشرين عاماً، وهناك، في هذا البلد الزنجي الذي شهد أول ثورة ظافرة للعبيد، ادخلوا الفصل العنصري ونظام العمل الإجباري، وقتلوا ألفاً وخمسمائة عامل في إحدى عمليات القمع (حسب تحقيق مجلس الشيوخ الأمريكي الشمالي عام ١٩٢٢). وحين رفضت الحكومة المحلية تحويل البنك القومي إلى فرع للناشيونال سيتي بنك في نيويورك. أوقفوا دفع رواتب الرئيس ووزرائه لإعادة التفكير في الامر[١٦١].

حكايات مماثلة تكررت في بقية جزر الكاريبي وفي كل أمريكا

الوسطى، التي هي المجال الجيوبوليتيكي للإمبراطورية، على الايقاع المتبادل بين العصا الغليظة أو "ديبلوماسية الدولار".

لقد تم ذكر الموز في القرآن الكريم بين أشجار الجنة، لكن كون غواتيمالا وهندوراس، وكوستاريكا، وبنما، وكولومبيا، وإكوادور مزارع موز يسمح بالشك في أنها إحدى أشجار جهنم. فلقد جعلت شركة اليونايتد فروت من نفسها في كولومبيا، مالكة لأكبر لاتيفونديا في البلاد حين اندلع، عام ١٩٢٨، إضراب ضخم في الساحل الإطلنطي. وتمت تصفية عمال الموز بالرصاص، أمام محطة سكة الحديد. وتم فرض مرسوم رسمي يقول أن "رجال قوات الأمن يرخص لهم بالعقاب بالسلاح..." وبعد ذلك لم تعد ثمة ضرورة لفرض أي مرسوم يمحو المذبحة من الذاكرة الرسمية للبلاد[١٦٢]. وقد قص ميغيل أنخيل استورياس عملية فتح ونهب أمريكا الوسطى. فالبابا الأخضر كان هو ماينوركيث، الملك غير المتوج للإقليم بأسره، وأبو شركة اليونايتد فروت، وملتهم البلاد. "لدينا مرافئ وسكك حديدية، وأراضي، ومبان، وجداول ـ يعدد الرئيس، الدولار يتدأول، ويجري الحديث بالإنجليزية، ويخفق علمنا "لم يكن باستطاعة شيكاغو أن تحس بأقل من الفخر بهذا الابن الذي مضى بزوج من المسدسات وعاد ليطالب بمكانه بين أباطرة اللحم، وملوك السكك الحديدية، وملوك النحاس، وملوك العلكة"[١٦٣].

وفي رواية الشارع الثاني والأربعين الموازي رسم جون دوس باسوس السيرة الذاتية اللامعة لكيث، السيرة الذاتية للشركة، "في أوروبا والولايات المتحدة. بدأ الناس يأكلون الموز، وحطموا الغابات عبر أمريكا الوسطى لبذر الموز وإقامة السكك الحديدية لنقل الموز، وكانت في كل عام سفن شراعية تابعة للغريت وايت فليت تتجه صوب

الشمال مكدسة بالموز، وهذه هي حكاية الإمبراطورية الأمريكية الشمالية في الكاريبي وحكاية قناة بنما وقناة نيكاراغوا المستقلة والمارينز والمدرعات والحراب...".

أصبحت الأرض متعبة مثل العمال، فقد سرقوا الرواسب العضوية من الأرض ومن العمال رئاتهم، ولكن كان ثمة دائماً أراض جديدة للاستغلال وعمال جدد للإبادة. وكان الدكتاتوريون، أبطال المسرحية، يسهرون على رفاهية اليونايتد فروت والسكين بين أسنانهم. وفيما بعد، أخذ إنتاج الموز في التقلص وعانت الشركة من عدة أزمات، لكن تبقى أمريكا الوسطى، في أيامنا، ملجأ للكسب أمام المغامرين رغم أن البن، والقطن، والسكر قد انتزعوا الموز من مكانته المميزة. ونجد أن الموز هو المصدر الرئيسي للعملات الصعبة لهندوراس وبنما، والإكوادور، في أمريكا الجنوبية، في عام ١٩٧٠. وفي عام ١٩٣٠، كانت أمريكا الوسطى تصدر سنوياً ٣٨ مليون عنقود موز وكانت اليونايتد فروت تدفع للهندوراس سنتيما واحدا ضريبة على كل عنقود. ولم تكن هناك طريقة لحصر دفع الضريبة الطفيفة (التي زادت قليلاً بعد ذلك) ولا توجد طريقة بعد، لأن اليونايتد فروت ما زالت اليوم تصدر وتستورد ما شاءت على هامش الجمارك الرسمية. أما الميزان التجاري وميزان المدفوعات للبلاد فإنهما من أعمال الخيال يتولاها تقنيو الخيال البارع.

أزمة الثلاثينات، "قتل نملة هي جريمة أكبر من قتل رجل"

كان البن يعتمد على السوق الأمريكية الشمالية، على طاقة استهلاكها، وعلى الأسعار التي تحددها السوق الأمريكية، وكان الموز عبارة عن تجارة أمريكية شمالية من أجل الأمريكيين الشماليين. ثم

انفجرت فجأة، أزمة ١٩٢٩. انهيار بورصة نيويورك جعل من أربطة الرأسمالية العالمية تتشقق، بينما سقط على الكاريبي مثل كتلة هائلة من الصخر في بركة ضئيلة. فبدأت أسعار البن والموز بالسقوط رأسيا، وكذلك حجم المبيعات. تصاعدت عملية إخلاء الفلاحين بعنف محموم، وارتفعت البطالة في الريف وفي المدن، وثارت موجة من الاضطرابات، وانخفضت القروض والاستثمارات، والانفاق العام، بحدة، وانخفضت مرتبات موظفي الدولة إلى ما يقارب النصف في هندوراس، وغواتيمالا، ونيكاراغوا[١٦٤]. ووصل طاقم الدكتاتوريين دون ابطاء لسحق الغليان، وبدأت حقبة سياسة حسن الجوار في واشنطن، لكن كان من الضروري احتواء التحريض الاجتماعي بالدم والنار، في كل مكان. ولنحو عشرين عام بأكثر قليلاً أو أقل قليلاً ـ فقد بقي في السلطة خورخي اوبيكو في غواتيمالا، ومكسمليانو هيرنانديز مارتينيز في السلفادور، وتيبورثيو كارياس في هندوراس، واناستاسيو سوموثا في نيكاراغوا.

ولقد حركت ملحمة اوغستو ثيسار ساندينو مشاعر العالم. وأدى الكفاح الطويل لزعيم مقاتلي العصابات في نيكاراغوا إلى المطالبة بالأرض وإلى إشعال غضب الفلاحين. وظل خلال سبع سنوات، يقاتل بجيشه الصغير، في نفس الآن، ضد الغزاة الأمريكيين الشماليين الاثني عشر ألف وضد قوات الحرس الوطني. وكانوا يصنعون القنابل اليدوية بعلب السردين ممتلئة بالحصى، وكانت البنادق من طراز سبرينغفلد تسقط الأعداء ولم تكن تنقص المناجل، وكانت صارية العلم عبارة عن غصن، وكان الفلاحون يستخدمون بدلا عن الأحذية رباطا من الجلد يسمى كايتي لكي يتحركوا في الجبال الوعرة. وكان المقاتلون ينشدون على أصوات موسيقى اديليتا:

في نيكاراغوا أيها السادة،

في نيكاراغوا، أيها السادة،

يضرب الفأر القط[١٦٥].

لم تكن قدرة نيران مشاة البحرية ولا القنابل التي تقدمها الطائرات كافية لسحق ثوار لاس سيغوبياس. ولا كانت كافية تلك الافتراءات، التي سربتها وكالتا اسوشيتيد برس ويونايتد برس في العالم كله، حيث كانا لديهما مراسلان أمريكيان شماليان في نيكاراغوا يسيطران على جمارك البلاد[١٦٦]. وفي عام ١٩٣٢، تنبأ ساندينو قائلا، "لن أعيش وقتا طويلا". وفي العام التالي، مع تأثير سياسة حسن الجوار الأمريكية الشمالية، تم الاحتفال بالسلام. فلقد تلقى زعيم مقاتلي المقاتلين دعوة الرئيس إلى اجتماع حاسم في ماتاغوا. وسقط ميتا في الطريق في كمين. وأشار القاتل، اناستاسيو سوموثا، فيما بعد إلى أن الاغتيال تم بأمر من السفير الأمريكي الشمالي ارثر بليس لين. ولم يتباطأ سوموثا، الذي كان قائدا عسكريا حينئذ، في الاستيلاء على السلطة. وحكم نيكاراغوا طوال ربع قرن وورث أبناؤه المنصب، وقبل أن يتقلد وشاح الرئاسة، كان سوموثا قد أنعم على نفسه بصليب الشجاعة، ونوط الاستحقاق، ووسام الجدارة الرئاسي. ونظم بعد أن أصبح في السلطة، عدة مذابح واحتفالات ضخمة، جعل جنوده فيها يتنكرون في زي الرومان، بصنادل وخوذات، وتحول إلى أكبر منتج للبن في البلاد، في ٤٦ مزرعة، كما كرس نفسه لتربية الماشية في ٥١ مزرعة أخرى. ورغم ذلك، ولم يكن ينقصه الوقت لنشر الرعب بين الناس. ولم يقاس طوال فترة حكمه

الطويلة، والحق يقال، من الضيق، وكان يتذكر ببعض الأسى سنوات شبابه، حين كان عليه أن يزيف نقودا ذهبية ليتسلى.

واندلعت التوترات في السلفادور كنتيجة للأزمة أيضاً، وكان نحو نصف عمال مزارع الموز في الهندوراس من السلفادور واضطر الكثير منهم للعودة إلى بلادهم، حيث لم يكن ثمة عمل لاحد. وجرت في إقليم ايثالكو، انتفاضة فلاحية كبيرة عام ١٩٣٢، انتشرت انتشار الهيشم إلى كل غرب البلاد. فأرسل الدكتاتور مارتينيز الجنود، المزودين بمعدات حديثة، ليحاربوا ضد "البلشفيك"، وقاتل الهنود بالسكاكين ضد الرشاشات لينتهي هذا الفصل بعشرة آلاف قتيل. كان مارتينيث، ذلك الساحر النباتي ومحب اللاهوت، يؤكد أن "قتل نملة جريمة أكبر من قتل رجل، لأن الرجل يبعث بعد موته، بينما تموت النملة بشكل نهائي"[١٦٧] وكان يقول أن "جيوش خفية" تحميه وتخبره بجميع المؤامرات وأنه كان يتواصل بالتخاطر المباشر عن بعد برئيس الولايات المتحدة. وكانت ساعة ذات بندول، فوق صحن الطعام، تبين له ما إذا كان الطعام مسموما، وتشير له، على الخريطة إلى الأماكن التي يختبئ فيها الأعداء السياسيون وكنوز القراصنة. وكان معتادا على إرسال بطاقات تعزية إلى آباء ضحاياه وكانت الغزلان ترعى في فناء قصره. وقد حكم حتى عام ١٩٤٤.

لقد جرت المذابح في كل مكان. وفي عام ١٩٣٣، أعدم خورخي اوبيكو رميا بالرصاص مئة من القادة النقابيين، والطلابيين، والسياسيين، في الوقت الذي أعاد فيه تطبيق القوانين المناهضة "لتشرد" الهنود. كان يجب على كل هندي أن يحمل دفترا تسجل فيه أيام عمله، وإذا لم تعتبر هذه الأيام كافية، كان يسدد ما عليه منها في السجن أو قاصما ظهره فوق الأرض، مجانا، لمدة نصف عام. وفي الساحل غير الصحي

للمحيط الهادي، يتقاضى العمال الذين يعملون غارقين في الطين حتى ركبهم ثلاثين سنتا في اليوم، وقد أوضحت اليونايتد فروت أن الرئيس اوبيكو قد أجبرها على خفض الأجور. وفي عام ١٩٤٤، قبل سقوط الدكتاتور بقليل، نشرت مجلة الريدير دايجست مقالا يثني عليه، أن هذا النبي لصندوق النقد الدولي كان قد تجنب هذا التضخم بخفض الأجور، من دولار واحد إلى خمسة وعشرين سنتيما يوميا، ليساعد في إنشاء طريق الطوارئ العسكري، ومن دولار إلى خمسين سنتيما يوميا، في أعمال القاعدة الجوية في العاصمة. وفي هذه الفترة، منح اوبيكو سادة البن وشركات الموز الترخيص بالقتل، "سيعفى من المسئولية الجنائية أصحاب المزارع". كان المرسوم يحمل رقم ٢٧٩٥ وتجدد عام ١٩٦٧، خلال حكم الحكومة الديمقراطية والتمثيلية لمينديث مونتينيغرو.

وكما كافة طغاة الكاريبي، كان اوبيكو يعتبر نفسه نابليون. وعاش محاطا بتماثيل نصفية للإمبراطور الذي كان له نفس ملامحه، حسب قوله. وكان يؤمن بالانضباط العسكري، فقد صبغ بالصبغة العسكرية مستخدمي البريد وأطفال المدارس والاوركسترا السيمفونية. كان أعضاء الأوركسترا يعزفون وهم مرتدين الزي الرسمي، المقطوعات التي يختارها اوبيكو بالأسلوب والآلات التي يحددها. وذلك مقابل تسعة دولارات شهريا. واعتبر أن المستشفيات من أجل المخنثين، وكان المرضى يتلقون العلاج على أرض الممرات والدهاليز، إذا كان من سوء حظهم أن يكونوا فقراء وعلاوة على ذلك إلى كونهم مرضى.

من أطلق العنف في غواتيمالا؟

سقط اوبيكو من فوق منصته في عام ١٩٤٤، جرفته رياح ثورة ذات

طابع ليبرالي تزعمها بعض الضباط الشباب والجامعيين من الطبقة المتوسطة. وبدا خوان خوسيه اريبالو، الذي اختير رئيسا، خطة تعليم نشطة كما أصدر قانونا عمل لحماية عمال الريف والمدن. ونشأت عدة نقابات، ولم تعد اليونايتد فروت كومباني، مالكة الأراضي الشاسعة، والسكك الحديدية والميناء، والمعفاة تقريبا من الضرائب والقيود، مطلقة القدرة في ممتلكاتها. وفي عام ١٩٥١، في خطاب الوداع، كشف اريبالو النقاب عن أنه كان عليه أن يحبط اثنتين وثلاثين مؤامرة مولتها الشركة. وواصلت حكومة خاكوبو اربينز وعمقت بشكل كبير دورة الإصلاحات. فقد اوقف احتكار شركة الفواكه الطرق وميناء سان خوسيه الجديد على المواصلات والتصدير. وبدأ بتنفيذ مشاريع تنموية متعددة وبرأسمال قومي، دون أن يمد يده إلى أي بنك أجنبي، أفضت إلى تحقيق الاستقلال. وتم إقرار الإصلاح الزراعي، في يونيو عام ١٩٥٢، وقد استفادت منه أكثر من مائة ألف أسرة، رغم أنه كان يسري فقط على الأراضي غير المنتجة ويقضي بدفع تعويضات، على شكل سندات لأصحاب الأراضي الذين تنتزع ملكيتهم. بينما كانت اليونايتد فروت لا تزرع سوى ثمانية بالمائة من أراضيها الممتدة بين كلا المحيطين.

لقد طرح الإصلاح الزراعي "تطوير الاقتصاد الرأسمالي الفلاحي والاقتصاد الرأسمالي في الزراعة بشكل عام"، لتنطلق عندها حملة دعاية دولية مسعورة ضد غواتيمالا، "الستار الحديدي يسقط حول غواتيمالا"[١٦٨]. وقام الكولونيل كاستيو أرماس، المتخرج من كلية فورت ليفنورت العسكرية، بولاية كانساس، بدفع القوات المدربة، والمزودة لهذا الغرض في الولايات المتحدة، ضد بلاده. وساند الغزو قصف الطائرات من طراز اف ـ ٤٧، التي يقودها طيارون أمريكيون

شماليون. وبعد ذلك بتسع سنوات، قال داويت ايزنهاور "كان علينا أن نتخلص من حكومة شيوعية كانت قد استولت على السلطة"[١٦٩].
وكشفت تصريحات السفير الأمريكي الشمالي في هندوراس أمام لجنة فرعية لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة، في ٢٧ تموز ١٩٦١، أن العملية التحريرية لعام ١٩٥٤ قد نفذها فريق اشترك فيه، بالإضافة إليه هو نفسه، السفراء لدى غواتيمالا، وكوستاريكا، ونيكاراغوا. وقد أرسل إليهم الن دوليس، الذي كان الرجل الأول في وكالة المخابرات المركزية في ذلك الحين، أرسل إليهم برقيات تهنئة على العمل الذي قد تم إنجازه. وقبل ذلك، كان الن الطيب قد شارك في مجلس إدارة اليونايتد فروت كومباني. وشغل كرسيه، بعد عام الغزو، مديرآخر في وكالة المخابرات المركزية، هو الجنرال والتر بيديل سميث، وكان فوستر دلاس، شقيق الن، قد كان نافذ الصبر في مؤتمر منظمة الدول الأمريكية الذي بارك الحملة العسكرية ضد غواتيمالا. وبالصدفة، كانت مسودات عقود شركة اليونايتد فروت قد حررت، في زمن الدكتاتور اوبيكو، في مكتبه للمحاماة.

وترك سقوط اربينز علامة حاسمة في تاريخ البلاد اللاحق. فالقوات التي قصفت مدينة غواتيمالا، وبويرتو بابوس وميناء سان خوسيه في مساء يوم ١٨ تموز ١٩٥٤، هي نفسها المتواجدة في السلطة اليوم. وتلت التدخل الأجنبي عدة دكتاتوريات وحشية، تشمل فترة حكم خوليو ثيسار مينديث مونتينيغرو (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠)، الذي أسبغ على الدكتاتورية ديكورا ديمقراطيا، وقد وعد مونتينيغرو بإجراء إصلاح زراعي، لكن اقتصر الأمر على منح ترخيص لأصحاب الأراضي بحمل الأسلحة واستخدامها. وكان الإصلاح الزراعي الذي أجراه اريينث قد

تمزق إربا حين أتم كاستيو ارماس مهمته بإعادة الأراضي إلى اليونايتد فروت والملاك الآخرين الذي انتزعت ملكيتهم.

كان عام ١٩٦٧ اسوا أعوام مرحلة العنف التي ابتدأت في عام ١٩٥٤. وقد أخبر قس كاثوليكي أمريكي شمالي طرد من غواتيمالا، هو الاب توماس ميلفيل صحيفة الناشيونال كاثوليك ريبورتير في كانون ثاني عام ١٩٦٨ أنه، خلال ما يزيد قليلاً عن عام، اغتالت جماعات اليمين الإرهابية أكثر من الفين وثمانمائة من المثقفين، والقادة النقابيين، والفلاحين الذين حاولوا مقاومة مفاسد المجتمع الغواتيمالي". وقد أجرى الاب ميلفيل حسابه على أساس معلومات الصحف لكن أحدا لم يبلغ أبداً عن غالبية الجثث، فقد كانوا هنودا بلا اسم وبدون عمل معروف، أدرجهم الجيش، أحيانا، كمجرد أرقام، في بيانات الانتصار ضد المخربين. وشكّل الاضطهاد دون تمييز جزءا من الحملة العسكرية من أجل "محاصرة وتصفية" حركات مقاتلي العصابات. ووفقا للقانون الجديد الساري، لا يتعرض أعضاء أجهزة الأمن للمحاكمات. وقد أضيفت على أصحاب الضياع ومديريهم قانونيا صفة السلطات المحلية، مع حقهم في حمل الأسلحة وفي تشكيل أجهزة قمع. ولم تلق اخبار المذبحة الممنهجة في العالم أي صدى، ولم يصل إلى غواتيمالا الصحفيون المتشوقون إلى الأخبار، ولم يستمع أحد إلى أصوات الإدانة، أدار العالم ظهره، بينما كانت غواتيمالا تعاني من ليلة سان باتولوميو الطويلة. أصبحت قرية كاخون ديل ريو بلا رجال، أما رجال قرية تيتوكي فقد اخرجت أمعاءهم بالسكاكين كما سلخ رجال قرية ببيدري بارادا أحياء واحرقوا أحياء رجال قرية اغوا بلانكا دي ايبالا بعد أن أطلقوا الرصاص على سيقانهم، وفي قلب ميدان سان خورخي علقوا

رأس فلاح متمرد فوق رمح. وفي ثيرو غوردو، ملاوا بالدبابيس حدقتي عين خايمي بيلا ثكيت، وتم العثور على جسد ريكاردو ميراندا وبه ثمانية وثلاثين ثقبا أما رأس هارولد وسيلبا، بدون جسد هارولدو سيلبا، فقد عثر عليه على قارعة الطريق المؤدي إلى سان سلفادور، وفي لوس ميكسيكوس قطعوا لسان ارنستو تشننشيا، وفي نبع اوخو دي اغوا، حاكت الطلقات الإخوة أوليبا الدنا وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم وأعينهم معصوبة، وتحولت جمجمة خوسيه غوثمان إلى لغز من القطع الصغيرة المتناثرة على أرض الطريق، ومن آبار سان لوكاس ساكاتيبيكث كان يخرج بدل الماء موتى، وكان الرجال يصيحون وقد فقدوا أيديهم أو اقدامهم في ضيعة ميرا فلوريس. وكانت الاعدامات تعقب التهديدات أو يخترق الموت الرقاب، دون إنذار، كانت علامة الصليب الأسود ترسم على أبواب المحكوم عليهم في المدن،. وعند خروجهم تطلق عليهم الرشاشات، ويلقى بجثثهم من أعالي الجبال.

ولم يتوقف العنف بعد ذلك. فطوال زمن الاحتقار والغضب الذي بدأ عام ١٩٥٤، كان العنف وما زال نتاج طبيعي لغواتيمالا. وظلت الجثث تظهر واحدة كل خمس ساعات، في الأنهار أو على جوانب الطرق ووجوهها دون ملامح، فقد شوهها التعذيب، بحيث لا يمكن التعرف عليها أبدا. كذلك استمرت، على نطاق أوسع، المذابح الأكثر خفاء، مذابح البؤس اليومية. وقد استنكر قس مطرود آخر، هو الاب بليز بونباني، في الواشنطن بوست، عام ١٩٦٨، هذا المجتمع المريض، "من بين الستين ألف شخص الذين يموتون كل عام في غواتيمالا، هناك ثلاثون ألفاً من الأطفال. ومعدل وفيات الأطفال في غواتيمالا أعلى بأربعين مرة من الولايات المتحدة.

الإصلاح الزراعي الأول في أمريكا اللاتينية، قرن ونصف من الهزائم لخوسيه ارتيغاس

كان المحرومون هم الذين قاتلوا بالفعل، عند مطلع القرن التاسع عشر، بالحراب أو بضربات السكين، ضد السلطة الأسبانية في ريف أمريكا. ولم يعوضهم الاستقلال، بل خان آمال من ذرفوا دمائهم. وحين حل السلام، تم البدء بزمن الشقاء من جديد. كان أصحاب الأرض وكبار التجار يزيدون ثرواتهم، بينما ينتشر فقر الجماهير. وفي نفس الوقت، وعلى إيقاع مؤتمرات السادة الجدد لأمريكا اللاتينية، تقطعت أراضي نواب الملك الأربعة التابعة للإمبراطورية الأسبانية إربا وولدت بلدان كثيرة كشظايا للوحدة القومية المفتتة. لقد كانت فكرة "الأمة" التي بعثها النبلاء الأمريكيون اللاتين شديدة الشبه بصورة ميناء نشيط، يقطنه العملاء التجاريون والمصرفيون للإمبراطورية البريطانية، مع لاتفيونديات ومناجم في المؤخرة. كان جيش الطفيليين الذين تلقوا أنباء حرب الاستقلال وهم يرقصون المينويت في صالونات المدن، يشربون أنخاب حرية التجارة في كؤوس من الكريستال البريطاني. وأصحبت الموضة هي الشعارات الجمهورية الطنانة للبرجوازية الأوروبية، لقد وضعت بلادنا نفسها في خدمة الصناعيين الإنجليز والمفكرين الفرنسيين. لكن كيف يمكن أن يكون شكل برجوازيتنا "برجوازية قومية"، المكونة من ملاك الأراضي، وكبار المهربين، والتجار والمضاربين، والسياسيين المرتدين والأطباء دون جذور؟ سرعان ما أصبح لدى أمريكا اللاتينية دساتيرها البرجوازية، بينما تلمع ببريق الليبرالية، لكن لم يكن لديها، بالمقابل، برجوازية خلاقة، من الطراز الأوروبي أو الأمريكي الشمالي، تطرح على نفسها كمهمة تاريخية تطور الرأسمالية القومية الوليدة. لقد

ولدت برجوازيات هذه البلاد كمجرد أدوات للرأسمالية العالمية، كقطع مزدهرة من الآلة العالمية التي تدمي المستعمرات وأشباه المستعمرات. كان برجوازيو واجهات العرض، المرابون والتجار، الذين احتكروا السلطة السياسية، لا يتمتعون بأدنى اهتمام في حفز صعود الصناعات المحلية، التي ماتت وهي جنينية حين فتح التبادل الحر الأبواب أمام شلال البضائع البريطانية. أما شركاؤهم، أصحاب الأراضي، فلم يكونوا بدورهم مهتمين بحل "المسالة الزراعية"، إلا بقدر ما يناسبهم. وتدعم نظام اللاتيفونديا على أساس الاستنزاف، طوال القرن التاسع عشر. كان الإصلاح الزراعي راية مبكرة، في الإقليم.

كما تلى الاستقلال تاريخ من الخيانات ثم إحباط اقتصادي، وإحباط اجتماعي، وإحباط قومي. وظلت أمريكا اللاتينية، التي تمزقها حدودها الجديدة، محكوما عليها بالزراعة الأحادية والتبعية. وفي عام ١٨٢٤، أصدر سيمون بوليفار مرسوم تروخييو لحماية هنود البيرو وإعادة تنظيم نسق الملكية الزراعية هناك، ولم تمس بنوده القانونية امتيازات الأوليغاريكية البيروانية على الإطلاق، التي بقيت كما هي رغم النوايا الطيبة للمحرر، وظل استغلال الهنود قائماً كما كان. أما في المكسيك فكان هيدالغو وموريلوس قد هزما قبل ذلك، وكان لا بد أن ينقضي قرن من الزمان قبل أن تزدهر من جديد ثمار تعاليمهما في تحرير البسطاء والاستيلاء على الأراضي المغتصبة.

وجسّد خوسيه ارتيغاس الثورة الزراعية في الجنوب. فهذا الزعيم الثائر الذي لطخ التاريخ الرسمي سمعته وشوهه، تزعم الجماهير الشعبية في الأراضي التي تشكل الآن أوروغواي، والمقاطعات الأرجنتينية سانتا في، وكورينتس، وانتر ريوس، وميسيونس، وكوردوبا، خلال الحقبة البطولية بين عامي ١٨١١، و١٨٢٠. أراد ارتيغاس أن يضع الأسس

الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية لوطن كبير في حدود نيابة الملك السابقة في الريو دي لا بلاتا، وكان أهم وأوضح الزعماء الفيدراليين الذين قاتلوا ضد المركزية التصفوية لميناء بوينس ايريس. وقد ناضل ضد الاسبان والبرتغاليين وأخيراً سُحقت قواته بفعل الكماشة التي قام بريو دي جانيرو وبوينس ايرس، اداتا الإمبراطورية البريطانية، وبفعل الأوليغاريكية التي خانته، وفاء لأسلوبها، والتي شعرت بدورها بأن برنامج المطالب الاجتماعية للزعيم خيانة لها.

سار الوطنيون خلف ارتيغاس، والمناجل في أيديهم. كانوا في غالبيتهم من الفلاحين الفقراء، والغاوشو الخشنين، والهنود الذين استعادوا احساسهم بالكرامة في النضال، والعبيد الذين كسبوا حريتهم بالانضمام إلى جيش الاستقلال. اشعلت ثورة الفرسان الرعاة المراعي. وجاءت خيانة بوينس ايريس، التي تركت في أيدي السلطة الأسبانية والقوات البرتغالية، عام١٨١١، الأراضي التي أصبحت اليوم أوروغواي، لتسبب رحيلا جماعيا للسكان نحو الشمال. تحول الشعب المسلح إلى شعب في المسيرة، رجال ونساء، عجائز وأطفال، تركوا كل شيء واقتفوا خطى الزعيم، في قافلة لا تنتهي من الجماهير. وفي الشمال، على نهر أوروغواي، نصب ارتيغاس معسكره بالخيول والعربات وفي الشمال، واقام حكومته، بعد وقت قصير. في عام ١٨١٥، كان ارتيغاس يسيطر على أقاليم شاسعة من معسكر بوريفيكاثيون، في بايساندو "ماذا تظنونني رأيت؟ "[(١٧٠)] ـ قص رحالة إنجليزي ـ "كان فخامة السيد الحامي لنصف العالم الجديد جالسا على رأس ثور، بجوار نار مشتعلة في الأرض الطينية لبيته، وهو يأكل لحما من الاناء ويشرب الجين في قرن بقرة! وكان يحيط به مجموعة من ضباطه المهلهلين". وكان يأتي من كل مكان، على ظهر الخيول

المسرعة، جنود، وقواد، ومستكشفين. وكان ارتيغاس يملي المراسيم الثورية لحكومته، وهو يمر بيديه على ظهره. وكان اثنان من الكتبة ـ لم يكن ورق الكربون موجودا ـ يدونان الملاحظات. هكذا ولد أول إصلاح زراعي في أمريكا اللاتينية، وطبق خلال عام كامل في "المقاطعة الشرقية"، التي تشكل اليوم أوروغواي، ولتتمزق اربا نتيجة غزو برتغالي جديد، حين فتحت الأوليغاريكية أبواب مونتفيديو للجنرال ليكور وحيته كمحرر وقادته بكل التكريم إلى تسبيحة شكر، تكريما للغازي، أمام مذبح الكاتدرائية.

وقبل ذلك، كان ارتيغاس قد أصدر كذلك قانونا للجمارك يفرض ضريبة كبيرة على استيراد البضائع الأجنبية المنافسة لصناعات وحرف البلاد، المتطورة بشكل ملحوظ في بعض الأقاليم التي تشكل اليوم جزء من الأرجنتين والتي كانت ضمن الأقاليم الخاضعة للزعيم، وذلك في الوقت الذي أطلق فيه استيراد لوازم الإنتاج الضرورية للتنمية الاقتصادية وفرض ضريبة لا تذكر على المواد الأمريكية، مثل عشب الباراغواي وتبغ الباراغواي(١٧١). والذين قاموا بدفن الثورة كذلك قاموا بدفن قانون الجمارك.

كان القانون الزراعي لعام ١٨١٥ ـ أرض حرة، رجال أحرار ـ "أكثر التشريعات تقدما ومجدا"(١٧٢). من بين تلك التشريعات العديدة التي شهدها الأوروغوايون. وقد اثرت أفكار كامبومانيس وخوبيانوس في الدورة الإصلاحية لكارلوس الثالث، دون شك، في تشريع ارتيغاس، لكن هذا الأخير ظهر، بشكل حاسم، كاستجابة ثورية للرغبة القومية في استعادة الازدهار الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. فقد سن مبدأ نزع ملكية وتوزيع أراضي. "الأوروبيين السيئين والأمريكيين الأسوأ" الذين هاجروا بسبب الثورة ولم تغفر لهم الثورة ذلك. تمت مصادرة أراضي

الأعداء دون تعويض، وكان الأعداء يملكون، وهذه معلومة هامة، الأغلبية الساحقة من اللاتفيونديات. ولم يكن الأبناء يدفعون ثمن ذنوب آبائهم، فقد قدم لهم القانون نفس ما يقدمه للوطنيين الفقراء. وكانت الأراضي توزع وفق مبدأ أن "الأكثر شقاء سيتمتعون بأكبر الامتيازات". وكان الهنود، في مفهوم ارتيغاس، "الحق الأساسي"، كان المعنى الجوهري لهذا الإصلاح الزراعي يتمثل في منح الاستقرار في الأرض لفقراء الريف، ويحول إلى فلاح مستقر ذلك الغاوشو المعتاد على حياة التجوال في الحرب وعلى المهام السرية والتهريب في وقت السلم. وسوف تأتي الحكومات التالية لحوض نهر البلاتا لتقضي بالدم والنار على الغاوشو، وتضمه بالقوة إلى عمال المزارع الضخمة، لكن ارتيغاس أراد أن يجعله مالكا، "فبدأ العمل الشريف يروق للغاوشو المتمردين، فأقاموا البيوت والحظائر، وزرعوا أول محاصيلهم"(١٧٣). ليجهز الغزو الأجنبي كل شيء. فرفعت الأوليغاريكية راسها وانتقمت، وفيما تلا، لم يعترف التشريع بتوزيعات الأراضي التي قام بها ارتيغاس. وبدءا من عام ١٨٢٠ وحتى نهاية القرن، تم اجلاء، الوطنيين الفقراء الذين استفادوا من الإصلاح الزراعي، بالرصاص،. ولم يحتفظوا "بأرض أخرى خلاف أرض قبورهم". ومضى ارتيغاس إلى باراغواي مهزوما ليموت وحيدا في ختام منفى طويل من التقشف والصمت. وأصبحت صكوك الملكية التي أصدرها لا تساوي شيئا، فقد أكد مدعي الحكومة، برناردو بوستامانتي على سبيل المثال، أنه يتضح من أول نظرة "انعدام القيمة الذي يميز الوثائق المشار اليها"، وفي نفس الوقت، كانت حكومته تستعد، وقد تمت استعادة "النظام"، للاحتفال بأول دستور لأوروغواي المستقلة، المنتزعة من الوطن الكبير الذي قاتل من اجله ارتيغاس، عبثا.

كان قانون عام ١٨١٥ يحتوي على أجر اءات خاصة من أجل تجنب

تراكم الأراضي في ايادي قليلة. وفي أيامنا، يقدم ريف الأوروغواي مشهد صحراوي، إذ تحتكر خمسمائة أسرة نصف الأراضي الإجمالية وكذلك، بوصفها كوكبه السلطة، تسيطر على ثلاثة أرباع رأس المال المستثمر في الصناعة وفي البنوك[١٧٤]. تتراكم مشاريع الإصلاح الزراعي، بعضها فوق بعض، في المقبرة البرلمانية، بينما بدأ الريف يخلو من السكان، يضاف العاطلون إلى العاطلين ويتضاءل باستمرار عدد الأشخاص الذين يعملون في أعمال زراعية، حسب السجل الدارمي لتعدادات السكان المتتالية. وتعيش البلاد على إنتاج الصوف واللحم، ولكن، في أيامنا، ترعى في مراعيها اغنام وابقار أقل مما كانت عند بداية القرن. وينعكس تأخر أساليب الإنتاج في العائدات المنخفضة لتربية الماشية ـ التي تتم حسب مزاج الثيران والخراف في الربيع، وحسب الامطار الموسمية وحسب الخصوبة الطبيعية للتربة ـ وكذلك في الإنتاجية الضئيلة للمحاصيل الزراعية. ولا يصل إنتاج اللحم لكل حيوان ولا حتى نصف ما تحصل عليه فرنسا أو ألمانيا، ونفس الشيء بالنسبة للحليب بالمقارنة مع نيوزلندا، والدنمارك، وهولندا، وتنتج كل عنزة من الصوف ما يقل كيلو غراما عما تنتجه في استراليا، ويعطي هكتار القمح ما يقل ثلاث مرات عن غلته في فرنسا، وفي الذرة، تفوق غلة الفدان في الولايات المتحدة مقابلها في أوروغواي سبع مرات[١٧٥]. ويقضي كبار الملاك الذين يهربون أرباحهم إلى الخارج، يقضون الصيف في بونتا ديل استي وطبقا لتقاليدهم الخاصة، لا يقيمون في الشتاء كذلك في لاتيفونديتهم، التي يزورونها بالطائرة بين الحين والأخر، ومنذ قرن من الزمان، حين تأسست الجمعية الزراعية، كانت عناوين ثلثي أعضائها في العاصمة. والإنتاج الواسع النطاق، الذي هو من عمل الطبيعة والاجراء الجوعى، لا يتضمن مشاكل تذكر. ومن

المؤكد أنه ينتج أرباحا. فدخول وأرباح الرأسماليين من مربى الماشية تبلغ ما لا يقل عن ٧٥ مليون دولار في العام في الوقت الحاضر. الأرباح الإنتاجية منخفضة، لكن المكاسب عالية جدا، بسبب التكاليف البالغة الانخفاض[١٧٦]. أرض بلا بشر، وبشر بلا أرض، فاللاتيفونديون الكبار يستخدمون، جزءا من العام فقط، بالكاد شخصين لكل ألف هكتار. وفي القرى، على حافة المزارع الضخمة، تتكوم، بائسة، الاحتياطات المتاحة دوما من الأيدي العاملة. والغاوشو ذو السمات الفولكلورية، الذي يمثل موضوعا للوحات والقصائد، لا يشبه كثيراً الاجير الذي يعمل في الواقع، في الأراضي الضيقة والغريبة. فتصبح الاخفاف المهترئة مكان الأحذية الجلدية الطويلة الرقبة. ويحل حزام عادي أو مجرد حبل أحيانا، محل الاحزمة الضيقة ذات النقوش الذهبية والفضية. ومن ينتجون اللحم فقدوا الحق في اكله، فنادرا ما ينالون الشواء الكريولي التقليدي، ذلك اللحم الطري الشهي الذي تذهبه السنة اللهب. ورغم أن الاحصائيات الدولية تبتسم عارضة متوسطات خداعة، فالحقيقة هي أن "الشوربة" وهي طعام مطهو من الشعرية وفضلات الذبائح، يشكل الغذاء الأساسي، المفتقر إلى البروتين، للفلاحين في أوروغواي[١٧٧].

ارتيميو كروز والموت الثاني لايميليانو زاباتا

بعد قرن بالضبط من قانون ارتيغاس للأراضي، قد طبق اميليانو ثاباتا، في إقليمه الثوري جنوب المكسيك، إصلاحا زراعيا جذريا.

كان الدكتاتور بورفيرو دياث قد احتفل قبل خمس سنوات، في احتفالات ضخمة، بالعيد المئوي الأول لصيحة دولوريس، كان السادة مرتدي معاطف الفراك، الذين يمثلون المكسيك الرسمي، يجهلون

بصورة متعجرفة المكسيك الحقيقي، الذي كان بؤسه يغذي عظمتهم. لم تزد أجور العمال في جمهورية المنبوذين سنتا واحداً منذ الانتفاضة التاريخية للقس ميغيل هيدالغو. وفي عام ١٩١٠، كان ما يزيد قليلاً على ثمانمائة لاتيفوندي، الكثير منهم أجانب، يمتلكون كل الأراضي القومية تقريبا، كانوا سادة مدن، يعيشون في العاصمة أو في أوروبا ونادرا ما يزورون مركز لاتفيوندياتهم، حيث ينامون متمترسين خلف جدران عالية من الحجر الداكن تدعمها دعائم متينة[١٧٨]. وعلى الجانب الاخر من الجدران، في أماكن فرق العمل، كان الأجراء يتكومون في جحور من الطين النيء. كانا اثني عشر مليونا من الأشخاص، من بين عدد إجمالي للسكان يبلغ خمسة عشر مليونا، يعتمدون على الأجور الزراعية، وكان الاجراء يتقاضون أجر هم بالكامل تقريبا من محلات الضياع، مترجما، بأسعار خيالية، إلى فاصوليا، ودقيق، ورون، وكان السجن، والمعسكر، والكنيسة يتولون النضال ضد العيوب الطبيعية للهنود، الذين، حسب قول أحد أعضاء أسرة بارزة في ذلك العصر، كانوا يولدون ضعافا، وسكيرين، ولصوصا. كانت العبودية، حيث العامل مقيد بديون تورث أو بعقد شرعي، هي النظام الفعلي للعمل في مزارع القنب في يوكوتان، وفي سهول التبغ في الفاي ناشيونال، وفي غابات الاخشاب والفواكه في تشياباس وتاباسكو وفي مزارع المطاط، والبن، وقصب السكر، والتبغ، والفواكه في بيراكروث، واوكساكا وموريلوس. وقد استنكر جون كيثنث تيرنر، الكاتب الأمريكي الشمالي، في شهادته عن زيارته[١٧٩]. أن "لقد حولت الولايات المتحدة بورفيريو دياث فعلياً إلى نائب ملك سياسي، وبالتالي، حولت المكسيك إلى مستعمرة عبدة". كانت رؤوس الأموال الأمريكية الشمالية تحصل "بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أرباح سمينة من ارتباطها بالدكتاتورية، قال تيرنر

"أن إلحاق المكسيك بأمريكا الشمالية، والذي كثيراً ما يتشدق به وول ستريت، يتم كما ولو أنه انتقام".

كانت الولايات المتحدة قد ضمت الأراضي المكسيكية في تكساس وكاليفورنيا في عام ١٨٤٥، واعادت العبودية باسم الحضارة، كما خسرت المكسيك في الحرب كذلك الأراضي التي تشكل الآن ولايات كولورادو، واريزونا، ونيو مكسيكو، ونيفادا، ويوتاه. أي أكثر من نصف البلاد. وتعادل الأراضي المغتصبة المساحة الحالية للأرجنتين. "المكسيك المسكينة ـ هكذا يقال منذ ذلك الحين ـ بعيدة جدا عن الرب وقريبة جدا من الولايات المتحدة". أما بقية أراضيها الممزقة فقد عانت فيما بعد من غزو الاستثمارات الأمريكية الشمالية في النحاس، وفي البترول، وفي السكر، وفي المصارف، وفي النقل، فشركة الأمريكان كورديج ترست، وهي أحد فروع شركة ستاندارد اويل، ليست غريبة على الإطلاق عن إبادة هنود المايا والياكي في مزارع القنب في يوكوتان، وكان الرجال والأطفال يباعون ويشترون كالحيوانات في معسكرات الاعتقال، لأن هذه كانت الشركة التي تملك أكثر من نصف القنب المنتج وكان يلائمها أن تحصل على التيلة بأسعار رخيصة. وفي أحيان أخرى، كان استغلال قوة عمل العبيد مباشرا، كما اكتشف تيرنر. وحكى مدير أمريكي شمالي أنه كان يدفع ثمن جماعات الاجراء المقيدة بسعر خمسين بيسو للرأس، "ونبقيهم طالما تحملوا. وندفن أكثر من نصفهم خلال أقل من ثلاثة أشهر"[١٨٠].

وفي عام ١٩١٠ حانت ساعة تصفية الحساب، انتفضت المكسيك بالسلاح ضد بورفيريو دياث. وترأس زعيم فلاحي الانتفاضة في الجنوب منذ ذلك الوقت، هو اميليانو ثاباتا، أكثر قادة الثورة نقاء، وأكثرهم

اخلاصا لقضية الفقراء، وأكثرهم حماسا في رغبته في الخلاص الاجتماعي.

كانت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر زمنا للاستنزاف الوحشي بالنسبة للتجمعات الفلاحية في كل المكسيك، كانت قرى موريلوس تعاني من الاصطياد المحموم للأراضي، والمياه، والأيدي العاملة التي كانت مزارع قصب السكر تلتهمها في توسعها. كانت مزارع القصب الضخمة تسيطر على حياة الولاية وكان ازدهارها قد بعث إلى الحياة معامل تكرير حديثة، ومعامل تقطير ضخمة وشبكات سكك حديدية من أجل نقل المنتجات. وفي قرية انينيكويلكو، حيث عاش ثاباتا وإلى حيث كان ينتمي جسدا وروحا، كان الفلاحون المستنزفون ينسبون إلى أنفسهم سبعة قرون من العمل المتصل على أراضيهم - فقد كانوا هناك قبل أن يصل هرنان كورتيس. ومن يحتجون بصوت مرتفع كانوا يساقون إلى معسكرات الاعتقال القسرية في يوكوتان. ومثلما في كل ولاية موريلوس، التي كانت أراضيها الخصبة في أيدي سبعة عشر مالكا، كان الفلاحون يعيشون اسوا مما يعيش خيول البولو التي يدللها اللاتيفونديون في اصطبلاتهم الفاخرة. وقرر قانون صدر عام ١٩٠٩ انتزاع أراضي جديدة من أصحابها الشرعيين واشعل التناقضات الاجتماعية الملتهبة.

وتحول اميليانو ثاباتا إلى مقاتل، هذا الفارس قليل الكلام، الشهير لأنه كان أفضل مروض في الولاية والذي يحترمه الجميع بالإجماع لأمانته وشجاعته. و"ملتصقين بذيل جواد الزعيم ثاباتا"، وليشكّل رجال الجنوب جيش تحرير على وجه السرعة[١٨١].

سقط دياث ووصل فرانشكيسكو ماديرو إلى الحكم، على أكتاف الثورة. ولم تتأخر وعود الإصلاح الزراعي في التبخر. وفي يوم زواجه،

اضطر ثاباتا إلى قطع الحفل، فقد أرسلت الحكومة قوات الجنرال فيكتوريانو هويرتا لسحقه. وليتحول البطل إلى "قاطع طريق"، وفق ما ذكره دكاترة المدينة. وفي تشرين أول عام ١٩١١، أعلن ثاباتا خطة ايالا، وأعلن في نفس الوقت، "أنا مستعد للنضال ضد كل شيء وضد الجميع". أعلنت الخطة أن "الغالبية الساحقة من قرى ومواطنين المكسيك لم يعودوا يمتلكون أكثر من الأرض التي يطأونها" ودعت إلى التأميم الشامل لممتلكات أعداء الثورة، وإعادة الأرض التي اغتصبها سيل اللاتيفونديين إلى أصحابها الشرعيين، ونزع ملكية ثلث أراضي أصحاب الأراضي المقيمين. تحولت خطة ايالا إلى مغناطيس لا يقاوم ليجذب الآلاف والآلاف من الفلاحين إلى صفوف الزعيم الزراعي. وشجب ثاباتا "النفاق السيء السمعة" الذي يحول الأمر كله إلى مجرد تغيير أشخاص في الحكومة، فالثورة لم تقم من أجل هذا.

دام الصراع نحو عشر سنوات، ضد دياث، وضد ماديرو، ثم ضد ويرتا، القاتل، وفيما بعد ضد بينو ستيانو كاررانزا، وكان زمن الحرب الممتد كذلك فترة للتدخلات الأمريكية الشمالية المستمرة، فقد تولى جنود المارينز عمليتي إنزال وعدة عمليات قصف، ودبر الموظفون الديبلوماسيون عدة مؤامرات سياسية كما نظم السفير هينري لين ويلسون بنجاح جريمة قتل الرئيس ماديرو ونائبه. ولم تتغير التبدلات المتتابعة في السلطة، على أية حال، من عنف الاعتداءات ضد ثاباتا وقواته، لأنها كانت تعبيرا غير مُقنع عن الصراع الطبقي في عمق الثورة القومية، كانت الخطر الحقيقي. كانت الحكومات والصحف لا تتوقف عن الكتابة ضد "الجموع المخربة" لجنرال ولاية موريولوس، وارسلت الجيوش الجرارة، الواحد تلو الاخر، ضد ثاباتا. كانت الحرائق والمذابح، وتخريب القرى، تجري المرة تلو المرة، دون جدوى. كان الرجال،

والنساء، والأطفال يموتون رميا بالرصاص أو شنقا باعتبارهم "جواسيس لثاباتا"، وكانت المذابح تتلو إعلانات النصر، كان التطهير ناجحا. لكن سرعان ما تعود النيران لتوقد في المعسكرات الثورية المتنقلة في جبال الجنوب. وشنت قوات ثاباتا في مناسبات عدة، هجمات مضادة بنجاح حتى مشارف العاصمة. وبعد سقوط نظام ويرتا، قام ايميليانو ثاباتو وبانشو بيا، "اتيلا الجنوب" و"سنطور الشمال"، بدخول مدينة المكسيك منتصرين واقتسموا السلطة لفترة وجيزة، وفي نهاية عام ١٩١٤، بدأت دورة قصيرة من السلم أتاحت لثاباتها أن يطبق، في موريلوس، إصلاحا زراعيا أكثر جذرية من ذلك الذي أعلنته خطة ايالا. وقد أثر مؤسس الحزب الاشتراكي وبعض المناضلين الفوضويين ـ النقابيين بدرجة كبيرة في هذه العملية، فقد جعلوا أيديولوجية زعيم الحركة أكثر راديكالية، دون أن يمسوا جذورها التقليدية، وقدموا لها قدرة تنظيمية لا غنى عنها.

طرح الإصلاح الزراعي "التدمير ومن الجذور وإلى الأبد احتكار الأرض الجائر، من أجل تحقيق حالة اجتماعية تضمن الحق الطبيعي لكل إنسان في مساحة الأرض الضرورية لإقامة أوده وأود اسرته تماماً". أعيدت الأرض إلى الجماعات والأفراد المنهوبين على أساس قانون نقل الملكية لعام ١٨٥٦، وحددت حدود قصوى للأراضي حسب المناخ والجودة الطبيعية للأرض وأعلنت ممتلكات أعداء الثورة ممتلكات عامة. وكان هذا التصرف السياسي الأخير، مثلما في إصلاح ارتيغاس الزراعي، يتمتع بمعنى اقتصادي واضح، فالأعداء هم اللاتفيونديون. تشكلت مدارس تقنيين، ومصانع للأدوات، ومصرفا للتسليف الزراعي، وتم تأميم معامل التكرير والتقطير، التي تحولت إلى خدمات عامة. ووضع نظام الديمقراطية المحلية في أيدي الشعب منابع السلطة السياسية

والحاجة الاقتصادية. ولدت وانتشرت المدارس الثاباتية، وتنظمت مجالس شعبية للدفاع ولتطوير المبادئ الثورية، اكتسبت ديمقراطية أصيلة شكلها وقوتها. كانت البلديات وحدات نواة للحكومة وكان الناس يختارون سلطاتهم ومحاكمهم، وشرطتهم، وكان على الزعماء العسكريين أن يخضعوا لإرادة السكان المدنيين المنظمين، لم تكن إرادة البيروقراطيين والجنرالات هي التي تفرض نظم الإنتاج والحياة. وارتبطت الثورة بالتقاليد وعملت "في انسجام مع العادة ومع أعراف كل قرية، أي بمعنى أنه، إذا كانت قرية معينة تريد النظام المشاعي فسوف يُنفذ ذلك، وإذا شاءت قرية أخرى تفتيت الأرض للتعرف على ملكياتها الصغيرة، فسوف يتم ذلك"[١٨٢].

وفي ربيع عام ١٩١٥، كانت كل حقول موريلوس مزروعة، بالذرة والأغذية الأخرى. بينما كانت مدينة المكسيك تعاني، بسبب نقص الأغذية، من خطر المجاعة الوشيكة. كان بينو ستيانو كاررانثا قد تولى الرئاسة وأصدر بدوره إصلاحا زراعيا لكن قواده لم يتباطؤوا في الاستيلاء على مكاسبه، فانقضوا في عام ١٩١٦، بأسنان مسنونة، على كويرنا باكا، عاصمة موريلوس، وعلى بقية المقاطعات الثاباتية. وأصبحت الزراعات، التي عادت تعطي ثمارها، والمعادن، والجلود، وبعض الآلات، أصبحت كلها غنيمة ممتازة للضباط الذين تقدموا وهم يحرقون كل شيء يصادفهم ويعلنون، في نفس الوقت، "أنه بقصد إعادة البناء والتقدم".

وفي عام ١٩١٩، أودت خدعة حربية وخيانة بحياة اميليانو ثاباتا. فقد أفرغ كمين من ألف رجل بنادقهم في جسده. مات في نفس عمر التشي غيفارا. وعاشت أسطورته، الجواد القسطلي اللون الذي انطلق نحو الجنوب، عبر الجبال. وليست الأسطورة فقط. فقد جهزت

موريلوس نفسها، "لاستكمال عمل البطل الإصلاحي، والانتقام لدم الشهيد، واقتفاء مثال البطل"، واعارت البلاد باسرها أسماعها للصدى. ومر الزمن، ومع رئاسة لاثارو كارديناس (١٩٢٤ ـ ١٩٤٠) استعادت تقاليد ثاباتا حياة وقوة من خلال تطبيق الإصلاح الزراعي في البلاد كلها. تم خلال فترة حكمه بالدرجة الأولى، نزع ملكية ٦٧ مليون هكتار تسيطر عليها الشركات الأجنبية أو القومية وتلقى الفلاحون، علاوة على الأرض، قروضا، وتعليما، ووسائل لتنظيم العمل. كان اقتصاد وتعداد البلاد قد بدأ صعودهما المتسارع، تضاعف الإنتاج الزراعي بينما جرى تحديث وتصنيع البلاد بأسرها. وأخذت تنمو المدن وتتسع، امتدادا وعمقا. لكن القومية المكسيكية لم تؤد إلى الاشتراكية. وبالتالي، وكما حدث في بلدان أخرى لم تقفز العاصمة بدورها، فلم تحقق باقتدار أهدافها في الاستقلال الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. كان مليون من الموتى قد قدموا دمهم، خلال سنوات الثورة والحرب الطويلة، "إلى هويتزيليو بوتيشيلي أشد قسوة وأكثر غلظة ونهما من ذلك الذي عبده أسلافنا، هذا الإله هو التطور الرأسمالي للمكسيك، في الشروط التي يفرضها الخضوع للإمبريالية"[١٨٣]. وقد بحثت دراسات عديدة مؤشرات تدهور الرايات القديمة. ويؤكد ادموندو فلوريس., في دراسة نشرت حديثنا أنه[١٨٤]، "في الوقت الحاضر، فإن ٦٠ في المائة من إجمالي سكان المكسيك دخلهم يقل عن ١٢٠ دولاراً سنوياً ويعانون من الجوع"، وهناك ثمانية ملايين من المكسيكيين لا يستهلكون عمليا سوى الفاصولياء، وعجة الذرة والفلفل الحار[١٨٥]. ولا يكشف النظام تناقضاته العميقة فحسب حين يسقط خمسمائة طالب صرعى في مذبحة تلاتيلولكو. فباستخدام أرقام رسمية، يصل الونسو اغيلار إلى نتيجة أنه يوجد في المكسيك نحو مليونين من الفلاحين دون أرض، وثلاثة

ملايين طفل لا يتلقون تعليما، ونحو أحد عشر مليونا من الأميين وخمسة ملايين من الحفاة[١٨٦]. تتفتت الملكية الجماعية لفلاحي الاخيدو باستمرار، وإلى جانب تضاعف المزارع البالغة الصغر. التي تفتت نفسها، ظهرت لايتفوندية من نوع جديد وبرجوازية زراعية تكرس نفسها للزراعة التجارية على نطاق واسع. وملاك الأراضي والوسطاء القوميون الذين كسبوا مركزا مسيطرا بالتلاعب بنص وروح القوانين هم، بدورهم، خاضعون، وفي كتاب حديث يعتبرون متضمنين في عبارة "وشركاه" التي تكمل اسم شركة أندرسون كلايتون[١٨٧]. وفي نفس الكتاب يقول ابن لاثارو كارديناس أن "اللاتيفونديات المتصنعة، قد أقيمت، بصورة تفضيلية، في الأراضي ذات النوعية الأفضل، في أكثرها إنتاجية".

وقد أعاد الروائي كارلوس فوينتس، بدءا من الاحتضار، رسم حياة كابتن في جيش كارانثا يشق طريقه، بالرصاص وبشدة الدهاء، في الحرب وفي السلم[١٨٨]. هذا الرجل، ارتيميو كروث، ذو الأصل الشديد التواضع، يخلف وراءه، بمرور السنين، مثالية وبطولة الشباب، يغتصب الأراضي، يؤسس ويضاعف الشركات، يجعل من نفسه نائبا في البرلمان، ويتسلق، في جهد لامع، نحو القمم الاجتماعية، مراكما للثروة، والسلطة والمكانة على أساس الأعمال، والرشوة، والمضاربة، وضربات الجسارة الضخمة، وقمع الهنود بالدم والنار. وتشبه صيرورة الشخصية صيرورة الحزب الذي، نتيجة العجز الجبار للثورة المكسيكية، يحتكر فعلياً الحياة السياسية للبلاد في أيامنا. كلاهما سقط إلى الأعلى.

الأراضي تضاعف الافواه، ولا تضاعف الخبز

أصبح الإنتاج الزراعي للفرد في أمريكا اللاتينية اليوم أقل مما كان عليه عشية الحرب العالمية الثانية. لقد مضت ثلاثون عاماً، وتزايد إنتاج الغذاء في العالم خلال هذه المدة، بنفس النسبة التي انخفض بها في بلادنا. إن بنية التخلف في الريف الأمريكي اللاتيني تعمل أيضاً كبنية للتبديد، تبديد لقوة العمل، والأرض المتوفرة، ورؤوس الأموال، والإنتاج، وتبديد الفرص التاريخية العابرة للتنمية في المقام الأول،. فاللاتيفونديا وقريبتها الفقيرة، المينيفونديا (المزرعة الصغيرة)، تمثلان، في كل بلدان أمريكا اللاتينية تقريبا، عنق الزجاجة الذي يخنق النمو الزراعي وتطور الاقتصاد كاملا. ويفرض نظام الملكية طابعة على نظام الإنتاج، فالواحد ونصف في المائة من الملاك الزراعيين الأمريكيين اللاتين يملكون نصف إجمالي الأراضي القابلة للزراعة وتنفق أمريكا اللاتينية، سنويا، أكثر من خمسمائة مليون دولار على شراء أغذية من الخارج يمكن إنتاجها دون صعوبات في أراضينا الشاسعة والخصبة. وهناك بالكاد خمسة بالمائة من إجمالي المساحة خاضعة للزراعة، وهي أدني نسبة في العالم، وبالتالي، أعلى نسبة تبديد وهدر[١٨٩]. إضافة إلى ذلك، فالعائدات شديدة الانخفاض، في الأراضي القليلة المزروعة. وتنتشر المحاريث في أقاليم عديدة في الأراضي القليلة المزروعة. كما أنه تنتشر المحاريث الخشبية أكثر من الجرارات الزراعية في أقاليم عديدة. ولا تستخدم التقنيات الحديثة إلا بشكل استثنائي ولا يتضمن انتشارها ميكنة الأعمال الزراعية فحسب، بل كذلك تدعيم وحفز التربة عن طريق الأسمدة، والمبيدات، والبذور المخصبة، ومبيدات الأعشاب، والري الصناعي[١٩٠]. تشمل اللاتيفونديا قاطبة، كالملك

الشمس أحيانا، كوكبة سلطة تقوم، إذا استخدمنا التعبير السليم لماثا ثابالا[١٩١]، بمضاعفة الجوعى وليس الخبز. فبدل أن تسعى اللاتيفونديا لامتصاص اليد العاملة فانها تطردها، فلقد انخفض عمال الريف الأمريكيين اللاتين خلال أربعين عاماً، بأكثر من عشرين بالمائة، وبالطبع هناك ثمة الكثيرون من التكنوقراطيين المستعدين للتأكيد من خلال وصفات جاهزة على أن هذا يعتبر مؤشر على التقدم، مؤشر على اتساع المدن المتسارع، وعلى الانتقال الجماعي للسكان الريفيين، فالعاطلون، الذين يتقيأهم النظام دون توقف، يزحفون، بالفعل، على المدن ويوسعون ضواحيها. لكن المصانع، التي تفرز بدورها عاطلين نتيجة التحديث، لا تقدم ملاذا لهده الأيدي العاملة الفائضة وغير المؤهلة. أما بالنسبة للتقدم التكنولوجي للريف، عند حدوثها، فهي تشحذ من حدة المشكلة. فتزداد أرباح أصحاب الأراضي، بإدخالها وسائل متطورة أكثر لاستغلال ممتلكاتهم، لكن تبقى أذرعا أكثر دون عمل لتتسع الهوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء. وإدخال المعدات الميكانيكية، يلغي فرص العمل في الأراضي أكثر مما يخلقها، والأمريكيون اللاتين الذين ينتجون الأغذية، في يوميات عمل من مطلع الشمس إلى مغيبها، يعانون عادة، من سوء التغذية، والأجور الشحيحة، وما يكسبه المزارع في الريف ينفقه في المدن أو يدفعه إلى الهجرة في النهاية نحو المدينة. إن التقنيات المتطورة التي تزيد من الناتج الشحيح للأرض بينما لا تمس نظام الملكية القائم، لا تمثل نعمة بالنسبة للفلاحين، رغم أنها تساهم في التقدم العام. فلا لتزيد أجورهم ولا مشاركتهم في المحاصيل. فيقدم الريف فقرا للكثيرين وثراء للقلة القليلة. تحلق الطائرات الخاصة فوق الصحراوات البائسة، ويتزايد البذخ العقيم في المنتجعات الضخمة وتعج أوروبا بالسياح الأمريكيين اللاتين

المكدسين بالنقود، فهم يهملون زراعة أراضيهم لكنهم لا يهملون، بالطبع، تثقيف أرواحهم.

يعزو بول بيروش نقطة الضعف الرئيسية لاقتصاد العالم الثالث إلى حقيقة أن متوسط إنتاجيته الزراعية لا تصل إلا إلى نصف المستوى الذي بلغته، عشية الثورة الصناعية، البلدان المتطورة اليوم(١٩٢). وفي الحقيقة، فلكي تتوسع الصناعة فانها تحتاج إلى زيادة أكبر بكثير في إنتاج الأغذية والمواد الأولية الزراعية بشكل متناسق. أما الأغذية فلأن المدن تكبر وتأكل، والمواد الأولية، من أجل المصانع ومن أجل التصدير، بحيث تنقل الواردات الزراعية وتزداد المبيعات إلى الخارج لتوليد العملات الصعبة التي يتطلبها منطق النمو. ومن جانب آخر، فنظام اللاتيفونديات والمزارع الصغيرة يتضمن ضعف سوق الاستهلاك الداخلية، التي تفقد الصناعة الوليدة موقعها في حال عدم اتساعها. وأجور الكفاف في الريف وجيش الاحتياطي من العاطلين المستمر في ازدياد باضطراد، يتواطآن في هذا الاتجاه، فالمهاجرون من الريف، الذين يطرقون أبواب المدن، يدفعون المستوى العام لأجور العمال إلى الانخفاض.

ومنذ أعلن التحالف من أجل التقدم، للرياح الأربعة، ضرورة الإصلاح الزراعي، لم تكف الأوليغاركية والتكنوقراط عن إصدار القوانين. عشرات القوانين، سمينة، ونحيفه، عريضة، وضيقة، راقدة على رفوف برلمانات كافة دول أمريكا اللاتينية. لم يعد الإصلاح الزراعي أمرا ملعونا، وقد تعلّم السياسيون أن أفضل طريقة لعدم تنفيذه تتخلص في ذكره باستمرار. والعمليات المتزامنة لتركز وتفتت ملكية الأرض تواصل مسارها، بشكل متواصل، في غالبية البلدان. ورغم ذلك، أخذت الاستثناءات تشق طريقها. والريف لا يبذر بذور الفقر

فقط، وإنما، يبذر بذور الثورات أيضاً، رغم أن التوترات الاجتماعية الحادة تختفي عادة، وتتقنع بقناع التسليم السطحي للجماهير. فالشمال الشرقي للبرازيل، على سبيل المثال، يثير الدهشة للوهلة الأولى باعتباره ملاذا للقدرية، يقبل سكانه الموت جوعا بشكل سلبي كما يقبلون قدوم الليل في نهاية كل نهار. لكن ليس بعيدا في الزمان، في نهاية الأمر، الانفجار الغيبي لسكان الشمال الشرقي الذين حاربوا بجوار مسبحيهم، ورسلهم الغريبين، رافعين الصليب والبنادق ضد الجيوش، كي يجلبوا إلى هذه الأرض مملكة السماوات، كذلك ليست بعيدة موجات العنف الصاخبة للكانغاسيرو، فالمتعصبون وقطاع الطرق، اليوتيوبيا والانتقام، هيأوا مجرى الاحتجاج الاجتماعي، الذي ما زال أعمى، للفلاحين اليائسين[١٩٣]. وسوف تستجمع جيوش الفلاحين فيما بعد قواها، وتعمق هذه التقاليد النضالية.

لم تتأخر الدكتاتورية العسكرية التي اغتصبت السلطة في البرازيل عام ١٩٦٤ في إعلان إصلاحها الزراعي. والمعهد البرازيلي للإصلاح الزراعي، كما أوضح بأولو شيلينغ، في حالة فريدة من نوعها في العالم، فبدل أن يتم توزيع الأراضي على الفلاحين، يكرس نفسه لطردهم، لاستعادة المساحات التي انتزعتها بشكل عفوي أو نزعت ملكيتها الحكومات السابقة وإعادتها إلى اللاتيفونديين. وفي عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧، وقبل تطبيق الرقابة بشدة أكبر على الصحف، اعتادت الصحف نقل حوادث السلب، والحرائق، والاضطهاد التي كانت قوات الشرطة العسكرية تقوم بها. وهناك إصلاح زراعي آخر جدير بأن يؤلف فيه كتاب. هو ذلك الذي صدر في إكوادور عام ١٩٦٤. حيث لم توزع الحكومة سوى الأراضي غير المنتجة، وسهلت في نفس الوقت تركيز الأراضي ذات النوعية الأفضل في أيدي كبار ملاك الأراضي. وكان

نصف الأراضي التي وزعت في الإصلاح الزراعي بفنزويلا، ابتداء من عام ١٩٦٠، من أراضي الملكية العامة، لم تمس المزارع التجارية الضخمة وتلقى اللاتيفونديون الذين نزعت ملكيتهم تعويضات بلغ من ارتفاعها أن حققوا أرباحاً هائلة واشتروا أراض جديدة في مناطق أخرى.

كان الدكتاتور الأرجنتيني خوان كارلوس اونغانيا على وشك التعجيل بسقوطه قبل عامين من وقوع الأمر، حين حاول عام ١٩٦٨، تطبيق نظام جديد للضرائب على الملكية الزراعية. وكان المشروع ينوي فرض ضرائب على "السهول الجرداء" أكثر من الأراضي المنتجة. فأطلقت الأوليغاركية المحصنة صرختها إلى عنان السماء، وحشدت سيوفها الخاصة في رئاسة الأركان وكان على اونغانيا أن ينسى نواياه الهرطقية. وتتمتع الأرجنتين، مثلها مثل أوروغواي، بسهول خصبة طبيعيا سمحت لها، مع المناخ المعتدل، بالتمتع برفاهية نسبية في أمريكا اللاتينية. لكن التآكل يعض بأنيابه بلا رحمة السهول الشاسعة المهجورة التي لا تستخدم لا في الزراعة ولا في الرعي، ويحصل نفس الشيء بالنسبة لجزء كبير من ملايين الهكتارات المخصصة للتربية الكثيفة للماشية. وكما هو الأمر في حالة الأورغواي، لكن بدرجة أقل، فإن هذا الاستغلال المكثف يكمن في قاع الأزمة التي أصابت الاقتصاد الأرجنتيني في الستينات. ولم يبدي اللايتفونيدون الأرجنتينيون الاهتمام الكافي لإدخال التحديثات التقنية إلى حقولهم. وما زالت الإنتاجية منخفضة، لأنه يناسب البعض أن تبقى كذلك، فقانون الربح اقوى من كل القوانين. وتوسيع الملكيات، من خلال شراء حقول جديدة، أكثر ربحية وأقل خطرا من تطبيق الوسائل التي تتيحها التكنولوجيا الحديثة من أجل الإنتاج المكثف(١٩٤).

في عام ١٩٣١، عأرضت الجمعية الزراعية الجرار الزراعي

بالحصان، "أيها المزارعون مربو الماشية - صاح مديروها - إن العمل بالحصان في المهام الزراعية يعني حماية مصالحكم ومصالح البلاد!"، ثم لتأتي وتصدر في مطبوعاتها بعد عشرين عاما وبإصرار، "من الأسهل - قال أحد العسكريين المعروفين - وصول العلف إلى معدة حصان من وصول السولار إلى خزان عربة نقل ثقيلة"[١٩٥]. وحسب بيانات اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فلدى الأرجنتين، بالتناسب مع هكتارات المساحة القابلة للزراعة، جرارات زراعية أقل من فرنسا ست عشرة مرة، وأقل من المملكة المتحدة تسع عشرة مرة. وتستهلك البلاد، نسبيا كذلك، أسمدة أقل من ألمانيا الغربية مائة وأربعين مرة[١٩٦]. وعوائد القمح، والذرة، والقطن في الزراعة الأرجنتينية أقل بكثير من عوائدها في البلاد المتطورة.

لقد تحدى خوان دومينغو بيرون مصالح أوليغاريكية أصحاب الأراضي في الأرجنتين، عندما فرض قانون العمل وشرط الامتثال للحد الأدنى للأجور الزراعية. وأكدت الجمعية الزراعية في عام ١٩٤٤، "بالنسبة لتحديد الأجور لا بد من تحديد مستوى معيشة الأجير العادي. واحتياجاته المادية محدودة جدا في بعض الأحيان بحيث أن ما يزيد عليها يجلب مصائر اجتماعية قليلة الأهمية". ما زالت الجمعية الزراعية تتحدث عن الأجراء وكأنهم حيوانات، كما أن التأمل العميق ازاء الاحتياجات الاستهلاكية الضئيلة للعمال يعطينا، رغم انفنا، مفتاحاً جيداً لفهم حدود التطور الصناعي الأرجنتيني، فالسوق الداخلية لا تمتد ولا تتعمق بدرجة كافية. ولم تكسر سياسة التطور الاقتصادي التي دفع بها بيرون نفسه أبداً بنية التخلف الزراعي بالمطلق. وفي خطاب ألقاه على مسرح كولومبس في تموز عام ١٩٥٢، نفى بيرون نيته بإجراء إصلاح

زراعي، وقد علقت الجمعية الزراعية، رسميا، على هذا الخطاب في وقتها، "كانت اطروحة بارعة".

وبفضل الإصلاح الزراعي في بوليفيا عام ١٩٥٢، تحسنت التغذية بصورة ملحوظة في مناطق ريفية واسعة من هضبة الالتيبلانو، لدرجة أنه ثبت تغيرات في طول قامة الفلاحين. ورغم ذلك، فإن مجمل سكان بوليفيا ما زالوا يستهلكون بالكاد ستين بالمائة من البروتينات وعشرين بالمائة من الكالسيوم الضروريين في الوجبة الدنيا، رغم أن العجز في المناطق الريفية أشد حدة بكثير من هذه المتوسطات. ولا يمكن القول، بحال، أن الإصلاح الزراعي قد فشل، لكن توزيع الأراضي المرتفعة لم يكفي لمنع بوليفيا من أن تنفق، في وقتنا الحالي، خمس عملاتها الصعبة على استيراد أغذية من الخارج.

أما الإصلاح الزراعي الذي طبقته، منذ ١٩٦٩، حكومة بيرو العسكرية، فعلى ما يبدو أنه تجربة في اتجاه التغيير العميق. وبالنسبة لنزع ملكية بعض اللاتيفونديات التشيلية من جانب حكومة إدوارد وفراي، فمن الإنصاف الاعتراف بأنه فتح الطريق أمام الإصلاح الزراعي الجذري الذي يعلنه الرئيس الجديد سالفادور الليندي، أثناء كتابتي لهذه الصفحات.

مستعمرات الشمال الثلاثة عشر وأهمية إلا نولد مهمين

كان الاستيلاء الخاص على الأراضي يسبق دائماً زراعتها النافعة في أمريكا اللاتينية. ولم تنشأ أكثر الملامح تخلفا في نظام الحيازة الساري حاليا من الأزمات، .وإنما ولدت خلال الفترات ذات الرفاهية البالغة، وعلى العكس، فلقد خففت فترات الكساد الاقتصادي من نهم

اللاتيفونديين للاستيلاء على مساحات جديدة. وفي البرازيل، على سبيل المثال، ساعد تدهور السكر والاختفاء الفعلي للذهب والماس على إصدار، فيما بين عامي ١٨٢٠ و١٨٥٠، على وضع تشريع يضمن ملكية الأرض لمن يشغلها ويجعلها تنتج. وفي عام ١٨٥٠، فإن صعود البن باعتباره "منتجا ملكا" جديدا، حدد إصدار قانون الأراضي، الذي صيغ وفق رغبات السياسيين والعسكريين في النظام الأوليغاركي، من أجل إنكار ملكية الأرض على من يعمل بها، بقدر ما اخذت تنفتح، نحو الجنوب ونحو الغرب، الاتساعات الشاسعة الداخلية للبلاد. هذا القانون "اخذ يكتسب التدعيم والإقرار منذ ذلك الحين عن طريق تشريع مفصل، يجعل الشراء هو الشكل الوحيد للحصول على الأرض ويخلق نظاما لتوثيق العقود يجعل من غير العملي تقريبا أن يستطيع عامل إضفاء صفة الشرعية على ملكيته..."(١٩٧).

أما التشريع الأمريكي الشمالي لنفس الفترة فقد طرح الهدف معاكسا، لتحفيز الاستعمار الداخلي للولايات المتحدة. حيث أخذت تصر عربات الرواد الذين أخذوا يوسعون الحدود، على حساب مذابح السكان الأصليين، نحو أراضي الغرب البكر، وكان قانون لينكولن لعام ١٨٦٢، قانون هومستيد، يمنح لكل عائلة ملكية قطعة أرض عبارة عن ٦٥ هكتارا. ويلتزم كل مستفيد بزراعة قطعة أرضه خلال فترة لا تقل عن خمس سنوات(١٩٨). وانتشرت الملكية العامة بسرعة رهيبة. تزايد السكان وانتشروا مثل بقعة زيت هائلة على الخريطة. جذبت الأرض المتاحة، الخصبة والمجانية تقريبا، الفلاحين الأوروبيين مثل مغناطيس لا يقاوم، كانوا يعبرون المحيط وكذلك جبال ابالاتشي نحو السهول المفتوحة. لقد كانوا مزارعون أحرار هم من احتلوا الأراضي الجديدة في الوسط وفي الغرب. وبينما كانت البلاد تزداد في المساحة وفي السكان، خلقت

مصادر للعمل الزراعي وفي نفس الوقت تولدت سوق داخلية ذات قدرة استيعاب كبيرة، إلا وهي الكتلة الضخمة من المزارعين أصحاب الأراضي، للحفاظ على اندفاع التطور الصناعي.

وبالمقابل، فإن العمال الزراعيين الذين، منذ أكثر من قرن من الزمن، قد زحزحوا بحماس حدود البرازيل الداخلية، لم يكونوا وليسو عائلات من الفلاحين الأحرار يبحثون عن قطعة أرض تصبح ملكهم، كما يلاحظ ريبيرو، بل هم أجراء تعاقدوا على خدمة اللاتيفونيين الذين سارعوا بامتلاك المساحات الضخمة الخاوية. لم تكن الصحراوات الداخلية في متناول السكان الريفيين أبدا. وظل العمال يفتحون البلاد، بضربات السكين، عبر الغابات. والنتيجة أن الاستيطان هو مجرد امتداد للتوسع اللاتفيوندي. واستوعب فيما بين ١٩٥٠ و١٩٦٠، ٦٥ لاتيفونديا برازيليا ربع الأراضي الجديدة المدرجة في الزراعة[١٩٩].

إن هذين النظامين المتعارضان للاستيطان الداخلي يظهران واحدا من أهم الفروق بين نموذجي التطور في الولايات المتحدة وفي أمريكا اللاتينية. فلماذا يكون الشمال غنيا والجنوب فقيرا؟ إن نهر الريو برافو هو أكثر بكثير من مجرد حدود جغرافية. إن هذا التفاوت العميق في أيامنا، والذي يبدو أنه يؤكد نبوءة هيغل حول الحرب التي لا مفر منها بين أمريكا وأمريكا أخرى، هل ظهرت نتيجة التوسع الإمبريالي للولايات المتحدة أم أن له جذور أقدم؟ في الحقيقة، أنه إلى الشمال وإلى الجنوب قد تولدت في رحم الاستعمار نفسه[٢٠٠]، مجتمعات قليلة الشبه وصارت في خدمة أهداف ليست واحدة. لم يعبر حجاج ماي فلاور البحر من أجل الاستيلاء على كنوز أسطورية ولا من أجل سحق الحضارات الهندية الغير موجودة في الشمال، بل لكي يستقروا في العالم الجديد مع عائلاتهم ويعيدوا إنتاج نظام الحياة والعمل الذي كانوا

يمارسونه في أوروبا. لم يكونوا جنودا للحظ، بل روادا، ولم يأتوا للغزو، بل للاستيطان، أسسوا "مستعمرات استيطانية". ومن المؤكد أن العملية اللاحقة طورت، جنوب خليج ديلاوير، اقتصاد مزارع عبودية مماثلة لتلك التي نشأت في أمريكا اللاتينية، لكن مع الاختلاف أن مركز الثقل في الولايات المتحدة كان راسخا منذ البداية في مزارع ومعامل نيو إنجلند، حيث ستخرج الجيوش المنتصرة في حرب الانفصال في القرن التاسع عشر. إن مستوطني نيو إنجلند، النواة الأصلية للحضارة الأمريكية الشمالية، لم يتصرفوا كوسطاء استعماريين للتراكم الرأسمالي الأوروبي أبدا، فقلد عاشوا في خدمة تطورهم الخاص وتطور أراضيهم الجديدة منذ البداية. لقد ساهمت مستعمرات الشمال الثلاث عشرة كمتنفس لجيش الفلاحين والحرفيين الأوروبيين الذين كان تطور المتروبول يدفعهم خارج سوق العمل. فشكّل عمال أحرار قاعدة ذلك المجتمع الجديد على هذا الجانب من البحر.

بينما اعتمدت أسبانيا والبرتغال، في المقابل، على وفرة هائلة من اليد العاملة الخاضعة في أمريكا اللاتينية. تلى عبودية الهنود النقل الجماعي للعبيد الأفارقة. وعلى مدى قرون، كان يتواجد دائماً جيش ضخم من الفلاحين العاطلين المتاحين لنقلهم إلى مراكز الإنتاج، وجدت المناطق المزدهرة دائماً إلى جانب المناطق المتدهورة، على إيقاع ازدهار وسقوط صادرات المعادن النفيسة أو السكر، وأمدت المناطق المتدهورة باليد العاملة المناطق المزدهرة. وما زالت هذه البنية قائمة حتى وقتنا الحاضر، وفي الوقت الحاضر أيضاً تتضمن مستوى منخفضا من الأجور، بسبب الضغط الذي يمارسه العاطلون على سوق العمل، وتحبط نمو سوق الاستهلاك الداخلية. لكن بالإضافة إلى ذلك، وبخلاف بيرويتانيي الشمال، فإن الطبقات المسيطرة في المجتمع

الاستعماري الأمريكي اللاتيني لم تتجه أبداً إلى التطور الاقتصادي الداخلي. كانت مكاسبها تأتي من الخارج، وكانت أكثر ارتباطا بالسوق الأجنبية من ارتباطها بإقليمها ذاته. لقد وجدوا أصحاب الأراضي وأصحاب المناجم والتجار للقيام بهذه الوظيفة، امداد أوروبا بالذهب، والفضة، والأغذية. كانت الطرق تنقل الحمولة في اتجاه واحد، صوب الميناء وأسواق ما وراء البحار. وهذا أيضاً هو المفتاح الذي يفسر توسع الولايات المتحدة كوحدة قومية وتمزق أمريكا اللاتينية، لم يكن هناك ارتباط بين مراكز إنتاجنا، بل كانت تشكل مروحة بمركز متباعد جدا.

لقد نالت مستعمرات الشمال الثلاث عشرة، إن أمكن القول، نعمة الشقاء. وقد بينت خبرتها التاريخية الأهمية البالغة الشدة لعدم ولادتها مهمة. فلم يكن ثمة ذهب ولا فضة في شمال أمريكا، ولا حضارات هندية ذات تمركز سكاني كثيف منظم فعلا من أجل العمل، ولا أرض استوائية ذات خصوبة مدهشة في الشريط الساحلي الذي استعمره الحجاج الإنجليز. لقد أظهرت الطبيعة بخلها، وكذلك التاريخ، لم تكن هناك معادن ولا أيدي عاملة من العبيد لانتزاع المعادن من أحشاء الأرض. وكان ذلك من حسن حظها. وفيما عدا ذلك ومن ماريلاند إلى نوفاسكوشيا، مرورا بنيو إنجلند، أنتجت مستعمرات الشمال، بفضل المناخ وخصائص التربة، ما كانت تنتجه بالضبط الزراعة البريطانية، أي أنها لم تقدم إلى المدن الكبرى، كما أوضح باغو[٢٠١]، إنتاجا تكميليا.

وكان الوضع مختلفا تماماً في جزر الانتيل وفي المستعمرات الايبيرية في القارة. فمن الأراضي الاستوائية نبت السكر، والتبغ، والقطن، والنيلة، والتربيتين، كانت جزيرة واحدة من جزر الكاريبي أهم بالنسبة لإنجلترا، من وجهة النظر الاقتصادية، من مستعمرات الولايات المتحدة الثلاث عشرة مجتمعة.

إن هذه الظروف تفسر صعود وتعزيز الولايات المتحدة، كنسق مستقل اقتصاديا، لا يستنزف الثروة المتولدة نحو الخارج. كانت الروابط التي تربط المستعمرة بالمتروبول واهية جدا، لم يكن يعاد استثمار رؤوس أموال في باربادوس أو جامايكاسوى تلك التي لا غنى عنها لإحلال العبيد بقدر ما يستهلكون، بالمقابل، لم تكن العوامل العرقية، كما يتضح، هي التي حددت تطور البعض وتخلف الاخرين، فم تكن جزر الانتيل البريطانية أسبانية في شيء أو برتغالية في شيء. والحقيقة هي أن عدم الأهمية الاقتصادية للمستعمرات الثلاث عشرة أتاحت التنويع المبكر لصادراتها وأضائت شغلة التطور القوي للصناعات. وتمتع التصنيع الأمريكي الشمالي، منذ ما قبل الاستقلال، بحوافز وحماية رسمية. وأبدت إنجلترا تسامحا، في نفس الوقت الذي حظرت فيه بحسم أن تصنع جزرها الانتيلية ولو حتى دبوسا.

المنابع الدفينة للسلطة

حاجة اقتصاد أمريكا الشمالية إلى معادن أمريكا اللاتينية كحاجة الرئتين إلى الهواء

كان قد طبع رواد الفضاء أول آثار أقدام بشرية على سطح القمر، وأعلن والد المشروع، ويرنر فون براون، للصحافة في تموز عام ١٩٦٩ أن الولايات المتحدة تنوي إقامة محطة فضائية بعيدة، لأغراض قريبة جدا، "وصرح، من هذه المنصةِ الرائعة للمراقبة سيصبح بامكاننا فحص كل ثروات الأرض، آبار البترول المجهولة، ومناجم النحاس والزنك..."

وما زال البترول هو الوقود الرئيسي لعصرنا، ويستورد الأمريكيون الشماليون سبع البترول الذي يستهلكون. ولقتل الفيتناميين، فهناك حاجة إلى طلقات، والطلقات بحاجة إلى نحاس، وتشتري الولايات المتحدة خمس النحاس الذي تستهلكه من خارج حدودها، كما يثير نقص الزنك قلقا متزايدا بشكل مستمر، ويأتي من الخارج نحو نصفه. ولا يمكن صنع طائرات بدون الألومنيوم، كما لا يمكن صنع الألومنيوم بدون البوكسيت، وبالكاد تملك الولايات المتحدة بوكسيت. ومراكز تعدينها الضخمة ـ بيتسبرغ، وكلفيلاند، وديترويت ـ لا تجد ما يكفي من الحديد في مناجم مينيسوتا، وقد أوشكت على النضوب، كذلك لا تجد منغنيز

في الأراضي المحلية، ويستورد الاقتصاد الأمريكي الشمالي ثلث الحديد وكل المنغنيز الذي يحتاجه، ولا يجدون في باطن أرضهم لا نيكل ولا كروم من أجل محركات الدفع النفاث. ولا بد من التنغستن لتصنيع أنواع الصلب الخاصة، فهم يستوردون ربعه. يحدد هذا الاعتماد، المتزايد على الامدادات الأجنبية، تطابقا متزايدا أيضاً، بين مصالح الرأسماليين الأمريكيين الشماليين في أمريكا اللاتينية، وبين الأمن القومي للولايات المتحدة. يبدو الاستقرار الداخلي للقوة الأعظم في العالم وثيق الارتباط بالاستثمارات الأمريكية الشمالية جنوب نهر الريو برافو. ونصف هذه الاستثمارات تقريبا مخصص لاستخراج البترول واستغلال الثروات المعدنية. "التي لا غنى عنها بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة في السلم كما في الحرب بأي حال من الاحوال"[٢٠٢]. ويحدد رئيس المجلس الدولي للغرفة التجارية للبلد الشمالي الأمر على النحو التالي، "أن أحد الأسباب الرئيسية لاستثمار الولايات المتحدة في الخارج، تاريخيا، هو تنمية الموارد الطبيعية، وخصوصا المعادن، لاسيما، البترول. ومن الواضح تماماً أن دوافع هذا النوع من الاستثمارات مهيئة للزيادة. فاحتياجاتنا من المواد الأولية تتزايد باستمرار بقدر تزايد السكان وارتفاع مستوى المعيشة. وفي ذات الوقت، فمواردنا المحلية في حالة نضوب..."[٢٠٣]. إن المعامل العلمية للحكومة، والجامعات، والشركات الضخمة لم تجد وسيلة للاستغناء عن المواد الأساسية التي تقدمها الطبيعة لاختراعاتها واكتشافاتها وهي التي تجري في سباق محموم، بينما الطبيعة وحدها هي التي تستطيع تقديم كل ما تحتاجه.

وتضعف الإجابات، في نفس الوقت، التي يستطيع أن يقدمها باطن الأراضي المحلية على تحدي النمو الصناعي للولايات المتحدة[٢٠٤].

أيضاً باطن الأرض ينتج انقلابات، ثورات، وحكايات جاسوسية ومغامرات في غابات الامازون

أسقطت مناجم الحديد الباهرة في وادي باراوبيا في البرازيل برئيسين، هما جانيو كوادروس وجواجو غولارت، قبل أن يتنازل عنها المارشال كاستيلو برانكو، بلطف، لشركة هانا ماينينغ كومباني، الذي قفز إلى السلطة عام ١٩٧١، وقبل بضع سنوات، كان صديقاً آخر سابق لسفير الولايات المتحدة، هو الرئيس اوريكو دوترا (٤٦ ـ ١٩٥١)، قد منح شركة بيتلهم ستيل، الأربعين مليون طن من المنغنيز التي يضمها منجم ولاية آمابا، والذي يعتبر أكبر المناجم في العالم، وذلك مقابل حصول الدولة على أربعة بالمائة من دخول التصدير، ومنذ ذلك الوقت، أصبحت بيتلهم تنقل هذه الجبال إلى الولايات المتحدة بحماس شديد يثير المخاوف من أنه بعد خمس عشرة سنة من الآن لن يتبقى لدى البرازيل منغنيز يكفي لإمداد صناعتها التعدينية. وبالنسبة لكل مائة دولار تستثمرها بيتلهم في استخراج المعادن، تتمتع ثمانية وثمانون دولار بكرم الحكومة البرازيلية، إعفاءات من الضرائب باسم "تنمية الإقليم"، ولم تنفع في شيء، كما يتضح، تجربة الذهب المفقود في منياش غيرايش ـ "ذهب أبيض، ذهب أسود، ذهب متعفن"، كما كتب الشاعر مانويل بانديرا، فتواصل البرازيل استنزاف نفسها بشكل مجاني من المصادر الطبيعية للتنمية[٢٠٥]. وقد سيطر الدكتاتور رينيه باررينتوس، من جانبه، على بوليفيا عام ١٩٦٤، وبين المذابح المتتالية لعمال المناجم، منح شركة إخوان فيليبس امتياز منجم ماتيلدا، الذي يحتوي على رصاص، وفضة، وكميات هائلة من الزنك بدرجة نقاوة تفوق درجة نقاوة المناجم الأمريكية الشمالية اثنتي عشرة مرة. وصرح للشركة

بنقل الزنك الخام، لتنقيته في مصانع تكريرها بالخارج، مقابل أن تدفع الدولة ما لا يقل عن واحد ونصف بالمائة من قيمة بيع المعدن[٢٠٦]. واختفت بشكل غامض في البيرو، عام ١٩٦٨، الصفحة رقم أحد عشر من الاتفاق الذي وقعه الرئيس بيلاوندي تيري مع إحدى الشركات التابعة لشركة استاندارد أويل، وقد أسقط الجنرال بيلاسكو البارادو الرئيس، وأمسك بزمام الأمور في البلاد، واستطاع تأميم الآبار وشركة التصفية. وحيث تتواجد في فنزويلا، بحيرة البترول الكبيرة لشركتي استاندارد وايل وغالف، أكبر بعثة عسكرية أمريكية شمالية في أمريكا اللاتينية. وتحدث الانقلابات المتكررة في الأرجنتين قبل أو بعد كل عطاء نفطي. ولم يكن النحاس بعيدا بحال عن المساعدة العسكرية غير المتناسبة التي كانت تتلقاها تشيلي من البنتاغون حتى الانتصار الانتخابي لقوى اليسار بزعامة سلفادور الليندي، فقد كانت الاحتياطات الأمريكية الشمالية من النحاس قد انخفضت بأكثر من ستين في المائة فيما بين عامي ١٩٦٥ و١٩٦٩. وفي عام ١٩٦٤، أخبرني التشي غيفارا في مكتبه بهافانا، أن كوبا في عهد باتيستا لم تكن مجرد بلدا للسكر، فالمناجم الكوبية الضخمة للنيكل والمنغنيز تظهر بشكل أفضل، حسب تقديره، حنق الإمبراطورية الأعمى ضد الثورة. تقلصت احتياطيات الولايات المتحدة من النيكل إلى الثلث منذ هذه المحادثة، فقد تم تأميم الشركة الأمريكية الشمالية نيكرو ـ نيكل وهدد الرئيس جونسون شركات التعدين الفرنسية بمقاطعة شحناتهم إلى الولايات المتحدة أن اشتروا المعدن الكوبي.

وكان للمعادن صلة وثيقة بسقوط حكومة الاشتراكي تشيدي جاغان، الذي كان قد حصل من جديد في أواخر عام ١٩٦٤، على غالبية الأصوات فيما كان يسمى حينذاك باسم غوايانا البريطانية. والبلاد التي

تحمل اسم غويانا اليوم هي رابع اكتبر منتج عالمي للبوكسيت وتحتل المركز الثالث بين منتجي المنغنيز الأمريكيين اللاتين. وقد لعبت وكالة المخابرات المركزية دورا حاسما في إسقاط جاغان. وقد اعترف ارنولد زاندر، أكبر مديري الاضراب الذي قام بمهمة الاستفزاز والذريعة لإنكار النصر الانتخابي لجاغان ووضع الشراك أمامه، اعترف، بعد ذلك، بأن نقابته كانت قد تلقت فيضا من الدولارات من إحدى مؤسسات وكالة المخابرات المركزية بالولايات المتحدة(٢٠٧). وضمنت الحكومة الجديدة ألا تتعرض مصالح شركة ألومنيوم كومباني أوف أمريكا في غويانا للخطر، واستطاعت الشركة أن تواصل الحصول على البوكسيت، دون مشاكل(٢٠٨). وأن تواصل بالبيع لنفسها بنفس أسعار عام ١٩٣٨، رغم أن سعر الألومنيوم كان قد تضاعف منذ ذلك الحين. لم تعد التجارة معرضة للخطر. بينما يساوي بوكسيت اركنساس ضعف قيمة بوكسيت غويانا. لا تملك الولايات المتحدة إلا القليل جدا من البوكسيت في أراضيها، وبالمقابل فباستخدام مادة أولية أجنبية ورخيصة جدا، فانها تنتج نحو نصف الألومنيوم المصنع في العالم.

تعتمد الولايات المتحدة على المصادر الأجنبية لتزويد نفسها بالجزء الأكبر من المعادن الاستراتيجية التي تعتبر ذات قيمة حاسمة لقدرتها الحربية. "إن محرك الدفع النفاث، والتوربين الغازي، والمفاعلات النووية لها اليوم تأثير ضخم على الطلب على المعادن التي لا يمكن الحصول عليها إلا في الخارج"، هذا ما يقوله ماجدوف في هذا الشأن(٢٠٩). إن الحاجة الملحة إلى المعادن الاستراتيجية، التي لا غنى عنها من أجل ضمان القوة العسكرية والذرية للولايات المتحدة، تبدو مرتبطة بشكل واضح في عمليات شراء الأرض الواسعة، بطرق احتيالية بشكل عام، في منطقة الأمازون البرازيلية. وقد قامت شركات أمريكية

شمالية كثيرة في خلال عقد الستينات، يقودها من أيديها المغامرون والمهربون المحترفون، في اندفاع محموم على هذه الغابة الضخمة. قبل ذلك وبفضل اتفاق عقد عام ١٩٦٤، استطاعت طائرات القوات الجوية للولايات المتحدة التحليق فوق الإقليم وصورته كاملا. واستخدمت أجهزة قياس وميض لتحديد مناجم المعادن المشعة عن طريق ارسال موجات ضوئية ذات كثافة متغيرة، وأجهزة قياس كهرومغناطيسية لعمل صور أشعة لباطن الأرض الغني بالمعادن غير الحديدية وأجهزة قياس مغناطيسية لاكتشاف وقياس نسبة الحديد. ووضعت البيانات والصور التي تم الحصول عليها خلال مسح اتساع وعمق ثروات إقليم الأمازون الخفية، بين أيدي الشركات الخاصة المهتمة بالامر، وذلك بفضل المساعي الحميدة لإدارة المسح الجيولوجي لحكومة الولايات المتحدة[٢١٠]. تم التحقق في هذا الإقليم الممتد من وجود الذهب، والفضة، والماس، والجيسيت، والهيماتيت، والمغنتتيت، والتنتاليوم، والثوريوم، واليورانيوم، والكوارتز، والنحاس، والمنغنيز، والرصاص، واكاسيد السولفات، واكاسيد البوتاسيوم، والبوكسيت، والزنك، والزركونيوم، والكروم، والزئبق. يبلغ من صفاء السماء وانفتاحها من الغابة البكر لماتو غروسو حتى سهول جنوبي غويسا أنه يمكن رؤية الشمس الساطعة ونصف دزينة من البروق والرعود البعيدة في نفس الوقت، حسب ما ابدته مجلة تايم من نشوة في طبعتها الأخيرة الأمريكية اللاتينية عام ١٩٦٧. كانت الحكومة قد قدمت إعفاءات ضريبية وإغراءات أخرى من أجل استعمار المساحات البكر لهذا الكون السحري والبدائي. وحسب ما تقوله مجلة تايم، كان الرأسماليون الأجانب قد اشتروا، قبل ١٩٦٧، بسعر سبعة سنتات للفدان، مساحة تفوق مجموع أراضي كونكتيكت، وورد ايلاند، وديلاوير،

وماساشوستس، ونيوهامبشاير. قال مدير الوكالة الحكومية لتنمية الامازون، "يجب أن نبقي الأبواب مفتوحة جيداً أمام الاستثمار الأجنبي، لأننا نحتاج إلى أكثر مما يمكننا الحصول عليه" ولتبرير المسح الجوي من جانب الطيران الأمريكي الشمالي، كانت الحكومة قد أعلنت من قبل أنها تفتقر إلى الموارد. هذا هو المعتاد في أمريكا اللاتينية، يجري دائماً منح الموارد باسم نقص الموارد.

وقد استطاع الكونغرس البرازيلي إجراء تحقيق انتهى بتقرير ضخم حول الموضوع[٢١١]. يعدد التقرير حالات بيع أو اغتصاب لاراضي مساحتها عشرون مليون هكتار، تمتد بطريقة غريبة بحيث أنها، حسب ما تقول لجنة التحقيق. "تكون حزاما يعزل الأمازون عن بقية البرازيل". ويظهر "الاستغلال غير المشروع لمعادن ثمينة جدا في التقرير باعتباره واحداً من الدوافع الأساسية للرغبة الأمريكية الشمالية العارمة في فتح حدود جديدة داخل البرازيل. وتؤكد شهادة هيئة وزارة الحربية، التي يضمها التقرير، على "مصلحة الحكومة الأمريكية الشمالية نفسها في الاحتفاظ، تحت سيطرتها، بامتداد واسع من الأراضي لاستخدامها فيما بعد، سواء لاستغلال المعادن، خصوصا المعادن المشعة، أو كقاعدة لاستيطان موجه". ويؤكد مجلس الأمن القومي، "مما يثير الشك حقيقة أن المساحات المحتلة، أو التي في سبيلها إلى الاحتلال، من جانب عناصر أجنبية، تتطابق مع الأقاليم الخاضعة لحملات تعقيم البرازيليات بواسطة الأجانب". وبالفعل، وحسب ما تذكر صحيفة كوريو دا مانيا فإن "أكثر من عشرين بعثة تبشيرية أجنبية، من الكنيسة البروتستانتية للولايات المتحدة أساساً، تحتل الأمازون، وتستقر في أغنى النقاط الغنية بالمعادن المشعة، والذهب، والماس... وتنشر على نطاق كبير موانع الحمل، من قبيل العوازل التي توضع في الرحم، وتعلم

الإنجليزية للهنود الذي يلقنون مبادئ الدين... ويطوق مناطقهم عناصر مسلحة بحيث لا يستطيع أحد الدخول اليها"(٢١٢). وغني عن الذكر أن الأمازون هي أكبر المناطق في هذه المساحة الهائلة الخالية، من أجل تجنب المنافسة الديموغرافية للبرازيليين القليلين جدا الذين يعيشون ويتجددون في أركان نائية من الغابة أو من الأراضي المستوية الشاسعة.

أكد الجنرال ريوغرانديتو كرويل من جانبه، أمام لجنة التحقيق البرلمانية، أن "حجم تهريب المواد التي تحتوي على ثوريوم ويورانيوم يبلغ رقما فلكيا ويبلغ مليون طن". وقبل ذلك ببعض الوقت، في أيلول عام ١٩٦٦، كان كرويل، رئيس الشرطة الفيديرالية، قد شجب "التدخل الوقح والمنهجي" لأحد قناصل الولايات المتحدة في المحاكمة التي تجري ضد أربعة مواطنين أمريكيين شماليين متهمين بتهريب معادن ذرية برازيلية. وحسب رأيه، فإن ضبط أربعين طنا من المعدن المشع معهم كافي لإدانتهم. وبعد قليل، هرب ثلاثة من المهربين من البرازيل بطريقة غامضة. لم يكن التهريب ظاهرة جديدة، رغم أنه أصبح مكثفا بشكل كبير. فتفقد البرازيل كل عام أكثر من مائة مليون من الدولارات نتيجة التهريب غير المشروع للماس الخام فقط(٢١٣). لكن التهريب لا يصبح ضروريا، في الواقع، إلا بدرجة نسبية. فالامتيازات القانونية تنتزع من البرازيل بارتياح ثرواتها الطبيعية المذهلة. وحتى لا نورد مثالاً واحداً آخر، فإن حزاما ضخما، هو أكبر منجم النيوبيوم في العالم، ويقع في اراكسا، يتبع أحد فروع شركة النيوبيوم كوربوريشن، في نيويورك. ومن النيوبيوم تأتي عدة معادن تستخدم، بسبب مقاومتها لدرجات الحرارة العالية. في إنشاء المفاعلات النووية، والصواريخ، وسفن الفضاء، والأقمار الصناعية، أو الطائرات النفاثة، وبجانب ذلك، تستخرج الشركة كذلك مع النيوبيوم، كميات

كبيرة من التنتالوم، والثوريوم، واليورانيوم، والبيروكلورو والمعادن النادرة بدرجة نقاوة عالية.

كيميائي ألماني يهزم المنتصرين في حرب الباسيفيك

تكشف حكاية النترات، صعودها وسقوطها، عن فترة الرخاء الوهمي لأمريكا اللاتينية في السوق العالمية، النفحة العابرة للأمجاد والثقل المتبقي للكوارث دائما.

في أواسط القرن الماضي، كانت نبوءات مالتوس السوداء تحلق فوق العالم القديم. كان السكان الأوربيون يتزايدون بكثافة تدفع للدوار وكان لا بد من منح حياة جديدة للتربة المنهكة لإنتاج الغذاء كي يزداد بنسبة مماثلة. كشف الغوانو عن خصائصه المخصبة للأرض في المعامل البريطانية، وبدأ بتصديره على نطاق واسع من الساحل البيرواني، ابتداءا من عام ١٨٤٠. كانت طيور البحر والنوارس، التي تتغذى على أسراب السمك الوفيرة التي تحضرها تيارات البحر بينما تلعق الضفاف، كانت تراكم، فوق الجزر والجزر الكبيرة، منذ أزمان سحيقة، جبالا من الفضلات الغنية بالنتروجين، والنشادر، والفوسفات، والاملاح القوية، وظل الغوانو صافيا في سواحل بيرو التي لا يصلها المطر[٢١٤]. وبعد قليل من الانطلاق الدولي للغوانو، اكتشفت الكيمياء الزراعية أن الخصائص المخصبة للنترات أكبر بكثير مما كان متوقع، وأصبح استخدامه كسماد، في عام ١٨٥٠، كثيف جدا في الحقول الأوروبية. كانت الأراضي المخصصة لزراعة القمح في القارة العجوز قد أنهكها التآكل فأخذت تنهم شحنات نترات الصودا القادمة من مناجم النترات البيروانية في تارابكا،.ثم بعدها من مقاطعة انتوفاغاستا البوليفية[٢١٥]. وبفضل النترات والغوانو، الموجودان في سواحل الباسيفيكي "حيث

يكادان أن يكونا في متناول السفن القادمة للبحث عنهما"[٢١٦]، أخذ شبح الجوع عن أوربا بالابتعاد.

ظلت أوليغاركية ليما، التي لا مثيل لها في غطرستها وغرورها، تغترف الثروة بشراهة وتراكم سلطتها في القصور والاضرحة المرمرية من مرمر كاررا والتي شيدتها العاصمة وسط الصحراوات الرملية. لقد كانت عائلات ليما الكبرى، عبر التاريخ، قد ازدهرت على حساب فضة بوتوسي، وتحولت الآن وأصبحت تعيش على براز الطيور وعلى الندف البيضاء لمناجم النترات. وظنت البيرو أنها مستقلة، لكن كانت إنجلترا قد احتلت مكان أسبانيا. كتب مارياتيغي "شعرت البلاد أنها غنية. واستخدمت الدولة قروضها بلا حساب، عاشت في البذخ راهنة مستقبلها لمصادر التمويل الإنجليزية". وأصبحت نفقات وديون الدولة، في عام ١٨٦٨، حسب ما يقول روميرو، قد فاقت بكثير قيمة المبيعات للخارج. وكانت احتياطيات الغوانو تعتبر ضمانا للقروض البريطانية، وكانت أوروبا تتلاعب بالأسعار، لقد خلّف المصدرون الدمار، فما راكمته الطبيعة على الجزر طوال آلاف من السنين كان يُبدد في سنوات قليلة. وفي هذه الأثناء، وفي سهول النترات، كما يحكي برمودث، كان يعيش العمال في مساكن "بائسة"، بالكاد أعلى من الإنسان، معمولة من الحجارة، وكتل من النترات والطين، وبغرفة واحدة".

وامتد استغلال النترات بشكل سريع ليشمل مقاطعة انتوفاغاستا البوليفية، رغم أن التجارة لم تكن بوليفية بل بيروانية، بل وتشيلية قبل أن تصبح بيروانية. وحين حاولت حكومة بوليفيا فرض ضريبة على مناجم النترات التي تعمل في أراضيها، غزت كتائب جيش تشيلي المقاطعة لتبقى فيها إلى الأبد. كانت الصحراء تقوم بدور منطقة امتصاص النزاعات الكامنة بين تشيلي حتى ذلك الوقت، والبيرو،

وبوليفيا. وأطلقت النترات عنان الحرب. فاندلعت حرب الباسيفيك عام ١٨٧٩ وامتدت حتى عام ١٨٨٣. ودخلت القوات المسلحة التشيلية، التي كانت قد احتلت، عام ١٨٧٩، الموانئ البيراونية لإقليم النترات، وهي موانئ باتييوس، وايكيكي، وبيساغوا، وخونين دخلت ليما منتصرة في النهاية، واستسلمت قلعة كايياو في اليوم التالي. وسببت الهزيمة نزيف البيرو وتمزيقها. فقد الاقتصاد القومي الموردين الأساسيين، وأصاب الشلل القوى المنتجة، وانخفض سعر النقود، وتوقفت القروض الخارجية. ولم يجلب الانهيار معه، كما أوضح مارياتيغي، تصفية حساب مع الماضي، فقد ظلت بنية الاقتصاد الاستعماري سليمة دون أن تمس، رغم افتقارها إلى مصادر البقاء[٢١٧].

أما بوليفيا، فلم تنتبه، من جانبها، إلى ما فقدته في الحرب، لقد فقدت أهم منجم للنحاس في العالم منجم تشوكيكاماتا الذي يقع بالضبط في مقاطعة انتوفاغاستا، التي أصبحت تشيلية، لكن، ماذا بشأن المنتصرين؟

كانت النترات واليود تمثل خمسة بالمائة من دخل الدولة التشيلية عام ١٨٨٠، وبعد ذلك بعشر سنوات، كان أكثر من نصف الإيرادات المالية يأتي من تصدير النترات من الأراضي المحتلة. وتزايدت الاستثمارات الإنجليزية في تشيلي أكثر من ثلاث مرات في نفس الفترة، فتحول إقليم النترات إلى مصنع بريطاني[٢١٨]. استولى الإنجليز على النترات باستخدام وسائل قليلة التكلفة. كانت حكومة البيرو قد صادرت معامل النترات في ١٨٧٥ ودفعت ثمنها كسندات، ودمرت الحرب قيمة هذه السندات، بعد خمس سنوات، إلى عشر قيمتها. واستغل الوضع بعض المغامرين الجريئون، كجون توماس نورث وشريكه روبيرت هارفي. وبينما كانوا التشيليون، والبيروانيون، والبوليفيون يطلقون النار

على بعضهم في ميدان المعركة، تفرغ الإنجليز لشراء السندات، بفضل قروض بنك فالبرايسو وغيره من البنوك التشيلية التي تقدم لهم القروض دون أي صعوبة تذكر. لقد كان الجنود يحاربون من اجلهم، رغم عدم علمهم بذلك. وعوضت الحكومة التشيلية تضحية نورث وهارفي، وانجليس، وجيمس، وبوش، وروبيرتسون، وغيرهم من رجال الأعمال المجتهدين على الفور، فعرضت في عام ١٨٨١ إعادة مصانع النترات إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن كانت قد انتقلت نصف السندات إلى الأيدي الساحرة للمضاربين البريطانيين. ولم يخرج من انجلترا ولا قرش واحد لتمويل هذا النهب.

في بداية عقد التسعينات، كانت تشيلي توجه إلى إنجلترا ثلاثة أرباع صادراتها، وتتلقى من إنجلترا نصف وارداتها تقريبا. كانت تبعيتها التجارية تفوق حينذاك التبعية التجارية التي تعاني منها الهند. لقد اسلمت الحرب تشيلي الاحتكار العالمي للنترات الطبيعية، لكن ملك النترات الحقيقي كان جون توماس نورث. وكانت إحدى شركاته، وهي ليفربول نيترات كومباني، تدفع أرباحاً قيمتها أربعون في المائة. نزل هذا الرجل من السفينة في ميناء فالبرايسو، عام ١٨٦٦، دون أن يكون في جيب بذلته المليئة بالتراب سوى عشرة جنيهات إسترلينيه، وبعد ثلاثين عاماً، كان الامراء والدوقات، وأبرز السياسيين والصناعيون الكبار يجلسون على مائدة قصره في لندن. كان نورث قد اخترع لنفسه لقب كولونيل واشترك، كما يليق بفارس من نوعه، في حزب المحافظين وفي فرقة كنت الماسونية، وكان اللورد دورتيستر، واللورد راندولف تشرشل، والمركيز ستوكبول يتوافدون إلى حفلاته الباذخة، والتي كان نورث يرقص فيها متنكرا في زي هنري الثامن[٢١٩]. ولم يكن العمال التشيليون يعرفون الراحة يوم الأحد، في هذه الأثناء، في مملكته النائية للنترات،

وكانوا يعملون ست عشرة ساعة يوميا ويتقاضون أجورهم على شكل بطاقات تفقد نحو نصف قيمتها في متاجر الشركة.

وتحت رئاسة خوسيه مانويل بالماثيدا، بين عامي ١٨٨٦ و١٨٩٠، أنجزت دولة تشيلي، كما يقول راميريث نيكوتشيا "خطط التقدم الأكثر طموحا في تاريخها كله". حفز بالماثيدا تطور بعض الصناعات، واقام مرافق عامة هامة، وطور التعليم، واتخذ خطوات لكسر احتكار شركة السكك الحديدية البريطانية ـ في تاراباكا وتعاقد مع ألمانيا على أول وآخر قرض لم تتلقاه تشيلي من إنجلترا خلال القرن الماضي كله. وأعلن في عام ١٨٨٨، ضرورة تأميم مناطق إنتاج النترات من خلال عمل شركات تشيلية، ورفض أن يبيع للإنجليز أراضي إنتاج النترات التي تملكها الدولة. اندلعت الحرب الاهلية بعد ثلاث سنوات. وسارع نورث وزملاؤه إلى تمويل المتمردين. وأغلقت السفن الحربية البريطانية الشواطئ التشيلية، بينما كانت الصحف في لندن تغرس انيابها ضد بالماثيدا، "الدكتاتور الأكثر سوءا" و"السفاح". وقد انتحر بالماثيدا، بعد هزيمته. وأبلغ السفير الإنجليزي وزير خارجيته بأن "الجالية البريطانية لا تخفي رضاها عن سقوط بالماثيدا، حيث أن في انتصاره كان سينتج عنها أضرار جسيمة بالمصالح التجارية البريطانية". وتضاءلت على الفور، استثمارات الدولة في الطرق، والسكك الحديدية، وفي التوطين، والتعليم والاشغال العامة، بينما كانت الشركات الإنجليزية توسع من ممتلكاتها. وفي المؤتمر الذي قادته المعارضة التشيلية على الرئيس فقد كان واضحا ضعف العديد من أعضائه أمام الجنيه الإسترليني. وأن رشوة التشيليين كانت حسب الإنجليز، "عادة موجودة في البلاد"، هكذا كان قد ذكر روبيرت هارفي في عام ١٨٩٧، وهو شريك نورث، خلال المحاكمة التي قدمها ضده وضد بعض المدراء في

شركة نيترات ريلوي بعض المساهمون. وقد شرح كيف دفعت شركته كرشوات بحوالي مئة ألف جنيه، فقال، "إن الإدارة العامة في تشيلي، هي كما تعلمون فاسدة. وهذا لا يعني بالضرورة القضاة، ولكني اعتقد أن هنالك الكثير من أعضاء مجلس الشيوخ، ذوي الموارد الشحيحة، كانوا قد استفادوا من هذه الأموال مقابل بعض الأصوات، وساعد هذا على رفض الحكومة للسماع لاحتجاجاتنا وادعاءتنا"[٢٢٠].

عشية الحرب العالمية الأولى، كان ثلثا الدخل القومي لتشيلي تكسبها البلاد من تصدير النترات، لكن سهول إنتاج النترات كانت أشد ضيقا وغريبة أكثر من أي وقت مضى. فلم يكن الرخاء قد أفاد في تطوير وتنويع البلاد، بل على العكس، لقد زاد من حدة تشوهاتها البنيوية. كانت تشيلي بمثابة مرفق للاقتصاد البريطاني، لم يكن من حق أهم مورد للأسمدة للسوق الأوروبية أن يعيش حياته الخاصة. وعندها، هزم كيميائي الماني، من معمله، الجنرالات الذين انتصروا، قبل سنوات، في ميادين القتال. فاستكمال طريقة هابير ـ بوش لإنتاج النترات بالتقاط النيتروجين من الهواء، أزاح النترات بصورة حاسمة وأنتج السقوط الفجائي للاقتصاد التشيلي. كانت أزمة النترات هي أزمة تشيلي، كانت جرحا عميقا، بسبب أن تشيلي كانت تعيش من النترات وللنترات ـ وكانت النترات في أيد أجنبية.

وفي صحراء تاماروغال الجافة، حيث توهجات الأرض تحرق العين، كنت شاهدا على دمار تاراباكا. كان هنا مائة وعشرون مكتبا للنترات خلال فترة الازدهار، لم يتبق الآن سوى مكتب واحد يعمل، وفي سهول البامبا ليس هناك لا رطوبة ولا فراشات، فلم تُباع الآلات باعتبارها خردة فقط، بل بيعت كذلك الواح سرو اوريغون التي كانت في أفضل البيوت، والواح كربونات الزنك، وحتى المسامير والصواميل

السليمة. نشأ عمال متخصصون في فك قرى بأكملها، وكانوا وحدهم من يجدون عملا في هذه الاتساعات المهدمة أو المهجورة. شاهدت الاطلال والثقوب، والقرى التي أصبحت كالاشباح، وخطوط السكك الحديدية الميتة لشركة نيترات ويلوايز، وأسلاك البرق التي صارت خرساء، وهياكل مكاتب النترات وقد مزقها قصف الأعوام، وصلبان الجبانات التي يصفعها الريح في الليل، والتلال البيضاء التي ظلت تشيدها مخلفات النترات بجوار الانفاق. "هنا كانت النقود تفيض وظن الجميع أن ذلك لن ينتهي ابدا"، هكذا حكى لي السكان الذين بقوا على قيد الحياة. يبدو الماضي جنة" بالمقارنة مع الحاضر، وحتى أيام الأحد، التي لم تكن موجودة بالنسبة للعمال عام ١٨٨٩، والتي كسبوها فيما بعد بأذرع مفتوحة في نضال الروابط، فإنهم يتذكرونها بكل رونقها، "كل يوم أحد في سهول البامبا للنترات - قص لي عجوز شديد الشيخوخة - كان الأمر بالنسبة لنا عيدا قوميا، عيد الثامن عشر من أيلول كل أسبوع.". أما ايكيكي، أكبر موانئ النترات، "ميناء من الدرجة الأولى" حسب لقبه الرسمي، فقد كان مشهد أكثر من مذبحة للعمال، لكن كان يأتي إلى مسرحه البلدي المبني على طراز الحقبة الجميلة، أفضل مغنوا الاوبرا الأوروبية قبل ذهابهم إلى سانتياغو.

أسنان من النحاس في جسد تشيلي

أما النحاس فلم يتأخر كثيراً في أخذ مكان النترات كدعامة مركزية للاقتصاد التشيلي، في حين كانت الهيمنة البريطانية تفسح مكانا لهيمنة الولايات المتحدة. وعشية أزمة عام ١٩٢٩، كانت الاستثمارات الأمريكية الشمالية قد ارتفعت إلى أكثر من أربعمائة مليون دولار فعليا، وكانت جميعها تقريبا مخصصة لاستغلال ونقل النحاس. وحتى الانتصار

الانتخابي لقوى الوحدة الشعبية عام ١٩٧٠، ظلت المناجم الكبرى للمعدن الأحمر في أيدي شركة اناكوندا كوبير ماينيغ كومباني وشركة كونيكوت كوبير كومباني، وهما شركتان مرتبطتان فيما بينهما بشمل وثيق لكونهما جزئين من ائتلاف عالمي واحد. وخلال نصف قرن، كانت كلتاهما قد اعادتا أربعة آلاف مليون من الدولارات إلى بلدهما الام من تشيلي، دم يتدفق عبر اشكال مختلفة، وكانت قد حققتا، طبقا لنفس أرقامهما المتضخمة، استثمارا إجماليا لم يتجاوز ثمانمائة مليون، كلها تقريبا مصدرها هو الأرباح المنتزعة من البلاد(٢٢١). وكان النزيف يتزايد كلما تزايد الإنتاج، إلى أن تجاوز المائة مليون دولار سنوياً في الفترة الأخيرة. من كان يملك النحاس في تشيلي كان المالك الحقيقي لتشيلي. وفي يوم الاثنين ٢١ من كانون أول عام ١٩٧٠، تحدث سالفادور الليندي من شرفة قصر الحكومة لحشود متحمسة من الجماهير، فأعلن أنه وقّع مشروع الإصلاح الدستوري الذي سيجعل من تأميم الصناعة المنجمية الضخمة حلم يمكن تحقيقه. وقال أنه في عام ١٩٦٩، حققت اناكوندا في تشيلي أرباحاً قيمتها ٧٩ مليون دولار، تساوي ثمانين بالمائة من أرباحها في العالم كله، إلا أن لاناكوندا في تشيلي أقل من سدس استثماراتها الخارجية، اضاف، أن الحرب البكتريولوجية لليمين، من حملة الدعاية المخطط لها والتي تستهدف زرع الرعب لتجنب تأميم النحاس وخلافه من الإصلاحات الهيكلية التي أعلنها اليسار، كانت مكثفة تماماً مثلما حصل الأمر في الانتخابات السابقة. فاظهرت الصحف دبابات سوفيتية ثقيلة تحيط بقصر الرئاسة لا مونيدا، وظهر وعلى جدران سانتياغو المقاتلون الملتحين وهم يدفعون بالشباب الأبرياء إلى الموت، وكان أجر اس المنازل ترن في كل مكان، ولتشرح سيدة، "لحضرتك أربعة أطفال؟ سيذهب اثنان إلى الاتحاد

السوفييتي واثنان إلى كوبا". لكن كان كل هذا عديم الفائدة، فكان النحاس "يرتدي معطف ومهاميز" أعلن الرئيس الليندي، يعود النحاس ليصبح تشيليا.

من جانبها، فالولايات المتحدة وسيقانها مغروسة في فخ حروب جنوب شرق اسيا، فلم تخف استياءها الرسمي تجاه مجريات الأحداث في جنوبي سلسلة جبال الانديز. لكن تشيلي ليست في متناول حملة مباغتة لجنود المارينز، وفي نهاية الأمر، فإن الليندي رئيس حسب شروط الديمقراطية التمثيلية التي يعظ بها البلد الشمالي رسميا. تمر الإمبريالية بمراحل دورة جديدة حاسمة بدت علاماتها واضحة في الاقتصاد، فأصبحت تزداد مهمتها كشرطي عالمي تكاليف وصعوبة. وماذا عن حرب الأسعار؟ فالإنتاج التشيلي يباع الآن في أسواق مختلفة ويمكنه فتح أسواقاً جديدة واسعة بين البلدان الاشتراكية، وتفتقر الولايات المتحدة للوسائل التي تمنع، وعلى نطاق عالمي، مبيعات النحاس التي يستعد التشيليون لاستعادتها. أما شأن السكر الكوبي قبل اثنتي عشر عاما كان مختلفا تماماً، إذ أنه موجها باكمله إلى السوق الأمريكية الشمالية ومعتمدا بشكل كلي على الأسعار الأمريكية الشمالية. وعندما كسب إدواردو فراي انتخابات عام ١٩٦٤ ارتفع سعر النحاس، الذي كان في حالة هبوط، وعندما فاز الليندي في انتخابات عام ١٩٧٠، وكان النحاس في انخفاض، وأخذ في انخفاض أكثر. لكن النحاس، المعرّض عادة لتقلبات شديدة الحدة في أسعاره، قد تمتع خلال السنوات الأخيرة بأسعار مرتفعة نسبيا ولما كان الطلب يفوق المعروض، فإن الندرة تمنع هبوط الأسعار إلى مستوى بالغ الانخفاض. ورغم أن الألومنيوم قد احتل مكانه بدرجة كبيرة كناقل للكهرباء، فإن الألومنيوم أيضاً يتطلب نحاسا، وبالمقابل لم يمكن العثور على بدائل

أرخص وأكثر فعالية لتحل محله في صناعة الصلب أو في الصناعة الكيميائية، وما زال المعدن الأحمر هو المادة الأولية الأساسية في مصانع البارود، والنحاس الأصفر، والاسلاك[٢٢٢].

على امتداد سفوح سلسلة الجبال، تملك تشيلي أكبر احتياطات النحاس في العالم، ثلث الإجمالي المعروض حتى الان. ويظهر النحاس التشيلي عادة مرتبطا بمعادن أخرى، مثل الذهب، والفضة، والموليبدينوم. وهذا حافز إضافي لاستغلاله. بالإضافة إلى ذلك، فالعمال التشيليين رخيصون بالنسبة للشركات، بتكاليف تشيلي البالغة الانخفاض، تمول شركتا اناكوندا وكينكوت بصورة متزايدة تكاليفها المرتفعة في الولايات المتحدة، بنفس الطريقة التي يدفع بها النحاس التشيلي، عن طريق "النفقات في الخارج" أكثر من عشرة ملايين دولار سنوياً للحفاظ على المكاتب في نيويورك. وفي عام ١٩٦٤، لم يكن متوسط الأجر في المناجم التشيلية يبلغ ثمن الأجر الأساسي في مصانع تكرير كينيكوت في الولايات المتحدة. رغم أن إنتاجية العمال هناك كانت على نفس المستوى[٢٢٣]. لكن ظروف المعيشة لم تكن متساوية، ولا ظروف المعيشة. فعمال المناجم التشيليون، بوجه عام يعيشون في كابينات ضيقة قذرة، منفصلين عن أسرهم، التي تسكن اكواخا بائسة في الأطراف، ومنفصلين كذلك، بالطبع، عن الموظفين الأجانب، الذي يعيشون في اجواء منفصلة في المناجم الكبرى، في دول صغيرة داخل الدولة، حيث الإنجليزية هي الوحيدة التي يتحدثون بها وحتى تنشر صحف من أجل استخدامها الخاص. وقد ازدادت إنتاجية العمال، في تشيلي، بقدر ازدياد المكننة في وسائل الاستغلال. وازداد إنتاج النحاس منذ عام ١٩٤٥، بنسبة خمسين بالمائة، لكن انخفض لدى العمال العاملين في المناجم بنسبة الثلث.

سيضع التأميم نهاية لأوضاع الظروف التي أصبحت لا تطاق بالنسبة للبلاد، وسيتيح تجنب تكرار تجربة النهب، مع النحاس، والسقوط في الفراغ الذي عانت منه تشيلي خلال دورة النترات، لأن الضرائب التي تدفعها الشركات لا تعوض بأية حال النضوب الذي لا يرحم للموارد التعدينية التي وهبتها الطبيعة دون أن تجددها. ومن ناحية أخرى، فقد انخفضت الضرائب، بالمعايير النسبية، منذ إنشاء نظام الضرائب المتناقصة وفقا لزيادة الإنتاج، عام ١٩٥٥، ومنذ إضفاء الطابع التشيلي على النحاس والذي فرضته حكومة فراي. حول فراي في عام ١٩٦٥، الدولة إلى شريك لشركة كينيكوت وسمح للشركات بمضاعفة أرباحها بما يقل قليلاً عن ثلاثة اضعاف وذلك من خلال نظام ضريبة مناسب لها تماماً. وتطبق الضرائب، في النظام الجديد، على سعر متوسط قدره ٢٩ سنتا على الجنيه/ رغم أن الأسعار كانت في ازدياد، مدفوعة بالطلب العالمي الكبير، لتصل إلى ٦٠ سنت. لكن خسرت تشيلي، من خلال الفرق في الضرائب بين السعر الافتراضي والسعر الحقيقي، كمية ضخمة من الدولارات، كما اعترف رادوميرو توميك، وهو المرشح الذي اختارته الديمقراطية المسيحية ليخلف فراي في فترة الرئاسة التالية. وفي عام ١٩٦٩، عقدت الحكومة اتفاقا مع اناكوندا لتشتري منها ٥١ في المائة من الأسهم على دفعات نصف سنوية، وبشروط أثارت فضيحة سياسية جديدة وأعطت دفعة قوية لنمو قوى اليسار. كان رئيس اناكوندا قد قال لرئيس تشيلي قبل ذلك بقليل، حسب الرواية التي نشرتها الصحافة، "يا صاحب السعادة، أن الرأسماليين لا يحتفظون بممتلكاتهم لدوافع عاطفية، بل لأسباب اقتصادية. من الشائع أن تحتفظ أسرة ما بخزانة ملابس لأنه كان ينتمي إلى جد من الأجداد، بينما ليس للشركات

أجداد. ويمكن لاناكوندا أن تبيع كافة ممتلكاتها، بيد أن ذلك يعتمد على الثمن الذي سيدفع لها".

عمال مناجم القصدير، تحت وفوق الأرض

منذ أقل من قرن بقليل، كان رجل يكاد يموت من الجوع يصارع الصخور في قلب خراب هضبة الالتيبلانو البوليفية. انفجر الديناميت. وظل مشدوها عندما اقترب ليلتقط قطع الأحجار التي تناثرت نتيجة الانفجار. كان في يديه قطع لامعة من أغنى عروق القصدير في العالم. وفي فجر اليوم التالي، ركب حصانه إلى هوانوني. أكد تحليل العينات قيمة الاكتشاف، كان يمكن نقل القصدير من عرق المنجم إلى الميناء مباشرة، دون داعي للقيام باي عملية تركيز. أصبح هذا الرجل ملك القصدير، وحين مات، أكدت مجلة فورتوني أنه كان واحدا من أغنى عشر أشخاص في كوكبنا. كان اسمه سيمون باتينو ومن أوروبا، وظل لسنوات طويلة يضع ويسقط الرؤساء والوزراء في بوليفيا، ويخطط لتجويع العمال، وينظم مذابحهم، وأخذ يوسع ثروته الشخصية، لقد كانت بوليفيا بلدا في خدمته.

وابتداء من الأيام الثورية لنيسان عام ١٩٥٢، امممت بوليفيا القصدير، لكن تلك المناجم البالغة الثراء كانت قد أصبحت فقيرة في ذلك عندها. وفي تل خوان ديل بايي، حيث اكتشف باتينيو الشظية الرائعة، كانت نقاوة القصدير قد انخفضت مائة وعشرين مرة. ومن بين ال ١٥٦ ألف طن من الصخر التي تخرج كل شهر من انفاق المنجم لا يمكن الحصول إلا على أربعمائة. ويبلغ مجموع طول الانفاق، بالكيلو مترات، مسافة تفوق ضعف المسافة التي تفصل بين المنجم ومدينة لا باث، فالتل، من الداخل، عبارة عن اعشاش نمل تثقبه ردهات،

Twitter: @ketab_n

وممرات، وأنفاق، ومداخن لا نهائية. يكاد يتحول إلى قشرة فارغة. وكل عام يفقد قليلاً من ارتفاعه، حيث ينهش الانهيار البطيء قمته، فأصبح يبدو عن بعد، كضرس تالف.

لم يحصل انتينور باتينو فقط على تعويض معقول عن المناجم التي استغلها والده، بل استطاع أيضاً السيطرة على سعر ووجهة القصدير الذي صادره. وهو الذي لم يتوقف عن الابتسام من أوروبا. "مستر باتينيو هو ملك القصدير البوليفي الطيب"، ستظل تذكره أعمدة الاجتماعيات بعد سنوات طويلة من التأميم بهذه الطريقة.، فلم يغير التأميم، وهو المكسب الأساسي لثورة عام ١٩٥٢، من دور بوليفيا في التقسيم الدولي للعمل. فاستمرت بوليفيا تصدر المعدن الخام، والمعدن كله تقريبا يكرر في افران ليفربول لشركة ويليامز، وهارفي، وشركاهما، التابعة لباتينيو. ليس تأميم مصادر إنتاج اية مادة أولية كافيا، كما تبين التجربة المؤلمة. كما أنه يمكن لأي بلد أن يظل محكوما عليه بالعجز كما كان الأمر دائما، رغم أنه اسميا مالك لباطن أرضه. أنتجت بوليفيا على مدى تاريخها، معادن خام وخطابات نارية[٢٢٤].

هناك وفرة من البلاغة والبؤس، وكرس الكتاب المبتذلون والدكاترة مرتدي معاطف الفراك، منذ الازل، أنفسهم لتبرئة المذنبين. فمن بين كل عشرة بوليفيين، ستة منهم لا يعرفون القراءة، ونصف الأطفال لا يذهبون إلى المدرسة. وأخيراً، في عام ١٩٧١، وكان لا بد لبوليفيا أن تمتلك معمل صهر القصدير الخاص بها، الذي أقيم في اورورو في نهاية تاريخ لا ينتهي من الخيانات، والتخريب، والمؤامرات، والدم المسفوك. هذا البلد الذي لم يستطع، حتى الآن، أن ينتج سبائكه الخاصة، يعطي نفسه، بالمقابل، ترف الحفاظ على ثمانية كليات للحقوق تهدف إلى تخريج مصاصي دماء الهنود[٢٢٥].

يُحكى أنه، منذ قرن، أجبر الدكتاتور ماريانو ميلغاريخو سفير إنجلترا على شرب برميل كامل من الشوكولاتة، عقابا له على احتقار كوب من نبيذ الذرة. واقتيد السفير على ظهر حمار، وهو راكب بالمقلوب في الشارع الرئيسي لمدينة لا باث. وتمت إعادته إلى لندن. ويقال أن الملكة فكتوريا الغاضبة عندئذ، طلبت خريطة لأمريكا الجنوبية، ورسمت صليبا بالطباشير فوق بوليفيا وقالت، "بوليفيا لم تعد موجودة". وبالفعل، لم تكن بوليفيا موجودة بالنسبة للعالم، ولا وجدت بعدها، لم يكن نهب الفضة، واستنزاف القصدير، بعد ذلك، سوى ممارسة حق طبيعي للبلدان الغنية. وتعبر هوية علب الصفيح عن الولايات المتحدة، في نهاية الأمر، مثلما يعبر عن هويتها شعار النسر أو رسم التفاحة. لكن علبة الصفيح ليست مجرد رمز من رموز البوب في الولايات المتحدة، لأنها كذلك رمز، رغم أنه غير معروف، للسليكون في مناجم القرن العشرين أو هوانوني، فتحتوي علبة الصفيح على قصدير، ويموت وعمال المناجم البوليفيون برئاتهم متعفنة كي يستطيع العالم استهلاك القصدير الرخيص. بينما يحدد سعره نصف دزينة من الرجال. فماذا تعني، بالنسبة لمستهلكي الأطعمة المحفوظة ومضاربي البورصة، الحياة القاسية التي يعيشها عامل المنجم في بوليفيا؟ فالأمريكيون الشماليون يشترون الجزء الأكبر من القصدير الذي يكرر في كوكبنا، ويهددون بشكل دائم، للحفاظ على الأسعار المنخفضة، بطرح احتياطاتهم الضخمة من المعدن في السوق، والمشتراة بأقل من سعرها بكثير، بأسعار "المساهمة الديمقراطية"، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. وحسب بيانات منظمة الأغذية والزراعة، يستهلك المواطن الأمريكي الشمالي متوسط لحم ولبن يفوق خمس مرات وبيضا يفوق عشرين مرة ما يستهلكه المواطن البوليفي. واستهلاك عمال المناجم أقل

بكثير من المتوسط القومي المنخفض. وفي مقبرة كاتابي، حيث يبتهل العميان من أجل الموتى مقابل قطعة نقود، يحزن المرء أن يجد، بين الشواهد الداكنة للبالغين، عددا لا يحصى من الصلبان البيضاء تعلو المقابر الصغيرة. فمن بين كل طفلين يولدان في المناجم، يموت واحد بعد أن يفتح عينيه بقليل. أما الآخر، الذي يظل على قيد الحياة، فسوف يكون عامل منجم حين يكبر بالتأكيد. وقبل أن يبلغ سن الخامسة والثلاثين، لن تكون له رئتان.

يُسمع صرير جدران المقبرة. فلقد حفرت أنفاق لا نهائية أسفل القبور، أنفاق ذات فوهة ضيقة بالكاد تتسع للرجال الذين يدخلون، بحثا عن المعدن كالقوأرض،. وقد تراكمت مناجم جديدة للقصدير على السفوح عبر السنين، كومت أطنان فوق أطنان من الرواسب في أكوام ضخمة رمادية أضافت، بهذه الطريقة، قصديرا إلى قصدير. وحين يسقط المطر، الذي يهطل بعنف من السحب القريبة، يرى المرء العاطلون متشبثون بالأرض على طول ياياغو، حيث يسكر الرجال بشكل يائس في الحانات، يجمعون ويزنون عيار قطع الرصاص التي يحملها المطر. القصدير هنا هو إله من الصفيح يحكم البشر والاشياء ويتواجد في كل مكان. ولا يتواجد القصدير، فقط في بطن التل القديم باتينيو. يوجد قصدير يكشف عن نفسه في بريق حجارة القصدير، وحتى في طوب جدران المعسكرات. في الطين المصفر الذي يتقدم مكتسحا نفايات المنجم كما يوجد في المياه التي تفيض، مسممة، من الجبل، يوجد قصدير في الأرض وفي الصخر، على السطح وفي باطن الأرض، في رمال وفي صخور مجرى نهر الريو سيكو. في هذه الأراضي المجدبة والصخرية، وعلى ارتفاع يقرب من أربعة آلاف متر، حيث لا ينبت العشب وحيث كل شيء، بما في ذلك البشر، له لون القصدير الداكن،

يحتمل الناس بصبر صيامهم القسري ولا يعرفون شيء عن الاحتفالات في العالم. فهم يعيشون في معسكرات، مكدسين في منازل من حجرة واحدة ذات أرضية طينية، وينفذ الريح القاسي من الشقوق. ويكشف تقرير جامعي عن منجم كولكيري عن أنه، من بين كل عشرة شباب ذكور تم استبيانهم، ينام ستة في نفس الفراش مع أخواتهم، ويضيف، "يحس كثير من الآباء باستياء حين يلاحظهم أبناؤهم خلال ممارسة الجنس". ولا توجد حمامات، والمراحيض هي أعشاش عامة صغيرة تغطيها الاوساخ والذباب، ويفضل الناس الخرابات، تلك الأماكن القفر المكشوفة، حيث يتغير الهواء على الأقل برغم وجود القمامة والبراز المتراكم والخنازير التي تلعب هانئة. وخدمة الماء أيضاً جماعية، لا بد من انتظار لحظة وصول الماء، والإسراع بالوقوف في طابور، ووضع الماء من الحوض العمومي في أوعية البنزين والجرار. والطعام قليل ورديء. ويتكون من البطاطا، وشعيرية، وأرز، وبطاطس مهروسة، وذرة مطحونة وبعض اللحم القاسي.

كنا في أعماق تل خوان ديل بايي. كان العويل الفظيع للصفارة، داعية العمال إلى الوردية الأولى. قد دوى في المعسكر منذ عدة ساعات. كنا ونحن نتجول في الانفاق، قد عبرنا من الحرارة الاستوائية إلى البرودة القطبية وإلى الحرارة من جديد، دون أن نخرج لحظة، خلال عدة ساعات، من نفس الجو المسموم. باستنشاق ذلك الهواء الكثيف ـ من الرطوبة. والغازات، والتراب، والدخان ـ، وأصبح بإمكاني أن أدرك السبب لفقدان عمال المناجم، خلال سنوات قليلة، حاستي الشم والذوق. كان الجميع يمضغون أوراق نبات الكوكا مع الرماد وهم يعملون، وهذا بدوره يمثل جزءا من عملية الإبادة، لأن الكوكا، كما هو معروف، بإخمادها الجوع وإخفائها التعب، تأخذ في

إخماد جهاز التنبيه الذي يعتمد عليه الكائن ليظل على قيد الحياة. لكن التراب كان أسوأ ما في الأمر. كانت الخوذات تبعث زحاما من دوائر الضوء التي ترفش النفق الأسود وتتيح، في مرورها، رؤية ستائر التراب الأبيض الكثيف، تراب السليكا الذي لا مفر منه. يلفنا النفس القاتل للأرض شيئاً فشيئا. ولتظهر أولى الاعراض بعد مرور عام، وينتقل خلال عشر سنوات إلى المقبرة. تستخدم داخل المنجم أجهزة ثقب سويدية من أحدث طراز، لكن نظام التهوية وظروف العمل لم تتحسن مع مرور الزمن. على سطح الأرض، يستخدم العمال المستقلون مغأول وشواكيش ثقيلة تزن اثني عشر رطلا ليصارعوا الصخر، مثلما كانوا يفعلون بالضبط قبل مئة عام، كما يستخدمون اوعية، ومصافي، ومناخل لتركيز المعدن في الساحة. يكسبون سنتات قليلة ويعملون كالحيوانات. إلا أن الكثيرين منهم يتمتعون، على الأقل، بميزة الهواء الطلق. أما في داخل المنجم، بالمقابل، فإن العمال سجناء محكوم عليهم، دون استئناف، بالموت خنقا.

كان ضجيج المثاقيب قد هدأ بينما العمال يرتاحون وهم ينتظرون انفجار أكثر من عشرين شحنة ديناميت، فالمنجم يهب أيضاً ميتات عاجلة وذات ضجيج، قد يأتي الموت بسبب خطأ في عدد الانفجارات، أو إذا تأخر الفتيل في الاشتعال أكثر مما يجب. وقد يحدث أيضاً إذا انفصلت صخرة سائبة، يطلق عليها اسم توخو، وسقطت فوق الرأس. أو يحدث بجحيم المدافع الرشاشة، ففي ليلة عيد القديس خوان عام ١٩٦٧ جرتآخر حادثة من سلسلة طويلة من المذابح. فاتخذ الجنود في الفجر أماكنهم في التلال، على ركبهم، وأطلقوا اعصارا من الطلقات فوق المعسكرات التي تضيئوها مشاعل العيد[٢٢٦]. لكن الموت البطيء الصامت هو تخصص المنجم. وتقيؤ الدم،

والسعال، الشعور بثقل من الرصاص فوق الظهر وبانقباض حاد في الصدر هي العلامات الأولية للموت. وبعد التحليل الطبي تأتي الزيارات البيروقراطية التي لا تنتهي. ليعطوهم مهلة ثلاثة أشهر لإخلاء المنزل.

كانت قد توقفت ضجة المثاقيب وسرعان ما سيصطاد الانفجار بذلك العرق بعيد المنال بلون القهوة وشكل الافعى. عندئذ كان يمكننا الحديث. كانت كرة الكوكا تنفخ خد كل عامل ويجري اللعاب المائل إلى الاخضرار من الشفاه. ومر عامل، مسرعا، وهو ينثر الطين بين قضبان الردهة الحديدية. قالوا لي "هذا جديد، أرايت؟ ببنطلون الجيش الذي يرتديه وصداره الأصفر يبدو شابا فتيا. لقد دخل للتو. ما زال كالفأس. ما زال لا يشعر".

أما التكنوقراط والبيروقراطيون فلا يموتون من السليكون، بل يعيشون منه. والمدير العام للكوميبول، هيئة التعدين البوليفية، يتقاضى مائة ضعف ما يتقاضاه العامل. ومن تل شديد الانحدار نحو مجرى النهر، عند أطراف ياياغوا، يمكن رؤية سهل ماريا بارثولا. وهو يسمى بهذا الاسم تكريما لعاملة مناضلة سقطت منذ ثلاثين عاماً، على رأس مظاهرة، وعلم بوليفيا قد خاطته إلى جسمها دفعات طلقات المدافع الرشاشة. ووراء سهل ماريا بارثولا يمكن رؤية أفضل ملعب للغولف في بوليفيا، وهو الملعب الذي يستخدمه المهندسون وكبار الموظفين في كاتابي. في عام ١٩٦٤، خفض الدكتاتور رينيه بارينتوس إلى النصف أجور التجويع لعمال المناجم، ورفع في نفس الوقت رواتب الفنيين والبيروقراطيين الكبار. وتعتبر رواتب كبار الموظفين من الأسرار. أسرار وبالدولار. وهناك مجموعة خبراء كلية القدرة، تتشكل من فنيين من البنك الأمريكي المشترك للتنمية، والتحالف من أجل التقدم والبنك الأجنبي المقرض، توجه نصائحها في صناعة التعدين المؤممة لبوليفيا،

بصورة تجعل من كوميبول، عند هذا الحد، وقد تحولت إلى دولة داخل الدولة، دعاية حية ضد تأميم أي شيء، حلت محل سلطة الطغمة الأوليغاريكية سلطة الأعضاء العديدين في "طبقة جديدة" كرست جهودها لتخريب صناعة المناجم المملوكة للدولة من الداخل. لم يكتف المهندسون بأن نسفوا كل مشاريع وخطط إقامة مصنع صهر قومي، بل انهم ساهموا كذلك في بقاء مناجم الدولة حبيسة حدود المناجم القديمة لباتينيو، وارامايو، وهوتشيلد، في عملية نضوب متسارع للاحتياطيات. وفيما بين أواخر عام ١٩٦٤ ونيسان من عام ١٩٦٩، اخترق الجنرال بارينتوس حاجز الصوت في سرعة تسليم موارد جرف الأرض البوليفية إلى رأس المال الإمبريالي، بتواطؤ صريح من الفنيين والمديرين. وقص سيرخيو الماراث، في أحد كتبه[٢٢٧]، حكاية منح امتياز سهول القصدير لشركة إنترناشيونال ماينينغ بروسسيينغ كومباني برأسمالها المعلن الذي لا يبلغ بالكاد خمسة آلاف دولار، حصلت الشركة ذات الاسم الطنّان عقدا يتيح لها أن تربح أكثر من تسعمائة مليون من الدولارت.

أسنان من الحديد في جسد البرازيل

تدفع الولايات المتحدة ثمنا أرخص للحديد الذي تستورده من البرازيل أو فنزويلا من ثمن الحديد الذي تستخرجه من باطن أرضها ذاته. لكن ذلك ليس المفتاح لشرح استماتة أمريكا الشمالية للسيطرة على مناجم الحديد في الخارج، فامتلاك أو السيطرة على المناجم خارج الحدود يمثل، أكثر من كونه عملا تجاريا، ضرورة للأمن القومي. فباطن الأرض الأمريكي الشمالي اخذ، كما شاهدنا، في النضوب. لا ويمكن صنع الصلب بدون الحديد بينما خمسة وثمانين بالمائة من الإنتاج الصناعي للولايات المتحدة يحتوي، بطريقة أو بأخرى، على

الصلب. وفي عام ١٩٦٩، وعندما انخفضت امدادات كندا، انعكس ذلك على الفور في زيادة واردات الحديد من أمريكا اللاتينية.

إن تل بوليفار، في فنزويلا، من الثراء بحيث أن التربة التي تقتطعها منه شركة يو اس ستيل، تفرغ مباشرة في مخازن السفن المتجهة إلى الولايات المتحدة، وتبقى على جوانبه، بالعين المجردة، الجروح العميقة التي تفتحها فيه الجرارات، وتقدر الشركة أنه يحتوي على نحو ثمانية آلاف مليون دولار من الحديد. وفي عام واحد، هو عام ١٩٦٠، اقتسمت شركتا يو إس ستيل وبيتلهم ستيل أرباحاً زادت على ثلاثين بالمائة من رؤوس أموالهما المستثمرة في الحديد في فنزويلا وتساوي هذه الأرباح الموزعة قيمة كل الضرائب المدفوعة للدولة الفنزويلية خلال الأعوام العشر المنقضية منذ عام ١٩٥٠[٢٢٨]. ولما كانت كلتا الشركتين تبيع الحديد لمصانعها التعدينية في الولايات المتحدة، فليس لديهما أدنى اهتمام بالدفاع عن الأسعار، بل على العكس، فيناسبهما أن تكون المادة الأولية أرخص ما يمكن. إن السعر الدولي الجديد، الذي انخفض في منحنى راسي فيما بين ١٩٥٨ و١٩٥٤، وقد استقر نسبيا خلال الأعوام الماضية وما زال راكدا، ولم يتوقف سعر الصلب في هذه الأثناء عن الارتفاع، يتم إنتاج الصلب في مراكز العالم الغنية، بينما يتم إنتاج الحديد في الأطراف الفقيرة، يدفع الصلب أجور "ارستقراطية عمالية" بينما يدفع الحديد، مجرد يوميات الكفاف.

بفضل معلومات جمعها ونشرها. في عام ١٩١٠ مؤتمر دولي للجيولوجيا اجتمع في ستوكهولم. استطاع رجال الأعمال في الولايات المتحدة أن يقدروا، للمرة الأولى، ابعاد الكنوز المخفية تحت أرض سلسلة من البلدان، كان أحدها، وربما أكثرها اغراء، هو البرازيل. وبعد أعوام طويلة، في عام ١٩٤٨، خلقت سفارة الولايات المتحدة وظيفة

جديدة في البرازيل، هي وظيفة الملحق التعديني، والذي كان لديه منذ البداية كمية من العمل تساوي على الأقل عمل الملحق العسكري أو الثقافي، وبلغ عمل من كثرته أنه سرعان ما تم تعيين ملحقين تعدينيين اثنين بدلا من واحد[٢٢٩]. واستلمت بيتلهم ستيل بعد قليل من حكومة دوترا مناجم المنغنيز الرائعة في امابا، وفي عام ١٩٥٢، حظر الاتفاق العسكري الموقع مع الولايات المتحدة على البرازيل بيع المواد الأولية ذات القيمة الاستراتيجية ـ مثل الحديد ـ إلى الدول الاشتراكية. وكان هذا أحد أسباب السقوط الدرامي للرئيس غيتوليو فارغاس الذي رفض الموافقة على هذا الالزام وباع الحديد إلى بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، عامي ١٩٥٣ و١٩٥٤، بأسعار تفوق الأسعار التي كانت تدفعها الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٥٧، اشترت هانا ماينينغ كومباني، مقابل ستة ملايين دولار، غالبية أسهم شركة بريطانية، هي سان جون مايننغ كومباني، التي كانت متخصصة في استغلال ذهب ميناش غيرايش منذ زمن الإمبراطورية البعيد. كانت شركة سان جون تعمل في سهل باراويبا، حيث يكمن أكبر تمركز للحديد في العالم اجمع، يقدر بمائتي ألف مليون من الدولارات. لم تكن الشركة الإنجليزية مؤهلة قانونا لاستغلال هذه الثروة الهائلة، كذلك لم تكن شركة هانا، وفقا لشروط دستورية وقانونية واضحة يعددها دوارتي بيريرا في كتابه حول هذا الشأن. لكن تلك كانت، كما عُرف فيما بعد، صفقة القرن.

كان جورج همفري، مدير ورئيس هانا، عضوا بارزا في ذلك الحين في حكومة الولايات المتحدة كسكرتير للخزانة ومدير للاكسيم بنك، وهو البنك الرسمي لتمويل عمليات التجارة الخارجية. وكانت سان جون قد طلبت قرضا من الاكسيم بنك، ولم يحالفها الحظ حتى استولت هانا على الشركة. ومنذ ذلك الحين انطلقت أعنف الضغوط على حكومات

البرازيل المتعاقبة، أما مديرو، ومحامو ومستشارو هانا ـ لوكاس لوبيز، وجوزيه لويز بوليوس بدريرا، وروبيرتو كامبوس، وماريو دا سيلفا بتتو، واوكتافيو دي بوليوس ـ فكانوا كذلك أعضاء على أعلى مستوى، في حكومة البرازيل، واستمروا في احتلال مناصب الوزراء، والسفراء، أو مديري الخدمات في الدورات التالية. لم تسئ هانا اختيار هيئة أركانها. صار القصف يشتد تدريجيا، من أجل إعطاء هانا حق استغلال الحديد التابع، فعليا، للدولة، وفي ٢١ أب عام ١٩٦١، وقع الرئيس جانيو كوادروس قرارا يلغى التراخيص غير القانونية الممنوحة لشركة هانا وأعاد مناجم ميناش غيرايش إلى الاحتياطي القومي. اجبر الوزراء العسكريون كوادروس على التنحي بعد أربعة أيام، "قامت قوى رهيبة ضدي..." هكذا ذكر نص خطاب التنحي.

وأحبطت الانتفاضة العسكرية التي قادها ليونيل بريزولا في بورتو الليغري انقلاب العسكريين لتضع في السلطة نائب الرئيس كوادروس، جواو غولارت. وفي تموز عام ١٩٦٢، حين أراد أحد الوزراء تطبيق المرسوم القاتل ضد شركة هانا ـ والذي تم تشويهه في الجريدة الرسمية ـ، أرسل سفير الولايات المتحدة، لينكولن غوردون، برقية إلى غولارت يحتج فيها بشدة على الهجوم الذي تنوي الحكومة شنه ضد مصالح شركة أمريكية شمالية. وقد اكدت السلطة القضائية صلاحية قرار كوادروس، بينما تردد غولارت في اتخاذ الاجراءات. وفي هذه الأثناء، كانت البرازيل تتخذ الخطوات الأولى في سبيل إنشاء ميناء وسيط للمعادن في البحر الادرياتيكي، لتزويد عدة دول أوروبية، اشتراكية ورأسمالية، بالحديد، وكان البيع المباشر للحديد ينطوي على تحد لا يحتمل بالنسبة للشركات الكبرى التي تتحكم في الأسعار على مستوى العالم. ولم يتحقق الميناء "مطلقا"، لكن طبقت إجراءات وطنية أخرى

ـ مثل الكبح المفروض على الاستنزاف الذي تمارسه أرباح الشركات الأجنبية، وقدمت فتيلا للموقف السياسي المتفجر. ظل سيف ديموقليس الذي يمثله قرار كوادروس معلقا فوق رأس هانا. وانفجر الانقلاب أخيراً، في آخر أيام اذار عام ١٩٦٤، في ميناش غيرايش، والتي كانت للمصادفة، موقع مناجم الحديد المتنازع عليها. وكتبت مجلة غورتشون، "بالنسبة لشركة هانا، جاءت الانتفاضة العسكرية التي أسقطت غولارت في الربيع الماضي مثل انقاذ فيآخر"[٢٣٠].

واستطاع رجال شركة هانا استلام منصب نائب رئيس البرازيل ومناصب ثلاثة وزراء. وفي نفس يوم التمرد العسكري، نشرت الواشنطن ستار افتتاحية تنبؤية على الأقل، أعلنت ثمة وضع يمكن فيه لانقلاب جيد وفعال، على الطراز القديم، من جانب القادة العسكريين المحافظين، على خدمة مصالح كل من الأمريكيتين بشكل امثل[٢٣١]. لم يكن غولارت قد تنحى بعد، ولم يكن قد غادر البرازيل، عندما لم يستطع ليندون جونسون قادرا على تمالك نفسه فأرسل برقية التهنئة الشهيرة إلى رئيس الكونغرس البرازيلي، الذي تولى مؤقتا رئاسة البلاد، "لقد راقب الشعب الأمريكي الشمالي بقلق الصعوبات السياسية والاقتصادية التي كانت تمر بها امتكم العظيمة، ويقدّر الرغبة الشديدة للمجتمع البرازيلي في حل هذه الصعوبات في إطار من الديمقراطية الدستورية ودون صراع مدني"[٢٣٢]. وكان قد مر أكثر من شهر بقليل حين القى السفير لينكولن غوردن، الذي كان يتجول، في بهجة، بين المعسكرات، خطابا في المدرسة الحربية العليا، يؤكد فيه أن انتصار مؤامرة كاستيلو برانكو "يمكن أن يندرج، مع عرض برنامج مارشال، وحصار برلين، وهزيمة العدوان الشيوعي في كوريا وحل أزمة الصواريخ في كوبا، كواحد من أهم لحظات التحول الهامة في تاريخ

العالم في منتصف القرن الشعرين"[٢٣٣]. وكان أحد الأعضاء العسكريين لسفارة الولايات المتحدة قد قدم مساعدة مادية للمتآمرين، قبل وقوع الانقلاب بقليل[٢٣٤]، وكان غوردون نفسه قد ألمح لهم بأن الولايات المتحدة سوف تعترف بحكومة مستقلة لو استطاعت البقاء يومين في ساو بأولو[٢٣٥]. ولا يستحق الأمر عناء الإسهاب في الشهادات المتعلقة بأهمية المعونة الاقتصادية للولايات المتحدة في تطور وبداية الأحداث، لكننا سنتناولها فيما بعد، أو بالمساعدة الأمريكية الشمالية على المستوى العسكري أو النقابي[٢٣٦].

وبعد أن تعبوا من القاء كتب المؤلفين الروس أمثال دستويفسكي وتولستوي وغوركي في النيران أو في قاع خليج غوانابارا، وبعد أن حكموا بالنفي، أو السجن، أو الإعدام على عدد لا يحصى من البرازيليين، انتقلت دكتاتورية كاستيلو برانكو المتغطرسة إلى العمل، سلمت الحديد وكل ما عداه. وتلقت شركة هانا مرسومها بتاريخ ٢٤ كانون أول ١٩٦٤. لم تكفل هدية الميلاد هذه الشركة كل الضمانات لكي تستغل في سلام مناجم باروابيبا فحسب، بل ساندت كذلك خطط الشركة لتوسيع ميناء خاص بها على بعد ستين ميلا من ريو دي جانييرو، وكذلك لإنشاء سكة حديدية مخصصة لنقل الحديد. وفي تشرين أول عام ١٩٦٥ كونت هانا كونسورتيوم مع بيتلهم ستيل لكي تستغلا بشكل مشترك الحديد المسلم لهما. هذا النوع من التحالفات، الشائع في البرازيل، لا يمكن عقده في الولايات المتحدة، كون القوانين تحظره هناك[٢٣٧]. كان لينكولن غوردون الذي لا يكل. قد وضع خاتمة للمهمة، كان الكل سعداء وانتهت القصة. وانتقل ليرأس جامعة في بلتيمور. وعيّن جونسون في نيسان عام ١٩٦٦، خلفه جون توتيلي، في

ختام عدة أشهر من التردد، وشرح أن سبب تأخره يرجع لضرورة ايجاد اقتصادي ذو جيد من أجل البرازيل.

ولم تتخلف يو اس ستيل، لماذا سيتركونها دون أن يدعوها على العشاء؟ فقبل أن يمضي وقت طويل، كانت قد شاركت الشركة الحكومية، لاكومبانيا فالي دو ريو دوسي، التي تحولت بدرجة كبيرة، إلى اسمها الرسمي المستعار. لتحصل اليو اس ستيل بهذه الطريقة، على ما لا يزيد عن تسعة وأربعين بالمائة من الأسهم، بامتياز مناجم حديد جبال كاراخاس، في الأمازون. وحجمها، كما يؤكد الفنيون، يضاهي التاج الحديدي لهانا ـ بيتلهم في ميناش غيرايش. وكما هي العادة، جادلت الحكومة أن البرازيل ليس لديها رؤوس الأموال الكافية لاستثمارها لوحدها.

النفط، اللعنات والإنجازات

يشكل البترول، مع الغاز الطبيعي، الوقود الرئيسي لكل ما يحرك العالم المعاصر، كما يعتبر مادة أولية في حالة ازدياد مستمر من ناحية الأهمية بالنسبة للصناعات الكيميائية والمواد الاستراتيجية اللأزمة للنشاطات العسكرية. وليس هناك تجارة أخرى "الذهب الأسود" لها مثل هذه الأرباح الرائعة. والبترول هو الثروة الأكثر احتكارا في كل النسق الرأسمالي. وليس هناك من رجال أعمال يتمتعون بالسلطة السياسية التي تمارسها، على مستوى عالمي، الشركات البترولية الضخمة. تعزل وتصنع ستاندارد اويل وشل الملوك والرؤساء، وتمولان مؤامرات القصور والانقلابات، وتحت أيديهما جنرالات ووزراء، وجيمس بوندات دون حصر في كل الانحاء، وبكافة اللغات، وتحددان مسار الحرب والسلام. وستاندارد اويل كومباني اوف نيوجرسي هي أكبر

شركة صناعية في العالم الرأسمالي، ولا توجد اية شركة صناعية خارج الولايات المتحدة اقوى من رويال داتش شل. تبيع الشركات البترول الخام للشركات التابعة، التي تكرره وتبيع مواد الاحتراق للفروع لتوزيعها بدورها، لا يخرج الدم، في الدائرة، خارج جهاز الدورة الداخلي للكارتيل، والذي يمتلك إضافة إلى ذلك انابيب البترول وأجزاء كبيرة من الاسطول البترولي في البحار السبعة، ويتم التلاعب بالأسعار، على نطاق عالمي، لتقليل الضرائب المدفوعة وزيادة الأرباح المحصلة، وليزداد سعر البترول الخام دائماً أقل مما يزداد سعر البترول المكرر.

ويحصل مع البترول، ذات الشيء كما يحدث مع البن أو اللحم، فالبلدان الغنية تكسب من عناء استهلاكه أكثر بكثير مما تكسب الدول الفقيرة نتيجة إنتاجه. والفرق بينهما هو واحد لعشرة، فمن الأحد عشر دولاراً التي تمثل قيمة مشتقات برميل واحد من البترول، تتلقى البلدان المصدرة لاهم مادة أولية في العالم بالكاد دولاراً واحد، هو مجموع الضرائب وتكاليف الاستخراج، بينما بلدان المنطقة المتقدمة، حيث تقع المقار الرئيسية للشركات البترولية، تجني عشر دولارات، هي مجموع جماركها الخاصة وضرائبها، التي تعادل ثمانية اضعاف ضرائب البلدان المنتجة، ومن تكاليف وأرباح النقل، والتكرير، والتجهيز، والتوزيع التي تحتكرها الشركات الكبرى[٢٣٨].

ويتمتع البترول الذي ينتج في الولايات المتحدة بسعر مرتفع، كذلك فإن أجور عمال البترول الأمريكيين الشماليين مرتفعة نسبيا، إلا أن أسعار بترول فنزويلا والشرق الأوسط ظلت تنخفض، منذ عام ١٩٥٧، على طول عقد الستينيات. وعلى سبيل المثال، كان متوسط سعر برميل البترول الفنزويلي هو ٦٥,٢ دولاراً في عام ١٩٥٧، وبينما اكتب هذا الفصل، في أواخر عام ١٩٧٠، أصبح السعر هو ٨٦,١. وكانت حكومة

رافاييل كالديرا قد أعلنت أنها ستحدد من جانب واحد، سعرا أغلى بكثير، لكن السعر الجديد لن يبلغ بأية حال من الاحوال، حسب الأرقام التي يوردها المعلقون وبرغم الفضيحة التي تبشر بها، مستوى عام ١٩٥٧. والولايات المتحدة هي، في نفس الآن، أكبر منتج وأكبر مستورد للبترول في العالم. وأثناء الحقبة التي كان يخرج خلالها الجزء الأكبر من البترول الخام الذي تبيعه الشركات الضخمة من التربة الأمريكية، بقي السعر مرتفعا، وعندما تحولت الولايات المتحدة إلى مستورد خلال الحرب العالمية الثانية، بدأ الكارتيل في تطبيق سياسة جديدة للأسعار، أخذ السعر يهبط بشكل منتظم. انعكاس غريب ل "قوانين السوق" ، فسعر البترول ينهار، رغم أن الطلب العالمي لا يكف عن الازدياد، بقدر ما تتضاعف المصانع، والسيارات، ومحطات توليد الطاقة. وثمة مفارقة أخرى، فرغم انخفاض سعر البترول، إلا أن سعر مواد الاحتراق الذي يدفعه المستهلكون يرتفع في كل مكان. وهناك اختلال شديد في التناسب بين سعر الخام وسعر المشتقات. كل هذه السلسلة من الأمور العبثية عقلانية تماماً، وليس هناك ضرورة للجوء إلى القوى الغيبية من أجل العثور على تفسير، فالسبب هو أن تجارة البترول في العالم الرأسمالي هي، كما رأينا في يد كارتيل مطلق القدرة. وقد ولد الكارتيل عام ١٩٢٨ ، في إحدى قلاع شمال اسكتلندا محاطة بالضباب، عندما اتفقت ستاندارد اويل اوف نيوجرسي، وشل، والانجلو ـ ايرانيان، المسماة الآن باسم بريتيش بتروليوم، على اقتسام العالم. وقد انضمت إلى النواة التي تسير الكارتيل فيما بعد ستاندارد اوف نيويورك، وستاندارد اوف كاليفورنيا، وغالف، وتيكساكو[٢٣٩]. وقد انقسمت ستاندازد اويل، التي أنشأها روكيلفيللر عام ١٨٧٠ ، إلى خمس وثلاثين شركة عام ١٩١١ ، بسبب تطبيق قانون شيرمان ضد

التروستات، والأخت الكبرى، في أيامنا، لعائلة ستاندارد العديدة الافراد هي شركة نيوجرسي. ومبيعاتها من البترول، إضافة إلى مبيعات ستاندارد اوف نيويورك واوف كاليفورنيا، تبلغ نصف إجمالي مبيعات الكارتيل الإجمالية في أيامنا. ويبلغ من حجم الشركات البترولية لمجموعة روكفيللير أنها تكسب ما لا يقل عن ثلث مجموع الأرباح التي تنتزعها الشركات الأمريكية الشمالية من كل الأنواع، من العالم كله. وشركة نيو جرسي، وهي شركة عابرة للقوميات من النوع النمطي، تحصل على غالبية أرباحها خارج الحدود، وأمريكا اللاتينية تقدم لها أرباحاً أكثر من الولايات المتحدة وكندا معا، فنسبة أرباحها، جنوبي نهر الريو برافو، أعلى بأربع مرات[٢٤٠]. وقد أنتجت الشركات التابعة في فنزويلا، عام ١٩٥٧، أكثر من نصف الأرباح التي ربحتها ستاندارد اويل اوف نيوجرسي في كل مكان، وفي نفس تلك السنة، قدمت الشركات التابعة في فنزويلا لشركة شل نصف أرباحها في العالم كله[٢٤١].

هذه الشركات المتعددة الجنسيات لا تنتمي إلى الأمم المختلفة التي تعمل على أراضيها، فهي متعددة الجنسيات، وبشكل أبسط، بقدر ما تجذب، من أركان الأرض الأربعة شلالات ضخمة من البترول والدولارات إلى مراكز سلطة النظام الرأسمالي. وهي لا تحتاج، بالتأكيد، إلى تصدير رؤوس أموال من أجل تمويل توسع أعمالها، فالأرباح المنتزعة من البلدان الفقيرة لا تتجه في خط مستقيم إلى المدن القليلة التي يقطنها غالبية حملة الأسهم فحسب، بل يعاد استثمارها جزئيا كذلك لتنشيط وتوسيع شبكة العمليات العالمية. وتتضمن بنية الكارتيل اخضاع بلدان عديدة واختراق حكوماتها، يمتص البترول رؤوساء ودكتاتوريين، ويؤكد على حدة التشوهات الهيكلية في المجتمعات التي يُخضعها لخدمته. إن شركات البترول هي التي تقرر،

بقلم رصاص فوق خريطة العالم، ما هي المناطق التي يجب أن تُستغل وما هي مناطق الاحتياطي، وهي التي تحدد الأسعار التي يجب أن يتقاضاها المنتجون ويدفعها المستهلكون. إن الثروة الطبيعية لفنزويلا وغيرها من البلدان الأمريكية اللاتينية التي تملك بترولا في جوف أرضها، والتي هي أهداف للهجوم والنهب المنظم، قد تحولت إلى الأداة الرئيسية لاستعبادها السياسي وانحطاطها الاجتماعي. وهذه قصة طويلة من مآثر اللعنات، وسوء السمعة والتحديات.

وكانت كوبا تمنح، بطرق فرعية، أرباحاً دسمة لستاندارد اويل اوف نيوجرسي. كانت شركة نيوجرسي تشتري البترول الخام من شركة كريول بتروليوم، الشركة التابعة لها في فنزويلا، وتكرره وتوزعه في الجزيرة، كل ذلك بالأسعار التي تناسبها تماماً في كل مرحلة من المراحل. وفي تشرين أول من عام ١٩٥٩، في ذروة الغليان الثوري، رفعت وزارة الخارجية الأمريكية مذكرة رسمية إلى هافانا عبرت فيها عن قلقها على مستقبل الاستثمارات الأمريكية الشمالية في كوبا، كانت قد بدأت عمليات قصف طائرات "القرصنة" القادمة من الشمال، وكانت العلاقات متوترة. وأعلن ايزنهاور في كانون أول عام ١٩٦٠، عن تقليل حصة كوبا من السكر، ووقع فيديل كاسترو في شباط اتفاقا تجاريا مع الاتحاد السوفييتي لتبادل السكر بالبترول وغيره من المنتجات بأسعار مناسبة بالنسبة لكوبا.

ورفضت شركات نيوجرسي، وشل، وتكساكو تكرير البترول السوفييتي، وفي تموز تدخلت الحكومة الكوبية وأممتها دون أي تعويض.

وبدأت الشركات بالحظر بزعامة ستاندارد اويل اوف نيوجرسي.

أضيفت مقاطعة الفنيين المؤهلين إلى مقاطعة قطع الغيار الضرورية للآلات ومقاطعة السفن. كان النزاع اختبارا للسيادة[٢٤٢]. لتخرج كوبا منتصرة. فكفت في نفس الآن عن أن تكون نجمة ضمن مجموعة النجوم في علم الولايات المتحدة وعن أن تكون قطعة في الدولاب العالمي لستاندارد اويل.

كانت المكسيك قد عانت قبل عشرين عاماً، من حظر دولي فرضته ستاندارد اويل اوف نيوجرسي ورويال داتش شل، ففيما بين عامين ١٩٣٩ و١٩٤٢. امرت الكارتيل بمقاطعة الصادرات المكسيكية من البترول والامدادات الضرورية للآبار ومصافي التكرير. فقد كان الرئيس لاثارو كارديناس قد أمم الشركات. وقد قام نيلسون روكفيللر، الذي كان قد تخرج في الاقتصاد عام ١٩٣٠ بأطروحة كتبها حول فضائل شركته ستاندارد اويل، قام بزيارة المكسيك للتفاوض بشأن اتفاق حول الأمر، بينما لم يتراجع كارديناس. أما ستاندارد وشل اللتان كانتا تقتسمان الأراضي المكسيكية، الأولى تأخذ الشمال والثانية الجنوب، فلم تكتفيا برفض قبول قرار المحكمة العليا تطبيقا لقوانين العمل المكسيكية، بل دمرتا المنابع الشهيرة في فاخا دي أورو بسرعة رهيبة، واجبرتا المكسيكيين على أن يدفعوا، مقابل بترولهم ذاته، أسعارا أعلى من سعر هذا البترول نفسه في الولايات المتحدة وفي أوروبا[٢٤٣]. وخلال أشهر قليلة، كانت حمى التصدير قد استنفدت بشكل وحشي آبارا كثيرة كان بامكانها أن تستمر في الإنتاج لمدة ثلاثين أو أربعين عاما. كتب اوكونور يقول، "انتزعوا من المكسيك أغنى احتياطاتها، ولم يتركوا لها سوى مجموعة من معامل التكرير العتيقة، والحقول المنهكة، وشحاذي مدينة تامبيكو وذكريات كالعلقم". فانخفض الإنتاج خلال أقل من عشرين عاما إلى الخمس. كان من نصيب المكسيك صناعة متهالكة، موجهة نحو

الطلب الأجنبي، وأربعة عشر ألف عامل، وغادر الفنيون، وحتى وسائل النقل كانت قد اختفت. حول كارديناس استعادة البترول إلى قضية قومية كبرى، وتخطى الأزمة بقوة الخيال والشجاعة. وأصبحت شركة بيميكس، البترول المكسيكية، وهي الشركة التي أنشئت عام ١٩٣٨ لتتولى كل الإنتاج والسوق، أصبحت اليوم أكبر شركة غير أجنبية في كل أمريكا اللاتينية. دفعت الحكومة المكسيكية من الأرباح التي تنتجها بيميكس، تعويضات ضخمة للشركات، فيما بين ١٩٤٧ و١٩٦٢، رغم أن "المكسيك"، كما يقول خيسوس سيلفا هيرتزوغ، "ليست هي المدينة لتلك الشركات القرصانة، وانما هي الدائن الشرعي"(٢٤٤).

وفي عام ١٩٤٩، استخدمت ستاندارد اويل الفيتو حق النقض ضد قرض ـ كانت الولايات المتحدة ستقدمه لشركة بيميكس، وبعد سنوات طويلة، وبعد أن اندملت الجروح بفعل التعويضات السخية، مرت بيميكس بتجربة مماثلة مع البنك الدولي للتنمية.

كانت أوروغواي هي البلد الذي اقام أول معمل تكرير حكومي في أمريكا اللاتينية. وكانت قد ولدت "انكاب" الإدارة القومية للمحروقات، والكحول، والبورتلاند، في عام ١٩٣١، وكان من مهامها الرئيسية تكرير وبيع البترول الخام. وكانت ردا قوميا على تاريخ طويل من انتهاكات التروست في منطقة الريو دي بلاتا. بينما تعاقدت الدولة وبشكل مواز، على شراء بترول رخيص من الاتحاد السوفييتي. ومول الكارتيل على الفور، حملة غاضبة للنيل من سمعة الشركة الصناعية الحكومية لأوروغواي ولتبتدئ مهمة الابتزاز والتهديد. وأصبحوا يؤكدون أن أورغواي لن تجد من يبيعها الآلات وأنها ستبقى دون بترول خام، وأن الدولة أسوأ مدير، ولن يمكنها من السيطرة على تجارة بهذا التعقيد. وكان انقلاب القصر في آذار عام ١٩٣٣ يفوح

برائحة البترول، فقد الغت دكتاتورية غابرييل تيرا حق انكاب (الإدارة القومية للمحروقات، والكحول، والبروتلاند) في احتكار استيراد المحروقات، وفي كانون ثاني عام ١٩٣٨ وقعت الاتفاقيات السرية مع الكارتيل، تلك الاتفاقيات المشؤومة التي ظل الجمهور يجهلها لمدة ربع قرن وما زالت سارية حتى الان. وحسب موادها، فإن البلاد ملزمة بشراء أربعين بالمائة من البترول الخام دون طرح مناقصات وحيث تحدد لها ستاندارد اويل، وشل، وأتلانتيك، وتكساكو، وذلك بالأسعار التي يحددها الكارتيل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الدولة، التي تحتفظ باحتكار التكرير، تدفع كل نفقات الشركات، بما في ذلك الدعاية، والأجور المتميزة، والاثاث الفاخر في مكاتبها[٢٤٥]. هذا هو التقدم، يتغنى التليفزيون، ولا يكلف القصف الدعائي ستاندارد اويل سنتيما واحدا. ويتولى محامي بنك الجمهورية مهمة العلاقات العامة لستاندارد اويل، وتدفع الدولة له كلا المرتبين. وفي حوالي عام ١٩٣٩، كان معمل تكرير انكاب شامخا، بأبراجه التي يتصاعد منها اللهب، كانت الشركة قد تعرضت للتشوه بشدة بعد مولدها بقليل، كما رأينا، لكنها كانت لا تزال تمثل مثالا للتحدي الناجح ضد ضغوط الكارتيل. وقد زار مونتفيديو رئيس المجلس القومي لبترول البرازيل، الجنرال هورتا باربوزا، وكان في غاية الحماسة للتجربة، فقد كان معمل تكرير أوروغواي قد دفع بكافة نفقات انشائه تقريبا خلال العام الأول من العمل. وبفضل جهود الجنرال باربوزا، علاوة على حماس غيره من العسكريين الوطنيين، استطاعت بيتروبراس، الشركة الحكومة البرازيلية، أن تبدأ عملها عام ١٩٥٣ استجابة لصيحة، "البترول لنا!" ونجد حاليا، أن بتروبراس هي أكبر شركة في البرازيل[٢٤٦]. وهي تنقب عن، وتستخرج، وتكرر البترول البرازيلي. ولكن تعرضت بتروبراس للتشوه

أيضاً كذلك. فلقد انتزع منها الكارتيل مصدرين كبيرين للربح، الأول، هو توزيع البنزين والزيوت، والكيروسين، والسوائل الأخرى، وهي تجارة رائعة تديرها شل، واسسو، وأتلانتيك بالتليفون دون صعوبات كبيرة وبنتائج بلغ من جودتها أن هذا القطاع، بعد صناعة السيارات، هو اقوى بنود الاستثمار الأمريكي الشمالي في البرازيل، والثاني، هو صناعة البتروكيماويات، النبع السخي للأرباح، التي خرجت من التأميم، منذ سنوات قليلة، بفضل دكتاتورية المارشال كاستلو برانكو. ومؤخرا، شن الكارتيل حملة صاخبة لسلب احتكار التكرير من بتروبراس. ويذّكر المدافعون عن بتروبراس بأن المبادرة الخاصة، التي كان المجال مفتوحا أمامها، لم تهتم بالبترول البرازيلي قبل عام ١٩٥٣[٢٤٧]، ويحاولون أن يعيدوا إلى ذاكرة الجمهور الضعيفة فاصلا عظيم الدلالة على النوايا الحسنة للاحتكارات. وفي تشرين ثاني من عام ١٩٦٠، أوكلت بتروبراس إلى اثنين من الفنيين البرازيليين تقييم شامل للحقول الرسوبية للبلاد. ونتيجة لتقاريرهما تقدمت ولاية سيرغيبي في الشمال الشرقي إلى المقدمة في إنتاج البترول. وقبل ذلك بفترة قليلة، في آب، كان الفني الأمريكي الشمالي والتر لينك، الذي كان جيولوجي مستخدم لدى ستاندارد اويل اوف نيوجرسي، قد تلقى من الحكومة البرازيلية نصف مليون دولار مقابل كم كبير من الخرائط وتقرير مسهب حدد الطبقة الرسوبية لسرغيبي بانها "غير مؤثرة"، وكانت تعتبر حتى ذلك الحين تنتمي إلى المرتبة "ب" لكن خفضها لينك إلى المرتبة "ج". وبعد ذلك عُرف أنها تنتمي إلى المرتبة "أ"[٢٤٨]. وحسب ما يقول اوكونور، فقد عمل لينك طول الوقت كعميل لستاندارد، وبوجود قرار مسبق على عدم وجود بترول حتى تظل البرازيل معتمدة على وارداتها من الشركة التابعة لروكفللر في فنزويلا.

وتؤكد أيضاً الشركات الأجنبية واصداؤها في الأرجنتين دائماً أن باطن الأرض يحتوي على قليل من البترول، رغم أن أبحاث الفنيين في ي. بي. في، حقول البترول الحكومية، قد اشارت بكل تأكيد إلى أن نحو نصف الأراضي الوطنية تحتوي على بترول، وأن هناك كذلك بترول وفير في المنصة القارية لساحل الاطلنطي. وفي كل مرة يصبح فيها من الموضة الحديث عن فقر التربة الأرجنتينية، توقع الحكومة امتيازا جديداً لصالح أحد أعضاء الكارتيل. وقد كانت الشركة الحكومية، ي. بي. ف، ضحية لتخريب متواصل ومنهجي، منذ منشئها حتى هذا التاريخ. كانت الأرجنتين، حتى سنوات قريبة، واحدا منآخر المشاهد التاريخية للنزاع الإمبريالي بين إنجلترا، في افول شمسها اليائس، والولايات المتحدة الصاعدة. ولم تمنع اتفاقيات الكارتيل شل وستاندارد اويل من التنازع حول بترول هذا البلد بوسائل عنيفة أحيانا، وثمة سلسلة من المصادفات البليغة في الانقلابات التي جرت طوال الأربعين سنة الأخيرة. كان الكونغرس الأرجنتيني يتأهب للتصويت على قانون تأميم البترول، في ٦ أيلول عام ١٩٣٠، حين أسقط انقلاب خوسيه فيليكس اوريبورو الزعيم الوطني هيوبليتو ايرغوين. وسقطت حكومة رامون كاستيللو في تموز عام ١٩٤٣، حين كانت على وشك التوقيع على اتفاقية تنشيط استخراج البترول من قِبل رؤوس الأموال الأمريكية الشمالية. وفي أيلول عام ١٩٥٥، توجه خوان دومينغو بيرون إلى المنفى وقد أثار ارتورو فرونديزي أزمات عسكرية عديدة وحادة. في القوات الثلاث، بإعلانه الدعوة إلى طرح عطاءات تقدم كل باطن أرض البلاد للشركات المهتمة باستخراج البترول، وفي آب عام ١٩٥٩ تم إعلان التخلي عن العطاءات. وانبعث الأمر على الفور ثم أصبح باطلا في تشرين أول عام ١٩٦٠. وقد قدم فرونديثي عدة تنازلات لصالح شركات

الكارتيل الأمريكية الشمالية، ولم تكن المصالح البريطانية ـ الحاسمة في البحرية وفي القسم "كولورادو" من الجيش ـ بغافلين عن سقوطه في ١٩٦٢. وقد ألغى ارتورو ايبيا الامتيازات وتم اسقاطه في عام ١٩٦٦، وأصدر في العام التالي، خوان كارلوس اونغانيا قانونا لمركبات الهيدروكربون تصب في صالح المصالح الأمريكية الشمالية في النزاع الداخلي.

لم يسبب البترول انقلابات في أمريكا اللاتينية فحسب. لقد أثار كذلك حربا، هي حرب التشاكو (١٩٣٢ ـ ١٩٣٥)، بين أفقر شعبين في أمريكا الجنوبية، "حرب الجنود العراة"، هكذا وصف رينيه ثاباليتا المذبحة الوحشية المتبادلة بين بوليفيا والبارغواي[٢٤٩]. في ٣٠ أيار عام ١٩٣٤ هز سناتور لويزيانا، هوى لونغ الولايات المتحدة بخطاب عنيف كشف فيه أن ستاندارد اويل اوف نيوجرسي قد اثارت النزاع وأنها موّلت الجيش البوليفي حتى تستولي، بواسطته، على التشاكو البارغواية، الضروري لمد خط أنابيب من بوليفيا حتى الريو، والذي يفترض، بالإضافة إلى ذلك، أنه غني بالبترول، "لقد مضى هؤلاء المجروحون إلى هناك واستأجروا قتلتهم". هكذا أكد[٢٥٠]. لقد سار رجال الباراغواي إلى المذبح، من جهتهم، تدفعهم شركة شل، وكلما تقدموا نحو الشمال، كان الجنود يكتشفون الآبار التي حفرتها ستاندارد في منطقة النزاع. كان نزاعا بين شركتين، عدوتين وفي نفس الوقت شريكتين في إطار الكارتيل، لكنهما لم تكونا هما اللتان تذرفان دمهما، وأخيراً، كسبت الباراغواي الحرب لكنها خسرت السلام. وقد ترأس سبرويل برادن، محامي ستاندارد اويل الشهير، لجنة المفاوضات التي حفظت لبوليفيا، ولروكفللز، عدة آلاف كيلو متر مربع كان يطالب بها الباراغوايون.

وبالقرب من آخر مواقع تلك المعارك تقع آبار البترول والحقول الواسعة للغاز الطبيعي التي فقدتها شركة غولف اويل كومباني، شركة عائلة ميللون، في بوليفيا في تشرين أول عام ١٩٦٩. وقد صاح الجنرال الفريدو اورياندو عند إعلان التأميم من شرفات قصر كيمادو قائلا، "لقد انتهى زمن الاحتقار بالنسبة للبوليفيين". وقبل ذلك بخمسة عشر يوما، حين لم يكن قد تولى السلطة بعد، كان اورياندو قد أقسم أن يؤمم شركة غولف، أمام مجموعة من المثقفين الوطنيين، كان قد حرر المرسوم، ووقعه، واحتفظ به، دون تاريخ، في ظرف. وقبل ذلك بخمسة شهور، في منطقة كانيادن ديل اركي، كانت الطائرة المروحية للجنرال رينيه بارنتوس قد اصطدمت بأسلاك التلغراف وتحطمت. لم يكن الخيال بقادر على أن يخترع ميتة متكاملة بهذا الشكل، كانت الطائرة المروحية هدية شخصية من غولف اويل كومباني، بينما يخص التلغراف الدولة، كما هو معروف. واحترقت مع باريتنتوس حقيبتان مليئتان بالنقود كان يحملهما لتوزيعهما، ورقة أثر ورقة، على الفلاحين، كما اخذت بعض المدافع الرشاشة التي لم تحترق تماماً في إطلاق مطر من الرصاصات حول المروحية المحترقة، بحيث لم يستطع أحد الاقتراب لإنقاذ الدكتاتور بينما كان يحترق حيا.

وبالإضافة لإصدار مرسوم التأميم، أبطل اوفاندو قانون البترول، المسمى بقانون دافنبورت تكريما للمحامي الذي حرره بالإنجليزية. ومن أجل وضع هذا القانون، كانت بوليفيا، قد حصلت، عام ١٩٥٦، على قرض من الولايات المتحدة، وبالمقابل، فإن الاكسيمبانك، بنك نيويورك الخاص، والبنك الدولي كانا يردان دائماً بالرفض على طلبات القروض من أجل تطوير ال ي. ب. ف، الشركة البترولية الحكومية، فقد كانت الحكومة الأمريكية الشمالية تتبنى دائماً قضية الشركات

البترولية الخاصة[٢٥١]. وتلقت غولف وفقا للقانون، في ذلك الحين، ولمدة أربعين عاماً، امتياز استغلال أغنى حقول البترول في كل البلاد. وحدد القانون مشاركة مضحكة للدولة في أرباح الشركات، بنسبة لا تكاد تبلغ أحد عشر بالمائة، ولسنوات طويلة، جعلت الدولة نفسها شريكة في نفقات الشركة صاحبة الامتياز، لكن لم يكن لها أي سيطرة على هذه النفقات، ووصل الأمر إلى مواقف متطرفة بشأن الهبات، فقد كانت كل المخاطر من نصيب شركة ي. بي. ف. بي، بينما لا تتحمل غولف اية مخاطر. وتقرر فعلياً في خطاب النوايا الذي وقعته غولف أواخر عام ١٩٦٦، خلال دكتاتورية بارينتوس، أنه في العمليات المشتركة مع ي. بي. ف. بي، ستستعيد شركة غولف كل رؤوس أموالها المستثمرة في استكشاف ايه منطقة، في حال عدم العثور على بترول. فتتم استعادة النفقات من خلال الاستغلال التالي في حال ظهر البترول، لكنها ستسجل من البداية الخصم من حساب الشركة الحكومية. ويكون من حق غولف أن تحدد هذه النفقات حسب ما يناسبها[٢٥٢]. وفي نفس خطاب النوايا هذا، نسبت غولف لنفسها، بهدوء تام، ملكية منابع الغاز، التي لم تعطى لها أبدا. إن باطن الأرض البوليفي يحتوي على غاز أكثر من البترول بكثير. وكان الجنرال بارينتوس قد قام بحركة لصرف الانتباه، وكانت كافية. جرة قلم تحدد مصير مخزون الطاقة الرئيسي لبوليفيا. لكن لم تكن المهمة قد اكتملت.

عام قبل مصادرة الجنرال الفريدو اوباندو لشركة غولف في بوليفيا، كان جنرال وطني آخر، هو خوان بيلاسكو البارادو، قد أمم حقول ومصافي شركة إنترناشيونال بتروليوم كومباني، التابعة لستاندارد اويل اوف نيوجرسي، في البيرو. كان فيلاسكو قد استولى على السلطة على رأس طغمة عسكرية، وفي ظل موجة اثارتها فضيحة سياسية ضخمة،

كانت حكومة فرناندو بيلاوندي تيري قد فقدت الصفحة الأخيرة من اتفاقية تالارا، التي عقدت بين الدولة وبين إنترناشيونال بتروليوم كومباني. هذه الصفحة التي تبخرت بشكل غامض، الصفحة الحادية عشرة، كانت تتضمن ضمان الإبقاء على الحد الأدنى للسعر الذي يجب أن تدفعه الشركة الأمريكية الشمالية مقابل البترول الخام القومي في معامل تكريرها. ولم تنته الفضيحة عند هذا الحد، فاكتشف، في نفس الوقت، أن فرع ستاندارد اويل قد احتال على بيرو بأكثر من ألف مليون دولار خلال نصف قرن، وذلك من خلال الضرائب والالتزامات التي تهربت منها ومن خلال اشكال متعددة أخرى من التزوير والفساد. وكان مدير إنترناشيونال بتروليوم كومباني قد اجتمع مع الرئيس بيلاوندي في ستين مناسبة قبل التوصل إلى الاتفاق الذي اثار التمرد العسكري، وخلال عامين، وبينما المفاوضات مع الشركة تتقدم، وتقطع وتبدأ من جديد، أوقفت وزارة الخارجية الأمريكية كل أنواع المساعدة لبيرو[٢٥٣]. ولم يبق فعلياً وقت لاستئناف المساعدة، لأن الاستسلام حدد مصير الرئيس المدان. وحين قدمت شركة روكفيللر احتجاجا أمام المحكمة التشريعية البيروانية، كان الناس يرمون بالدراهم على جوه محاميها.

أن أمريكا اللاتينية صندوق مفاجآت، فلا تستنفد أبداً قدرة هذا المنطقة المعذبة من العالم على الادهاش. ففي جبال الانديز، عاودت القومية العسكرية صعودها بزخم، كنهر دفين مختفي منذ زمن طويل. ونفس الجنرالات الذين ينتهجون اليوم، في عملية متناقضة، سياسة إصلاح وسمات وطنية، هم الذين صفوا المقاتلين قبل ذلك. ورفعت الكثير من رايات من سقطوا من خلال المنتصرين أنفسهم. لقد قصف بعض العسكريون البيروانيون بعض مناطق المقاتلين بالنابالم في عام ١٩٦٥، وكانت إنترناشيونال بتروليوم كومباني، فرع ستاندارد اويل اوف

نيوجرسي، هي التي زودتهم بالبنزين والطرق الفنية من أجل تصنيع القنابل في القاعدة العسكرية في لاس بالماس، القريبة من ليما[٢٥٤].

بحيرة ماراكايبو بين مخالب الطيور الجارحة للمعادن

بالرغم من أن مشاركة فنزويلا في السوق العالمية قد انخفضت إلى النصف في الستينات، إلا أنه ما زالت فنزويلا، عام ١٩٧٠، أكبر مصدر للبترول. وتأتي من فنزويلا نحو نصف الأرباح التي تجنيها رؤوس الأموال الأمريكية الشمالية من كل أمريكا اللاتينية. أنها واحدة من أغنى بلدان كوكب الأرض، وأيضاً واحدة من أفقرها وواحدة من أكثرها عنفا. أنها تحقق أعلى دخل للفرد في أمريكا اللاتينية، وتمتلك شبكة طرق الأكثر كمالا وأكثرها حداثة، أما بالنسبة لعدد السكان، فليس هناك بلد آخر في العالم يشرب كل هذه الكميات من الويسكي الأسكتلندي. ويمكن للاحتياطي من البترول، ومن الغاز والحديد التي تقدمها تربتها للاستغلال الفوري، أن يضاعف ثروة كل مواطن فنزويلي عشر مرات، ويمكن استيعاب كل سكان ألمانيا أو إنجلترا في أراضيها الشاسعة البكر. وقد استخرجت الحفارات، خلال نصف قرن، أرباحاً بترولية هائلة تعادل ضعف موارد خطة مارشال لتعمير أوروبا، ومنذ أن تفجرت أول بئر بترولية بشلالات من البترول، تضاعف عدد السكان ثلاث مرات وتضاعفت الميزانية القومية مائة مرة، لكن جزءا كبيراً من السكان، الذين يتنازعون فضلات الأقلية المسيطرة، لا يتغذى أفضل مما كان يفعل خلال الحقبة التي كانت البلاد تعتمد فيها على الكاكاو والبن[٢٥٥]. وقد كبرت كاراكاس، العاصمة، سبع مرات خلال ثلاثين عاماً، المدينة البطريركية ذات الباحات الرطبة، والميدان الرئيسي والكاتدرائية الصامتة التي اخذت تنبت فيها ناطحات السحاب كلما نمت

أبراج البترول في بحيرة ماراكيبو. وقد أصبحت الآن كابوس بهواء مكيف، كابوس صاخب، أحد مراكز ثقافة البترول التي تفضل الاستهلاك على الخلق وتضاعف من الاحتياجات المصطنعة لاخفاء الاحتياجات الحقيقية. تعشق كاراكاس المنتجات الصناعية والأغذية المحفوظة، ولا تسير أبداً، بل تتحرك بالسيارة فقط، وقد تسمم هواء السهل النقي بغازات المحركات، وتنام كاراكاس بصعوبة، إذا لا يمكن إطفاء نهم الكسب والشراء، الاستهلاك والانفاق، والاستيلاء على كل شئ. وفي سفوح التلال، أكثر من نصف مليون من المنسيين وهم يتأملون، من مساكنهم الملأى بالقمامة، تبديد الآخرين. تلمع آلاف وآلاف من السيارات من آخر طراز في شوارع العاصمة الذهبية. وتصل السفن عشية الأعياد، إلى ميناء لا غوايرا محملة بالشمبانيا الفرنسية، والويسكي الأسكتلندي، وغابات من أشجار عيد الميلاد تأتي من كندا، بينما نصف أطفال وشباب فنزويلا حتى الآن، عام ١٩٧٠، وحسب الإحصاءات، يظلون خارج قاعات التعليم.

تنتج فنزويلا كل يوم ثلاثة ملايين ونصف مليون برميل من البترول من أجل ادارة الالة الصناعية للعالم الرأسمالي، لكن الفروع المتعددة لستاندارد اويل، وشل، وغولف، وتكساكو لا تستغل أربعة اخماس مناطق امتيازاتها، والتي ما زالت احتياطيات لم تمس بعد، كما أنه أكثر من نصف قيمة الصادرات لا يعود إلى البلاد. وتشيد الكتيبات الدعائية لشركة كريول (ستاندارد اويل) على الأعمال الخيرية للشركة في فنزويلا، بذات التعبيرات التي كانت الشركة الملكية الغيبوثكوانية تستخدمها لتنسب لنفسها الفضائل، في أواسط القرن الثامن عشر، فلا يمكن أن تقارن الأرباح المنتزعة من هذه البقرة الحلوب الضخمة، بالنسبة لرأس المال المستثمر، إلا بالأرباح التي كان يجنيها تجار العبيد

والقراصنة في الماضي. فلم ينتج بلد هذا القدر للرأسمالية العالمية في هذا الزمن القصير، فقد نهبت من فنزويلا ثروة تتجاوز، حسب ما يقول رانخيل، الثروة التي اغتصبها الاسبان من بوتوسي أو الإنجليز من الهند. وقد كشف المؤتمر القومي الأول للاقتصاديين أن الأرباح الحقيقية للشركات البترولية في فنزويلا قد ارتفعت، عام ١٩٦١، إلى ٣٨ في المائة، وإلى ٤٨ في المائة عام ١٩٦٢، بالرغم من أن نسبة الأرباح التي تعلنها الشركات في ميزانياتها كانت ١٥ و١٧ في المائة على التوالي، ويدخل الفرق في حساب سعر المحاسبة والتحويلات الخفية. أنه لمن الصعوبة الفائقة تقدير حجم المكاسب المختبئة خلف الانخفاض المصطنع في سعر البترول الخام، لوجود آلية معقدة لتجارة البترول، بأنظمة متعددة ومتزامنة للأسعار، فالنفط الذي يتدفق، من بئر البترول وحتى مضخة البنزين في نفس الشرايين على الدوام، إضافة إلى الارتفاع المصطنع في نفقات الإنتاج، حيث تسجل مرتبات خرافية ونفقات دعاية شديدة التضخم. ومن المؤكد، حسب الأرقام الرسمية، أن فنزويلا لم تسجل، خلال العقد الأخير، دخول استثمارات خارجية جديدة، بل سجلت على العكس، نقصا متزايدا ومنتظما في الاستثمارات. ففنزويلا تعاني من نزف أكثر من ستمائة مليون دولار سنويا، معترف بها باعتبارها "أرباحا لراس المال الأجنبي". والاستثمارات الجديدة الوحيدة تنبع من الأرباح التي تقدمها البلاد. وتنخفض في هذه الأثناء نفقات استخراج البترول بشكل رأسي، كون الشركات تستخدم أيدي عاملة أقل باستمرار. وانخفض عدد العمال فيما بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٢ فقط بأكثر من عشرة آلاف عامل، وظل في العمل ما يزيد قليلاً على ثلاثين الفا، وفي أواخر ١٩٧٠ أصبح البترول لا يستخدم أكثر من ثلاثة وعشرين ألف عامل.، ارتفع الإنتاج بالمقابل بدرجة كبيرة خلال العقد الأخير.

ونتيجة للبطالة المتزايدة، اخذت تتزايد حدة أزمة حقول البترول في بحيرة ماراكايبو. فالبحيرة غابة من الأبراج، وداخل الدعامات الحديدية المتقاطعة، يسبب الدوران الدقيق لانابيب الحفر، كل رفاهية وكل بؤس فنزويلا وذلك منذ نصف قرن. تحترق شعلات اللهب بجانب انابيب الحفر، لتحرق دون عقاب الغاز الطبيعي الذي تمنح البلاد نفسها ترف إهدائه إلى الجو. وتوجد أنابيب حفر حتى في قلب البيوت أو على نواصي الشوارع في المدن التي تفتحت كالمطر، مثل البترول، على شواطئ البحيرة، حيث يصبغ البترول باللون الأسود الشوارع والملابس، والأغذية والجدران، وحتى أماكن الحب تحمل أسماء مستعارة من البترول، مثل "شبكة الانابيب" أو "الصمامات الأربعة"، "الونش" أو "القلاب". وأسعار الملابس والطعام هنا أعلى منها في كاراكاس. إن هذه القرى الحديثة، الحزينة منذ مولدها والمتسارعة رغم ذلك ببهجة الربح السهل، اكتشفت بالفعل أنه ليس هناك مستقبل أمامها.، فيتحول البقاء على قيد الحياة، حين تموت الآبار، إلى عمل من أعمال المعجزات، فتبقى هياكل البيوت، والمياه التي علاها السم الذي يقتل الأسماك ويلعق المناطق المهجورة. كذلك يسيطر الشقاء على المدن التي تعيش على استغلال الآبار العاملة، نتيجة عمليات الفصل الجماعي والميكنة المتزايدة. "من هنا مر البترول من فوق رؤوسنا"، هكذا قال أحد سكان لاغونيياس عام ١٩٦٦. وكابيماس التي كانت على مدى نصف قرن أكبر مصدر للبترول في فنزويلا، واهدت كاراكاس والعالم الكثير من الرفاهية، لا توجد فيها حتى مجاري. وبالكاد يتواجد بها زوج من الشوارع المعبدة.

كانت النشوة قد ظهرت منذ اعوام طويلة. ففي حوالي عام ١٩١٧، كان البترول يوجد، في فنزويلا، مع اللاتيفونديات التقليدية، تلك

الحقول الشاسعة غير المسكونة والأراضي الخاملة حيث يراقب أصحاب الأراضي قوة العمل بجلد الاجراء ودفنهم أحياء حتى الخصر. ثم تدفق بئر لاروسا في أواخر عام ١٩٢٢، والذي كان يصب مائة ألف برميل يوميا، لتهب رياح العاصفة البترولية. واخذت الحفارات والروافع تنبت في بحيرة ماراكايبو، واخذت تغزوها الآلات الغريبة والرجال ذوي الخوذات الفلينية فجأة، وتدفق النازحون واستقروا فوق الأرض التي تغلي، بين الالواح وعلب الزيت، ليقدموا انفسهم قربانا للبترول. واخذت تدوي لهجات اوكلاهوما وتكساس لأول مرة في السهول والغابات، حتى في أكثر الأماكن بعدا. وظهرت في لمح البصر ثلاث وسبعون شركة. وكان ملك كرنفال الامتيازات هو الدكتاتور خوان فيثينتي جوميز، وقد كان مربي ماشية من جبال الانديز وشغل سنوات حكمه السبع والعشرين (١٩٠٨ ـ ١٩٣٥) في إنجاز الأعمال والابناء. وبينما كانت تتدفق السيول السوداء الجارفة، كان غوميز يخرج من جيوبه الممتلئة أسهما بترولية يكافئ بها أصدقاءه واقاربه وحاشيته، والطبيب الذي يعتنى له بالبروستاتا. والجنرالات الذين يعتنون بحماية ظهره، والشعراء الذين يتغنون بأمجاده، وكبير الأساقفة الذي منحه تراخيص استثنائية لكي يأكل اللحم أيام الجمعية الحزينة. وكست القوى الكبرى صدر غوميز بأوسمة براقة، فقد كان من الضروري تغذية السيارات التي تغزو طرق العالم. وكان أصدقاء الدكتاتور الاثيرون يبيعون الأسهم لشل أو لستاندارد اويل أو غولف، وأطلق تبادل النفوذ والرشاوي المضاربة وفقر الأراضي. تم اجلاء المجتمعات الهندية من أراضيها وفقد كثير من عائلات المزارعين ممتلكاتهم، بالترهيب أو بالترغيب. وقد اعد قانون البترول الصادر عام ١٩٢٢ ممثلو ثلاث شركات من الولايات المتحدة. كانت حقول البترول مطوقة بالاسوار ولديها شرطة خاصة. وكان يمنع

الدخول لمن لا يحملون بطاقة العمل في الشركات، وكان المرور ممنوعا حتى في الطرق التي يعبرها البترول إلى الموانئ. وعندما مات غوميز، في عام ١٩٣٥، قطع عمال البترول الاسلاك الشائكة التي تحيط بجقزل البترول وأعلنوا الاضراب.

وفي عام ١٩٤٨، مع سقوط حكومة رومولو غاييغوس، انتهت دورة الإصلاح التي بدأت قبل ثلاث سنوات، وسرعان ما قلص الجنرالات المنتصرون من اشراف الدولة على البترول الذي تستخرجه فروع الكارتيل. وتحولت تخفيضات الضرائب، عام ١٩٥٤، إلى أكثر من ثلاثمائة مليون دولار من الأرباح الإضافية لشركة ستاندارد اويل. وفي عام ١٩٥٣، كان أحد رجال الأعمال بالولايات المتحدة قد أعلن في كاراكاس، "تتمتع هنا بحرية أن تفعل بنقودك ما يحلو لك، وهذه الحرية تساوي بالنسبة لي، أكثر من كل الحريات السياسية والمدنية معا"[٢٥٦]. وعندما تم اسقاط الدكتاتور ماركوس بيريث خيمينيث عام ١٩٥٨، كانت فنزويلا بئر بترول كبيرة تحيطها السجون وغرف التعذيب من كل جانب، وتستورد كل شيء من الولايات المتحدة، السيارات والثلاجات، واللبن المركز، والبيض، والخس، والقوانين والمراسيم. وأعلنت كبرى شركات روكفيللر في عام ١٩٥٧، وهي شركة كريول، أرباحاً كادت تبلغ نصف استثماراتها الإجمالية. وقد رفع المجلس الثوري للحكومة الضرائب على الدخل المفروضة على الشركات الكبرى، من ٣٥ إلى ٤٥ بالمائة. لتفرض الكارتيل ردا على ذلك، خفضا فوريا لسعر البترول الفنزويلي واخذت بطرد العمال بشكل جماعي. وبلغ من انخفاض السعر، أنه، رغم زيادة الضرائب وزيادة حجم البترول المصدر، عام ١٩٥٨، جنت الدولة دخلا يقل عن العام السابق بستين مليون دولار.

ولم تسعى الحكومات التالية لتأميم الصناعة البترولية، لكنها كذلك لم تقدم، حتى عام ١٩٧٠، امتيازات جديدة للشركات الأجنبية لاستخراج الذهب الأسود. وفي هذه الأثناء، سارع الكارتيل من مباشرة الإنتاج في حقوله في الشرق الأدنى وفي كندا، وتوقف في فنزويلا فعلياً استكشاف آبار جديدة. وتجمد التصدير. وفقدت سياسة عدم منح امتيازات جديدة المعنى التي وجدت من اجله بقدر ما عجزت شركة البترول الفنزويلية، الجهاز الحكومي، عن تولي المسئوليات الشاغرة. واكتفت بالمقابل، الشركة الحكومية بحفر بضعة ابار قليلة هنا وهناك، مؤكدة أن وظيفتها لا تتعدى تلك التي أوكلها إليها الرئيس رومولو بيتانكور، "عدم بلوغ حجم الشركة الضخمة، وإنما القيام بدور الوسيط في المفاوضات حول الصيغة الجديدة للامتيازات". ولم توضع الصيغة الجديدة موضع التطبيق، رغم أنه قد تم الإعلان عنها عدة مرات.

وفي نفس الوقت فإن الدفعة الصناعية التي اكتسبت بنية وقوة منذ نحو عقدين من الزمان اخذت تكشف عن اعراض النضوب الواضحة، وأصبحت تعيش عجزا معروفا جيداً في أمريكا اللاتينية، فالسوق الداخلية، المحدودة بسبب فقر الأغلبية، غير قادرة على المحافظة على التطور الصناعي أبعد من مدى أصبح معروفا. ومن جانب أخر، بقي الإصلاح الزراعي، الذي استهلته حكومة العمل الديمقراطي، بقي قبل منتصف الطريق الذي وعد بأن يقطعه، في الوعود التي اعطاها من صنعه. وتشتري فنزويلا من الخارج، ومن الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، جزءا كبيراً من الأغذية التي تستهلكها. فالطبق التقليدي، مثلا، وهو اللوبية، يأتي بكميات كبيرة من الشمال، في أكياس تلمع عليها كلمة "BEANS" بالإنجليزية.

كتب لي في خطاب سالفادور غارميدنيا، الروائي الذي أعاد ابتكار

الجحيم الجاهز الصنع لكافة ثقافة الغزو هذه، ثقافة البترول في منتصف عام ١٩٦٩ يقول فيه، "لقد رأيت حفارا، الجهاز الذي يستخرج البترول الخام؟ فله شكل طائر اسود ضخم ترتفع رأسه المدببة وتهبط بتثاقل، ليلا ونهارا، دون التوقف لحظة واحدة، أنه الطير الجارح الوحيد الذي لا يأكل برازا. ماذا سيحدث حين نسمع الضوضاء المميزة لأنبوبة الامتصاص عندما ينفد السائل؟ لقد بدأت تسمع الافتتاحية الموسيقية بالفعل في بحيرة ماراكيبو، فلقد نبتت بين عشية وضحاها قرى مدهشة بصالات سينما، متاجر، ومراقص، واوكار عاهرات وقمار، وحيث لم تكن للنقود اية قيمة. وقد قمت منذ وقت قصير بجولة هناك وأحسست بألم في معدتي. فكانت رائحة الموت والخردة اقوى من رائحة الزيت. فأصبحت القرى شبه مهجورة، متآكلة، متقرحة بالدمار، والشوارع مليئة بالوحل، والمتاجر عبارة عن أنقاض. وهناك غطاس قديم لدى الشركات يغوص يوميا، مزودا بمنشار، لقطع أجزاء من شبكات المواسير المهجورة ويبيعها كحديد خردة. وأخذ الناس يتحدثون عن الشركات كمن يتذكر اسطورة ذهبية قديمة. انهم يعيشون على ماضي اسطوري. تظل في هذه الأثناء، انابيب الحفر تدور ويظل مطر الدولارات يسقط على ميرافلوريس، أي قصر الحكومة، ليتحول إلى طرق سريعة وغيرها من وحوش الاسمنت المسلح. ويعيش ستون في المائة من المواطنين مهمشين عن كل شيء. وتزدهر في المدن طبقة وسطى طائشة بمرتبات مرتفعة، تراكم حولها أشياء بلا نفع، تعيش وقد خلبت لبها الدعاية وتبدي حمقها وفساد ذوقها بشكل فاضح. وكانت قد أعلنت الحكومة منذ قليل بضجيج هائل أنها قد استأصلت الامية، بينما النتيجة، في الحفل الانتخابي الأخير، اظهر تعداد من يجهلون الكتابة مليونا من الاميين بين سن الثامنة عشرة والخمسين".

القسم الثاني

التنمية عبارة عن رحلة، الغارقون فيها أكثر من المبحرين

حكاية الموت المبكر

البوارج البريطانية تحيي الاستقلال من مواقعها

عندما كان جورج كاننغ، العقل المدبر في الإمبراطورية البريطانية، يحتفل في عام ١٨٢٣ بانتصاراتها العالمية، كان القائم بالأعمال الفرنسي مضطراً إلى تحمّل المهانة التي تضمنتها هذه الملاحظة، "ليكن من نصيبكم مجد الانتصار الذي تتلوه الكارثة والخراب، وليكن من نصيبنا التجارة غير المشرّفة في الصناعة وازدهار متزايد... لقد مضى عهد الفروسية، وحل محله عهد الاقتصاديين والمحاسبين". كانت لندن قدت بدأت تعيش فترة ابتهاج طويلة، كانت الهزيمة قد لحقت بنابوليون قبل ذلك ببضع سنوات، وكانت أبواب عهد السلام البريطاني تنفتح على مصراعيها. وجرى تأمين قوة كبار ملاك الأرض، في أمريكا اللاتينية، وتجار الموانئ الأغنياء إلى الأبد عن طريق الاستقلال، على حساب الخراب الوشيك للبلدان المولودة حديثاً. وكانت المستعمرات الأسبانية السابقة والبرازيل أسواقاً مزدهرة بالنسبة للمنسوجات الإنجليزية والجنيهات الاسترلينية التي حققت أرباحاً كبيرة. ولم يخطئ كاننغ عندما كتب في عام ١٨٢٤، "لقد نفذ الأمر، وانغرس المسمار، وأصبحت أمريكا الأسبانية حرة، وأن لم نتدبر امورنا تدبيرا سيئا محزنا، فانها سوف تكون إنجليزية"[٢٥٧].

لقد ساهم المحرك البخاري، والنول الآلي، وتحسين آلات النسيج إلى انضاج الثورة الصناعية البريطانية. فتضاعف عدد المصانع والبنوك، ودفع المحرك الذي يعمل عن طريق الاحتراق الداخلي إلى تطوير الملاحة وابحرت السفن إلى أقصى المناطق، مما أدى إلى توسيع الصناعة البريطانية. لقد كان الاقتصاد البريطاني يدفع المنسوجات القطنية ثمنا لجلود ريو دي لا بلاتا، واسمدة ونترات البيرو، ونحاس تشيلي، وسكر كوبا، وبن البرازيل، وكانت عبر القرن التاسع عشر، الصادرات الصناعية، ورسوم الشحن، والتامين، والفوائد على القروض، وأرباح الاستثمارات تغذي الازدهار البريطاني. والحقيقة أن جانبا كبيراً من التجارة بين أسبانيا ومستعمراتها، قبل حروب الاستقلال، كان تحت سيطرة بريطانية ـ بالإضافة للتدفق المتواصل للسلع المهربة إلى السواحل الأمريكية اللاتينية، والتي كانت تشكل تجارة العبيد ستارا لها من الناحية العملية، رغم أنه لم تكن أغلبية السلع المارة عبر الجمارك الأمريكية اللاتينية هي أسبانية. وفي الحقيقة فلم يتواجد قط احتكار أسبانيا، "لقد خسرت أسبانيا المستعمرة قبل عام ١٨١٠ بوقت طويل، ولم تكن الثورة غير اعتراف سياسي بهذا الأمر الواقع"[٢٥٨].

كانت القوات البريطانية قد احتلت على ترينداد في الكاريبي، مقابل جندي قتيل واحد، لكن قائد الحملة، السير رالف ابيركرومبي، كان متأكدا من أن الفتوحات العسكرية الأخرى في أمريكا الأسبانية لن تكون بهذه السهولة. فلقد فشلت الغزوات البريطانية بعد ذلك بوقت قصير، في الريو دي لا بلاتا. وقد اقنعت الهزيمة للسير ابيركرومبي بعدم فعالية الحملات المسلحة وقادته إلى قناعة أنه حانت ساعة الديبلوماسيين والتجار وأصحاب البنوك، فنظام ليبرالي جديد في المستعمرات الأسبانية سوق يتيح لبريطانيا فرصة الاستحواذ على تسعة أعشار التجارة الأمريكية

الأسبانية[٢٥٩]. كانت حمى الاستقلال تتأجج في دول أمريكة اللاتينية، وطبقت لندن بعد عام ١٨١٠، سياسة ملتوية وبوجهين، فكانت تتقلب طبقا للحاجة إلى تامين سيادة التجارة البريطانية، والحيلولة دون سقوط أمريكا اللاتينية في أيدي الولايات المتحدة أو فرنسا، وتفادي العدوى اليعقوبية في البلدان حديثة الاستقلال.

وعندما تشكل المجلس الثوري في بوينس ايريس في ٢٥ أيار ١٨١٠، حيته البوارج البريطانية بوابل من طلقات المدافع من الريو. والقى قبطان البارجة "موتين" بكلمة حارة نيابة عن صاحب الجلالة، وادخل الاحتفال الدفء إلى قلوب البريطانيين. ولم يتعدى انتظار بوينس ايريس أكثر من ثلاثة أيام لالغاء بعض القيود على التجارة مع الأجانب، وخفضت الضرائب بعد ذلك باثني عشر يوماً على المبيعات الخارجية من الجلود والشحوم الحيوانية من نسبة ٥٠ في المائة إلى نسبة ٧. ٥ في المائة. والغي، بعد ذلك بستة أسابيع، الحظر المفروض على تصدير العملات الذهبية والفضية، بحيث يتسنى تدفقها بسهولة إلى لندن. وحلت إدارة ثلاثية محل المجلس في أيلول ١٨١١، وتم تخفيض الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات مرة أخرى والغاؤها في بعض الحالات. وبعد ١٨١٣، عندما أعلنت الجمعية الوطنية أنها السلطة ذات السيادة، جرى اعفاء التجار الأجانب من الالتزام ببيع سلعهم من خلال رجال أعمال ارجنتينيين، "أصبحت التجارة حرة حقا"[٢٦٠]وفي عام ١٨١٢، أبلغ التجار البريطانيون وزارة الخارجية البريطانية "لقد استطعنا إحلال المنسوجات البريطانية محل المنسوجات الألمانية والفرنسية بنجاح". لقد نجحوا أيضاً في احلالها محل إنتاج مصانع النسيج الأرجنتينية، والذي خنقه ميناء التجارة الحرة. وقد حصل نفس الشيء مع تنويعات في أماكن أخرى من أمريكا اللاتينية.

وأخذ ينهمر من يوركشاير، ولانكشاير، وتشيفيوت هيلز، وويلز تيار لا ينقطع من المنسوجات القطنية ومنسوجات الصوف ومن السلع المصنوعة من الحديد والجلد، والخصب، والخزف. واغرقت انوال مانشستر، وادوات شيفيلد ومعامل خزف وورشستر وستافوردشاير الأسواق الأمريكية اللاتينية. وأدت التجارة الحرة إلى إثراء الموانئ التي تحيا على التصدير، ورفعت إلى عنان السماء تبذير أوليغاركية عأزمة على التمتع بكل انواع واشكال الترف الموجودة، لكنها دمرت الصناعة المحلية الناشئة واحبطت توسع السوق المحلية. وكانت بعض الصناعات الضعيفة والمتخلفة تقنيا قد نمت في المستعمرات رغم القيود المفروضة، وكانت قد بدأت في الصعود عشية الاستقلال مع ارتخاء القيود الجائرة التي فرضتها أسبانيا ومع مساعدة الحرب في أوروبا على إيجاد نقص في الامدادات، وكانت المصانع في السنوات الأولى للقرن التاسع عشر، تتماثل الشفاء من الضربة التي وجهها إليها المرسوم الملكي لعام ١٧٧٨ والذي أجاز التجارة الحرة بين الموانئ الأسبانية والأمريكية. وكان سيل السلع الأجنبية قد سحق إنتاج المستعمرات من المنسوجات والخزف، والسلع المعدنية، ولم يطول الوقت أمام الحرفيين لمعاودة الوقوف على أقدامهم، فلقد فتح الاستقلال الباب على مصراعيه أمام المنافسة الحرة من جانب الصناعات الأوروبية المتقدمة بالفعل. وواصلت الصناعات الأمريكية اللاتينية مسيرتها المترنحة في ظل السياسات الجمركية المتذبذبة التي اتبعتها حكومات الاستقلال، حيث كانت تشكل حالة وفاة واستيقاظ متعاقبة وحيث لم تكن أمامها إمكانية لنمو مستديم طويل الاجل.

أبعاد وأد الصناعة في مهدها

في بداية القرن التاسع عشر، قدّر ألكسندر فون همبولت قيمة المصانع المكسيكية ـ ومعظمها مصانع للنسيج ـ بحوالي سبعة أو ثمانية ملايين بيسو. وكان يتم إنتاج الملابس المصنوعة من الصوف ومن القطن في ورش متخصصة. كان يوجد في كيريتارو أكثر من مائتي نول وألف وخمسمائة عامل، وكان ألف ومئتان من عمال نسيج القطن يعملون في منطقة بويبلا[٢٦١]. ولم تكن المنتجات الرديئة في البيرو التي كانت المستعمرة تنتجها في مستوى جودة المنسوجات التي كان السكان الأصليون ينتجونها في زمن بيثارو، "لكن أهميتها الاقتصادية كانت عظيمة بشكل كبير"[٢٦٢]. وكانت الصناعة تعتمد على تسخير الهنود الذي كانوا يُحبسون في ورش العمل منذ ما قبل الفجر وحتى وقت متأخر من الليل. لقد كان هذا التطور هشا ـ الذي قضى عليه الاستقلال ـ لكنه كان يتميز باهمية مُعتبرة في اياكوتشو، وكاكامورسا، وتارما. أما جماعة ياكايكاسا، التي لم تعد موجودة اليوم"والتي كونت مؤسسة واحدة عظيمة للنسيج شاملة أكثر من ألف عامل"، يذكر روميرو في مؤلفه، "باوكاركويا التي كانت تزود مناطق شاسعة بالاغطية المصنوعة من الصوف بينما أصبحت تتلاشى من الوجود الآن، ولم يعد هناك وجود لمعمل واحد فيها"[٢٦٣]. وفي تشيلي، إحدى ممتلكات أسبانيا الأكثر بعداً، كانت العزلة ملائمة لتطور النشاط الصناعي منذ بدايات حياة المستعمرة. لقد كان لديها معامل للغزل، ومعامل للنسيج، ومدابغ للجلود، وكانت جميع سفن بحار الجنوب مجهزة بتجهيزات من حبال الاشرعة والصواري التشيلية، وكانت تشيلي تنتج سبائك معدنية، من اواني التقطير والمدافع مرورا بالحلي، وأدوات المائدة الجميلة،

والساعات. وكانت تبني الزوارق والمركبات[٢٦٤]. وساهمت الواردات الأجنبية في البرازيل، إلى تدمير صناعات النسيج والصناعات المعدنية، والتي كانت قد خطت خطواتها الأولى المتواضعة في القرن الثامن عشر. وكانت كلتا الصناعتين قد استطاعتها أن تزدهر رغم العقبات التي فرضتها لشبونة، لكن الملكية البرتغالية، التي جرى تنصيبها في ريو دي جانيرو، لم تكن سوى العوبة بأيدي البريطانيين بعد عام ١٨٠٧ وكانت قوة لندن قد أصبحت من نوع مختلف. وقد كتب كايوبرادو فقال أنه "قبل فتح الموانئ، كانت نواقص التجارة البرتغالية توفر حاجزا حاميا لصناعة محلية صغيرة - وصحيح أنها كانت صناعة حرفية بائسة، إلا أنها كانت كافية لإشباع جزء من الطلب المحلي. وما كان بامكان هذه الصناعة الصمود أمام المنافسة الحرة من الخارج، ولو فيما يتعلق بأقل المنتجات شانا"[٢٦٥].

وكانت بوليفيا أهم مركز للنسيج تابع لمنطقة الريو دي لا بلاتا. وحسب ما ذكره فرانشيسكو دي بيدما، حاكم الولاية، فقد كان يعمل ثمانون ألف شخص في كوتشاباما في أواخر القرن في صناعة الملابس الصوفية والقطنية واغطية الموائد. وكانت اورورو ولا باث تمتلكان مصانع توفر، إلى جانب المصانع الموجودة في كوتشاباما، حرامات، والبوتشوات، والملابس الداخلية الواقية من البرد للسكان، وللقوات النظامية، وللحاميات على الحدود. وكانت تأتي أجمل الملابس المصنوعة من الكتان ومن القطن من مناقط موخوس وتشيكيتوس وغوارايوس، بالإضافة للقبعات المصنوعة من القش، والفيكونيا والحملان، والسيجار. "اختفت كل هذه الصناعات أمام المنافسة من المنتجات الأجنبية المماثلة". وقد قارن، بكثير من الحزن، كتاب صدر بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لاستقلال بوليفيا دون[٢٦٦].

Twitter: @ketab_n

اما في الأرجنتين فكان الساحل هو المنطقة الأكثر تخلفا والاقل كثافة من ناحية عدد السكان قبل أن يعمل الاستقلال على نقل مركز الجذب الاقتصادي والسياسي من الداخل إلى بوينس ايريس. ولم يكن يحيا في بوينس ايريس، في بداية القرن التاسع عشر، وسانتا في، وانتري ريوس غير عشر السكان[٢٦٧]. وكانت صناعة أهلية جنينية قد اخذت تتطور ببطء في الوسط والشمال في الوقت الذي لم تكن تتواجد فيه "حرفة أو صناعة واحدة" على الساحل، كما لاحظ لاراميندي، المسئول عن الشئون المالية، في عام ١٧٩٥. وكانت ورش النسيج تنتج ثلاثة أنواع من البونشوات، وكانت المصانع تنتج عربات متينة، والسيجار، والسجائر، والاحذية والاخمصة الجلدية في توكومان وسانتياغو ديل ايتسرو ـ وكلاهما اليوم مكانان للتخلف الشديد. وكانت كل أنواع الملابس، والمنسوجات الصوفية الجميلة، وملابس رجال الدين السوداء تجئ من كاتاماركا، وكانت كوردوبا تنتج أكثر من سبعين ألف بونشو، وعشرين ألف من الاغطية، وأربعين ألف ياردة أسبانية من الملابس الداخلية في السنة، جنبا إلى جنب الأحذية والسلع الجلدية واحزمة الإبحار وعأرضات الاشرعة، والسجاد، والجلد القرطبي، وكانت المدابغ وورش السراجة المهمة في كورينستيس. وقد اشتهرت سالتا بسروجها الجميلة، وكانت مندوثا تنتج ما بين مليوني وثلاثة ملايين لتر من الخمور سنويا، منافسة في ذلك خمور الأندلس، وكانت سان خوان تقطر ٣٥٠. ٠٠٠ لتر من الرون سنويا، وكانت مندوثا وسان خوان، الواقعتان بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، "حلق، التجارة الأمريكية الجنوبية"[٢٦٨].

كان الوكلاء التجاريون من مانشستر، وغلاسكو، وليفربول يجوبون أرجاء الأرجنتين يجهزون نماذج من بونشوات سانتياغو وكوردوبا وسلع

كوريينتس الجلدية، إلى جانب الركابات الخشبية المحلية. وكانت تكلفة بونشوات الأرجنتين سبعة بيسوات، بينما كانت بونشوات يوركشاير تكلف ثلاثة بيسوات. والأمر أن سرعان ما فازت صناعة النسيج الأكثر تقدما في العالم على منتجات الانوال المحلية، وقد حدث الشيء نفسه مع الأحذية طويلة الرقبة، والمهمازات، والحواجز الحديدة، واللجامات، المكابح والمسامير. وقد لحق الدمار بمقاطعات الأرجنتين الداخلية وسرعان ما هبت ضد دكتاتورية ميناء بوينس ايريس. كان كبار التجار (ايسكالادا، بيلغرانو، بوريدون، بيتيس، لاس هيراس، ثيربينيو) قد تولوا السلطة المنتزعة من أسبانيا. وقد مكنتهم التجارة من شراء المنسوجات الحريرية والمدي الإنجليزية، وملابس لوفييه الجميلة، واربطة الفلاندرن والسيوف السويسرية، والجن الهولندي، ولحوم افخاذ خنازير ويستفاليا، وسيجار هامبورغ[٢٦٩]. بالمقابل كانت الأرجنتين تصدر الجلود، والشحوم الحيوانية، والعظام، واللحوم المملحة، وقد وسع مربو الماشية في مقاطعة بوينس ايريس اسواقهم بفضل التجارة الحرة. والحال أن وودباين باريش، القنصل البريطاني في لا بلاتا، قد وصف عام ١٨٣٧ الغاوشو على النحو التالي، "خذوا كل معداته - تأملوا كل متعلقاته - ما الذي ليس بريطانيا فيها فيما عدا الأشياء المصنوعة من الجلد الخام؟ أن كانت زوجته ترتدي عباءة، فعلى الأغلب نسبة عشرة إلى واحد أنها قد صنعت في مانشستر، أن الطنجرة التي يطهو فيها طعامه، والآنية الخزفية التي يأكل منها، والسكين، والبونشو الذي يرتديه، والمهماز، واللجام جميعها مستوردة من إنجلترا"[٢٧٠]. بل أن الأرجنتين كانت تستورد احجار ارصفتها من بريطانيا.

وكان جميس واطسون ويب، سفير الولايات المتحدة في ريو دي

جانيرو قد ذكر في نفس الفترة، "يرتدي السيد وعبيده في كافة مزارع البرازيل، ملابس أنتجها العمل الحر. وتسعة اعشارها بريطانية. إن بريطانيا تقدم كل الرساميل اللأزمة للتحسينات الداخلية في البرازيل، وتنتج كل الأدوات التي يستخدمها الجميع، من المجراف إلى كل ما يفوقه أهمية، كما تنتج كل السلع الترفية والعملية تقريبا، من الدبوس إلى أغلى الملابس. إن المنتوجات الخزفية البريطانية، والسلع البريطانية المصنوعة من الزجاج، أو الحديد، أو الخشب منتشرة انتشار المنتوجات البريطانية المصنوعة من الصوف والملابس القطنية البريطانية. وتزود بريطانيا العظمى البرازيل بسفنها البخارية والبحرية، وتمهد وتصون شوارعها، وتضيء مدنها بالغاز، وتبني سككها الحديدية، وتستغل مناجمها، وهي ممولها، وتنشيء شبكة اتصالاتها التلغرافية، وتنقل بريدها، وتصنع اثاثها، ومحركاتها، وعرباتها..."[٢٧١].

لقد انفلتت زمام تجارة الموانئ نتيجة انطلاق التجارة الحرة، فكانت البرازيل في تلك السنوات تستورد أيضاً التوابيت المكسوة لاستقبال الموتى، وسروح الركوب، وثريات الكريستال، والكاسارولات ومزلجات التزحلق على الجليد ـ والتي تعتبر من أكثر الأشياء غرابة بالنسبة إلى السواحل الاستوائية، وكذلك محافظ الجيب (مع أن البرازيل لم يكن لديها عملات ورقيه) والكثير من الاشياء التي لا يمكن تبريرها من الأدوات الحسابية[٢٧٢]. لقد فرضت معاهدات التجارة والملاحة الموقعة في عام ١٨١٠ ضريبة على الواردات الإنجليزية أقل من الضريبة المفروضة على الواردات البرتغالية وقد ترجمت نصوصها من الإنجليزية ترجمة شنيعة بحيث أن كلمة "سياسة" مثلا، قد حولت بسحر ساحر إلى الكلمة البرتغالية المقابلة لكلمة "شرطة"[٢٧٣]. وكان البريطانيون في

البرازيل يتمتعون بنظام قضائي خاص بهم مما حررهم من ولاية المحاكم القومية عليهم، لقد كانت البرازيل "عضوا غير رسمي في الإمبراطورية الاقتصادية لبريطانيا العظمى"(٢٧٤).

وقد عاين رحالة سويدي زار بالبارايسو في منتصف القرن البذخ والتفاخر الذين أنتجتهما التجارة الحرة في تشيلي. وكتب قائلا، "ان السبيل الوحيد إلى الصعود في العالم هو الخضوع لإملاءات مجلات الموضة الباريسية، للفراك الأسود وكل الاكسسوارات المرتبطة به. فتشتري السيدة قبعة جديدة تجعلها تشعر بانها باريسية بشكل ظاهر للعيان، بينما يرتدي الزوج ربطة عنق غالية، غير مرسلة ليتهيأ له أنه قد بلغ قمة الثقافة الأوروبية"(٢٧٥). وكانت ثلاث أو أربعة احتكارات بريطانية قد استولت على سوق النحاس التشيلي وتلاعبت بالأسعار بما يتماشى مع انسب مصالح المسابك في سوانسي، وليفربول، وكارديف. وقد أبلغ القنصل البريطاني العام حكومته في عام ١٨٣٨ "النمو الهائل" في مبيعات النحاس، المصدر أساساً، وأن لم يكن بالكامل، "في سفن بريطانية أو لحساب بريطانيين"(٢٧٦). وقد احتكر رجال الأعمال البريطانيون التجارة في سانتياغو وبالبارايسو، وكانت تشيلي السوق الثانية بين أهم أسواق المنتجات البريطانية في أمريكا اللاتينية.

ان موانئ أمريكا اللاتينية الكبيرة، والتي كانت ثروات أراضيها وباطن أراضيها تمر بها في طريقها إلى مراكز القوة البعيدة، كانت تبنى كأدوات لفتح البلدان التي تخصها وللسيطرة عليها، وكقنوات لاستنزاف دخل الأمم. وبينما كانت الموانئ والعواصم تحاول أن تبدو مثل باريس أو لندن، كانت الصحراء الجرداء تنتشر خلفها.

الحماية والتجارة الحرة في أمريكا اللاتينية، التحليق الذي لم يدم طويلا للوكاس الأمان

لقد ساعد اتساع الأسواق الأمريكية اللاتينية على تسارع تراكم رأس المال في احضان الصناعة البريطانية. لقد كان المحيط الأطلسي لبعض الوقت الطريق الرئيسي للتجارة العالمية واستثمر البريطانيون موقع جزيرتهم استثمارا ذكيا - المحاطة بالموانئ والواقعة في منتصف الطريق بين بحر البلطيق والبحر المتوسط، والمواجهة للسواحل الأمريكية. كانت بريطانيا تنظم نظاما عالمياً وكانت تتحول إلى مصنع هائل يزود المعمورة بالمنتجات، لقد كان العالم كله يزودها بالمواد الخام ويحصل منها على السلع المصنعة التي تنتجها. وكانت الإمبراطورية تملك أكبر ميناء واقوى جهاز مالي في عصره. وأعلى مستوى من مستويات التخصص التجاري، واحتكارا عالمياً في مجالي التأمين والشحن، وسيطرة على سوق الذهب الدولية. وقد أشارفريدريك ليست، أب الاتحاد الجمركي الألماني، ذات مرة، إلى أن التجارة الحرة هي السلعة الرئيسية التي تصدرها بريطانيا[٢٧٧]. وما من شيء اثار غضب البريطانيين الشديد كالحماية، وقد عبروا أحيانا عن هذا الغضب بلهجة عنيفة. كما حدث خلال حرب الافيون ضد الصين. ولم تصبح المنافسة الحرة حقيقة واقعة في نظرهم إلا بعد أن تأكدوا من انهم القوة الأقوى، وبعد أن طوروا صناعة نسيجهم تحت مظلة أكثر تشريعات الحماية صرامة في أوروبا. فعندما كانت الصناعة البريطانية ما تزال بعيدة عن الصدارة في الاوقات الأولى العصيبة، كان يحكم على الإنجليزي الذي يضبط وهو يصدر الصوف الخام بقطع يده اليمنى، وكان يشنق إذا عاود اقتراف هذه الخطيئة. وكان يحظر دفن جثة دون الحصول سلفا على شهادة من قسيس الأبرشية بأن الكفن تم صناعته في مصنع بريطاني[٢٧٨].

وقد كتب ماركس يقول، "إن كافة الظواهر المدمرة التي تقود إليها المنافسة اللا المحدودة في بلد ما، يعاد إنتاجها بمقاييس أكثر جسامة في السوق العالمية"[٢٧٩]. ولقد حصل ـ ضمن هذا الإطار العام هذا لدخول أمريكا اللاتينية في الدائرة البريطانية ـ الذي لن تتنازل عنه إلا لتدخل في الفلك الأمريكي، وقد توطدت ضمنه تبعية البلدان المستقلة الجديدة. لقد نجمت آثار محزنة على التدأول الحر للسلع، وعلى التدأول الحر للأموال من أجل السداد وتحويل رأس المال.

كتب تشابيث اوروثكو قائلاً أن فيثينتي جيريرو قد وصل إلى سدة السلطة في المكسيك في عام ١٨٢٩ على اكتاف الحرفيين، الذي أشعل ناره الديماغوجي الكبير لورنثو دي ثافلا محرضا الجماهير الجائعة، للهجوم على المحال المتخمة بالمنتوجات البريطانية. وسرعان ما سقط جيريرو وسط لا مبالاة العمال، لأنه لم يكن يريد أو لم يكن قادرا على وقف تدفق السلع الأوروبية، "والتي أدت كثرتها إلى انتشار البطالة بين الجماهير الحرفية المدينية والتي كانت تتمتع قبل الاستقلال ـ خاصة في فترات الحرب في أوروبا ـ بقسط متواضع من يسر الحال"[٢٨٠]. وكانت الصناعة المكسيكية تشكو من غياب الرساميل، وقوة العمل، والتقنيات الحديثة، ولم تكن منظمة تنظيما كفؤا، وكانت تفتقر إلى وسائل المواصلات والنقل إلى الأسواق ومنها وإلى مصادر الإمداد. وقد كتب الونسو اغيلار ـ يقول، "لعل الشيء الوحيد الذي كان لدى المكسيك هو التدخل، والقيود، وكافة أنواع العقبات"[٢٨١].على أن الصناعة، كما أشار إلى ذلك فون هومبولت، قد نمت عندما كانت التجارة الخارجية راكدة، وعندما كانت المواصلات البحرية قابلة للتوقف أو عرضة لاعتراض سبيلها، وقد بدأت صناعة الصلب واستخدام الحديد والزئبق. وقد اضافت الليبرالية التي صاحب الاستقلال لآلئ جديدة إلى التاج

البريطاني وأدت إلى شلل ورش صناعة النسيج والصناعات التعدينية في مكسيكو سيتي، وبويبلا، وغوادا لاخارا.

لقد حذر لوكاس الأمان في الوقت المناسب، وهو سياسي قدير، من أن أفكار آدم سميث تتضمن سما قاتلا بالنسبة للاقتصاد القومي، وساعد، بوصفه وزيرا، لإنشاء بنك للائتمان والتسليف لتشجيع التصنيع هو بنك آبيو. وكان يمكن للمكسيك شراء الآلات والمعدات من الخارج لتلبية احتياجاتها الخاصة من الملابس القطنية، عن طريق فرض ضرائب على المنسوجات القطنية الأجنبية،. فقد كانت البلاد تملك المادة الخام والطاقة المائية ـ الأرخص من الفحم ـ وكان يمكنها تدريب عمال جيدين بسرعة. وقد بدأ البنك أعماله في عام ١٨٣٠ وسرعان ما وصلت آلات غزل ونسج القطن الحديثة من أفضل المصانع الأوروبية، كما استأجرت الدولة خبراء أجانب في تقنيات النسج. أنتجت في عام ١٨٤٤ مصانع بويبلا الكبيرة ٤,١ مليون قطعة من القطن الثقيل. وتجاوزت الطاقة الصناعية الجديدة للبلاد الطلب الداخلي، ولم يكن بوسع السوق الاستهلاكية في "مملكة اللامساواة"، المؤلفة في معظمها من هنود جوعى، دعم النمو الصناعي الجامح. وقد اصطدم الجهد الرامي إلى كسر البنية الكولونيالية الموروثة بهذا الحائط. على أن الصناعة كانت قد أصبحت حديثة إلى درجة أن مصانع النسيج الأمريكية الشمالية كان متوسط مغازلها أقل من متوسط المغازل في المكسيك في عام ١٨٤٠[٢٨٢]. وكان قد تم ما هو أكثر من مجرد قلب النسبة بعد ذلك بعشر سنوات. فانعدام الاستقرار السياسي، والضغط من جانب التجار البريطانيون والفرنسيين وشركائهم المحليين الأقوياء، وهزال السوق الداخلية التي خنقها مقدما اقتصاد التعدين والملكيات الزراعية الكبيرة، كان قد دمر التجربة. وكانت صناعة النسيج المكسيكية قد توقفت عن

التطور بحلول عام ١٨٥٠. وكان مؤسسو بنك الائتمان والتسليف قد وسعوا مجال عملهم، وعندما زال البنك، كانت ائتماناته تشمل أيضاً مصانع المنسوجات الصوفية، ومصانع السجاد، ومصانع إنتاج الورق والحديد. وقد أكد ايستيبان دي انتونيانو على حاجة المكسيك إلى خلق صناعة آلات ورقية بأسرع ما يمكن "للتصدي للأنانية الأوروبية". وتكمن المأثرة العظيمة لدورة التصنيع التي قام بها الأمان وانتونيانو في أن كلا من الرجلين قد استعادا التطابق بين "الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي، وأشاد بالتصنيع بوصفعه الدفاع الوحيد ضمم امم قوية، وقد أصبح هو نفسه رجلا صناعيا، فقد شيّد أكبر مصنع للنسيج في المكسيك في ذلك الوقت (وهو ما يزال قائماً حتى اليوم ويحمل اسم كوكولابان)"[٢٨٣]. ونظم رجال الصناعة الآخرين كجماعة ضغط ضد حكومات التجارة الحرة المتعاقبة[٢٨٤]. لكن الأمان، المحافظ والكاثوليكي، لم يمس قط المسالة الزراعية لكونه كان يشعر بالارتباط بالنظام القديم من الناحية الأيديولوجية. ولم يكن يدرك أن التنمية الصناعية كان لا بد لها من أن تظل معلقة في الهواء، دون مرتكزات دعم، في ذلك البلد الموبوء بالملكيات الزراعية الكبيرة التي لا تحصى وبالبؤس الشامل.

حراب المتمردين وإرث الكراهية الذي خلفه مانويل دي روساس

الحماية في مواجهة التجارة الحرة، البلد في مواجهة الميناء، ذلك هو جوهر النضال في الحروب الاهلية الأرجنتينية في القرن التاسع عشر. إن بوينس ايريس، التي لم تكن أكثر من قرية كبيرة في القرن السابع عشر مؤلفة من أربعمائة بيت، استطاعت أن تتسيد الامة برمتها بعد ثورة

أيار والاستقلال. لقد كانت الميناء الوحيد، وكان كل ما يدخل البلاد أو يخرج منها مجبرا على المرور من خلاله. وتظهر اليوم التشوهات التي فرضتها هيمنتها على الامة، تستوعب العاصمة وضواحيها أكثر من ثلث سكان البلاد وتلعب بأشكال مختلفة دور المدبر لحاجات المقاطعات. وفي تلك الفترة، باحتكارها لإيرادات الجمارك، والبنوك، وإصدار النقود، ازدهرت بوينس ايريس ازدهارا سريعا جدا على حساب المقاطعات الداخلية. لقد استحوذت على إيرادات الجمارك القومية ـ وهي تكاد تشكل كل دخل المدينة الميناء ـ لحسابها الخاص، وانفقت أكثر من نصفها على الحروب ضد المقاطعات ـ والتي كانت تدفع بهذه الطريقة ثمن دمارها[٢٨٥].

من نوافذ الغرفة التجارية التي أنشئت في عام ١٨١٠ في بوينس ايريس كان البريطانيون يراقبون حركة الملاحة بالمنظارات المكبرة، وقد منحوا سكان المدينة الملابس الجميلة، والازهار الاصطناعية واربطة الأحذية، والمظلات، والازرار والشوكولاتة، بينما كان تدفق البونشوات والركابات المنتجة في المصانع ينشر الخراب عبر البلاد. إن تقدير القيمة التي اعطتها السوق العالمية آنذاك لجلود ريو دي لا بلاتا يتطلب من المرء العودة إلى عصر لم تكن فيه اللدائن والالياف الاصطناعية موجودة، ولا كانت يمكن أن تمر بخيال ذهن كيميائي. ولم يكن هناك ما يمكن أن يعادل السهول الساحلية الخصيبة بالنسبة إلى إنتاج الماشية على نطاق واسع. وقد تم اكتشاف، نظام جديد لحفظ الجلود إلى أجل غير مسمى عن طريق معالجتها بالزرنيخ في عام ١٨١٦، وفي الوقت نفسه، كانت ملاحات اللحوم تزدهر وتتزايد اضعافا مضاعفة. كانت البرازيل، وجزر الانتيل، وافريقيا تفتح أسواقها للحوم المجمدة المستوردة واللحوم المملحة التي كانت تقطع قطع، وكان ذلك

المنتوج قد كسب مستهلكين أجانب، وقد شعر المستهلكون الأرجنتينيون بالتغيير. وفرضت الضرائب هكذا على استهلاك اللحوم الداخلي واستبعدت اللحوم من التصدير، وزادت سعر العجول في غضون سنوات قليلة ثلاث مرات وزادت أسعار حظائر تربية الماشية عن قيمة أراضيها. كان الغاوشو قد اعتادوا صيد العجول بحرية تحت السماء المكشوفة للمراعي بدون اسوار، كما اعتادوا اكل أفضل اللحوم ونبذ كل ما يتبقى باستثناء التزامهم الوحيد بتسليم الجلد إلى المالك. لكن الأمور تغيرت. فقد تضمنت إعادة تنظيم الإنتاج خضوع الغاوشو لتبعية وعبودية جديدة، فقد صدر مرسوم في عام ١٨١٥ اعتبر فيه كل ريفي غير مالك خادما، مُلزما بأن يمتلك بطاقة هوية يمنحها له سيده كل ثلاثة أشهر. فهو أما أن يكون خادما أو أن يكون متشردا، وكان المتشردون يجندون، بالقوة، في كتائب حرس الحدود[٢٨٦]. فكريول الأيام الخوالي، والذي كان وقودا للمدافع في الحروب الوطنية، أصبح منبوذا، أو خادم ذليل بائس، أو نفر حقير في الجيش. أو أنه كان يحمل السلاح لينضم إلى العصابات المتمردة. إن هذا الغاوشو العابس، المحروم من كل شيء عدا الاعتزاز والبسالة، قد غذى من قوى حملات الفرسان التي كانت تتحدى مرارا جيوشا جيدة التسليح كانت بوينس ايريس قد ارسلتها[٢٨٧].

وقد أدى انتشار مراعي تربية الماشية الرأسمالية في السهول الساحلية الرطبة إلى اخضاع البلد كله لتصدير الجلود واللحوم، وسار يدا بيد مع دكتاتورية ميناء التجارة الحرة. وإلى أن تمت هزيمته ونفيه، كان خوسيه ارتيغاس القائد البارز لنضال جماهير الكريول ضد التجار وكبار ملاك الأراضي المرتبطين بالسوق العالمية، وقد تمكن فيليبي باريلا بعد ذلك بسنوات من إشعال نيران تمرد كبير في شمالي الأرجنتين لأن المرء،

كما قال، "يكون متسولا بلا بلد، أو حرية أو حقوق عندما يكون ريفيا. وقد اجتذب تمرده استجابة من المناطق الداخلية باسرها، لقد كاناآخر المتمردين، وقد مات في عام ١٨٧٠، مصابا بالسل ومعوزا[٢٨٨]، وفي التاريخ الذي يُدرس في المدارس الأرجنتينية، فإن هذا المدافع عن "الاتحاد الأمريكي" ـ صاحب مشروع أحياء حلم الامة المجزأة ـ فإنه ما زال يعتبر قاطع طريق كما كانوا يعتبرون أيضاً ارتيغاس الذي كان ينظر إليه النظرة ذاتها حتى وقت قريب جداً.

أما فاريلا، الذي ولد في قرية نائية بين جبال كاتاماركا، فقد كان شاهدا حزينا للتعاسة التي سببها الميناء المتغطرس البعيد في منطقته. وفي عام ١٨٢٤، عندما كان فاريلا في الثالثة من عمره، لم يكن بوسع كاتاماركا دفع نفقات النواب الذين ارسلتهم إلى المؤتمر التأسيسي في بوينس ايريس. وكانت ميسبونس، وسانتياغو ديل ليسترو، ومقاطعات أخرى في مازق شبيه. وقد أشارمانويل أنطونيو اثيبيدو، نائب كاتاماركا، إلى "التغيير المشؤوم" الذي سببته المنافسة الأجنبية، "لقد كان على كاتاماركا أن تقف موقف المتفرج دون أن يمكنها فعل شئ، في حين أن زراعتها بدائية وباهظة التكاليف، وصناعتها لا تجد مستهلكين لمنتوجاتها.... وتكاد تكون تجارتها غير موجودة الآن"[٢٨٩]. وفي عام ١٨٣٠، لخص البريغادير جنرال بيدور فيريه، النائب من مقاطعة كروينتيس، النتائج المحتملة للحماية التي دعا اليها:

"نعم، من المؤكد أنه سوف يحرم بعض من الأثرياء من تنأول الخمور والمشروبات الكحولية الجميلة مع عشاءهم. أما بالنسبة للطبقات الأقل يسرا فإن الفارق سوف يكون من الصعب رصده في الخمور والمشروبات الكحولية التي تشربها الآن، على أن الفارق سوق يكون ملحوظا في الأسعار، وسوف ينخفض الاستهلاك، وهو أمر ليس سيئا

إلى هذا الحد. لن يرتدوا ريفيونا البونشوات الإنجليزية كما انهم لن يحملوا كرات ولا اربطة الصيد البريطانية، اننا لن نستورد الملابس، والاشياء الأخرى التي يمكننا صنعها بأنفسنا، لكن أحوال كافة الجماعات الأرجنتينية، من الناحية الأخرى، سوف تبدأ في أن تكون أقل بؤسا وسوف يكف الشقاء الفظيع المحكوم علينا به عن مطاردتنا»[٢٩٠].

فرضت حكومة خوان مانويل دي روساس تعريفة جمركية تهدف إلى توطيد الحماية الجمركية بشكل حاسم في خطوة هامة نحو إعادة بناء الوحدة القومية التي مزقتها الحرب، وحظرت استيراد المنتجات المصنوعة من الحديد والصفائح المعدنية المقصدرة، ومعدات ركوب الخيل، والبونشوات، والاحزمة، والنطاقات الصوفية أو القطنية، والملابس الصوفية الخشنة والمنتجات الزراعية، وعجلات العربات والشموع المصنوعة من الشحوم الحيوانية، والامشاط، وفرضت رسوما مرتفعة على المركبات الكبيرة، والاحذية، والملابس، والاسرجة، والفواكه المجففة، والمشروبات الكحولية. ولم تكن توجد ضريبة على اللحوم المنقولة في سفن ارجنتينية، وجرى تشجيع السراجة وزراعة التبغ. وتجلت آثار ذلك سريعا. فحتى معركة كاسيروس التي أدت إلى سقوط روساس في عام ١٨٥٢، كانت السفن التي بنيت في ترسانات كوررينتس وسانتا في تبحر عبر الأنهار، وازدهر أكثر من مائة مصنع في بونيس ايريس، وأشاد جميع الرحالة بالمستوى الممتاز للمنسوجات والاحذية المصنوعة في كوردوبا وتوكومان، ولسيجار سالتا ومنتجات حرفييها، وللخمور ولأنواع البراندي التي كانت تنتجها ميندوثا وسان خوان. وكان صناع الأثاث الفاخر في توكومان يصدرون منتجاتهم إلى تشيلي، وبوليفيا، وبيرو[٢٩١]. وبعد عشر سنوات من صدور القانون،

حطمت مدافع البوارج البريطانية والفرنسية السلاسل الممدودة عبر نهر ريو بارانا لفتح الممرات المائية الداخلية التي كان روساس قد احكم اغلاقها. وجاء الحصار في أثر الغزو. وكانت عشرة نداءات من يوركشاير، وليفربول، ومانشستر، وليدز، وهاليفاكس، وبرادفورد، وقعها ألف وخمسمائة من رجال البنوك، والتجار والصناعيين، دفعت الحكومة البريطانية لاتخاذ تدابير ضد القيود المفروضة على التجارة في لا بلاتا. وقد كشف الحصار عن حدود الصناعات القومية التي كانت عاجزة عن اشباع الطلب الداخلي، رغم التقدم الذي أحرزته في ظل قانون التعريفة الجمركية، فمنذ عام ١٨٤١، كان الإنتاج الصناعي يتميز بالهزال بدلا من اكتساب القوة. وكان روساس يمثل بالدرجة الأولى مصالح أولئك المسيطرين على تربية الماشية في مقاطعة بوينس ايريس، ولم تكن البرجوازية الصناعية موجودة أو لم تخلق لحفز تطور رأسمالية قومية حقيقية، لقد كانت المزرعة الكبيرة لتربية الماشية تحتل صدارة المسرح الاقتصادي، ولم يكن بالإمكان تطبيق سياسة صناعية تطبيقا مستقلا ونشيطا دون القضاء على جبروت مالك المزرعة الكبير المتجه إلى التصدير. ومن الناحية الأساسية، ظل روساس منسجما دائماً مع طبقته. "فالفارس الاحسن في المقاطعة"[٢٩٢]، عازف الجيتار، الراقص والخيال السريع المرموق، الذي كان يمضع بعض أوراق العشب في الليالي المظلمة العاصفة ليحدد موقعه، كان هو نفسه صاحب مزرعة كبيرة تنتج اللحوم المجففة والجلود، وكان كبار ملاك الأراضي قد جعلوه رئيسا لهم. ولا يمكن للأسطورة السوداء التي نسجت فيما بعد حول اسمه أن تخفي الطابع الوطني والشعبي لكثير من تدابيره الإدارية، لكن التناقضات الطبقية تفسر غياب ايه سياسة صناعية ديناميكية، متواصلة ـ باستثناء الجراحة الجمركية[٢٩٣]. ولا يمكن رد هذا الغياب

إلى حالات عدم الاستقرار وحالات نقص الامدادات الناشئة عن الحروب الداخلية والحصار الأجنبي لأنه اليس صحيحا أن ارتيغاس قد تمكن قبل ذلك بعشرين سنة، في معمان ثورة محاصرة، من الجمع بين إصلاح زراعي عميق وسياسات هادفة إلى تصنيع وتوحيد البلاد. لقد قارنت بيبيان ترياس، في كتاب مهم[٢٩٤]، الحماية التي فرضها روساس بسلسلة التدابير التي مدها ارتيغاس من باندا اورينتال (أوروغواي الان)، بين عامي ١٨١٣ و١٨١٥، لتحقيق استقلال حقيقي لمنطقة ولاية لا بلاتا. والحال أن روساس لم يمنع الأجانب من التجارة في السوق الداخلية، ولم يرد إلى الامة إيرادات التعريفة الجمركية التي واصلت بوينس ايريس الاستحواذ عليها، كما لم ينه دكتاتورية الميناء الواحد والوحيد. لكن تأميم التجارة الداخلية وإلغاء احتكار ميناء وجمارك بوينس ايريس كانا حجر الأساس ـ جنبا إلى جنب المسالة الزراعية ـ لسياسة ارتيغاس، وكان ارتيغاس يريد ملاحة حرة في الممرات المائية الداخلية، لكن روساس لم يعط المقاطعات قط هذا المفتاح إلى باب التجارة الخارجية. كما ظل روساس مخلصا بصفة أساسية لمقاطعته المحظوظة. ورغم كل هذه الحدود، ما تزال قومية وشعوبية "الغاوشو الأزرق العينين" تستثير الكراهية ضمن صفوف الطبقات الحاكمة في الأرجنتين. فروساس ما يزال "مذنبا بخيانة الوطن" ـ كما ذكر قانون صادر في عام ١٨٥٧ لم يتسن الغاؤه قط ـ وما تزال البلاد ترفض فتح مقبرة لعظامه، المدفونة في أوروبا. إن الصورة الرسمية المرسومة له هي صورة قاتل مجرم.

ومع القضاء على هرطقة روساس، اعادت الأوليغاركية اكتشاف مصيرها. لقد افتتح رئيس لجنة المعرض الزراعي في عام ١٨٥٨ المعرض بهذه الكلمات، "إننا نقبل متواضعين، إذ ما نزال في طفولتنا،

بإرسال منتجاتنا وموادنا الخام إلى الأسواق الأوروبية حتى تتسنى إعادتها الينا مصنعة من خلال الوسائل القوية التي تملكها أوروبا. إن المواد الخام هي ما تريده أوروبا. لكي تحولها إلى مصنوعات غنية"[٢٩٥].

وكان الكاتب الشهير دومينغو فاوستينو سارمينتو وغيره من الكتاب الليبراليين لا يرون في المونتنيرا الريفية غير رمز للبربرية، والتخلف، والجهل. المفارقة التاريخية التي تضع الريف في مواجهة الحضارة المدينية، البونشو والمتزر في مواجهة الفراك، الحربة والسكين في مواجهة القوات النظامية، الامية في مواجهة المدرسة[٢٩٦]. وقد كتب سارمينتو إلى الرئيس بارتولومي ميتري في عام ١٨٦١ يقول، "حاول عدم الاقتصاد في نزف دم الغاوشو، فهو الشيء الإنساني الوحيد فيهم. وهو سماد يجب افادة البلاد به". لقد كان هذا الاحتقار والكره تعبيرا عن روح معادية للوطنية ومشربة بالاقتصاد السياسي على نحو واضح. وقد قال سارمينتو، "نحن لسنا صناعيين ولسنا ملاحين. وسوف تزودنا أوروبا لقرون عديدة بمصنوعاتها في مقابل موادنا الخام"[٢٩٧].

شن الرئيس بارتولومي ميتري بدءأ من عام ١٨٦٢حرب إبادة ضد المقاطعات وقادتها الأخيرين. وقد كان سارمينتو على رأس الحملة، واتجهت القوات شمالا لقتل الغاوشو "أسوأ الحيوانات التي تسير على قدمين". وفي لا ريوخا، ابدى المتمردون تحت قيادة الجنرال "ال تشاتشو" بنيالوثا، جنرال السهول الذي امتد نفوذه إلى مندوثا وسان خوان، صمودا من الصمودات الأخيرة ضد بوينس ايريس، التي احست أنه قد أن الأوان للقضاء على بنيالوثا. لقد قطعوا رأسه وعلقوها بمسار في ساحة بلازا أولتا، واستكملت السكك الحديدية والطرق الرئيسية سقوط لا ريوخا المدوي الذي كان قد بدأ مع ثورة ١٨١٠، فلقد سببت التجارة الحرة أزمة على حرفييها كما فاقمت من بؤس المنطقة المزمن.

وفي القرن العشرين، يهرب فلاحو لا ريوخا من قراهم في الجبال وفي السهول ويتدفقون على بوينس ايريس لاستجداء العمل، وشأنهم في ذلك شأن فلاحي المقاطعات الفقيرة الأخرى، لا يصلون إلى أبعد من مشارف المدينة. حيث يستقرون إلى جانب سبعمائة ألف من السكان الآخرين ل "المدن البائسة" ويقيمون أودهم قدر الإمكان بفتات من مائدة مأدبة العاصمة الفخمة. وقبل سنوات قليلة، سال سوسيولوجيون المائة والخمسين شخصا الباقين من إحدى قرى لا ريوخا ما إذا كانوا قد لمسوا أي تغير في أحوال جيرانهم السابقين الذين رحلوا ويعودون في زيارات. وقد قال أولئك الذين بقوا بنبرة حسد نعم، أن بوينس ايريس قد حسنت ملابس المهاجرين، وطرائق تعاملهم، وطريقة كلامهم، كما وجد البعض أن المهاجرين قد أصبح لون بشرتهم "أكثر بياضا"[٢٩٨].

كيف أجهزت حرب التحالف الثلاثي ضد الباراغواي على المحاولة الناجحة الوحيدة لتنمية مستقلة

بجواري كان يجلس الرجل في صمت. كاشفا ضوء الظهيرة القوي عن ملامح وجهه الذي يتميز بأنف حاد ووجنتين بارزتين. كنا متجهين إلى اسونثيون من الحدود الجنبوية في باص يتسع لعشرين شخصا وأصبح بسحر ساحر يتسع لخمسين. توقفنا في إحدى المحطات بعد ساعات قليلة. جلسنا في باحة مكشوفة تحت ظلال أوراق اشجار مكتنزة. أمام اعيننا كانت يمتد السطوع المدهش للأرض الحمراء، الغير مأهولة والتي لم تمسها يد إنسان. ومن افق إلى افق لم يكن ثمة ما يزعج شفافية النسيم في باراغواي. اشعلنا سجائرنا، تمتم رفيقي وهو فلاح يتحدث الغوارانية، بكلمات حزينة قليلة بالأسبانية وقال، "نحن اهل باراغواي فقراء وقليلون". وأوضح لي أنه كان قد حاول البحث عن

عمل في مدينة انكارنائيون عندما ذهب إلى هناك إلا أنه لم يستطع ايجاد أي عمل. وكان قد تمكن من تدبير بيسوات قليلة لشراء تذكرة العودة إلى بلده. وقبل ذلك بسنوات. وكان قد جرب حظه عندما كان شابا، في بوينس ايريس والبرازيل الجنوبية. وها قد حان موسم جمع القطن والكثيرون يقررون الرحيل من كافة ارجاء أوروغواي إلى الأرجنتين، كما يفعلون كل عام. "لكنني أصبحت في الثالثة والستين. الجميع يبحثون عن عمل ـ إلا أن قلبي لم يعد يحتمل ذلك".

يقدّر مجموع من غادر الباراغواي، بشكل نهائي، نصف مليون في السنوات العشرين الماضية. فيدفع الفقر بسكان البلد الذي كان، قبل قرن واحد، ضعف ما كان عليه آنذاك، وكان أكثر دول أمريكا اللاتينية تقدما. واليوم الباراغواي بجانب بوليفيا، أصبحت من أفقر البلدان وأكثرها تخلفا في نصف الكرة الأرضية الغربي. وتنبع المحن التي يمر بها سكان باراغواي من حرب إبادة تعد أكثر فصول تاريخ أمريكا الجنوبية خزيا، وقد سموها بحرب التحالف الثلاثي. فاشتركت البرازيل، والأرجنتين واورغواي في اقتراف جريمة الإبادة. لم يتركوا حجر فوق حجر ولا ذكر حي. ورغم أن انجلترا لم تشارك بشكل مباشر في هذا العمل الفظيع، إلا أن الغنيمة قد ذهبت إلى جيوب التجار، ورجال البنوك، والصناعيين البريطانيين. وقد تم تمويل الغزو من البداية إلى النهاية، من طرف بنك لندن، والاخوة بارينج، وبنك روتشيلد، عن طريق قروض بمعدلات فائدة مرتفعة رهنت مصير البلدان المنتصرة[٢٩٩].

حتى تدميرها، كانت باراغواي تتميز بكونها حالة استثنائية في أمريكا اللاتينية، فكانت البلد الوحيد الذي لم يكن قد شوهه رأس المال الأجنبي. وكانت دكتاتورية غاسبار رودريغيث دي فرانثيا (١٨١٤ ـ ١٨٤٠) ذات القبضة الحديدية، قد عملت على تطوير تنمية مستقلة، في

رحم العزلة. لقد حلت الدولة الابوية كلية السلطة مكان بورجوازية قومية لا وجود لها في تنظيم الامة وتوجيه مواردها ومصيرها. وكان فرانثيا قد استخدم الجماهير الفلاحية في سحق أوليغاركية باراغواي، وكان قد وطد السلم الداخلي عن طريق إقامة طوق صحي بين باراغواي والبلدان الأخرى التابعة لولاية لا بلاتا القديمة. ولم ينفع استخدام المصادرات وعمليات النفي، والسجن، والاضطهاد والغرامات لتوطيد القوة الداخلية لكبار ملاك الأراضي والتجار، وانما بالعكس من ذلك، كان قد استخدم من أجل تدميرها. كما أن الحريات السياسية وحق المعأرضة لم تكن موجودة ولن تظهر إلى الوجود فيما بعد، إلا أن انعدام الديمقراطية في تلك المرحلة التاريخية لم يزعج غير الأشخاص الذين كان يجرفهم الحنين إلى الامتيازات الضائعة. ولم تكن هناك ثروات كبيرة عندما مات فرانثيا، وكانت باراغواي هي البلد الأمريكي اللاتيني الوحيد الذي لا يعرف التسول، والجوع، واللصوص[٣٠٠]. وقد وجد رحالة تلك الفترة واحة من الهدوء والروعة وسط مناطق تعصف بها حروب متواصلة. وقد أبلغ العميل الأمريكي هوبكنز حكومته في عام ١٨٤٥ بأنه "لا يوجد في باراغواي طفل لا يعرف القراءة والكتابة". كما أنه البلد الوحيد الذي لم يكن مضطراً لتثبيت انظاره في الجانب الاخر للمحيط. ولم تكن التجارة الخارجية محورا للحياة القومية، ولم يكن المذهب الليبرالي، التعبير الأيديولوجي عن السوق العالمية، يملك ردا على موقف التحدي الذي اتخذته باراغواي ـ التي اجبرتها عزلتها الداخلية على النمو اعتمادا على الداخل ـ منذ بداية القرن. ساعد القضاء على الأوليغاركية الدولة على تجميع مواردها الاقتصادية الرئيسية في يديها، وتنفيذ هذه السياسة الإنمائية الداخلية.

واصلت الحكومات المتعاقبة، التي عملت بعد كارلوس أنطونيو

لوبيث وابنه فرانشيسكو سولانو، المهمة وأضفت الحيوية عليها. وعندما ظهر الغزاة في الأفق في عام ١٨٦٥ كان الاقتصاد في حالة نمو متواصل. في باراغواي كانت توجد شبكات للتلغراف، وسكة حديدية، ومصانع عديدة تنتج مواد البناء، والمنسوجات، والملابس الكتانية، والبونشوات، والورق والحبر، والأواني الخزفية، والبارود. وقد قدم مائتان من الفنيين الأجانب، الذين دفعت الدولة رواتب سخية لهم، مساهمة حاسمة. واعتبارا من عام ١٨٥٠، كان مسبك ايبيكوي ينتج البنادق، ومدافع الهاون، وذخيرة من كافة الاعيرة وكانت الترسانة الموجودة في اسونثيون تنتج المدافع البرونزية ومدافع هاوتزر، والذخيرة، وكانت صناعة الصلب، شانها في ذلك شان جميع الأنشطة الاقتصادية الرئيسية الأخرى، تخص الدولة، وكان قد شيّد اسطول تجاري، وكانت ترسانة اسونثيون تنتج الكثير من السفن التي ترفع علم باراغواي في بارانا وعبر المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. وقد احتكرت الدولة التجارة الداخلية احتكارا كاملا، وكانت تزود الجزء الجنوبي من القارة مادة المتة والتبغ وتصدر اخشابا ثمينة إلى أوروبا. وقد حقق الميزان التجاري فائضا كبيرا. ومع تواجد عملة قوية ومستقرة، كانت باراغواي ثرية بما فيه الكفاية لتقوم بتنفيذ اشغال عامة ضخمة دون اللجوء إلى رأس المال الأجنبي. ولم تكن البارغواي مدينة للخارج بسنت واحد، وقد استطاعت بالرغم من ذلك على الاحتفاظ بأفضل جيش في أمريكا الجنوبية، ومن التعاقد مع فنيين بريطانيين لخدمة الدولة بدلا من وضع الدولة في خدمتهم، ومن ارسال بعض الطلاب الجامعيين لاستكمال دراساتهم في أوروبا. ولم يتم تبديد الفائض الاقتصادي من الإنتاج الزراعي في الترف العقيم على يد الأوليغاريكية (التي لم يكن لها وجود)، كما أنه لم يذهب إلى جيوب سمأسرة أو

الأيدي الساحرة للمقرضين، ولا اعطى المجال لتعزيز أرباح شركات الإمبراطورية البريطانية العاملة في مجالي الشحن والتامين. إن الاسفنجة الإمبريالية لم تستطع شفط الثروة التي أنتجها البلد. وكانت نسبة ثمانية وتسعين في المائة من أراضي باراغواي ملكية عامة، وقد اعطت الدولة حق حيازة الأرض للفلاحين في مقابل العمل فيها بصفة دائمة وفلاحتها دون الحق في بيعها. كما كانت هناك أربع وستون "مزرعة وطنية" وهي مزارع كبيرة تدير الدولة شؤونها إدارة مباشرة. وقد ساعدت شبكات الري، والسدود، والقنوات، والجسور والطرق الجديدة، مساعدة مهمة في زيادة الإنتاج الزراعي. وقد تم إعادة الاعتبار لتقاليد السكان الأصليين الخاص بزراعة محصولين في السنة، وكان الغزاة الاسبان قد تخلوا عنه. ومما لا شك فيه أن التشجيع للتقاليد اليسوعية قد ساهم في هذا العمل الأبداعي[٣٠١].

اتبعت الدولة سياسة حماية متشددة، تم تعزيزها في عام ١٨٦٤ أكثر، بغية حماية الصناعة القومية والسوق الداخلية، ولم تكن الممرات المائية الداخلية مفتوحة في وجه السفن البريطانية التي كانت تمطر بقية أمريكا اللاتينية بكميات هائلة من منتجات مانشستر وليفربول. ولم تستطع دوائر التجارة البريطانية اخفاء قلقها، ليس فقط لكون هذه القلعة الأخيرة للمقاومة القومية في قلب القارة قد بدت منيعة حصينة، وانما أيضاً وبوجه خاص بسبب المثال الذي يضربه عناد باراغواي لجيرانها. فالبلد الأكثر تقدمية في أمريكا اللاتينية يبني مستقبله دون استثمارات أجنبية، ودون قروض البنوك البريطانية، ودون بركات التجارة الحرة.

إلا أن تقدم الباراغواي، جعلت حاجتها للخروج من عزلتها أمرا ملحا. وكانت التنمية الصناعية تتطلب علاقات وثيقة ومباشرة أكثر مع السوق الدولية ومع مصادر التقنيات المتقدمة. وكانت باراغواي محاصرة

فعلياً من الأرجنتين ومن البرازيل، وكان يمكن لهذين البلدين منع الاوكسين عن رئتي الباراغواي عن طريق اغلاق مصبات الأنهار (كما فعل ريفادافيا وروساس) أو عن طريق فرض ضرائب تعسفية على مرور سلعها. لقد كان من الضروري لتوطيد الدولة الأوليغاركية محو أثر الفضيحة التي كان يثيرها هذا البلد الكريه، المكتفي ذاتيا والغير راضي بالرضوخ للتجار البريطانيين.

لقد لعب إدوارد ثورنتون، الوزير البريطاني في بوينس ايريس، دورا رئيسيا في التحضير للحرب. وشارك عشية الحرب، كمستشار حكومي في اجتماعات مجلس وزراء الأرجنتين، حيث كان يجلس إلى جوار الرئيس ميتري. وبرعايته الثاقبة تمت حياكة شرك الاستفزازات والخدع، والذي انتهى باتفاق برازيلي ـ ارجنتيني حسم مصير باراغواي. وقد غزا فينانثيو فلوريس أوروغواي، بمساعدة الجارتين الكبيرتين، وبعد مذبحة بياساندو اقام حكومة في مونتفيديو تأتمر بأوامر ريو دي جانيرو وبوينس ايريس. وكان التحالف الثلاثي قد بدأ يأخذ شكله. كان سولانو أوربيث، رئيس باراغواي، قد هدد بالحرب إذا ما تم الهجوم على أوروغواي، وكان يعلم أن هجوم من هذا النوع سوف تخنق بلاده ككماشة حديدة، وهي المطوقة بالجغرافيا وبالعدو. وبالرغم من ذلك، زعم المؤرخ الليبرالي ايفرايم كاردوزو بوقاحة أن لوبيث لم يقف في وجه البرازيل إلا لأنه تم اهانته إهانة شخصية، لقد رفض الامبراطور طلبه يد إحدى بناته. لقد بدأت الحرب فعليا. كان الأمر من تدبير الآلهة عطارد لا بسبب كيوبيد.

وقد وصفت صحف بوينس ايريس لوبيث بأنه "اتيلا أمريكا". وكانت المقالات الافتتاحية تطالب صارخة، "يجب قتله كما تقتل الزواحف". وأرسل ثورنتون تقريرا سريا مطولا إلى لندن في أيلول عام

١٨٦٤، مرسلا من اسونثيون. وقد وصف باراغواي كما وصف دانتي الجحيم، لكنه ركّز حيث في التالي، "ان رسوم الاستيراد على كل السلع تقريبا تتراوح بين ٢٠ و٢٥ في المائة من القيمة، ولكن بما أن هذه القيمة تحسب على أساس السعر الجاري للسلع، فإن الرسم المدفوع غالبا ما يصل إلى نسبة تتراوح بين ٤٠ و٤٥ في المائة من السعر المحدد في الفاتورة هذا بينما تتراوح رسوم التصدير بين ١٠ و٢٠ في المائة من القيمة..." وفي نيسان ١٨٦٥، كانت صحيفة "ذي ستاندرد اليومية الصادرة بالإنجليزية في بوينس ايريس، ترحب بالفعل بإعلان الأرجنتين الحرب على بارغواي، التي وصفت رئيسها بأنه قد "انتهك كافة أعراف الأمم المتحضرة"، وأعلنت أن سيف الرئيس الأرجنتيني ميتري "يستند في مسيرته المظفرة، إضافة إلى ثقل الامجاد الماضية، إلى الهجوم الذي لا يقأول للرأي العام في قضية عادلة". وقد وقعت المعاهدة مع البرازيل، وأوروغواي في أول أيار ١٨٦٥، ونشرت شروطها الوحشية بعد سنة في صحيفة التايمز اللندنية، التي حصلت على النص من المقرضين المصرفيين للارجنتين والبرازيل. واقدم منتصرو المستقبل على توزيع غنائم المهزوم مقدما. فقد تأكدت الأرجنتين من الحصول على مجمل أراضي ميسيونيس وأراضي التشاكو الواسعة، كما قررت البرازيل على انتزاع رقعة شاسعة غربي حدودها. أما أوروغواي، التي تحكمها حكومة عميلة لكل من الدولتين، فلم يكن من نصيبها شئ. وقد أعلن ميتري أنه سوف يستولي على اسونثيون في خلال ثلاثة أشهر، لكن استمرت الحرب خمس سنوات. لقد كانت مذبحة على مدار الحصون المدافعة عن نهر الباراغواي. ولقد جسّد "الطاغية الوضيع" فرانسيسكو سولانو لوبيث دور بطل الإرادة القومية في البقاء، وقد وقف شعب باراغواي إلى جانبه مستبسلا مستشهدا،

وهو الشعب الذي لم يعرف الحرب على مدار نصف قرن. لقد حارب الرجال والنساء، الصغار والكبار، كالأسود. وكان الاسرى الجرحى ينزعون ضمادات جروحهم كي ينزف منها الدم حتى لا يجبروا على القتال ضد اخوانهم. واتجه لوبيث إلى الغابات في عام ١٨٧٠، على رأس جيش من الاشباح، من الشيوخ والأطفال الذي وضعوا على ذقونهم لحى مستعارة لخلق انطباع بأنهم رجال من بعيد. واقتحمت القوات الغازية حطام اسونثيون والسكاكين بين أسنانها. وعندما قتلت الرصاصات والحراب رئيس باراغواي أخيراً في تلال كورا، استطاع أن يلفظ آخر كلماته قائلا، "إنني أموت مع بلادي". وكان ذلك صحيحا. لقد ماتت باراغواي معه بالفعل. كان لوبيث قد سبق له أن أصدر الأوامر بإعدام أخيه وأسقف كانا قد صحباه في قافلة الموت تلك. وقد جاء الغزاة لتخليص شعب باراغواي، فتمت ابادة هذا الشعب.

كان عدد سكان باراغواي عندما بدأت الحرب أقل من عدد سكان الأرجنتين بقليل. ولم يبق في عام ١٨٧٠ غير ٢٥٠,٠٠٠، أي أقل من السدس، وكان ذلك هو انتصار الحضارة. والواقع أن المنتصرين، وقد استنزفتهم التكاليف الباهظة للجريمة، فارتموا في أحضان رجال البنوك الذين مولوا المغامرة. على أن امبراطورية بيدرو الثاني العبودية، والتي كان جيوشها مليئة بالعبيد والأسرى، قد كسبت أكثر من عشرين ألف ميل مربع من الأرض - بالإضافة إلى قوة العمل، لأن الاسرى الذين اقتيدوا من بارغواي للعمل في مزارع البن في ساو بأولو قد عوملوا معاملة العبيد. أما أرجنتين الرئيس ميتري، الذي كان قد سحق قادته الاتحاديين، فقد كسب ستة وثلاثين ألف ميل مربع من أراضي بارغواي، بالإضافة إلى غنائم أخرى، فكتب يقول، "سوق نقتسم الاسرى ومعدات الحرب الأخرى بصورة مناسبة". أما أوروغواي،

حيث قتل ورثة ارتيغاس أو هزموا وصعدت أوليغاركية إلى سدة الحكم، فقد شاركت في الحرب كشريك أصغر من أن تفوز بشيء ودون أي تعويض يذكر. والحال أن بعض جنود أوروغواي الذين أرسلوا إلى حملة باراغواي كان يجري شحنهم في السفن وأيديهم مقيدة. وأدى الإفلاس المالي للبلدان الثلاثة إلى تعميق اعتمادها على بريطانيا. لقد تركت مذبحة باراغواي بصماتها على هذه الدول إلى الأبد[٣٠٢].

لقد أدت البرازيل الدور الذي حدده لها البريطانيون، منذ أن نقلوا العرش البرتغالي إلى ريو دي جانيرو. وكانت تعليمات اللورد كاننيغ إلى السفير، اللورد سترانغفورد، في أوائل القرن التاسع عشر، واضحة كل الوضوح، "يجب العمل على جعل البرازيل سوقا للمنتوجات البريطانية المتجهة إلى الاستهلاك في أمريكا الجنوبية بأكملها". وقبل وقت قليل من خوض غمار الحرب، ادلى الرئيس الأرجنتيني، عند افتتاحه خط سكك حديدية بريطانية جديدا، بكلمة حماسية، "ما هي القوة المحركة لهذا التقدم؟ أيها السادة، أنها رأس المال البريطاني!". وفي باراغواي المهزومة، فلم يختفي السكان وأجزاء شاسعة من الأرض، وانما التعريفة الجمركية أيضاً. المصاهر، والانهار المغلقة أمام التجارة الحرة، والاستقلال الاقتصادي، والأراضي الشاسعة. غرس الفاتحون التجارة الحرة واللاتيفونديا الجشعة في ما تبقى من الأراضي المنهوبة. لقد جرى نهب كل شيء وتم بيع كل شيء. الأراضي والغابات، والمناجم، المزارع، المدارس. وستضع قوات الاحتلال حكومات متعاقبة كالعرائس في اسونثيون. ولم تكد الحرب تنتهي حتى وقع أول قرض أجنبي في تاريخ باراغواي على الأنقاض التي يتصاعد منها الدخان. وكان قرضا بريطانيا بالطبع، لقد كانت قيمته مليون جنية إسترليني، إلا أن ما وصل باراغواي كان أقل من نصف هذا المبلغ بكثير، وفي السنوات التالية،

أدت إعادة التمويل إلى زيادة الدين إلى أكثر من ٣ مليون جنيه إسترليني. وكانت حرب الافيون قد انتهت في عام ١٨٤٢ بتوقيع معاهدة في نانكين تبيح للتجارة الحرة، وتكرس حق التجار البريطانيين في ادخال المخدر دون قيود إلى الصين، وأصبح علم التجارة الحرة فوق باراغواي أيضاً. وتم التخلي عن زراعة القطن ودمرت مانشستر صناعة المنسوجات، ولم تعد الصناعة القومية إلى النهوض أبدا.

إن حزب الكولورادو، الذي يحكم باراغواي اليوم، يتاجر بذكرى الابطال، لكن ميثاق تأسيسه يحمل توقيعات اثنين وعشرين من خائني سولانو لوبيث، من "المحاربين القدماء" الذين عملوا مع قوات الاحتلال البرازيلية. إن الدكتاتور الفريدو ستروينسر، الذي قضى السنوات الخمس عشرة الأخيرة في تحويل باراغواي إلى معسكر اعتقال كبير، كان قد تلقى تدريبه العسكري على يد الجنرالات البرازيليين، الذين اعادوه إلى باراغواي بأعلى الدرجات وأكثر الاشادات حرارة، "انه يستحق مستقبل عظيم.". وانعم ستروينستر على البرازيل، خلال عهده، وعلى سادتها الأمريكيين بالمكانة المهيمنة التي كانت تحتلها المصالح الأنجلو ـ أرجنتينية في العقود السابقة، والأمر أن البرازيل والأرجنتين، اللتين "حررتا" باراغواي بهدف التهامها، كانتا قد تناوبتا على التمتع بثمار النهب منذ عام ١٨٧٠، لكنهما ارغمتا من جانب القوة الإمبريالية السائدة على أن تحملا صليبيهما. لقد حملت باراغواي عبء الإمبريالية والإمبريالية من الباطن. وكانت الإمبراطورية البريطانية تمثل الحلقة الرئيسية في سلسلة التبعيات، أما اليوم، فالولايات المتحدة، التي تفهم جيداً الأهمية الجغرافية السياسية لهذا البلد الواقع في قلب أمريكا الجنوبية، تحتفظ بمستشارين لا حصر لهم يدربون القوات المسلحة ويقدمون لها المشورة، ويعدّون الخطط الاقتصادية، ويعيدون

صوغ الجامعة بما يتفق وأهوائهم، ويبتدعون سياسة "ديمقراطية" جديدة للبلاد، ويكافئون خدمات النظام السخية بقروض مرهقة[٣٠٣].
وباراغواي هي مستعمرة لمستعمرات أخرى. إن حكومة ستروسنر، مستخدمة الإصلاح الزراعي كذريعة، قد الغت الحظر القانوني المفروض على بيع الأراضي المتاخمة للحدود للأجانب، وقد وقعت أراضي الدولة نفسها اليوم في أيدي ملاك مزارع البن البرازيليين. لقد عبرت الموجة الغازية نهر ريو بارانا بتواطؤ من الرئيس، وبالاشتراك مع كبار ملاك الأراضي المتكلمين بالبرتغالية. عندما وصلت إلى حدود باراغواي الشمالية الشرقية التي دخلت عليها التعديلات، كانت معي أوراق بنكنوت بها صورة سولانو لوبيث المهزوم، لكنني اكتشفت أن أوراق البنكنوت التي تحمل صورة الامبراطور بيدرو الثاني المنتصر هي وحدها المتدأولة، فبعد مرور قرن، ما تزال نتائج وارهاصات حرب التحالف الثلاثي. يطلب حرس الحدود البرازيلي جوازات سفر من مواطني باراغواي الذين لا يريدون سوى التحرك سوى في بلدهم. والاعلام والكنائس برازيلية. كما أن القرصنة البرية تستولي على شلالات غوايرا، أعظم مصدر محتمل للطاقة في أمريكا اللاتينية كلها، وهي تسمى الآن ـ بالبرتغالية ـ سيتي كيداس، ومنطقة ايتايبو، وقد أعلن أن البرازيل سوف تبنى في هذا المكان أعظم محطة للطاقة المائية في العالم.

والإمبريالية الفرعية أو الإمبريالية من الدرجة الثانية، لها ألف وجه. وعندما قرر الرئيس جونسون في عام ١٩٦٥ اغراق الشعب الدومينيكاني في بحر من الدماء، أرسل ستروسنر بعض جنود باراغواي لمساعدته.، سميت الكتيبة في سخرية خبيثة "كتيبة المارشال سولانو لوبيث". وكان جنود باراغواي تحت امرة جنرال برازيلي، لأن البرازيل هي التي تلقت

البركات والمدائح، لقد قاد الجنرال باناسكو الفيم ترأس القوات الأمريكية اللاتينية المتواطئة الأمريكيتين في المجزرة. وتوجد أمثلة مماثلة أخرى كثيرة. لقد منحت باراغواي البرازيل امتيازا نفطيا في أراضيها، بينما أصبحت استثمارات توزيع الوقود والاستثمارات البتروكيميائية في البرازيل في أيد أمريكية. وتهيمن البعثة الثقافية البرازيلية على كلية الفلسفة والتربية في جامعة باراغواي، لكن الأمريكيين الشماليين يديرون الآن جامعات البرازيل، والأركان العامة لجيش باراغواي لا تتلقى المشورة من فنيي البنتاغون وحدهم وإنما أيضاً من الجنرالات البرازيليين الذين، بدورهم، يعدون بالنسبة إلى البنتاغون كصدى بالنسبة إلى صوت. ومن خلال قنوات التهريب المفتوحة، تغزو المنتجات الصناعية البرازيلية سوق باراغواي، لكن مصانع ساو بأولو التي تنتجها منذ أيام الخصخصة الشركات الأمريكية منذ إعصار نزع التأميم الذي ثار في السنوات الأخيرة.

ويعتبر ستروسنر وريثا للوبيث. ولكن كيف يمكن مقارنة باراغواي قبل قرن مضى على قدم وساق مع باراغواي اليوم، التي أصبحت سوق تهريب حوض لا بلاتا ومملكة الفساد الذي أصبح مؤسسة متكاملة؟ وبينما كان التصفيق والهتاف العاصفان يحييان في تظاهرة سياسية إعلان الحزب الحاكم تمسكه بباراغواي لوبيث وباراغواي ستروسنر، أخذ شاب صغير ينادي علانية على سجائر مهربة أمام طاولة للبيع، كنت، مارلبورو، كاميل وبنسون اند هيدغز. أما الطبقة المتوسطة الهزيلة في اسونثيون فهي تشرب ويسكي بالانتاين المتسورد بدلا من شراب الباراغواي. ويستطيع المرء في الشوارع رؤية السيارات الفارهة من أحدث طراز وصنعت في الولايات المتحدة أو أوروبا، دخلت البلاد عن طريق التهريب أو أثر سداد رسم جمركي تافه، تسير إلى جانب

عربات تجرها الثيران تحمل الفاكهة ببطء إلى السوق، الأرض تجري فلاحتها بالمحاريث الخشبية بينما التاكسيات فورد من طراز امبالا موديل عام ١٩٧٠. ويقول سترويسنر عن التهريب بأنه "ضريبة السلام"، فالجنرالات يملؤون جيوبهم ولا يحيكون مؤامرات. وطبيعي أن الصناعة تدخل مرحلة الاحتضار قبل أن يتسنى لها النمو، بل أن الدولة لا تنفذ المرسوم الذي ينص على إعطاء الأولوية لاستخدام المنتجات المحلية في الانفاق العام، والانتصارات الوحيدة التي تعلن عنها الحكومة بفخر في هذا المجال هي مصانع كوكا كولا وبيبسي كولا وكراش التي أنشئت في أواخر عام ١٩٦٦ كمشاركة أمريكية في تقدم شعب باراغواي.

وتعلن الدولة عدم تتدخلها بشكل مباشر في انشاء المشروعات إلا "عندما لا يُظهر القطاع الخاص اهتماماً"[٣٠٤]. ويبلغ البنك المركزي صندوق النقد الدولي بأنه قد "قرر انشاء نظام سوق للتبادل الحر وإلغاء القيود المفروضة على التجارة وعلى المعاملات النقدية". ويشرح كتيب نشرته وزارة الصناعة والتجارة للمستثمرين أن البلاد تمنح "تنازلات خاصة لرأس المال الأجنبي". فتعفى المشروبات الأجنبية من الضرائب والرسوم الجمركية وذلك "لخلق مناخ مناسب للاستثمار". وقد استعاد الناشيونال سيتي بنك اوف نيويورك كل رساميله المستثمرة في سنة واحدة من النشاط الاستثماري في اسونثيون. ويستولي البنك الأجنبي على المدخرات القومية ويقدم قروضا خارجية إلى باراغواي، وهي قروض تزيد من تشوه اقتصادها وتزيد من رهن سيادتها. وفي الريف، تملك نسبة ١,٥ في المائة من الملاك نسبة ٩٠ في المائة من الأرض الزراعية، بينما لا يزرع غير أقل من ٢ في المائة من المساحة الإجمالية للأرض. أما خطة الاستيطان الرسمية في مثلث كاغوائو فهي تقدم قبور للفلاحين الجائعين أكثر من المكاسب[٣٠٥].

ويتابع التحالف الثلاثي خطواته بنجاح.

إن أفران مسبك ايبيكوي، حيث كان يتم صنع المدفع الذي استخدم في الدفاع عن الوطن الذي تعرض للغزو، وقد حل مكانه ما يسمى الآن "مينا ـ كوي"، التي تعني بالغوارانية "كان منجما". وهناك، وسط المستنقعات والبعوض، قرب حائط متداع، ما يزال بوسعك أن ترى قاعدة مدخنة نسفها الغزاة قبل قرن مضى، وقطعا من الصلب الصدئ المتعفن كانت جزءا من البناء. والواقع أن الفلاحين الاشقياء القلائل الذين يحيون في المنطقة لا يعرفون اية حرب سببت الدمار، لكنهم يقولون أن يمكنهم سماع أصوات الآلات والمطارق، وقصف المدافع، وصيحات الجنود أحيانا.

مساهمة القروض والسكك الحديدية على تشويه اقتصاد أمريكا اللاتينية

كتب رينيه شاتوبريان، وزير خارجة فرنسا في ظل لويس الثاني عشر تقريرا يبدو أنه ناشيء عن علم واضح بما آلت إليه الأمور، "لقد تحولت المستعمرات الأسبانية في ساعة التحرر إلى شيء شبيه بمستعمرات بريطانية"[٣٠٦]. وقد استشهد ببعض الأرقام. وقال أن بريطانيا، قدمت إلى المستعمرات الأسبانية المحررة بين عامي ١٨٢٢ و١٨٣٦عشرة قروض تصل قيمتها الاسمية إلى حوالي ٢١ مليون جنيه إسترليني، إلا أنه بعد خصم الفائدة وعمولات الوسطاء لم يصل إلى أمريكا اللاتينية فعلياً غير نحو ٧ مليون جنيه إسترليني. وفي الوقت نفسه، أنشيء أكثر من أربعين شركة مساهمة في لندن لاستغلال الموارد الطبيعية لأمريكا اللاتينية ـ المناجم، الزراعة ـ ولإنشاء مشروعات خدمة عامة. وانتشرت البنوك في بريطانيا، ففي عام واحد، ١٨٣٦، أنشيء

أكثر من ثمانية وأربعين بنكا. وظهرت السكك الحديدية البريطانية في بنما نحو منتصف القرن، وفي عام ١٨٦٨، دشنت مؤسسة بريطانية أول خط للترام في أمريكا اللاتينية في مدينة ريسيفي البرازيلية. كما كان بنك اوف انجلاند يمول خزانات الحكومات بصورة مباشرة[٣٠٧]. السندات العامة الأمريكية اللاتينية فكانت توزع بنشاط، بأزماتها وازدهارها، في السوق المالية البريطانية. ولما كانت الخدمات العامة للدول الجديدة في أيد بريطانية، فقد واجهت هذه الدول منذ ولادتها تدفقا للانفاقات العسكرية كما كان عليها أن تواجه حالات عجز في مدفوعاتها الخارجية. وكانت التجارة الحرة تنطوي على زيادة جنونية في الواردات، خاصة واردات السلع الكمالية، وكانت الحكومات تستدين، وهو ما كان يدعو بدوره إلى قروض جديدة، حتى تتمكن أقلية من العيش في ترف. وكانت البلاد ترهن مستقبلها مقدما، مبتعدة عن الحرية الاقتصادية والسيادة السياسية. وباستثناء الحالة في باراغواي (التي جرى سحق محاولتها المعاكسة)، كانت العملية متشابهة في كافة انحاء أمريكا اللاتينية ـ وما تزال متشابهة، مع أن الدائنين والآليات قد تغيرت. وقد أصبحت الحاجة إلى التمويل الخارجي ضرورية، شأنها في ذلك شأن حاجة المدمن إلى المورفين. لقد كان يجري فتح ثغرات بهدف سدها. كما أن تدهور المعدلات التجارية للتبادل ليس ظاهرة تخص أيامنا، فوفقا لسيلسو فورتادو[٣٠٨]، هبطت أسعار الصادرات البرازيلية بنسبة ٤٠ في المائة بين ١٨٢١ و١٨٣٠ وبين ١٨٤١ و١٨٥٠، بينما ظلت أسعار الواردات الأجنبية ثابته، وكانت اقتصاديات أمريكا اللاتينية الضعيفة تعوض الهبوط لاجئة إلى القروض.

يقول روبيرت شنيرب: "إن الوضع الاقتصادي لهذه الدول الناشئة ليست على ما يرام... فهي مضطرة للجوء إلى التضخم، الذي يؤدي إلى

تخفيض القيمة الشرائية للعملة، وإلى قروض جائرة. ولا بد من القول أن تاريخ هذه الجمهوريات هو تاريخ التزامات اقتصادية تتحملها تجاه عالم المال الأوروبي الذي يستوعب كل شيء"[٣٠٩].

والواقع أن حالات إشهار الإفلاس، وتأجيل السداد، وإعادة التمويل المستميتة حالات متكررة. فالجنيهات الاسترلينية تتلاشى بالسرعة التي تتلاشى بها المياه بين الأصابع. ومن قرض المليون جنيه إسترليني الذي تفاوضت عليه حكومة بوينس ايريس مع مؤسسة بارنغ براذرز في عام ١٨٢٤، لم تحصل الأرجنتين إلا على ٥٧٠. ٠٠٠ إسترليني، ولم يكن ذلك المبلغ من عملات ذهبية (كما نص على ذلك العقد) وانما من عملات ورقية. وكان القرض عبارة عن حوالات بشأن طلبات مرسلة إلى رجال أعمال بريطانيين في بوينس ايريس، لم يكن لديهم عملات ذهبية يدفعون بها لأن مهمتهم الحقيقية كانت تتمثل في ارسال كل المعادن النفيسة التي تصل إليهم إلى لندن. وهكذا حصلت الأرجنتين على ورق بينما كان عليها أن تدفع ذهبا. ولم تتمكن الأرجنتين من الغاء الدين، الذي كانت عمليات إعادة التمويل قد ضخمته إلى ٤ مليون جنية إسترليني، إلا في أوائل هذا القرن[٣١٠]. وكانت مقاطعة بوينس ايريس قد رهنت بالكامل ـ كل إيراداتها، كل أراضيها العامة ـ ضمانا للسداد. وكما قال وزير المالية في الفترة التي جرى التعاقد فيها على القرض، "لسنا في موقف يسمح لنا باتخاذ تدابير ضد التجارة الخارجية، خاصة البريطانية، لأننا مرتبطون بتلك الامة بديون ضخمة وسوف نعرض أنفسنا لقطيعة من شانها أن تلحق ضررا جسيما..." أن استخدام الديون كأداة للابتزاز، كما يمكننا أن نرى، ليس بدعة أمريكية جديدة.

وقد طوقت مثل هذه العمليات الربوية الأمم الحرة بالقضبان. ويحاول منتصف القرن التاسع عشر، كانت خدمة الدين الأجنبي قد

استوعبت نحو ٤٠ في المائة من ميزانية البرازيل، ووقع كل بلد في المصيدة ذاتها. وشكلت السكك الحديدية ركنا حاسماآخر من أركان قفص التعبية الحديدي، فعندما كانت الرأسمالية الاحتكارية مزدهرة، ليمتد النفوذ الإمبريالي إلى أبعد الساحات الخفية للاقتصاديات الكولونيالية. وكان جانب كبير من القروض يذهب إلى تمويل انشاء سكك حديدية بهدف نقل المعادن والمواد الغذائية إلى محطات التصدير. لقد شيدت خطوط السكك الحديدة ليس من أجل ربط المناطق الداخلية الواحدة بالأخرى، وانما من أجل ربط مراكز الإنتاج بالموانئ. وما يزال تصميما يشبه أصابع كف مفتوحة، وهكذا كانت السكك الحديدية، التي جرى الترحيب بها بوصفها طلائع لتحقيق التقدم، عقبة أمام تشكل وتطور سوق داخلية، كما حققت الأمم الإمبريالية ذلك بوسائل أخرى، خاصة عن طريق سياسة تعريفة جمركية تتمشى مع متطلبات النموذج البريطاني. وعلى سبيل المثال، كانت رسوم الشحن المفروضة على السلع المنتجة في داخل الأرجنتين أعلى بكثير من الرسوم المفروضة على السلع غير المصنعة، أما رسوم النقل عن طريق السكك الحديدية فقد صارت لعنة جعلت من المستحيل إنتاج السجائر في مناطق زراعة التبغ، أو الغزل والنسج في مناطق الصوف، أو تصنيع الاخشاب في مناطق الغابات. صحيح أن السكك الحديدية الأرجنتينية قد ساعدت على تطور صناعة الاخشاب في سانتياغو ديل ايسيترو، لكن ذلك قد رافقته نتائج جعلت كاتبا محليا يئن، "ليت سانتياغو هذه لم تكن توجد بها شجرة قط"[٣١١]. لقد كانت عارضات السكك الحديدية تصنع من الخشب، وكان الفحم النباتي يستخدم كوقود، وقد أدت معسكرات نشر الأشجار التي أنشأتها السكك الحديدية إلى تمزيق المجتمعات الريفية، وتدمير الزراعة وتربية الماشية

عن طريق تدمير المراعي وأشجار الظل وأدت إلى استعباد أجيال عديدة من سكان سانتياغو في الغابات، وزادت من التخلخل السكاني. ولم يتوقف النزوح الجماعي، وما تزال سانتياغو ديل ايسيترو إلى اليوم واحدة من أفقر مقاطعات الأرجنتين. وعندما تحولت السكك الحديدية إلى استخدام البترول، اغرقت المنطقة في أزمة عميقة.

ولم يكن رأس المال البريطاني هو الذي مد الخطوط الأولى عبر الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وغواتيمالا، والمكسيك، وأوروغواي، ولا في باراغواي، كما رأينا، لكن السكك الحديدية التي شيدتها دولة باراغواي، بمساعدة فنيين أوروبيين، قد انتقلت إلى أيد بريطانية بعد الهزيمة، وسارت السكك الحديدية للبلدان الأخرى في الدرب عينه دون أن تنتج مليما واحدة من استثمارات جديدة، وعلاوة على ذلك، فإن عقود الدول قد حرصت على أن تكفل للشركات مستوى حد أدني من الربح تجنبا للمفاجأة المحتملة غير السارة. وبعد عقود، في نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما لم تعد السكك الحديدية تغل المزيد من الأرباح وانحدرت إلى هجر نسبي لاستخدامها، قامت السلطات العامة باستردادها. والحال أن كل الدول تقريبا قد اشترت الحديد الخردة من البريطانيين واممت بذلك خسائر الشركات.

وعندما كانت السكك الحديدية زاهرة، كانت الشركات البريطانية تحصل في أغلب الأحيان على امتيازات ملحوظة في الأراضي الواقعة على أحد جانبي الطريق، بالإضافة إلى الطريق نفسه وحق بناء خطوط فرعية جديدة. وكانت الأرض ثروة استثمارية إضافية. وقد أدت منحة خرافية للسكك الحديدية البرازيلية في عام ١٩١١ إلى حرق عدد لا حصر له من الاكواخ وإلى طرد أو موت الاسر الفلاحية في منطقة

الامتياز. وكان ذلك هو فجر تمرد "الكونتيستادو"، أحد أعظم تفجرات الغضب الشعبي في التاريخ البرازيلي.

حماية وتجارة حرة في الولايات المتحدة، لم يكن النجاح من عمل أياد خفية

في عام ١٨٩٥وعندما كان التحالف الثلاثي يعلن دمار باراغواي الوشيك، كان الجنرال أوليسيس غرانت يحتفل باستسلام الجنرال روبيرت لي في ابوماتوكس. لقد منحت الحرب الاهلية الانتصار إلى الصناعيين الشماليين ـ دعاة الحماية السافرين ـ على زراع القطن والتبغ الجنوبيين دعاة التجارة الحرة. وهكذا تزامن نشوب الحرب التي رسمت مصير أمريكا اللاتينية الكولونيالي مع نهاية الحرب التي مكنت الولايات المتحدة من توطيد موقعها كقوة عالمية. وكما قال الرئيس غرانت الذي انتخب فور انتهاء الحرب، "لقد اعتمدت إنجلترا لقرون على الحماية، بل ومضت بها إلى أقصى حد، وكسبت من ورائها نتائج مرضيه. وهي مدينة بقوتها الحاضرة لهذا النظام دون شك. ووجدت إنجلترا بعد قرنين، أنه لمن المناسب اعتماد مبدأ حرية التجارة لأنها ترى أن الحماية لم يعد بوسعها أن تعود عليها بشيء. حسنا إذا، أيها السادة، أن معرفتي ببلادي تدفعني إلى الاعتقاد بأن أمريكا سوف تعتمد هي الأخرى مبدأ حرية التجارة، ولكن بعد قرنين، عندما تكون قد كسبت من الحماية كل ما يمكنها منحه"[٣١٢].

كانت الرأسمالية الإنجليزية اليافعة قبل قرنين ونصف من ذلك الكلام قد أرسلت رجالها، ورساميلها، وأسلوب حياتها، وحوافزها، ومشاريعها إلى مستعمراتها الأمريكية الشمالية. لقد كانت المستعمرات الثلاث عشرة صمامات امان للفائض السكاني الأوروبي، وسرعان ما

أجبرت على تعويض "عاهة" فقر أرضها وباطن أرضها، وطورت منذ البداية فلسفة تصنيع لم يفعل المتروبول شيئاً يذكر لإحباطها. وقد دشن المستوطنون الذين وصلوا حديثا إلى بوسطن مركبا شراعيا أصبح يزن الواحد منها ثلاثين طنا، واسمه "نعمة الخليج"، الذي بنوه بأنفسهم في عام ١٦٣١، ومنذ ذلك الحين فصاعدا نمت صناعة السفن بسرعة. وكان شجر السنديان الأبيض، الموجود بوفرة في الغابات، مثاليا بالنسبة إلى صنع هياكل وقطع السفن، وكانت متون السفن، والاعمدة الأمامية للسفن، والصواري تصنع من خشب الصنوبر. وقد دعمت ماساشوستس إنتاج خيوط القنب لصنع الاشرعة والحبال، كما شجعت الإنتاج المحلي لأقمشة القنب وللأشرعة. وكانت السواحل في شمالي وجنوبي بوسطن مليئة بترسانات مزدهرة. وكانت الحكومات الكولونيالية تقدم اعانات وعلاوات تشجيعية لجميع أنواع الصناعة، وكانت توجد حوافز لتشجيع إنتاج خيوط الكتان والصوف، المواد الأولية لمنسوجات خشنة، ورغم أنها لم تكن ذات الوان زاهية، إلا أنها كانت تقي من تقلبات الأحوال الجوية وكانت صناعة قومية. ودخل الفرن الأول حيز العمل في عام ١٦٤٣لاستغلال مستودعات الحديد في منطقة لين، وسرعان ما اخذت ماساشوستس تزود المنطقة كلها بالحديد. وعندما بدا الحافز إلى إنتاج المنسوجات غير كاف، اختارت هذه المستعمرة اللجوء إلى الاكراه، ففرضت في عام ١٨٥٥ عقوبات قاسية على اية أسرة لا تقوم بتشغيل متواصل لعجلة غزل واحدة على الأقل. وفي الفترة نفسها كان على كل ناحية في فيرجينيا أن تختار أطفالاً من بينها لتعلم صناعة النسيج. كما كان من المحظور تصدير الجلود، حتى يمكن استخدامها محليا لإنتاج الأحذية الطويلة الرقبة، والاحزمة والاسرجة.

وقد سجّل المؤرخ الاقتصادي إدوارد كيركلاند قائلاً أن المعوقات

التي لا بد للصناعات الكولونيالية من مواجهتها تأتي من كل اتجاه باستثناء السياسة الكولونيالية البريطانية. والحقيقة أن مسافة الثلاثة آلاف ميل وصعوبات المواصلات جعلت من التشريعات المحتملة تفقد كل فعاليتها تقريبا وحفزّت على الاكتفاء الذاتي ولم تكن المستعمرات الشمالية ترسل إلى إنجلترا ذهبا، أو فضة، أو سكرا، في حين أن حاجاتها الاستهلاكية قد أدت إلى زيادة في الواردات كان يتعين وقفها بطريقة ما. وكانت التجارة عبر المحيط غير كبيرة، وإذا كانت تنمية الصناعات المحلية ضرورية للبقاء. ولم يكن اهتمام إنجلترا بتلك المستعمرات في القرن الثامن عشر كبيراً بحيث أنها قد تمكنت من ادخال أحدث تقنيات المتروبول في مصانعها، محولة المواثيق الكولونيالية المفيدة إلى قصاصات من الورق. وكان ذلك بعيدا عن أن يكون صحيحا بالنسبة إلى المستعمرات الأمريكية اللاتينية. التي كانت تسلم هواءها، ومائها، وملحها إلى الرأسمالية الأوروبية الصاعدة وكانت تحصل، في مقابل ذلك، على الكثير من أفضل وأغلى السلع الكمالية لتدليل طبقاتها الحاكمة. وكانت الأنشطة الوحيدة المتوسعة في أمريكا اللاتينية هي الأنشطة الموجهة نحو التصدير، وقد استمر الحال على هذا النحو في القرون التالية، أن المصالح الاقتصادية للبورجوازية التعدينية والعقارية لم تتطابق قط مع الحاجة إلى التنمية الاقتصادية الداخلية، وكان رجال الأعمال أقل ارتباطا بالعالم الجديد من ارتباطهم بالأسواق الخارجية فيما يتعلق بالمعادن والمواد الغذائية التي يريدون بيعها وبالمصادر الخارجية للسلع المصنعة التي يريدون شراءها.

وعندما أعلنت الولايات المتحدة استقلالها، كان عدد سكانها كعدد سكان البرازيل. والواقع أن المتروبول البرتغالي - المتخلف تخلف المتروبول الأسباني - صدّر تخلفه إلى المستعمرة. وطوال القرن الثامن

عشر، اندرج اقتصاد البرازيل في السيمفونية البريطانية كمورد للذهب إلى الإمبراطورية. وقد انعكست هذه الوظيفة في البنية الطبقية للمستعمرة. وخلافا للحال في الولايات المتحدة، لم تكن الطبقة الحاكمة في البرازيل مؤلفة من مزارعين، ومستثمرين صناعيين، ورجال أعمال محليين. والحال أن المفسرين الرئيسيين لمثل الطبقة الحاكمة في كل من البلدين، ألكسندر هاملتون والفيوكنت دي كايرو (أحد الشخصيات الرئيسية التي لعبت دورا مؤثرا في فتح الموانئ في عام ١٨٠٨)، قد عبرا عن الاختلاف، تعبيرا واضحا. لقد كان كل منهما، في إنجلترا، من اتباع آدم سميث[٣١٣]. أنه بينما أصبح هاملتون من أنصار التصنيع وأحد المشجعين لحماية الدولة للصناعة القومية، كان كايرو يؤمن باليد الخفية التي حركت سعر الليبرالية، دعه يعمل، دعه يمر، دعه يبيع.

وعندما كان القرن الثامن عشر يوشك على نهايته، كانت الولايات المتحدة تملك ثاني اسطول تجاري في العالم. وكان هذا الاسطول يتألف من سفن مبنية بالكامل في ترساناتها، وكانت مصانع النسيج والصلب فيها تحقق نموا متصاعدا. وسرعان ما دارت عجلة صناعة الآلات فيها، مما أنهى احتياج مصانعها إلى شراء سلع رأسمالية من الخارج، وكان حجاج ماي فلاور المتحمسون قد أرسوا الأساس لامة في ريف نيو انجلاند، وكانت قد نمت بورجوازية صناعية وازدهرت بشكل متواصل على طول ساحل خلجانها العميقة ومصبات انهارها العظيمة. وفي هذا، كما رأينا، فإن تجارة جزر الانتيل ـ بما في ذلك بيع العبيد الافارقة ـ قد لعبت دورا رئيسيا، لكن الإنجاز الأمريكي ما كان ليحدث لولا أن شرارة لهب قومي مضطرم قد اشتعلت اواره منذ البداية. وقد دعا جورج واشنطون في كلمته الوداعية إلى أن تنتهج الولايات

المتحدة سبيلاً مستقلا[٣١٤]. وكان ايمرسون قد أعلن في عام ١٨٣٧، "لقد طال سماعنا لنداهات أوروبا... اننا سوف نسير على اقدامنا نحن، وسوف نعمل بأيدينا نحن، وسوف نعبر عما يجول بخواطرنا نحن"[٣١٥].

وقد أدت الانفاقات العامة إلى توسيع السوق الداخلية، فقد بنت الولايات الطرق، والسكك الحديدية، والجسور والقنوات[٣١٦]، وفي منتصف القرن، شاركت ولاية بنسلفانيا في تدشين أكثر من مائة وخمسين مشروعا من مشاريع الاقتصاد المختلط، بالإضافة إلى تدبير المائة مليون دولار المستثمرة في الاشغال العامة. كما أن العمليات العسكرية التي انتزعت أكثر من نصف أراضي المكسيك قد ساهمت مساهمة هامة في تقدم البلاد. لكن الولاية شاركت في عملية التنمية بما هو أكثر من استثمار الرساميل والتكاليف العسكرية للتوسع، وكان قد جرى تدشين سياسة حماية صارمة في الشمال. أما كبار ملاك الأراضي في الجنوب فقد كانوا، خلافا لذلك، من أنصار التجارة الحرة. وكان إنتاج القطن يتضاعف كل عشر سنوات. وبرغم أنه قد عاد على البلاد بأكملها بدخل تجاري ضخم وكان يغذي مصانع النسيج الحديثة في ماساشوستس، إلا أنه كان يعتمد على الأسواق الأوروبية بالدرجة الأولى. وكانت الارستقراطية الجنوبية، شانها في ذلك شان الارستقراطية الأمريكية اللاتينية، مرتبطة بالسوق العالمية بالدرجة الأولى، وكانت نسبة ٨٠ في المائة من الاقطان المغزولة في المصانع الأوروبية تجئ من كدح الجنوبيين. وعندما اضيف الغاء العبودية إلى الحماية الصناعية الشمالية، أدى التناقض إلى إشعال الحرب. لقد كان الشمال والجنوب يواجه أحدهما الاخر كعالمين متعارضين، وعصرين تاريخيين،

وفلسفتين متناحرتين عن المصير القومي. وقد كسب القرن العشرون حرب القرن التاسع عشر هذه.

"فليغنّ كل رجل حر....

فقد مات الملك القطن العجوز ووري التراب"

هكذا غنى أحد شعراء الجيش المنتصر[٣١٧]. وبعد هزيمة الجنرال لي، أصبحت القداسة من نصيب الرسوم الجمركية، التي كانت قد زيدت خلال الحرب للحصول على إيرادات وظلت سارية المفعول لحماية صناعة الظافرين. وايد الكونغرس تعريفة "ماكتلي" الحمائية المتطرفة في عام ١٨٩٠، وأدى مرسوم دنجلي إلى زيادة الرسوم الجمركية زيادة هائلة أخرى في عام ١٨٩٧. وشعرت البلدان الأوروبية المتقدمة بعد ذلك مباشرة، أنها مضطرة لإقامة حواجز جمركية ضد غزو السلع الأمريكية المنافسة منافسة خطيرة. وكانت كلمة "تروست" قد سكت في عام ١٨٢٢، إذ كانت الاحتكارات التي تتقدم بخطى عملاقة قد سيطرت على البترول، والصلب، والمواد الغذائية، والسكك الحديدة، والتبغ[٣١٨].

وكان غرانت قد شارك في نهب المكسيك قبل الحرب الاهلية، وقد أصبح بعد الحرب رئيسا من أنصار الحماية، لقد لعب كل الأدوار التي تندرج في سياق عملية التأكيد القومي نفسها. وكانت الصناعة الشمالية تقود أوركسترا التاريخ، وبوصفها السيد السياسي للدولة، كانت ترعى مصالحها من مقعد السلطة. أما الحدود الزراعية فقد اتجهت غربا وجنوبا على حساب الهنود والمكسيكيين، لكنها شغلت المساحات المفتوحة الجديدة بحيازات صغيرة، لا بملكيات زراعية كبيرة. والحال أن الأرض الموعودة لم تجتذب الفلاحين الأوروبيين وحده، أن صناعا ينتمون إلى

أكثر الحرف تنوعا وعملا مدربين في مجالات الميكانيكا، والمعادن، وإنتاج الصلب قد جاءوا أيضاً من أوروبا لإثراء عملية التصنيع الجارية في البلاد. وبحلول نهاية القرن، كانت الولايات المتحدة قد أصبحت القوة الصناعية القائدة، ففي غضون ثلاثين سنة بعد الحرب الاهلية كانت مصانعها قد ضاعفت طاقتها الإنتاجية سبع مرات. وكانت تنتج من الفحم مثل ما تنتجه بريطانيا، وكانت تنتج من الصلب ضعف ما تنتجه بريطانيا وكان طول خطوط سككها الحديدية يزيد تسع مرات عن طول خطوط السكك الحديدية البريطانية. كان مركز العالم الرأسمالي آخذا في الانتقال.

وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت الولايات المتحدة في تقليد بريطانيا في تصدير مذهب التجارة الحرة والمنافسة الحرة، حتى يتسنى للشعوب الأخرى أن تستهلك منتجاتها، وقد برز صندوق النقد الدولي والبنك الدولي معا لكي يحرما البلدان النامية من حق حماية صناعاتها القومية، ولتثبيط تدابير الدول في تلك البلدان. وجراء إضفاء خصائص علاجية سحرية على المشروع الخاص. لكن الولايات المتحدة لم تتخل عن سياسة اقتصادية ما تزال حمائية بصورة صارمة، وتصغي باهتمام لصوت التاريخ، فلم يجر خلط المرض بالعلاج قط في الشمال.

بنية النهب المعاصرة

تعويذة مجردة من القوة

عندما كتب لينين كتاب "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" في ربيع ١٩١٦ كانت نسبة مجموع الاستثمارات الخاصة الأمريكية الشمالية المباشرة في أمريكا اللاتينية، كانت تقل عن خمس الاستثمارات الخاصة القادمة من الخارج. لتصبح ثلاثة أرباع الاستثمارات أمريكية شمالية في عام ١٩٧٠. إن الإمبريالية التي عرفها لينين هي ضراوة المراكز الصناعية الساعية إلى أسواق عالمية لسلعها، حمى الاستيلاء على كافة المصادر المحتملة للمواد الخام، نهب الحديد، والفحم والبترول، والسكك الحديدية التي أدت إلى فرض السيطرة على المناطق الخاضعة للهيمنة، والقروض الشرهة التي تقدمها الاحتكارات المالية، الحملات العسكرية، حروب الفتح، إنها إمبريالية سعت إلى تسميم كل مكان، سواء كان مستعمرة أو شبه مستعمرة يجرؤ على بناء مصنع خاص به. لقد كان التصنيع امتيازا للمتروبولات، أما في البلدان الفقيرة فقد كان متعارضا مع نظام السيطرة الذي فرضته البلدان الغنية، وقد شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية تراجعا شاملا للمصالح الأوروبية في أمريكا اللاتينية، بينما اخذت الاستثمارات الأمريكية تتقدم تقدما ظافرا. ومنذ ذلك الحين وهناك تغير مهم في بؤرة الاستثمار، فشيئا فشيئا، وسنة بعد

سنة، أخذ رأس المال المستثمر في الخدمات العامة والتعدين يفقد أهميته، بينما زاد بالمقابل حجم الاستثمارات في البترول وبالدرجة الأولى، في الإنتاج الصناعي. وفي الوقت الحاضر، فإن دولاراً أمريكيا من كل ثلاثة دولارات أمريكية مستثمرة في أمريكا اللاتينية يستثمر في الصناعة(٣١٩).

وفي مقابل استثمارات تافهة، تقفز فروع الشركات العملاقة فوق الحواجز الجمركية المقامة ـ يا للمفارقة! ـ ضد المنافسة الأجنبية، وتستولي على عملية التصنيع الداخلية. فتصدر المصانع أو، وبشكل اعتيادي، تحاصر وتبتلع المصانع القائمة بالفعل. ولكي تتمكن من ذلك، تعتمد على المساعدة المتحمسة من جانب معظم الحكومات المحلية وعلى قوة الابتزاز التي تسبغها عليها المنظمات الائتمانية الدولية. إن رأس المال الإمبريالي يستولي على الأسواق من الداخل، مستحوذا على القطاعات الرئيسية للصناعة المحلية، فهو ينتزع أو ينشيء المعاقل الحاسمة التي يسيطر منها على الباقي. وتصف منظمة الدول الأمريكية العملية على الشكل التالي، "ما تزال الاستثمارات الأمريكية اللاتينية تواصل السيطرة على الصناعات والتقنيات القائمة بالفعل والاقل تقدما، في حين أن الاستثمارات الخاصة من الولايات المتحدة ومن بلدان صناعية أخرى أيضاً على الأرجح ـ تزيد بسرعة مشاركتها في صناعات دينامية معينة تتطلب مستوى تقنيا عاليا نسبيا وتعد أكثر أهمية في تحديد مسار التنمية الاقتصادية"(٣٢٠). وهكذا فإن دينامية المصانع الأمريكية جنوبي الريو غراندي أكثر كثافة بكثير من دينامية الصناعة الأمريكية اللاتينية بشكل عام. أما الأرقام الخاصة بالبلدان الثلاثة الأكبر فهي شديدة الدلالة، فلمؤشر ١٠٠ في عام ١٩٦١، نجد أن الناتج الصناعي الأرجنتيني قد وصل في عام ١٩٦٥ إلى ١١٢,٥، في حين أن

مبيعات فروع الاحتكارات الأمريكية قد زادت في الفترة نفسها لتصل إلى ٣,١٦٦. وبالنسبة إلى البرازيل، فإن الأرقام المناظرة هي ٢,١٠٩ و١٢٠، أما بالنسبة إلى المكسيك، فإنها ٢,١٤٢ و٨,١٨٦[٣٢١].

إن اهتمام الشركات الإمبريالية بالهيمنة على النمو الصناعي الأمريكي اللاتيني واستثماره لحسابها لا يعني عدم اهتمامها بالأشكال التقليدية للاستغلال. صحيح أن سكك حديد شركة الفواكه المتحدة في غواتيمالا لم تعد مربحة وأن التأميم الذي قامت به البرازيل لشركتي الكتريك بوند اند شير وإنترناشيونال تليفون اند تيليغراف كان كسبا مجزيا لهما، حصلتا على تعويضات بالذهب الخالص عن منشئات صدئة وآلات جديرة بعرضها في المتاحف. إلا أنه إذا ما جرى التخلي عن الخدمات العامة لحساب أنشطة أكثر ربحية، فإن المواد الخام تصبح مسالة أخرى. إذ كيف يمكن للإمبراطورية أن تدبر امورها دون نفط ومعادن أمريكا اللاتينية؟ فبرغم الهبوط النسبي في الاستثمارات التعدينية، نجد أن الاقتصاد الأمريكي لا يمكنه، كما رأينا، أن يدبر اموره دون الامدادات الحيوية من الجنوب ودون الأرباح المجزية التي تحققها. كما أن الاستثمارات التي تحول المصانع الأمريكية اللاتينية إلى مجرد تروس في الة الشركات العملاقة لا تبدل التقسيم الدولي للعمل بحال من الأحوال، وليس هناك تغير في نظام الشرايين المتصلة فيما بينها والتي يجري من خلالها توزيع الرساميل والسلع بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة. وتواصل أمريكا اللاتينية تصدير بطالتها وفقرها، المواد الخام التي تحتاجها السوق العالمية، والتي يعتمد الاقتصاد الإقليمي عليها. ويواصل التبادل غير المتكافئ عمله كما في السابق، فالأجور التي لا تكفي لسد الجوع في أمريكا اللاتينية تساعد على تمويل الرواتب العالية في الولايات المتحدة وأوروبا.

وسيكون هناك دائماً سياسيون وتكنوقراطيون مستعدون للاقناع بأن غزو رأس المال الأجنبي الذي يعمل في مجال "التصنيع" يفيد المنطقة التي يصلها بالغزو. وعلى هذا الأساس، وبعكس الإمبريالية القديمة، فهذه إمبريالية حديثة ذات علامة حضارية حقيقية، وتعد نعمة تهبط على البلدان الخاضعة، أما إعلانات الحب الصادق التي تتبجح بها القوة السائدة الآن فهي تعبر عن نواياها الحقيقية. وهكذا تجد الضمائر الآثمة ما يعفيها من الحاجة إلى أدلة على البراءة من الاثم، لأنه لا أحد آثم، فإمبريالية اليوم تشع تكنولوجيا وتقدما، بل أن استخدام هذه الكلمة القديمة، غير السارة، لتعريفها هو من قبيل انعدام الذوق، إلا أنه عندما تبدأ الإمبريالية في الثناء على فضائلها، يجب أن تنظر إلى جيوبنا. وعندئذ سنكتشف أن النموذج الجديد لا يجعل مستعمراته أكثر ازدهارا، وأن كان يثري أقطاب النمو بينها، وهو لا يخفف التوترات الاجتماعية والإقليمية، بل يزيد تفاقمها، وهو ينشر الفقر بشكل أوسع بكثير ويركز الثروة تركيزا اضيق بكثير، وهو يدفع أجورا ادنى عشرين مرة مما في ديترويت ويفرض أسعارا أعلى ثلاث مرات مما في نيويورك، وهو يستولي على السوق الداخلية والمصادر الرئيسية للجهاز الإنتاجي، ويكتسب حقوق ملكية لرسم مسار وتحديد حدود التقدم، ويسيطر على الائتمان القومي ويوجه التجارة الخارجية حسب أهوائه، وهو ينزع التأميم لا عن الصناعة وحدها، وإنما عن الأرباح التي تحققها الصناعة أيضاً، ويحفز تبديد الموارد بتحويل جزء كبير من الفائض الاقتصادي إلى الخارج، وهو لا يأتي برساميل من أجل التنمية وانما يتولى تصدير الرساميل. وكما أظهرت تقارير مختلفة للمجلس الاقتصادي لأمريكا اللاتينية، فإن نزف الأرباح من الاستثمارات الأمريكية المباشرة في أمريكا اللاتينية في السنوات الخمس الأخيرة كان أكبر خمس مرات من

تدفق الاستثمارات الجديدة. ولتمكين الشركات من ترحيل أرباحها، ترهن البلدان الأمريكية اللاتينية نفسها للبنوك الأجنبية والمنظمات الائتمانية الدولية، مضاعفة بذلك تدفق النزيف القادم. والنتيجة واحدة بالنسبة إلى الاستثمار الصناعي كما بالنسبة إلى الاستثمار "التقليدي".

وفي الإطار المحكم لرأسمالية عالمية مندمجة حول الشركات الأمريكية الكبيرة، يتزايد انفصال تصنيع أمريكا اللاتينية عن حاجات التقدم والتحرر الوطني. لقد حرمت التعويذة من مفعولها في الهزائم الحاسمة التي حدثت في القرن الماضي، عندما انتصرت الموانئ على المناطق الداخلية وسحقت التجارة الحرة الصناعات القومية الناشئة. ولم يفرز القرن العشرون بورجوازية قوية وخلاقة بما يكفي لتحمل المهمة إلى نهايتها. لقد تلاشت كل محاولة في منتصف الطريق إلى الهدف، وما حدث للبرجوازية الصناعية الأمريكية اللاتينية هو ما يحدث للأقزام، لقد أصابتها الشيخوخة دون أن تنمو. والواقع أن أعضاء بورجوازيتنا الحالية هم مجرد وكلاء وموظفين لدى شركات أجنبية مهيمنة. وتجبرنا الحقيقة على الاعتراف بأنهم لم يفعلوا قط شيئاً يجعلهم جديرين بمصير أفضل.

الحراس هم من يفتحون الأبواب، عقم البرجوازية الآثم

تفصح البنية الحالية للصناعة في الأرجنتين والبرازيل، والمكسيك - أقطاب التنمية الأمريكية اللاتينية الثلاثة التي يسرفون في مديحها - عن تشوهات مميزة لتنمية معاكسة. أمكن بسهولة تحقيق تبعية الصناعة في بلدان أخرى، أضعف ما عدا استثناءات قليلة. وفي واقع الأمر فلا وجود لشيء تنافسي فيما يتعلق برأسمالية تصدر اليوم المصانع كما تصدر السلع والرساميل، وتخترق كل شيء وتجز كل شيء، أن هذا سديم

صناعي عالمي يتحقق من جانب رأسمالية في عصر الشركات متعددة القوميات، والاحتكارات العملاقة التي تستوعب كل ضرب من ضروب النشاط في كل ركن من أركان الأرض[٣٢٢]. بل أن تمركز الرساميل الأمريكية في أمريكا اللاتينية أشد اطباقا مما في الولايات المتحدة ذاتها، ذلك أن حفنة من الاحتكارات تسيطر على الغالبية الساحقة من الاستثمارات. وبالنسبة إلى هذه الاحتكارات تسيطر على الغالبية الساحقة من الاستثمارات. وبالنسبة إلى هذه الاحتكارات، ليست الامة مهمة يتعين القيام بها، أو علما ينبغي الذود عنه، أو مصيرا يتوجب تحقيقه، أنها ليست أكثر من حاجز يلزم تخطيه ـ لأن السيادة يمكن أن تكون غير مناسبة ـ أو ثمرة ريانة جديرة بأن تلتهم، ولكن هل الامة مصير يتوجب تحقيقه بالنسبة إلى الطبقات الحاكمة في كل بلد؟ أن مسيرة رأس المال الإمبريالي الكبرى قد وجدت صناعة مطية لا حول لها ولا قوة وغير مدركة لدورها التاريخي. وقد اندمجت البرجوازية في قوة الغزو الأجنبي دون أن تذرف دمعا أو تنزف دما، ومع تزايد هزال الاقتصاد الأمريكي اللاتيني المتواصل على مر العقدين الماضيين، هبط نفوذ الدولة عليه إلى أدني مستوى له وذلك بفضل المساعي الحميدة لصندوق النقد الدولي. لقد دخلت الشركات الأمريكية أوروبا دخول الفاتحين وامسكت باعنة تنمية القارة العجوز امساكا حازما بحيث أن الصناعة الأمريكية في أوروبا، فيما يقال لنا، سوف تصبح قبل فوات وقت طويل القوة الصناعة الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي[٣٢٣].

وإذا كانت البرجوازية الأوروبية، بتقاليدها وجبروتها، لم تتمكن من وقف السيل، فإلى أي شيء يستند الامل في أن بورجوازية أمريكا اللاتينية، في هذه المرحلة التاريخية، سوف تقود مغامرة التنمية

الرأسمالية المستقلة المستحيلة؟ الواقع أن عملية نزع التأميم في أمريكا اللاتينية تعد أسرع وأرخص وقد ترتبت عليها نتائج اسوا بكثير.

والواقع فنمو الصناعة الأمريكية اللاتينية قد دُشن في هذا القرن، من الخارج، بدلا من أن يدشن عن طريق سياسات إنمائية قومية مخططة. وهو لم يكن تعبيرا عن عملية نضوج للقوى الإنتاجية، كما لم يكن نتيجة تفجر لنزاعات داخلية ـ نزاعات يزعمون أنه "قد تمكن التغلب عليها" ـ بين كبار ملاك الأراضي وطبقة حرفية مساعدة، لأن تلك الطبقة لم تعش طويلا. لقد ولدت الصناعة الأمريكية اللاتينية من رحم نظام تصدير المنتجات الزراعية ذاته، ردا على اختلال حاد اثاره هبوط التجارة الخارجية، وقد أدت حربان عالميتان، وخصوصا الكساد الرأسمالي الذي تلا "يوم الجمعة الأسود" في تشرين أول ١٩٢٩، إلى تقليص صادرات المنطقة ومن ثم قدرتها على الاستيراد تقليصا مفاجئا وعنيفا. وسرعان ما ارتفعت إلى عنان السماء أسعار المنتجات الصناعية الأجنبية التي أصبحت نادرة فجأة. ولم تنبثق إلى الوجود طبقة صناعية حرة من التبعية التقليدية، فقد جاء الحافز إلى الإنتاج الصناعي من الرساميل التي راكمها كبار ملاك الأراضي والمستوردون. وكان كبار مربي الماشية هم الذين فرضوا ضوابط التبادل في الأرجنتين. وقد قال رئيس الجمعية الزراعية في عام ١٩٣٣، الذي أصبح وزيرا للزراعة، "ان العزلة التي وضعنا فيها عالم مضطرب تفرض علينا أن ننتج هنا ما لم يعد بوسعنا شراؤه من البلدان التي تشتري منا"[٣٢٤]. وقد سارع ملاك مزارع البن الكبيرة إلى استثمار رساميلهم التي راكموها من التجارة الخارجية في التصنيع في ساو بأولو. وقد جاء في وثيقة حكومية، "خلافا لعملية تصنيع البلدان المتقدمة بالفعل، فإن عملية تصنيع البرازيل لم تكن عملية بطيئة، جانبا من عملية عامة للتحول الاقتصادي"[٣٢٥]. لقد كانت،

بالأحرى، ظاهرة سريعة ومكثفة، جرى فرضها بصورة علوية على البنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة في السابق دون أن تقود إلى تعديل هذه البنية تعديلا كاملا، الأمر الذي قاد إلى التفاوتات القطاعية والإقليمية العميقة التي تميز المجتمع البرازيلي".

واختبأت الصناعة الجديدة ومنذ البداية، وراء حواجز جمركية حامية اقامتها الحكومات، ونمت بفضل تدابير اتخذتها الدولة لتقييد الواردات والحد منها، وتحديد أسعار صرف خاصة، وتجذب الضرائب، وشراء أو تمويل فوائض الإنتاج، وبناء الطرق لنقل المواد الخام والسلع، وخلق أو توسيع مصادر الطاقة. والحال أن الحكومات القومية وذات الشعبية العريضة، حكومات غيتوليو فارغاس (١٩٣٠ ـ ١٩٤٥ و١٩٥١ ـ ١٩٥٤)، ولاثارو كارديناس (١٩٣٤ ـ ١٩٤٠)، وخوان دومينغو بيرون (١٩٤٦ ـ ١٩٥٥) قد عبرت عن حاجة الصناعة البرازيلية والمكسيكية، والأرجنتينية إلى "الانطلاق"، إلى النمو أو إلى التوطد تبعا للمكان والفترة. ففي أمريكا اللاتينية، كانت "روح الاستثمار" التي تحدد خصائص أساسية معينة للبورجوازية الصناعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة خاصية من خصائص الدولة، خاصة في تلك الفترات الحاسمة. وبدلا من الطبقة الاجتماعية التي استصرخها التاريخ دون أن يجد تجاوبا يذكر، كانت حكومة الزعماء الشعوبيين هي التي تجسد الامة وقد اتاحت للجماهير مدخلا سياسيا واقتصاديا إلى فوائد التصنيع. أما البورجوازية الصناعية التي احتضنتها هذه المحضنة فلم تختلف من حيث الجوهر عن الطبقات الحاكمة السابقة. والحال أن بيرون، مثلا، قد استثار الذعر في صفوف الاتحاد الصناعي ـ الذي رأى قادته، ليس دون سبب، شبح المونتونيراس الريفية يعاود الظهور في تمرد بروليتاريا مشارف بوينس ايريس، وقبل أن يهزم بيرون الائتلاف المحافظ في

انتخابات شباط ١٩٤٦، كان الائتلاف قد حصل على شيك شهير من قائد الصناعيين، وبعد ذلك بعشر سنوات، عندما سقط بيرون، اتضح لهم مرة أخرى أن التناقض مع الأوليغاركية - التي كانوا يشكلون جزءا منها أيا كانت الأحوال - ليس أساسيا. وفي عام ١٩٥٦، شكل الاتحاد الصناعي جبهة متحدة مع الجمعية الزراعية والغرفة التجارية دفاعا عن حرية انشاء الاتحادات، وحرية الاستثمار، وحرية التجارة، وحرية استئجار قوة العمل[٣٢٦]. وفي البرازيل، توحد قطاع مهم من البورجوازية الصناعية مع القوى التي دفعت فارغاس إلى الانتحار. وكانت التجربة المكسيكية تتميز بخصائص متميزة وكانت تعد عملية التغيير الأمريكية اللاتينية بما هو أكثر بكثير مما ساهمت به فيآخر المطاف. لقد كانت تجربة كارديناس القومية هي التجربة الوحيدة التي صارعت كبار ملاك الأراضي بتنفيذ الإصلاح الزراعي الذي كانت البلاد تتحرق إليه منذ عام ١٩١٠. وفي البلدان الأخرى - لا في الأرجنتين والبرازيل وحدهما - تركت الحكومات ذات التوجهات التصنيعية هيكل الملكية الزراعية الكبيرة على حاله، بحيث أنه قد واصل خنق السوق الداخلية والإنتاج الزراعي[٣٢٧].

ويمكن القول، بوجه عام، أن الصناعة قد هبطت مثلما تهبط طائرة دون أن يؤثر هبوطها على المطار، فهي لكونها مقيدة بحاجات سوق داخلية قائمة سلفا ولكونها تخدم هذه الحاجات بالتحديد، لم تؤد قط إلى توسيع هذه السوق بما يكفي لجعل التغيرات الهيكلية الكبرى ممكنة. وكانت التنمية الصناعية تتطلب المزيد والمزيد من الواردات من الآلات، وقطع الغيار، والوقود، والمنتجات الوسيطة[٣٢٨]،لكن الصادرات، مصدر العملة الأجنبية، لم يكن بوسعها تغطية ثمن هذه الواردات لأن الصادرات كانت تجيء من نشاط حكم عليه سادته

بالتخلف. وفي ظل نظام بيرون، حققت الدولة الأرجنتينية احتكارا لتصدير الحبوب إلا أنها لم تمس نظام ملكية الأرض، كما أنها لم تؤمم مصانع تعليب اللحوم التي تملكها الشركات الأمريكية والبريطانية أو مصدري الصوف(٣٢٩). وهكذا كان التحرك الرسمي نحو الصناعة الثقيلة متخاذلا للغاية ولم تدرك الدولة في الوقت المناسب أنها إذا لم تساعد على خلق تكنولوجيا خاصة بها، فإن سياستها القومية سوف تحاول التحليق بأجنحة مقصوصة. وبحلول عام ١٩٥٣، فإن بيرون، الذي كان قد وصل إلى السلطة في مواجهة مباشرة مع السفير الأمريكي، كان يرحب بميلتون ايزنهاور ترحيبا مثيرا ويدعو إلى تعاون رأس المال الأجنبي والشركات الإمبريالية(٣٣٠).

لقد أصبحت الحاجة "للشراكة" للصناعة الوطنية مع الشركات الإمبريالية ملحة مع تسارع الاستعاضة عن السلع الصناعية المستوردة ومع احتياج المصانع الجديدة لمستويات عالية من التكنولوجيا والتنظيم. وقد ظهر الاتجاه نفسه في خطة غيتوليو فارغاس التصنيعية، وبلغ ذروته الدراسية في قرار فارغاس المأساوي الأخير. والحال أن الاحتكارات الأجنبية، بما تتمتع به من تكنولوجيا حديثة إلى أبعد حد، قد استولت بشكل ثابت وغير سري تماماً على الصناعة القومية لجميع البلدان الأمريكية اللاتينية، بما في ذلك المكسيك، عن طريق بيع التقنيات الصناعية، وحقوق استخدام العلامات المسجلة، والمعدات الجديدة. لقد استولت وول ستريت نهائيا على المكان الذي كان يحتله لومبارد ستريت، وكانت الاحتكارات الأمريكية هي التي تربعت للتمتع بمكانة القوة العظمى في المنطقة. واضيف إلى هذا التغلغل في المجال الصناعي، تدخل متزايد باستمرار في مجالي البنوك والتجارة، لقد كان

يجري دمج السوق الأمريكية اللاتينية في السوق الداخلية للشركات متعددة القوميات.

أعلن روبيرتو كامبوس، القيصر الاقتصادي لديكتاتورية كاستيلو برانكو في عام ١٩٦٥، أن "عهد الزعماء ذوي الجاذبية الجماهيرية والمحاطين بهالة رومانسية يخلي مكانه للتكنوقراطية"[٣٣١]. وكانت السفارة الأمريكية قد شاركت مشاركة مباشرة في الانقلاب ضد حكومة جواو غولارت. إن سقوط غولارت، وريث فارغاس في الأسلوب والهدف، كان قد أسدل الستار على الشعبوية والسياسة المتوجهة إلى الجماهير. وقد كتب الي صديق من ريو دي جانيرو بعد بضعة أشهر من نجاح المؤامرة العسكرية، "إننا أمة مهزومة، مسيطر عليها، مغلوبة، ممزقة"، فنزع تأميم البرازيل كان يعني حكم قبضة حديدية من جانب ديكتاتورية غير شعبية، ولم يعد يمكن الجمع بين التنمية الرأسمالية والتعبئة الجماهيرية الضخمة حول زعيم مثل فارغاس. وكان على النظام أن يحظر الإضرابات ويدمر النقابات والأحزاب لاحتواء التضخم المنفلت على حساب فقر الفقراء الأعظم، وأن يسجن، ويعذب، ويقتل، وأن يخفض أجور العمال بأية وسيلة ضرورية. وقد اظهر استطلاع للراي في ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ أن نسبة ٨٤ في المائة من كبار الصناعيين في البرازيل تعتقد أن سياسة حكومة غولارت الاقتصادية كانت سياسة ضارة[٣٣٢]. ولا شك أنه كان بينهم أولئك القادة البورجوازية القومية الذين حاول غولارت الاعتماد عليهم لوقف الاستنزاف الإمبريالي للاقتصاد القومي. وقد حدثت عملية قمع وخنق الشعب ذاتها في ظل نظام الجنرال خوان كارلوس اونغانيا في الأرجنتين ـ والواقع أنها كانت قد بدأت مع هزيمة بيرون في عام ١٩٥٥، مثلما بدأت في البرازيل مع الطلقة التي قتلت فارغاس في عام ١٩٥٤. وتم في

المكسيك، أيضاً، نزع تأميم الصناعة مع سياسات قمعية بشكل متزايد من جانب الحزب الذي يحتكر الحكم.

وكما أشارفيرناندو انريكي كاردوزو[٣٢٣]، الصناعة الخفيفة، أو التقليدية، والتي نمت في ظل الحماية المباركة من جانب الحكومات الشعبوية، تتطلب استهلاكا متزايدا من جانب الجماهير، الناس الذي يشترون القمصان أو السجائر. لكن الصناعة الحيوية ـ إنتاج السلع الوسيطة والرأسمالية ـ موجهة نحو سوق محدودة. سوق تقف الاحتكارات الكبرى والدولة على رأسها، مستهلكين قلائل يحوزون موارد مالية ضخمة. والحال أن الصناعة الحيوية، والتي هي الآن في أيد أجنبية، تستند إلى الصناعة التقليدية القائمة سلفا وتخضعها. وفي القطاعات التقليدية، منخفضة المستوى من الناحية التكنولوجية، يحتفظ رأس المال القومي ببعض القوة، وكلما قل ارتباط الرأسمالي بأنماط الإنتاج الدولية عن طريق التبعية التكنولوجية والمالية، كلما مال إلى تحبيذ الإصلاح الزراعي وزيادة القوة الشرائية لدى الجماهير عن طريق النضال النقابي. ومن الناحية الأخرى، فإن أولئك المرتبطين بارتباطات أجنبية أوثق، الممثلين للصناعة الحيوية، لا يريدون غير تعزيز الاواصر بين جزر التنمية في البلدان التابعة والنظام الاقتصادي العالمي، ويخضعون التحولات الداخلية لهذه الأولوية. وهنا الحناجر التي تخرج منها اغنية البورجوازية الصناعية، كما تظهر من كل استطلاعات الراي الأرجنتينية والبرازيلية الأخيرة التي يستخدمها كاردوزو كمادة أولية. فيعأرض رجال الأعمال الكبار الإصلاح الزراعي معأرضة حازمة، وينفي معظمهم أن القطاع الصناعي له مصالح مختلفة عن مصالح القطاع الريفي ويعتقد أنه لا يوجد ما هو أهم بالنسبة إلى التنمية الصناعية من تلاحم كافة الطبقات المنتجة وتعزيز الكتلة الغربية، وتعتقد نسبة ٢ في

المائة فقط من كبار الصناعيين في الأرجنتين والبرازيل أن العمال لهم أهمية سياسية من الدرجة الأولى. وكان معظم الذين أجر ي استطلاع الراي بيهم من "المستثمرين القوميين"، ومعظمهم مرتبط دون امل في الفكاك بمراكز القوة الأجنبية عن طريق ما لا حصر له من عرى التبعية.

فهل يمكن انتظار أي نتيجة في هذه المرحلة؟ إن البورجوازية الصناعية طبقة سائدة مسيطر عليها بدورها من الخارج، كما أن كبار ملاك المزارع الرئيسيين على ساحل بيرو، والذين تصادرهم الآن حكومة بيلاسكو البارادو، هم في الوقت نفسه ملاك الصناعات التحويلية الإحدى والثلاثين والكثير من المشاريع المتماثلة الأخرى[٣٣٤]. والحالة متماثلة في كافة البلدان الأخرى[٣٣٥]. نحو مائة عائلة تملك المصانع والأراضي، الاستثمارات الكبيرة والبنوك. وليست المكسيك استثناء، فالبورجوازية القومية، الخاضعة للاحتكارات الأمريكية الكبيرة، تخشى ضغط الجماهير أكثر كثيراً من خشيتها من الاضطهاد الإمبريالي، والذي تنمو في احضانه دون استقلال ـ ودون المخيلة الأبداعية التي تنسب إليها ـ وقد ضاعفت مصالحها مضاعفة فعالة[٣٣٦]. وفي الأرجنتين، كان مؤسس نادي الجوكي، مركز الهيبة الاجتماعية لكبار الملاك الزراعيين، الصناعي الرئيسي أيضا[٣٣٧]، وهكذا ولد في نهاية القرن التاسع عشر تقليد كتب له الخلود. إن صناعيين لهم حسابات مصرفية ضخمة يتزوجون بنات كبار ملاك زراعيين لكي يتسنى لهم دخول صالونات الأوليغاركية المقصورة عليها، أو يشترون أراضي لنفس الغرض، ولم يكن قليلاً عدد كبار مربى الماشية الذين استثمروا في الصناعة فوائض الرساميل المتراكمة في أيديهم ـ على الأقل في فترات الرواج. والحال أن فاوستينو فانو، الذي حقق جانبا موقورا من ثروته بوصفه تاجر منسوجات وصناعيا، قد رأس الجمعية الزراعية أربع مرات قبل موته في

عام ١٩٦٧. وقد أعلنت الصحف في معرض رثائه، "لقد دمر فانر التناقض المزعوم بين الزراعة والصناعة". ويجري تحويل الفوائض الصناعية إلى ابقار. وقد باع الاخوة دي تيا الأقوياء مصانع السيارات والثلاجات التي كانوا يملكونها لرأسماليين أجانب ويربون الآن ثيرانا نموذجية لمعارض الجمعية الزراعية. وقبل نصف قرن، كانت عائلة انشورينا، التي كانت تمتلك مقاطعة بوينس ايريس حتى حدودها، قد بنت واحدا من أكبر مصانع المعادن في المدينة.

أما في أوروبا والولايات المتحدة، فقد دخلت البورجوازية الصناعية إلى مسرح التاريخ دخولا مختلفا تماماً، ونمت ووطدت قوتها بشكل مختلف تماماً.

أي راية ترفرف فوق الماكينات؟

مالت المرأة العجوز بجسدها على النار وأخذت تهويها بيديها لتتقد. كانت محدوبة قليلا، وذات رقبة ممدودة متجعدة. وكانت تبدو وهي في هذا الوضع أشبه ما تكون بسلحفاة سوداء شائخه. لكن من المؤكد أن الحماية التي توفرها اسمالها الرثة كانت أقل من تلك التي توفرها الصدفة للسلحفاة، وعلى اية حال، فإن السنين وحدها هي التي جعلتها بطيئة الحركة إلى هذا الحد. وخلفها، كان حائط كوخها، المبني من قطع صغيرة من الخشب والصفيح، متهالكا تهالك شاغلته، وكانت تظهر خلفه اكواخ مشارف ساو بأولو الفقيرة المماثلة. وأمامها، كانت المياه المعدة للقهوة تغلي في قدر متهالك. رفعت إلى شفتيها كوزا صغيرا من الصفيح. وقبل أن تشرب، هزت راسها وأغلقت عينيها وقالت بالبرتغالية، "او برازيل أي نوسو - البرازيل لنا! وفي وسط المدينة ذاتها، وفي تلك اللحظة عينها، كان المدير التنفيذي لشركة يونيون

كاربايد يفكر في الشيء نفسه ـ ولكن بلغة أخرى ـ وهو يرفع كأسا من الكريستال ليشرب نخب استيلاء الشركة على مصنع برازيليآخر للدائن. ولا شك أن واحدا من الاثنين ـ المرأة والمدير ـ كان مخطئا.

منذ عام ١٩٦٤، وديكتاتوريو البرازيل العسكريون المتعاقبون يحتفلون بالأعياد السنوية لافتتاح مختلف المشاريع التي تملكها الدولة بالإعلان عن النزع الوشيك لتأميمها، هذا النزع الذي أصبح يسمى الآن ب "الاستعادة". ويتدافع الوزراء للاحتفال بكل افتتاح لمصنع أجنبي، وكان القانون رقم ٥٦. ٥٧٠ المجاز في ٦ تموز ١٩٦٥، قد احتفظ للدولة بالصناعة البتروكيميائية، أما القانون رقم ٥٦. ٥٧١، المجاز في اليوم نفسه فقد الغى القانون رقم ٥٦. ٥٧٠ وفتح الصناعات البتروكيميائية أمام الاستثمار الخاص، وهكذا، فبشكل مباشر أو من خلال "المشاركة" مع الدولة، كسبت شركات داو كيميكال، ويونيون كاربايد، ومجموعة روكفيللير، وفيليبس بتروليوم "شريحة الفيليه الممتازة" المشتهاة أكثر من أي شيء آخر، صناعة مشتقات النفط التي كان من المتوقع أن تشهد رواجا في السبعينات. فما الذي حدث في الساعات القليلة الفاصلة بين القانونين؟ ستائر لا يكف حفيفها، وقع اقدام في الرواق، طرقات مستميته على الباب، مذكرات على ورق اخضر تتحرك حركة سريعة من مكتب إلى مكتب، فورة في القصر، من شكسبير إلى بريخت، كثيرون كان لا بد لهم من أن يجدوا متعة في وصف ما جرى. ويعترف وزير في الحكومة فيقول، "في البرازيل، وفيما عدا الدولة نفسها، وعدد من الاستثناءات البارزة، فإن رأس المال الأجنبي وحده هو القوي"[٣٣٨]. وتبذل الحكومة كل ما في وسعها لتجنب اية منافسة مزعجة مع الشركات الأمريكية والأوروبية.

وقد بدا رأس المال الأجنبي الموجه إلى الإنتاج الصناعي يتدفق

تدفقا غزيرا على البرازيل في الخمسينات، ولقي حافزا قويا من الخطة التنموية التي نفذها الرئيس جوسيلينو كويتشيك بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٠، كانت تلك أيام فورة النمو، وقد انبثقت برازيليا كما لو كانت تنبثق من مرجل ساحر، وسط براري لم يكن الهنود قد سمعوا فيها بعد بوجود العجلة، لقد بنيت طرق رئيسية وسدود عظيمة، وكانت مصانع السيارات تنتج سيارة جديدة كل دقيقتين. لقد كان الخط البياني الصناعي يرتفع ارتفاعا شاهقا. وقد فتحت الأبواب على مصاريعها أمام الاستثمارات الأجنبية، وجرى التهليل لغزو الدولار، وانتشر الإحساس بحيوية التقدم. وكانت أوراق البنكنوت قد جرى تمويلها عن طريق تدابير تضخمية وعن طريق دين خارجي فادح سوف يجري تحميل حكومات متعاقبة بأعبائه الجسيمة. وقد ادخل كوبتشيك وكفل نوعا خاصا من الكمبيو لتحويل الأرباح إلى المكاتب الرئيسية للشركات الأجنبية ولأفراد أقساط دورية لسداد قروضها الاستثمارية، فقد شاركت الدولة في تحمل المسئولية عن سداد الديون التي تعاقدت عليها هذه الشركات في الخارج، ورتبت دولار رخيصا لسداد أقساط هذه الديون وفوائدها، فوفقا لتقرير للجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية(٣٣٩)، كانت نسبة تزيد عن ٨٠ في المائة من كافة الاستثمارات فيما بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٢ عبارة عن قروض مشمولة بضمان من الدولة. وبعبارة أخرى، فإن أكثر من أربعة اخماس استثمارات هذه الشركات قد جاء من بنوك أجنبية وصار إضافة أخرى إلى عبء الديون الخارجية الثقيل الذي تنوء الدولة البرازيلية بحمله(٣٤٠). كما منحت مزايا خاصة لاستيراد الآلات. ولم تتمتع المشاريع القومية بالمزايا التي قدمت إلى شركتي جنرال موتورز وفولكسفاغن.

وقد تكشفت آثار نزع التأميم المترتبة على هذا الاغراء من جانب

رأس المال الإمبريالي في النتائج التي توصل إليها معهد العلوم الاجتماعية التابع للجامعة عندما أجر ي بحثا عن المجموعات الاقتصادية الكبرى في البرازيل[٣٤١]. فمن بين المجموعات التي يزيد رأسمالها عن أربعة بلايين كروزييرو، كان أكثر من نصفها أجنبيا وكان معظمها مملوكا للولايات المتحدة، ومن بين المجموعات التي يزيد رأسمالها عن عشرة بلايين كروزييرو، كانت اثني عشرة أجنبية وخمسة برازيلية. وقد استنتج موريسيو فينهاس دي كويروز وهو يحلل نتائج البحث أنه "كلما كانت المجموعة أكبر، كلما زاد احتمال أن تكون أجنبية". ويتميز بدلالة مساوية أو أبلغ واقع أنه من بين المجموعات البرازيلية الأربع والعشرين التي يزيد رأسمالها عن أربعة بلايين كوزييرو، فإن تسع مجموعات فقط هي التي لا ترتبط باسهم مع رأس المال الأمريكي أو الأوروبي، بينما توجد إدارات أجنبية متداخلة مع إدارة مجموعتين من المجموعات التسع. وقد اظهر البحث أن عشر مجموعات اقتصادية تتمتع باحتكار فعلي في مجال كل منها، وأن ثماني مجموعات من هذه المجموعات العشر تعد فروعا لشركات أمريكية شمالية كبرى.

لكن كل ذلك كان لعب أطفال بالمقارنة مع ما حدث بعد ذلك. فبين عام ١٩٦٤ ومنتصف عام ١٩٦٨، ابتلعت شركات فورد، وكريزلر، وويلير اوفرلاند، وسيمكا، وفولكسفاغن، والفا روميو خمسة عشر مصنعا للسيارات ولقطع غيار السيارات. وفي القطاع الكهربائي - الاليكتروني، انتقلت ثلاث شركات برازيلية مهمة إلى ملكية يابانية، والتهمت شركات معامل ويث، وبريستول مايرز، وميد جونسون، وليفر براذرز مختلف المعامل، واختزلت الإنتاج القومي من الأدوية إلى خمس سوق الأدوية. وانقضت شركة اناكوندا على المعادن غير الحديدية

بينما انقضت شركة يونيون كاربايد على اللدائن، والكيميائيات، والبتروكيميائيات، واستولت شركتا أميركيان كان وأمريكان مشاين اند فاوندري وزملاء اخرون لهما على ست شركات برازيلية للآلات والمعادن، أما شركة ميتراساو جيرال، صاحبة أحد أكبر مصانع المعادن في البرازيل، فقد اشتراها كونسورتيوم مؤلف من شركات بيتلهيم ستيل وتشيز مانهاتن وستاندارد اويل بثمن بخس. والحال أن لجنة برلمانية أنشئت للتحقيق في الموضوع قد توصلت إلى بعض النتائج المثيرة، لكن النظام العسكري اغلق أبواب الكونغرس البرازيلي ولم تصل النتائج قط إلى الجمهور البرازيلي[٣٤٢].

وفي ظل حكومة المارشال كاستيلو برانكو، جرى توقيع اتفاق خاص بضمان الاستثمارات، منح الشركات الأجنبية وضعية خارجة عن إطار التشريع الوطني بالفعل، لقد خفضت الضرائب على أرباحها ومنحت تسهيلات ائتمانية غير عادية، بينما ازيلت الكوابح التي كانت حكومة غولارت قد فرضتها على نزح الأرباح. والحال أن الديكتاتورية قد عرضت البلاد للبيع على الرأسماليين الأجانب مثلما يعرض قواد امرأة. ووضعت التأكيد في موضعه، "ان معاملة الأجانب في البرازيل تعد من بين المعاملات الأكثر تحررا في العالم... ولا يسري مفعول اية قيود عامة فيما يتعلق بجنسية الملاك، أو الشركاء، أو المساهمين... ولا يسري قيد على النسبة المئوية لراس المال المسجل والتي يجوز ترحيلها كربح... ولا يوجد أي قيد على ترحيل الرساميل أما إعادة استثمار الأرباح فهي تعتبر زيادة للرأسمال الأصلي..."[٣٤٣].

وتنافس الأرجنتين البرازيل على دور محظية الاستثمار الإمبريالي، ولم يتخلف نظامها العسكري خلال الفترة ذاتها عن الإعلان عن المزايا التي سوف يقدمها إلى هذا الاستثمار. ففي خطابه الذي حدد فيه في عام

١٩٦٧ السياسة الاقتصادية الأرجنتينية، أكد الجنرال خوان كارلوس اونغانيا من جديد أن الفراخ تكفل فرصة متكافئة للثعلب، "ان الاستثمارات الأجنبية في الأرجنتين سوف تعامل معاملة مساوية لمعاملة الاستثمارات ذات المنشأ الداخلي، وذلك طبقا للسياسة التقليدية لبلادنا والتي لم تتحيز قط ضد رأس المال الأجنبي، وكما هو الحال في البرازيل"[٣٤٤]. الأرجنتين لا تفرض قيودا على دخول رأس المال الأجنبي، أو على حركته داخل الاقتصاد القومي، أو على تصدير الأرباح، أو على ترحيل الرساميل، أما المدفوعات الخاصة بحقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، والمساعدة التقنية فهي تقدم دون خصومات ضريبية، وتعفي الحكومة الشركات من الضرائب وتتيح لها أسعار صرف خاصة، بالإضافة إلى الكثير من الحوافز والاعفاءات الأخرى. وبين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٨، جرى نزع تأميم خمسين مشروعا ارجنتينيا مهما ـ انتقل تسعة وعشرون منها إلى أيد أمريكية ـ في قطاعات متنوعة كالصلب، والسيارات وقطع غيار السيارات، والبتروكيميائيات، والكيميائيات، والصناعات الكهربائية، والورق، والسجائر[٣٤٥]. وفي عام ١٩٦٢، كانت شركتان من شركات الاستثمار الرأسمالي الخاص، وهما سيام دي تيا واندسترياس كايسر آرخنتيناس، من بين الشركات الصناعية الخمس الأكبر في أمريكا اللاتينية، والحال أنه قد جرى في عام ١٩٦٧ التنازل عنهما عن طيب خاطر لحساب رأس المال الإمبريالي. ومن بين كبرى المشروعات في البلاد، فإن تلك التي تتجاوز مبيعاتها سبعة بلايين بيسو في السنة يعود نصف القيمة الإجمالية لمبيعاتها إلى الشركات الأجنبية، وثلث إلى الدولة، وسدس بالكاد إلى شركات خاصة ذات رساميل ارجنتينية[٣٤٦].

ويستثمر نحو ثلث الاستثمارات الأمريكية الشمالية في الصناعة

الأمريكية اللاتينية في المكسيك، التي لا تفرض هي الأخرى اية قيود على تحويل الرساميل ونقل الأرباح، أما قيودها الخاصة بأسعار الصرف فهي صارخة الغياب. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن "المكسكة" الإلزامية لراس المال، والتي يتعين بموجبها على الرعايا المكسيكيين حيازة غالبية الأسهم في بعض الصناعات، تعد، وفقا لما ذكره وزير الصناعة والتجارة، "محل استقبال طيب بوجه عام من جانب المستثمرين الأجانب، الذين اعترفوا علانية بوجود مزايا مختلفة في انشاء مشاريع مختلطة". وقد أردف يقول، "يجب التنويه بأن المشاريع الشهيرة على المستوى الدولي قد تبنت هي نفسها ذلك الشكل للمشاركة في الشركات التي انشاتها في المكسيك، كما يجب التأكيد على أن السياسة الخاصة بمكسكة الصناعة ليس فقط لم تؤد إلى تثبيط الاستثمار الأجنبي في المكسيك، بل أن تدفق الاستثمارات بعد هذا قد تجاوز رقما قياسيا في عام ١٩٦٥، كما أن حجم الاستثمارات الذي تحقق في ذلك العام قد تم تجاوزه مرة أخرى في عام ١٩٦٦"[٣٤٧]. ومن بين المشروعات المائة الأكثر أهمية في المكسيك في عام ١٩٦٢، فإن ستة وخمسين كانت تحت السيطرة الكلية أو الجزئية لرأس المال الأجنبي، وكان أربعة وعشرون مشروعا مملوكة للدولة، بينما اختص رأس المال المكسيكي الخاص بملكية عشرين مشروعا[٣٤٨]. والحال أن هذه المشروعات العشرين لم تستأثر إلا بما يزيد قليلاً عن سبع حجم إجمالي مبيعات المشروعات المائة. وتسيطر الشركات الأجنبية الكبيرة الآن على أكثر من نصف الرساميل المستثمرة في مجالات الحاسبات الاليكترونية، ومعدات المكاتب، والآلات، والمعدات الصناعية، وقد وطدت شركات جنرال موتورز، وفورد، وكريزلر، وفولكسفاغن سيطرتها على صناعة السيارات وشبكة المصانع الإضافية التابعة لها، أما الصناعة

الكيميائية الجديدة فهي تخص شركات دوبون، ومونسانتو، وإمبريالي كيميكال انداستريز (البريطانية)، والايد كيميكال، ويونيون كاربايد، وسياناميد، ومن ناحية أخرى، فإن المعامل الرئيسية تسيطر عليها شركات بارك ـ ديفيز، وميرك، ومعامل روس (وهي شركة فرعية تتبع شركة ابوت)، وسكويب، وبعد نفوذ شركة سيلانيز بلاستكس حاسما في صناعة الالياف الصناعية، وتتزايد سيطرة شركات اندرسون كلايتون وايبر براذارز على الزيوت الغذائية، ويشارك رأس المال الأجنبي مشاركة طاغية في إنتاج الاسمنت، والسجائر، والمطاط ومشتقاته، والأدوات المنزلية، والمواد الغذائية المتنوعة[٣٤٩].

ضربات صندوق النقد الدولي تسهل استحضار الغزاة

اعترف وزيران بالحكومة أثناء الإدلاء بشهادات أمام اللجنة البرلمانية المشكلة لدراسة نزع تأميم الصناعة البرازيلية بأن المصانع المملوكة ملكية أهلية قد وجدت نفسها في وضع غير مؤات من جراء الاجراء الذي اتخذه نظام كاستيلو برانكو والذي سمح بالتدفق المباشر للقروض الائتمانية الخارجية. وكانا يشيران إلى المرسوم رقم ٢٨٩ الصادر في أوائل عام ١٩٦٥، والذي سمح للشركات الأجنبية العاملة في البرازيل بالحصول على قروض من الخارج بفائدة تصل نسبتها إلى ٧ أو ٨ في المائة مع ترتيب خاص بأسعار الصرف تضمنه الحكومة في حالة تخفيض قيمة الكروزيرو. وكان على الشركات البرازيلية أن تدفع فائدة تصل نسبتها إلى نحو ٥٠ في المائة على القروض الائتمانية التي تحصل عليها ـ بصعوبة ـ في الداخل. والحال أن مبتكر الاجراء، روبيرتو كامبوس، قد قدام هذا التفسير، "من الواضح أن العالم غير متكافئ. إن بعض الناس يولدون اذكياء، والبعض الاخر يولدون اغبياء، وبعض

الناس يولدون بأجسام رياضية قوية، والبعض الاخر يولدون معوقين. والعالم يتألف من مشاريع صغيرة وكبيرة. بعضها يموت مبكرا، في مقتبل العمر، والبعض الاخر يماطل بصورة أجر امية عبر وجود عبثي طويل. وهناك انعدام رئيسي أساسي للمساواة في الطبيعة البشرية، في وضع الأشياء، ولا يمكن لألية القروض الائتمانية أن تتجنب ذلك. أما الادعاء بأن المشاريع القومية يجب أن تتمتع بذات الحقوق التي تتمتع بها المشاريع الأجنبية في الحصول على القروض الائتمانية الأجنبية فهو لا يعدو أن يكون تجاهلا للحقائق الأساسية للاقتصاد..."[٣٥٠]. ووفقا لهذا "البيان الرأسمالي" الموجز ولكن الغني بالمادة الفكرية، فإن شريعة الغاب هي الشريعة الطبيعية التي تحكم الحياة الإنسانية، أما الظلم فلا وجود له، لأن ما اعتدنا التعامل معه على أنه ظلم ليس غير تعبير عن التناغم المتوحش الذي يسود الكون، فالبلدان الفقيرة فقيرة لأنها... فقيرة، واقدارنا مكتوبة في لوح محفوظ ونحن لا نجيئ إلى هذه الحياة إلا لكي تحقق هذه الاقدار. فالبعض محكوم عليه بأن يطيع، والبعض الاخر مكلف بإصدار الأوامر. البعض يُعرض رقبته للشنق، والبعض الاخر يلف حبل المشنقة. إن صاحب هذه النظرية هو مبدع سياسة صندوق النقد الدولي في البرازيل.

وكما هو الحال في بلدان أمريكا اللاتينية، فإن تطبيق صيغ صندوق النقد الدولي قد فتح الأبواب أمام دخول الفاتحين الأجانب إلى أرض محروقة بالفعل. فمنذ أواخر الخمسينات، ساعد الركود الاقتصادي وانعدام الاستقرار النقدي، والجفاف الذي أصاب القروض الائتمانية، والهبوط في القوة الشرائية الداخلية على قلب الصناعة القومية ووضعها تحت رحمة الشركات الإمبريالية. فمن خلال التعويذة السحرية الخاصة ب "توفير الاستقرار النقدي" فرض صندوق النقد الدولي ـ الذي يخلط

خلطا غير نزيه بين الحمى والمرض، وبين التضخم وأزمة الهياكل القائمة ـ على أمريكا اللاتينية سياسة من شانها زيادة حدة الاختلالات بدلا من تخفيضها، فهي تحرر التجارة عن طريق حظر التبادلات المباشرة واتفاقات المقايضة، وتفرض انكماش القروض الائتمانية الداخلية إلى درجة الخنق، وتجعد الأجور وتثبط نشاط الدولة. وهي تضيف إلى هذا البرنامج تخفيضات حادة لقيمة النقد يفترض من الناحية النظرية أن تعيد العملة إلى قيمتها الفعلية وتحفز الصادرات. والواقع أن تخفيضات قيمة العملة ليس من شانها إلا أن تحفز التركيز الداخلي للرساميل في جيوب الطبقات الحاكمة وتسهيل استيعاب المشاريع القومية من جانب الأجانب الذي يلوحون بقبضة من الدولارات.

وفي أمريكا اللاتينية كلها، فإن ما ينتجه النظام يقل كثيراً عن الطلب النقدي الضروري، وينشا التضخم عن هذا العجز البنيوي. ومع ذلك، فإن صندوق النقد الدولي، بدلا من أن يهاجم أسباب العرض غير الكافي الذي يقدمه الجهاز الإنتاجي، يطلق سلاح فرسانه ضد النتائج، بحيث يزيد من سحق القوة الشرائية الضعيفة التي تتعام مع السوق الداخلية، ففي هذه البلدان المؤلفة من حشود بشرية جائعة، يلقي صندوق النقد الدولي باللائمة عن التضخم على التزايد المفرط للطلب. والحال أن صيغه الخاصة بتحقيق الاستقرار والتنمية لم تفشل في تحقيق الاستقرار أو في تحقيق التنمية وحسب، بل انها، علاوة على ذلك، قد ضيقت الخناق الخارجي على هذه البلدان، وعمقت بؤس الجماهير المعدمة ـ بما يصل بالتوترات الاجتماعية إلى نقطة الغليان ـ وعجلت نزع التأميم الاقتصادي والمادي باسم المبادئ المقدسة لحرية التجارة، والمنافسة الحرة، وحرية الحركة للرساميل. والحال أن الولايات المتحدة، التي ترعى منظومة ضخمة للحماية ـ تشمل التعريفة

الجمركية، والحصص النسبية، والاعانات الداخلية ـ لم يبد صندوق النقد الدولي قط تجاهها اية بادرة انتقادية. أما فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية، من الناحية الأخرى، فإن صندوق النقد الدولي لا يعرف المرونة، لقد ظهر إلى الوجود لإبداء عدم المرونة. وبمجرد ما أن قبلت تشيلي بعثة صندوق النقد الدولي الأولى في عام ١٩٥٤ ، غصت البلاد ب "مستشاريه" ، والحال أن معظم الحكومات تنفذ الآن توجيهاته تنفيذا اعمى. والنتيجة أن العلاج يزيد المريض مرضا، لا سيما إذا كانت الجرعات التي يتنأولها عقاقير من القروض والاستثمارات. ويقدم صندوق النقد الدولي القروض أو يعطي الضوء الأخضر الضروري للأخرين لتقديمها. على أن صندوق النقد الدولي، الذي ولد في الولايات المتحدة، والذي يوجد مقره الرئيسي في الولايات المتحدة، والذي يخدم الولايات المتحدة، يعمل من الناحية الفعلية بوصفه مفتشا دوليا لن تبسط البنوك الأمريكية أيديها دون موافقته. كما أن البنك الدولي، ووكالة التنمية الدولية، والهيئات الخيرية الأخرى العاملة على نطاق دولي تجعل قروضها الائتمانية مشروطة بتوقيع وتنفيذ "خطابات النوايا" التي تقدمها الحكومات المتلقية لهذه القروض إلى الصندوق كلي الجبروت، والحال أن كل البلدان الأمريكية اللاتينية مجتمعة لا تملك نصف ما للولايات المتحدة من أصوات في توجيه سياسة هذا المارد الأسمى الذي يهيمن على شئون التوازن النقدي العالمي. لقد خلق صندوق النقد الدولي لكي يفرض هيمنة وول ستريت المالية على الكوكب كله، عندما حقق الدولار هيمنته كعملة دولية لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية، وهو لم يخذل سيده قط[٣٥١].

صحيح أن البورجوازية القومية الأمريكية اللاتينية، بسيلها إلى العيش فوق مستوى دخلها، لم تفعل ما يستحق الذكر لوقف تدفق الأجانب

المحموم، إلا أنه صحيح أيضاً أن الشركات الإمبريالية قد استخدمت سلسلة مذهلة من طرق التدمير. فمع القصف التمهيدي الذي شنه صندوق النقد الدولي والذي سهّل التغلغل، جرى الاستيلاء على بعض المشاريع بمجرد مكالمة هاتفية، بعد هبوط حاد في سوق الأسهم، في مقابل جرعة بسيطة من الاوكسجين على شكل أسهم، أو باستدعاء دين معين للحصول على امدادات أو للتمتع بحقوق استخدام العلامات المسجلة، أو العلامة التجارية، أو الابتكارات التقنية. والحال أن مثل هذه الديون، التي ضاعفت من حجمها تخفيضات قيمة العملة ـ والتي ترغم المشاريع المحلية على دفع مبالغ أكبر بالعملة القومية للوفاء بالتزاماتها الدولارية ـ تصبح بهذا الشكل مصيدة مميتة، أما تكلفة التبعية التكنولوجية فهي باهظة، ومن بين خبرات الشركات الفنية الخبرة في فن التهام الجار. وقد لاحظ واحد متآخر موهيكان الصناعة القومية البرازيلية قبل وقت قصير من نفى الحكومة العسكرية له، "إن التجربة تبين أن الأرباح الناجمة عن مبيعات شركة قومية لا تصل قط في أغلب الأحوال إلى البرازيل، بل تظل، حاملة للفوائد، في السوق المالية للبلد المشترى"[٣٥٢]. ويجمع المقرضون مستحقاتهم عن طريق الاستيلاء على منشئات وآلات المدينين. وتبين أرقام البنك المركزي البرازيلي أن ما لا يقل عن خمسة الاستثمارات الصناعية الجديدة في أعوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، و١٩٦٧ لم يكن في الواقع غير تحويل لديون غير مدفوعة إلى مجال الاستثمار.

وعلى قمة الابتزاز المالي والتكنولوجي تتربع المنافسة "الحرة" الجائرة بين الأقوياء والضعفاء. وكجزء من بنية عالمية، يمكن لفرع الشركة الكبيرة أن يسمح لنفسه بترف خسارة المال لسنة، أو لسنتين، أو لأية سنوات لا بد منها. وتهبط الأسعار ثم يترقب استسلام الضحية.

وتتعاون البنوك في الحصار، أن المشروع القومي ليس قادرا على الوفاء بالديون خلافا لما كان يبدو، وهكذا يجري حرمانه من الامدادات وسرعان ما يرفع الراية البيضاء مستسلما، ويتحول الرأسمالي المحلي إلى شريك أصغر أو موظف عند غالبيته. والا فإنه يوفق في المأثرة المشتهاة أكثر من سواها ـ أنه يسترد ملكيته على شكل أسهم في الشركة الأجنبية وينهي عمره كقاطع كوبونات ميسور الحال. وتتمثل قصة بليغة فيما يتعلق ب "الإغراق" السعري في قصة استيلاء شركة يونيون كاربايد على مصنع اديسايت البرازيلي لشرائط التسجيل. ذلك أن شركة سكوتش تيب، وهي جزء من شركة مينيسوتا ما ينتج اند مانيفاكشرنغ متعددة المخالب، قد بدأت في تخفيض أسعار منتجاتها بصورة ثابتة في البرازيل. وهكذا واصلت مبيعات شركة اديسايت انخفاضها. وأوقفت البنوك قروضها الائتمانية لها. وواصلت شركة سكوتش تيب تخفيض أسعارها ـ بنسبة ٣٠ في المائة، ثم بنسبة ٤٠ في المائة. وعندئذ ظهرت شركة يونيون كاربايد على المسرح واشترت الشركة البرازيلية اليائسة بثمن بخس. وبعد ذلك توصلت شركتا يونيون كاربايد وسكوتش تيب إلى اقتسام السوق القومية، لقد اقتسمتا البرازيل، فأخذت كل واحدة منهما النصف، واتفقتا على هضم ما التهمناه برفع سعر شريط التسجيل بنسبة ٥٠ في المائة. وكان القانون المناهض للتروستات والذي يعود إلى أيام فارغاس الماضية قد ألغي قبل ذلك بسنوات.

وتعترف منظمة الدول الأمريكية بأن الموارد المالية الوفيرة التي تتمتع بها فروع الشركات الأمريكية[٣٥٣]. "في أوقات تتميز بالانخفاض البالغ للسيولة النقدية المتاحة للمشاريع الاستثمارية القومية، قد اتاحت للمصالح الأجنبية الاستيلاء في بعض الأحيان على بعض المشاريع الاستثمارية القومية". والواقع أن ندرة الموارد المالية، والتي زاد من

احتدادها الانكماش الذي فرضه صندوق النقد الدولي فيما يتعلق بالقروض الائتمانية الداخلية، تؤدي إلى تمزيق المصانع المحلية شذر مذر. لكن وثيقة منظمة الدول الأمريكية نفسها تخبرنا أن نسبة لا تقل عن ٩٥. ٧ في المائة ـ ٨٠ في المائة في حالة الصناعات الإنتاجية ـ من الموارد المالية التي تحتاجها المشاريع الاستثمارية الأمريكية لمباشرة عملها ونموها الطبيعيين في أمريكا اللاتينية تجيء من مصادر أمريكية لاتينية على شكل سلفيات ائتمانية، وقروض، وأرباح يعاد استثمارها.

الولايات المتحدة تحمي مدخراتها الداخلية، لكنها تتصرف في مدخرات الآخرين بأريحية، غزو البنوك

من الممكن إلى حد بعيد تفسير نزح الموارد القومية إلى فروع الشركات الإمبريالية بالانتشار الأخير لفروع البنوك الأمريكية التي تفلطح رؤوسها في مختلف ارجاء أمريكا اللاتينية مثلما يحدث مع الطحالب بعد سقوط المطر. ويرتبط الهجوم ضد المدخرات القومية في البلدان التابعة بالعجز المزمن في ميزان المدفوعات الأمريكي، والذي يحتم تقييد استثمارات الولايات المتحدة الخاصة في الخارج، كما يرتبط هذا الهجوم بالتدهور المثير للدولار بوصفه عملة عالمية. وهكذا فإن أمريكا اللاتينية تقدم اللعاب والغذاء معا بينما تقصر الولايات المتحدة مساهمتها على الابتلاع. والحال أن نزع تأميم الصناعة كان بمثابة منحة مجانية.

ووفقا للمسح المصرفي الدولي[٣٥٤]، فقد كان للولايات المتحدة ٧٨ فرعا لبنوكها في جنوبي الريو غراندي في عام ١٩٦٤. وبحلول عام ١٩٦٧، وصل عددها إلى ١٣٣، وكانت ودائعها في عام ١٩٦٤ لا تزيد عن ٨١٠ مليون دولار، أما في عام ١٩٦٧ فقد وصلت إلى ١٢٧٠ مليون دولار. وفي عامي ١٩٦٨ و١٩٦٨ اكتسب تقدم رجال البنوك

الأجانب سرعة فائقة، إذ يوجد اليوم لبنك فرست ناشيونال سيتي وحده ١١٠ فرع منتشرة في سبعة عشر بلدا من بلدان أمريكا اللاتينية ـ ويشمل هذا الرقم مختلف البنوك المحلية التي تم الاستيلاء عليها مؤخرا. وقد استولى بنك تشيز مانهاتن على بنك لار برازيليو (٣٤ فرعا) في عام ١٩٦٢، والبنك القاري (٤٢ فرعا، في بيرو) في عام ١٩٦٤، والبنك التجاري (١٢٠ فرعا، في كولومبيا وبنما) وبنك اتلانتيدا (٢٤ فرعا، في هندوراس) في عام ١٩٦٧، والبنك الأرجنتيني للتجارة في عام ١٩٦٨. وكانت الثورة الكوبية قد اممت ٢٠ وكالة مصرفية أمريكية، لكن رجال البنوك قد افاقوا من هذه الضربة أكثر من اللازم، ففي عام ١٩٦٨ وحده جرى افتتاح أكثر من ٧٠ فرعا بنكيا أمريكيا في أمريكا الوسطى، ومنطقة الكاريبي، والبلدان الأمريكية الجنوبية الأصغر.

ولا يعرف أحد النطاق الدقيق للنمو المتزامن للأنشطة الموازية ـ الشركات الفرعية، الشركات القابضة، شركات التمويل، الوكالات. لكن الشيء المعروف هو أن مبلغا مساويا أو أكبر من الموارد المالية الأمريكية اللاتينية قد استوعبته البنوك التي تعد، رغم أنها لا تعمل على المكشوف كفروع، محكومة من الخارج عن طريق كتل حاسمة من الأسهم أو عن طريق فتح خطوط قروض ائتمانية خارجية مشروطة.

وقد ساعد هذا الغزو المصرفي على تحويل المدخرات الأمريكية اللاتينية إلى المشاريع الاستثمارية الأمريكية المتواجدة في المنطقة، بينما يؤدي غياب القروض الائتمانية إلى خنق المشاريع الاستثمارية القومية. والحال أن إدارات العلاقات العامة بمختلف البنوك الأمريكية العاملة في الخارج تعلن دون حياء أن هدفها الرئيسي في البلدان التي تعمل فيها هو تحويل المدخرات الداخلية إلى الشركات متعددة القوميات والتي تتعامل مع مكاتبها الرئيسية[٣٥٥].

ونسمح لأنفسنا بأن نحلق قليلاً في عالم الخيال، هل يمكن لبنك أمريكي لاتيني أن يحقق لنفسه تواجدا في نيويورك ويستولي على المدخرات القومية للولايات المتحدة؟ أن الوهم ينفجر، فمثل هذا العمل الشنيع محظور بصورة معلنة ساخرة. لكن البنوك الأمريكية تتصرف على هواها، من خلال فروعها العديدة، بالمدخرات القومية الأمريكية اللاتينية، وتتابع أمريكا اللاتينية استيلاء الولايات المتحدة على أموالها متابعة حنونة حنان الولايات المتحدة نفسها. وعلى اية حال، فإن بنك دي ديسكنتوس البرازيلي قد استشار حملة أسهمه، في يونيو ١٩٦٦، بشأن خطوة قومية عظمى وحيوية اقترح اتخاذها. لقد قرر طبع عبارة "نحن نثق في الرب" على وثائقه. وقد أشارالبنك في تباه إلى واقع أن الدولار يحمل عبارة "نحن نثق في الرب".

اما السياسات الائتمانية للبنوك الأمريكية اللاتينية التي لم يستولي عليها رأس المال الأجنبي، أو يتغلغل فيها، أو يحاصرها، فهي تتبع ذات المبادئ التي تتبعها فروع بنوك ناشيونال سيتي، وتشيز مانهاتهن وبنك اوف اميركا، فهي، أيضاً، تفضل تلبية متطلبات المشاريع الاستثمارية الصناعية والتجارية الأجنبية، والتي تتمتع بضمانات راسخة وتعمل على أساس حجم كبير.

إمبراطورية تستورد رؤوس الأموال

افترض برنامج العمل الاقتصادي الذي طرحته الحكومة والذي أعده روبيرتو كامبوس أن رأس المال الأجنبي، تجاوبا مع سياسة سخية كهذه، سوف يتدفق على البلاد لتشجيع التنمية وسوف يساهم في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والمالي في البرازيل. وقد أعلن عن استثمارات مباشرة جديدة من الخارج حجمها ١٠٠ مليون دولار سوف تصل في

عام ١٩٦٥، إلا أنه لم يصل غير ٧٠ مليون دولار[٣٥٦]. وكانت هناك تأكيدان بأن الأرقام المستهدفة لعام ١٩٦٥ سوف يتم تجاوزها في الأعوام التالية، لكن التخمينات ذهبت سدى. وفي عام ١٩٦٧، وصل ٧٦ مليون دولار، لكن حجم الأرباح والانصبة المحولة، جنبا إلى جنب المدفوعات التي ذهبت إلى المساعدة التقنية، وحقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، واستخدام العلامات التجارية، فاق حجم الاستثمارات الجديدة بأكثر من أربع مرات، وعلاوة على كل ذلك، كانت هناك أيضاً التحويلات السرية. ويعترف البنك المركزي بأن ١٢٠ مليون دولار قد خرجت من البرازيل في عام ١٩٦٧ دون أن تمر بالقنوات المشروعة.

وهكذا فإن ما خرج كان أكثر بكثير مما دخل. والواقع أن الاستثمارات الجديدة في السنوات الرئيسية لنزع التأميم الصناعي - ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧ - كانت ادني بكثير من المستوى الذي كانت عليه في عام ١٩٦١[٣٥٧]. وتستثمر معظم الرساميل الأمريكية في البرازيل في الصناعة، إلا أنها تصل إلى نسبة تقل عن ٤ في المائة من الاستثمارات الأمريكية العالمية في مجال الإنتاج الصناعي. أما في الأرجنتين فهي تصل إلى نسبة ٣ في المائة بالكاد، بينما تصل في المكسيك إلى نسبة لا تزيد عن ٣. ٥ في المائة. إن ابتلاع كبرى المنشئات الصناعية الأمريكية اللاتينية لم ينطو على تضحيات عظيمة من جانب وول ستريت. لقد جاءت بدولارات قليلة واخذت دولارات أكثر.

كتب لينين يقول، "في ظل الرأسمالية الحديثة، حيث تسود الاحتكارات، فإن تصدير رأس المال قد أصبح السمة النموذجية". أما في أيامنا، كما أشارباران وسويزي، فإن الإمبريالية تستورد رأس المال من البلدان التي تعمل فيها. وخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٠ إلى

عام ١٩٦٧، بلغ إجمالي الاستثمارات الأمريكية الجديدة في أمريكا اللاتينية (من غير الأرباح التي أعيد استثمارها) ٣. ٩٢١ بليون دولار. أما الأرباح والانصبة التي أرسلت إلى الخارج خلال الفترة نفسها فقد بلغ إجماليها ١٢,٨١٩ بليون دولار. لقد زادت الأرباح المنزوحة عن حجم الرساميل الجديدة المستثمرة في المتحلقة بأكثر من ثلاث مرات[٣٥٨]. ووفقا للجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فإن استنزاف الأرباح قد زاد منذ ذلك الحين عن الاستثمارات الجديدة نحو خمس مرات، وقد عانت الأرجنتين، والبرازيل، والمكسيك من التوسع الأكبر لبوابة الهرب هذه. لكن هذه الحسبة حسبة محافظة، ذلك أن جانبا مهما من الموارد المالية المحولة على شكل دفعات لسداد الديون يعد في واقع الأمر مطابقا لأرباح عن الاستثمارات، ولا تشمل الأرقام لا التحويلات إلى الخارج للمدفوعات عن حقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، والمساعدة التقنية، ولا التحويلات غير المنظورة الأخرى والتي جرى التستر عليها عادة تحت بند "الأخطاء والتقصيرات"[٣٥٩]. كما أن هذه الأرقام لا تأخذ بعين الاعتبار الأرباح التي تعود على الشركات عندما تضخم أسعار الامدادات التي تشحنها إلى فروعها وتضخم ـ بحماس مساو ـ تكاليفها التشغيلية.

والحال أن المشاريع الاستثمارية تتميز بسعة الحيلة والخيال أيضاً فيما يتعلق بالاستثمارات نفسها. فالواقع أنه، مع استمرار حمى التقدم التقني في تقصير فترات تجديد رأس المال الثابت في الاقتصاديات المتقدمة، تكون معظم المنشئات ومعدات المصانع المصدرة إلى أمريكا اللاتينية قد اتمت بالفعل دورة من دورات حياتها المربحة في الأماكن الأصلية التي جاءت منها. وهكذا تكون قد استهلكت حسابها بصورة كاملة أو بصورة جزئية. وهذا العامل في الاستثمار في الخارج يجري

تجاهله، فالقيمة التي تحدد بصورة اعتباطية للآلات غالبا ما تكون جزءا صغيرا مما هي عليه لو اخذنا في حسابنا الاهلاك الذي تعرضت له في السابق. وعلاوة على ذلك، فإن المكتب الرئيسي ليست لديه مبررات للمشاركة في نفقات إنتاج سلع في أمريكا اللاتينية كانت تباع لها في السابق من الخراج. وتتعهد الحكومات الأمريكية اللاتينية بأن تمنح هذا عن طريق تقديم الموارد إلى الفرع المحلي، الذي يتمتع بحق الحصول على قروض ائتمانية محلية بمجرد ما أن يضع علامة على الموقع المختار لمصنعه، وهو يحصل على امتيازات خاصة بأسعار الصرف فيما يتعلق بوارداته - وهي مشتريات يشتريها المشروع الاستثماري عادة من نفسه - بل ويمكنه في بعض البلدان الاطمئنان إلى ترتيب خاص فيما يتعلق بأسعار الصرف لسداد ديونه الخارجية، والتي غالبا ما تكون ديونا مستحقة للجناح المالي للشركة نفسها[٣٦٠]. وقد قدرت مجلة برازيلية أن مدخلات العملة الأجنبية عن طريق صناعة السيارات في الأرجنتين بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٤ كانت ازيد ثلاث مرات ونصف عن المبلغ الذي يلزم لبناء سبع عشرة محطة حرارية كهربائية وست محطات مائية كهربائية، تزيد قوتها الإجمالية عن ٢٠٠,٢ ميغاوات، وأنها تساوي قيمة الآلات والمعدات التي يتعين على الصناعات الدينامية استيرادها على مدى فترة قوامها أحد عشر عاما لإنتاج زيادة سنوية نسبتها ٨,٢ في المائة في المنتجات بالنسبة إلى الفرد الواحد من السكان.

التكنوقراطيين أكثر براعة من رجال المارينز في قطع الطرق

تحرك المشاريع الاستثمارية، بترجيلها لدولارات تفوق كثيراً الدولارات التي تدخلها، جوع المنطقة المزمن إلى الدولارات، فالبلدان

"المستفيدة" يجري حرمانها من الرساميل بدلا من رسملتها. وهنا تبدأ إليه اللجوء إلى القروض في العمل. وتعد المنظمات الائتمانية الدولية مهمة في المساعدة على القضاء على القلاع الهزيلة للصناعة المرسملة قوميا وفي توطيد هياكل الاستعمار الجديد. والحال أن "المساعدة" تعمل كفاعل الخير الذي يزود خنزيره الصغير برجل خشبية لأن هياكل رجلة الأصلية قطعة قطعة. إن العجز في ميزان المدفوعات الأمريكي هو نتيجة للإنفاق العسكري والمساعدات الخارجية، وهو سيف ديموقليس مسلط على رفاهية الولايات المتحدة. لكنه، في الوقت نفسه، يجعل تلك الرفاهية ممكنة، أن الإمبراطورية ترسل مشاة بحريتها لإنقاذ دولارات احتكاريها، وبشكل أكثر فعالية، ترسل تكنوقراطييها وقروضها لتوسيع الاستثمار وللاستحواذ على المواد الخام والأسواق.

ان رأسمالية أيامنا تعبر في مركز قوتها العالمي عن تطابق واضح في المصالح بين الاحتكارات الخاصة وجهاز الدولة[٣٦١]. فالشركات المتعددة القوميات تستخدم الدولة في مراكمة، ومضاعفة، وتركيز رأس المال، وفي تعميق الثورة التكنولوجية، وفي عسكرة الاقتصاد، وفي ضمان النجاح، بمختلف الوسائل، في الحملة الصليبية الرامية إلى احكام السيطرة على العالم الرأسمالي، والحال أن بنك التصدير والاستيراد، ووكالة التنمية الدولية ومنظمات أخرى اصغر حجما تشارك في هذا الدور، مثلما تشارك فيه بعض المنظمات التي يقال أنها دولية والتي تتمتع الولايات المتحدة فيها بهيمنة طاغية، صندوق النقد الدولي، وتوامخ البنك الدولي للانشاء والتعمير، وبنك التنمية الأمريكي المشترك. فهذه المنظمات تمنح نفسها انقضاضا ناجحا على البنوك المركزية لهذه البلدان وعلى وزرائها الحاسمين، وهي تضع أيديها على كافة البيانات الاقتصادية والمالية السرية، وتصوع وتفرض قوانين قومية،

وتمنع أو تجيز الخطوات التي تقترحها الحكومات والتي تحدد هي نهجها حتى ادق التفاصيل.

إن الاحسان الدولي لا وجود له، وهو يبدأ في الداخل، بالنسبة إلى الولايات المتحدة كما بالنسبة إلى جميع الاخرين، فدور المساعدة الخارجية محلي بالدرجة الأولى ـ الاقتصاد الأمريكي يساعد نفسه ـ وقد عرفها روبيرتو كامبوس نفسه لا سواه، عندما كان سفيرا لحكومة غولارت القومية، بانها برنامج لتوسيع الأسواق الخارجية حتى تستوعب الفوائض الأمريكية وتخفف من فيض الإنتاج في الصناعات التصديرية للولايات المتحدة[٣٦٢]. وفي الأيام الأولى لمشروع التحالف من أجل التقدم، اشارت وزارة التجارة الأمريكية إلى نجاحها في انشاء مشاريع استثمارية ومصادر توظيف جديدة للاستثمارات الخاصة في أربع وأربعين ولاية أمريكية شمالية[٣٦٣]. وفي كانون ثاني ١٩٦٨، أكد الرئيس جونسون الكونغرس أن نسبة تزيد عن ٩٠ في المائة من المساعدات الخارجية الأمريكية في عام ١٩٦٩ سوف تذهب إلى تمويل مشتريات من الولايات المتحدة، وأنه قد قام بصورة شخصية ومباشرة بتكثيف الجهود الرامية إلى زيادة هذه النسبة المئوية"[٣٦٤]. وفي تشرين أول ١٩٦٩، دوت البرقيات بتصريحات كارلوس سانز دي سانتا ماريا، رئيس اللجنة الأمريكية المشتركة للتحالف، الذي قال في نيويورك أن المساعدة قد تكشفت عن عمل مريح ممتاز للاقتصاد الأمريكي وللخزانة الأمريكية، فبعد أن أصبح اختلال ميزان المدفوعات الأمريكي حرجا في أواخر الخمسينيات، أصبحت القروض مشروطة بشراء سلع صناعية أمريكية، تكلف عادة أكثر مما تكلفه منتجات مماثلة من بلدان أخرى. ومؤخرا جدا، جرى تطبيق اليات معينة، من بينها "القوائم السلبية" للتأكد من عدم استخدام القروض الائتمانية من أجل تصدير سلع يمكن

للولايات المتحدة بيعها في السوق العالمية في ظل ظروف تنافسية جيدة دون اللجوء إلى الاحسان على الذات. أما "القوائم الإيجابية" التي تلت ذلك فقد ساعدت على بيع منتجات صناعية أمريكية معينة من خلال "المساعدة" بأسعار تزيد بنسب تتراوح بين ٣٠ و٥٠ في المائة عن أسعار السلع نفسها من مصادر أخرى.

وتتكرم "المساعدة المربوطة" (هكذا سمتها وثيقة منظمة الدول الأمريكية التي سبق الاستشهاد بها) ب "اعانة عامة للصادرات الأمريكية". ففي البرازيل، تواجه مبيعات مصدري السلع الرأسمالية الأمريكية منافسة متزايدة من جانب المصدرين الآخرين... (و) تجد نفسها في موقف غير مؤات بدرجة خطيرة مالم تتسن لها الاستفادة من التمويل الأكثر تحررا والمتاح في ظل مختلف برامج المساعدة"[٣٦٥]. وعندما وعد ريتشارد نيكسون، في خطاب ادلى به في أواخر عام ١٩٦٩، ب "فك" إلمساعدة، فإن لم يشر إلا إلى إمكانية مشتريات بديلة من بلدان أمريكية لاتينية. وهذا هو ما حدث مع القروض التي منحها بنك التنمية الأمريكي المشترك وعهد بها إلى صناديق العمليات الخاصة التابعة له. لكن التجربة تبين أن الولايات المتحدة ـ أو الفروع الأمريكية اللاتينية لشركاتها ـ تنتهي دائماً بأن تكون المورد المختار في العقود. كما أن القروض المقدمة من وكالة التنمية الدولية، وبنك التصدير والاستيراد، ومعظم القروض المقدمة من بنك التنمية الأمريكي المشترك تشترك نقل ما لا يقل عن نصف الشحنات في سفن أمريكية، والحال أن رسوم الشحن على السفن الأمريكية تصل إلى ضعف رسوم الشحن على خطوط الملاحة المتاحة الأخرى. كما أن المؤسسات التي تؤمن السلع المنقولة، والبنوك التي تحقق العمليات من خلالها، عادة ما تكون مملوكة للولايات المتحدة.

وقد قدمت منظمة الدول الأمريكية تقديرا غنيا بالدلالات لحجم المساعدة الفعلية التي حصلت أمريكا اللاتينية عليها[٣٦٦]. فبعد نزع القشرة عن الحبة، لا بد للمرء من أن يستنتج أن نسبة ٣٨ في المائة فقط من المساعدة الاسمية هي التي يمكن اعتبارها مساعدة فعلية. ولا تتألف المساعدة إلا من مجرد خمس إجمالي القروض المجازة للصناعة، والتعدين، والمواصلات، والقروض الائتمانية التعويضية. وفي حالة بنك التصدير والاستيراد، فإن المساعدة تسافر من الجنوب إلى الشمال، إذ تقول منظمة الدول الأمريكية أن التمويل الذي يقدمه البنك لا يعني مساعدة بل تكاليف إضافية للمنطقة بالنظر إلى الأسعار المتضخمة للسلع الأمريكية المصدرة عبر البنك.

وتقدم أمريكا اللاتينية معظم الموارد الرأسمالية العادية لبنك التنمية الأمريكي المشترك. لكن وثائق بنك التنمية الأمريكي المشترك تحمل شعار التحالف من أجل التقدم بالإضافة إلى شارته الخاصة، والولايات المتحدة هي البلد العضو الوحيد الذي يتمتع بحق الفيتو، أما أصوات البلدان الأمريكية، المناظرة لمساهماتها من الرساميل، فهي عاجزة عن تحقيق أغلبية الثلثين اللازمة لاتخاذ القرارات المهمة. وقد اعترف نيلسون روكفيللير، في تقريره الشهير إلى الرئيس نيكسون في آب ١٩٦٩، بأنه "في حين أن حق الفيتو الذي نتمتع به الولايات المتحدة فيما يتعلق بالقروض التي يقدمها بنك التنمية الأمريكي المشترك لكي تستخدم، إلا أن التهديد باستخدامه لأغراض سياسية قد أثر على القرارات". ويفرض بنك التنمية الأمريكي المشترك على معظم القروض التي يقدمها نفس الشروط التي تقرضها الهيئات الأمريكي المشترك على معظم القروض التي يقدمها نفس الشروط التي تقرضها الهيئات الأمريكية السافرة، فالنقود يجب انفاقها على شراء سلع أمريكية، يتعين نقل ما لا

يقل عن نصفها في سفن ترفع علم الولايات المتحدة - ويشار إلى التحالف من أجل التقدم بشكل سافر في النشرات الدعائية. ويحدد بنك التنمية الأمريكي المشترك سياسة الهيئات التي يمسها بعصاه السحرية فيما يتعلق بالتعريفة والضرائب، فهو يقرر الرسم الذي يجب فرضه على استهلاك المياه. ويحدد ضريبة الانتفاع من مواسير المياه الرئيسية والسكن على أساس مقترحات يقدمها مستشارون أمريكيون يعينون بموافقته الكريمة. وهو يصدق على خطط العمل، ويصوغ شروط العطاءات، ويدير الموارد المالية، ويرصد أسلوب تنفيذ العمل[٣٦٧]. في مهمة إعادة تشكيل بنية التعليم العالي في المنطقة وفقا لمعايير الاستعمار الثقافي الجديد، فقد لعب بنك التنمية الأمريكي المشترك دورا مثمرا. فقروضه المقدمة إلى الجامعات تستبعد إمكانية تعديل القوانين واللوائح دون علمه وموافقته، وهو، في الوقت نفسه، يفرض إصلاحات تربوية، وإدارية، ومالية محددة. وفي حالة نشوء خلاف في الراي، يعين الأمين العام لمنظمة الدول الأمريكية حكما[٣٦٨].

أما عقود وكالة التنمية الأمريكية فهي لا تكتفي باشتراط شراء سلع أمريكية ونقل السلع على سفن أمريكية، وانما تُحرم أيضاً التجارة مع كوبا وفيتنام وتجعل الوصاية الإدارية لفنيي وكالة التنمية الدولية الزامية. وللتعويض عن فروق الأسعار بين التراكتورات أو الأسمدة الأمريكية والتراكتورات أو الأسمدة التي يمكن الحصول عليها من السوق العالمية بأسعار أرخص، يجري النص على الغاء الضرائب والرسوم الجمركية على المنتجات المستوردة بقروض ائتمانية. وتشمل مساعدات وكالة التنمية الدولية عربات الجيب والأسلحة الحديثة لكي تستخدمها الشرطة في حماية الفانون والنظام في البلدان المعنية. وليس من المفارقات أن ثلث القروض الائتمانية يمكن تسليمه فورا، بينما يعد الثلثان الاخران

متوقفين على موافقة صندوق النقد الدولي ـ والذي تؤدي وصفاته عادة إلى إشعال نيران غليان اجتماعي. وإذا لم يتمكن صندوق النقد الدولي من فك كل اليات السيادة مثلما يفك المرء ساعة اليد، فإن وكالة التنمية الدولية تسارع باشتراط إقرار قوانين ومرسومات محددة. وتعد وكالة التنمية الدولية المستودع الرئيسي للموارد المالية لمشروع التحالف من أجل التقدم. وإذا ما اكتفينا بمثال واحد لتيه الكرم والسخاء، فسوف نجد أن اللجنة الأمريكية المشتركة التابعة للتحالف قد تمكنت من اجبار حكومة أوروغواي على توقيع تعهد تنتقل بموجبه إيرادات ونفقات أجهزة الدولة، والسياسة الرسمية بشأن التعريفة، والأجور، والاستثمارات، تحت سيطرة هذه الهيمنة الأجنبية[٣٦٩]. لكن أكثر الشروط خبثا نادرا ما تظهر في النصوص المنشورة للعقود والتعهدات، ويجري اخفاؤها في ملاحق سرية. فلم يعرف برلمان أوروغواي قط أن الحكومة قد وافقت في آذار ١٩٦٨ على الحد من صادرات الأرز في ذلك العام حتى يتمكن البلد من الحصول على الدقيق، والذرة، والسرغم بموجب قانون الفوائض الزراعية الأمريكي.

وتلمع خناجر عديدة تحت عباءة المساعدات المقدمة إلى البلدان الفقيرة. وقد اعترف تيودورو موسكوسو، الذي كان رئيسا للتحالف من أجل التقدم، "قد يحدث أن تكون الولايات المتحدة بحاجة إلى تصويت بلد معين في الأمم المتحدة أو منظمة الدول الأمريكية، ومن الممكن أن تطلب حكومة ذلك البلد (طبقا للتقاليد المقدسة لديبلوماسية الحرب الباردة) ثمنا في مقابل ذلك"[٣٧٠]. والحال أن مندوب هاييتي إلى مؤتمر منظمة الدول الأمريكية في بونتا ديل ايستي في عام ١٩٦٢ قد غير تصويته في مقابل مطار جديد، وهكذا حصلت الولايات المتحدة على أغلبيتها في سعيها إلى طرد كوبا من منظمة الدول الأمريكية[٣٧١].

وقد قال المدير الغواتيمالي السابق ميغيل يديغوارس فوينتيس أنه قد اضطر إلى تهديد الولايات المتحدة بحرمانها من تصويت بلاده إلى جانبها في مؤتمرات التحالف من أجل التقدم لدفع الولايات المتحدة إلى الوفاء بوعودها بشراء المزيد من سكر غواتيمالا ٣٧٦.

وقد يبدو غريبا للوهلة الأولى أن البرازيل كانت خلال عهد غولارت البلد الأولى برعاية برنامج التحالف من أجل التقدم. لكن الغرابة تتبدد بمجرد ما أن يدرك المرء التوزيع الداخلي للمساعدة المتلقاة، لقد زرعت قروض التحالف الائتمانية في طريق غولارت كالألغام المتفجرة. إن كارلوس لاسيردا، محافظ غوانابارا وزعيم اليمين المتطرف آنذاك، قد حصل على مساعدات يزيد حجمها سبع مرات عن حجم المساعدات التي حصل عليها الشمال الشرقي كله، وهكذا فإن غوانابارا، التي تضم بالكاد أربعة ملايين من السكان، قد تمكنت من انشاء حدائق غناء للسياح على أكثر خلجان العالم إثارة، بينما ظل الشمال الشرقي قرح أمريكا اللاتينية المفتوح. وفي حزيران ١٩٦٤، بعد الانقلاب الذي نجح في وضع كاستيلو برانكو في السلطة، بين توماس مان، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية للشئون الدولية، "ان الولايات المتحدة قد وزعت بين المحافظين الاكفاء لولايات برازيلية معينة المساعدات التي كانت مخصصة لحكومة غولارت، رامية من وراء ذلك إلى تمويل الديمقراطية، ولم تقدم واشنطن أموالا لميزان المدفوعات أو للميزانية الاتحادية، لأن ذلك كان من شانه أن يفيد الحكومة المركزية بشكل مباشر"[٣٧٢]. وكانت الإدارة الأمريكية قد قررت حرمان حكومة بيلاوندي في بيرو من أي شكل من اشكال التعاون ما لم تقدم التأكيدات المنشودة بانتهاج سياسة متساهلة تجاه الشركة الدولية للبترول. وقد رفض بيلاوندي أن يفعل ذلك وكنتيجة لذلك، فإنه لم يحصل حتى

أواخر عام ١٩٦٥ على حصة الموارد المالية التي كانت حكومته قد اكتسبت حق توقع الحصول عليها من برنامج التحالف من أجل التقدم"[٣٧٣]. وفيما بعد، كما هو معروف، ساوم بيلاوندي ـ وخسر كلا من النفط والسلطة، وكان قد رضخ لكي يبقى. وفي بوليفيا، لم تقدم القروض الأمريكية مليما واحدا إلى البلاد لكي تبني فرنا خاصا بها لصهر القصدير، بحيث أن خام القصدير قد واصل الرحيل إلى ليفربول، ومن هناك، بعد صهره، إلى نيويورك. لقد أدت "المساعدة" إلى نشوء بورجوازية تجارية طفيلية، وإلى تضخم البيروقراطية، واقامت بنايات ضخمة وطرقا رئيسية حديثة للسيارات وافيالا بيضاء أخرى. في بلد يزاحم هاييتي على أعلى معدل لوفيات الأطفال في أمريكا اللاتينية. وقد حرمت القروض الائتمانية المقدمة من الولايا المتحدة وهيئاتها "الدولية" بوليفيا من حقها في قبول عروض سوفيتية، وتشيكية، وبولندية لإنشاء صناعة بترو ـ كيميائية، ولاستخراج وصهر الزنك، والرصاص، والحديد، ولإنشاء افران لصهر القصدير والانتيمون. وفي الوقت نفسه، جرى ارغام بوليفيا على استيراد المنتوجات من الولايات المتحدة وحدها دون سواها. وعندما سقطت حكومة الحركة القومية الثورية في نهاية الأمر، بعد أن نخرت المساعدة الأمريكية دعائمها، بدا دوغلاس هيندرسون، السفير الأمريكي، في حضور اجتماعات وزارة رينيه بارينتوس بصفة منتظمة[٣٧٤].

والحال أن القروض تحدد بدقة موازين الحرارة المناخ الاستثماري العام لكل بلد، وتساعد على تبديد الغيوم السياسية أو العواصف الثورية من سماء المليونيرات الصافية. وقد أعلن فريق من رجال الأعمال برئاسة ديفيد روكفيللير[٣٧٥]. في عام ١٩٦٣، "ان الولايات المتحدة سوف ترتب برنامج مساعداتها الاقتصادية في البلدان التي تبدي استعدادا أكبر

لتهيئة المناخ للاستثمارات، وسوف تسحب المساعدات من البلدان الأخرى التي لا تبدي أداء مرضيا. وينص قانون المساعدات الخارجية بشكل قاطع على حجب المساعدات عن اية حكومة تؤمم، أو تصادر، أو تحوز ملكية أو تسيطر على ملكية تخص أي مواطن، أو اية شركة، أو جمعية، أو اتحاد أمريكي يخص مواطنين أمريكيين بنسبة لا تقل عن ٥٠ في المائة[٣٧٦]. وليس غريبا أن اللجنة التجارية التابعة لبرنامج التحالف من أجل التقدم تضم بين أعضائها الأبرز كبار مديري بنك تشيزمانهاتهن، وناشيونال سيتي بنك، وستاندارد اويل، واناكوندا، وغريس. وتمهد وكالة التنمية الدولية الطريق أمام الرأسماليين الأمريكيين بسبل مختلفة ـ على سبيل المثال، عن طريق اشتراط التصديق على اتفاقات تكفل الاستثمارات ضد الخسائر الممكنة من جراء الحروب، أو الثورات، أو الانتفاضات، أو الأزمات النقدية. وفي عام ١٩٦٦، وفقا لوزارة التجارة الأمريكية، حصل المستثمرون الخاصون الأمريكيون على هذه الضمانات في خمسة عشر بلدا من بلدان أمريكا اللاتينية، بالنسبة إلى مائة مشروع تشمل أكثر من ٣٠٠ مليون دولار، بموجب برنامج وكالة التنمية الدولية لضمان الاستثمارات[٣٧٧].

وليست اديلا أغنية ثورية مكسيكية، بل هي اسم كونسورتيوم استثماري دولي، وقد دشنه فيرست ناشيونال سيتي بنك، وستاندارد اويل اوف نيوجيرسي، وشركة فورد موتور. وقد انضمت مجموعة ميلون إلى المشروع بحماس، وكذلك فعلت شركات أوروبية كبرى لأن "أمريكا اللاتينية"، كما أشارالسناتور جاكوب غافيتز، تتيح فرصة ممتازة للولايات المتحدة لتظهر، بدعوتها أوروبا إلى "الدخول"، أنها لا تسعى إلى موقع السيطرة أو الانفراد"[٣٧٨]. وقد قدمت اديلا في تقريرها السنوي لعام ١٩٦٨ شكرا خاصا إلى بنك التنمية الأمريكي المشترك

على القروض الموازية التي قدمها لتعزيز النشاط الاستثماري الكونسورتيوم في أمريكا اللاتينية[٣٧٩]، كما حيت الأداء المماثل للشركة المالية الدولية، وهي جناح للبنك الدولي. وتعد اديلا على اتصال مستمر بكل من المؤسستين لتجنب ازدواج الجهود ولتقييم فرص الاستثمار.

ويمكن تقديم الكثير جدا من الأمثلة على مثل هذه التحالفات المقدسة. ففي الأرجنتين، تحولت المساهمات الأمريكية اللاتينية في موارد بنك التنمية الأمريكي المشترك إلى قروض مناسبة جدا تفيد شركة بترو سور التابعة لشركة الكتريك بوند اند شير (أكثر من ١٠ مليون دولار لإنشاء مجمع بتروكيميائي)، وشركة ارميتال التابعة لشركة بود (فيلادلفيا) ٣٨٥(لتمويل مصنع لقطع غيار السيارات). وقد اتاحت قروض وكالة التنمية الدولية الائتمانية توسيع مصنع ريتشفيلد الكيميائي في البرازيل. وقدم بنك التصدير والاستيراد قروضا إلى شركة ايكومي، وهي فرع لشركة بيتلهيم للصلب في البلد نفسه، وفي البرازيل أيضاً، أدت مساهمات من برنامج التحالف من أجل التقدم والبنك الدولي إلى تمكين شركة دوتش فيليبس انداتسريز من انشاء أكبر مجمع لمصانع الأسمدة في أمريكا اللاتينية في عام ١٩٦٦. وكل ذلك يحدث تحت اسم "المساعدة" ـ وكله يزيد من عبء الدين الخارجي الذي تتحمله البلدان المحظوظة بهذه الطريقة.

وقد عهد فيديل كاسترو، في الأيام الأولى للثورة الكوبية، بمشكلة إعادة تعزيز احتياطيات العملة الأجنبية التي كانت دكتاتورية باتيستا قد استنزفتها إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، لكنهما ردا بأن عليه أولا أن يقبل برنامجا لتحقيق الاستقرار، وهو ما يعني ـ كما حدث في كل مكانآخر ـ تقويض الدولة وتجميد الإصلاحات البنيوية[٣٨٠]. ويعمل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في توافق وثيق ومن أجل أهداف

مشتركة، وقد ولدا معا في بريتون وودز. وتتمتع الولايات المتحدة بربع الأصوات في البنك الدولي، أما بلدان أمريكا اللاتينية التي تبلغ اثنين وعشرين بلدا فهي تتمتع بأقل من العشر. ويتجاوب البنك الدولي مع الولايات المتحدة تجاوب الرعد مع البرق.

وكما يبين البنك، فإن معظم القروض تذهب إلى بناء الطرق وشبكات المواصلات الأخرى، وإلى تنمية مصادر الطاقة الكهربائية، وهي شرط جوهري لنمو المشاريع الاستثمارية، الخاصة"[٣٨١]. والواقع أن مشاريع البنية الأساسية هذه تسهل حركة المواد الخام إلى الموانئ والأسواق العالمية وتقدم الصناعة التي نزع تأميمها بالفعل في البلدان الفقيرة. ويعتقد البنك الدولي ان "الصناعة المعتمدة على المنافسة يجب تركها، إلى أقصى الحدود الممكنة من الناحية العملية، للمشاريع الاستثمارية الخاصة. ولا يعني هذا أن البنك يحظر بصورة مطلقة تقديم القروض إلى الصناعات التي تملكها الحكومات، إلا أنه لن يتعهد بتمويلات كهذه إلا عندما لا تكون الرساميل الخاصة متاحة، وعندما يرتاح، بعد دراسة شاملة، إلى أن مشاركة الحكومات سوف تكون متمشية مع التشغيل الكفء، وأن يكون لها أثر معوق لا لزوم له على توسع المبادرة الخاصة والاستثمار الخاص". وتعد القروض مشروطة بتطبيق صيغ تحقيق الاستقرار التي يقدمها صندوق النقد الدولي وبالسداد السريع للديون الخارجية، وهي تتعارض مع سياسات السيطرة على أرباح الشركات الاستثمارية، والتي تتميز بالميل إلى فرض القيود بحيث أن المرافق لا تتمكن من العمل على أساس سليم، ناهيك عن التوسع في المستقبل"[٣٨٢]. ومنذ عام ١٩٦٨، حول البنك الدولي جانبا ملحوظا من قروضه إلى مشروعات تعزيز تحديد النسل، والخطط التعليمية، والاستثمارات الهندسية الزراعية، والسياحة.

كما أن البنك، شانه في ذلك شان كل أجهزة امتصاص الأموال التابعة للمؤسسات المالية الدولية الكبرى، بعد أداة ابتزاز فعالة لحساب أوساط محددة للغاية. وكان رؤساؤه منذ عام ١٩٤٦ رجال أعمال أمريكيين بارزين. فيوجين ر. بلاك، رئيس البنك من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٢، قد أصبح فيما بعد مديرا لشركات خاصة عديدة، تعد احداها ـ الكتريك بوند اند شير ـ أكبر احتكاري في العالم للطاقة الكهربائية[٣٨٣]. وقد استطاع البنك الدولي في عام ١٩٦٦، من باب المصادفة أو من أي باب اخر، أن يدفع غواتيمالا إلى قبول "اتفاق جنتلمان" مع الكتريك بوند اند شير كشرط لتنفيذ مشروع خورون ـ مارينالا للطاقة الكهربائية المائية، وقد نص الاتفاق على دفع تعويض للمؤسسة عن الاضرار المحتملة في مقوع حوض النهر الذي كان قد قدم لها كهدية قبل ذلك ببضع سنوات، وتضمن الاتفاق تعهدا من جانب الدولة بعدم التدخل في تحديد مؤسسة الكتريك بوند اند شير لرسوم استهلاك الكهرباء. ومن باب المصادفة أو من أي باب آخر، تمكن البنك الدولي في عام ١٩٦٧ من اجبار كولومبيا على دفع تعويض قيمته ٣٦ مليون دولار لشركة الكهرباء الكولومبية التابعة لمؤسسة الكتريك بوند اند شير عن معداتها العتيقة التي اممت مؤخرا. وهكذا اشترت الدولة الكولومبية ما يخصها ـ لكن الامتياز الممنوح للشركة كان قد انقضى اجله في عام ١٩٤٤. وبعد ثلاثة من رؤساء البنك الدولي نجوما في كوكبة جبروت روكفيللير، أن جون. ج. ماكلوي، الذي رأس البنك من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٤٩، قد انتقل إلى مقعد مدير في بنك تشيز مانهاتن. أما خليفته، بلاك، فقد عبر الطريق في الاتجاه المقابل، إذ جاء من مجلس إدارة تشيز مانهاتن إلى البنك الدولي. وقد حل جورج. وودز، وهو رجل آخر من رجال روكفيلللير، محل بلاك في عام ١٩٦٣. ومن باب المصادفة أو أي باب

اخر، يشارك البنك الدولي مشاركة مباشرة ـ بعشر الرساميل وبقروض مهمة ـ في أكبر مشاريع روكفيللير الاستثمارية في البرازيل أهم مجمع في أمريكا اللاتينية للصناعات البتروكيميائية، بتروكيميمكيا اونياو.

ويأتي أكثر من نصف القروض التي تحصل عليها أمريكا اللاتينية ـ بعد صدور الضوء الأخضر من صندوق النقد الدولي ـ من مصادر أمريكية خاصة ورسمية، كما يقدم البنك الدولي نسبة مئوية مهمة، ويتزايد ضغط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي أكثر فأكثر على البلدان الأمريكية اللاتينية لكي تعيد صوغ اقتصادياتها ومالياتها بما يتمشى مع متطلبات سداد الدين الخارجي، لكن الوفاء بالالتزامات ـ جوهر حسن السلوك الدولي ـ يزداد صعوبة ويصبح في الوقت نفسه ضروريا أكثر. وتشكو المنطقة من الظاهرة التي يسميها الاقتصاديون ب "انفجار الديون". أنها حلقة خانقة. فالقروض تتزايد، والاستثمارات تتلو الاستثمارات، بحيث أن المدفوعات تتزايد بالنسبة إلى الأقساط، والفوائد، والحصص النسبية وغير ذلك من خدمات الديون. ولسداد هذه الديون، يجري اللجوء إلى حفنات جديدة من الرساميل الأجنبية، مما يزيد من حجم الالتزامات، وهلمجرا، وهلم جرا. والحال أن خدمة الدين تستهلك نسبة متزايدة من دخول الصادرات التي لا يمكنها، على اية حال، بسبب الهبوط المتواصل للأسعار، تمويل الواردات الضرورية، وهكذا تصبح القروض الجديدة لتمكين البلدان من الحصول على الامدادات التي تحتاج إليها ضرورية ضرورة الهواء للرئتين. وقد ذهب خمس قيمة الصادرات في عام ١٩٥٥ إلى سداد أقساط، وفوائد، وأرباح عن الاستثمارات. أما في عام ١٩٦٨، فقد وصلت هذه المدفوعات إلى نسبة ٣٧ في المائة من قيمة الصاذرات[٣٨٤] وإذا ما واصلت أمريكا اللاتينية اللجوء إلى الرساميل الأجنبية لسد "الفجوة

التجارية" وتمويل ترحيل الأرباح عن الاستثمار الإمبريالي، فإن نسبة لا تقل عن ٨٠ في المائة من العملة الأجنبية سوف تظل، بحلول عام ١٩٨٠، في أيدي المقرضين الأجانب، وسوف يصل إجمالي الديون إلى ما يزيد بأكثر من ست مرات عن قيمة الصادرات[٣٨٥]. وقد تنبا البنك الدولي بأن مدفوعات خدمة الديون سوف تؤدي في عام ١٩٨٠ إلى الإلغاء الكامل لتدفق رساميل أجنبية جديدة إلى العالم النامي. لكن الحال أن تدفق القروض الجديدة إلى أمريكا اللاتينية في عام ١٩٦٥ كان أقل بالفعل من رأس المال المستنزف على شكل أقساط وفوائد وفاء بالتزامات سابقة.

لا يغير التصنيع من منظومة عدم التكافؤ في السوق العالمية

يشكل تبادل السلع، جنبا إلى جنب القروش والاستثمارات المباشرة في الخارج، الإطار الحديدي للتقسيم الدولي للعمل. وتتبادل بلدان العالم الثالث فيما بينها ما يزيد إلى حد ما عن خمس صادراتها، وتذهب ثلاثة أرباع مبيعاتها الخارجية إلى المراكز الإمبريالية التي تعد هذه البلدان روافد تابعة تصب فيها[٣٨٦]. ويرتبط معظم البلدان الأمريكية اللاتينية في السوق العالمية بمادة أولية واحدة أو بمحصول غذائي واحد[٣٨٧]. وتتمتع أمريكا اللاتينية بوفرة من الصوف، والقطن، والالياف الطبيعية، وبصناعة منسوجات تقليدية، لكنا لا تتمتع إلا بحصة نسبتها ٠.٦ في المائة في المشتريات الأوروبية والأمريكية من الغزل والاقمشة. لقد حكم على المنطقة ببيع المنتجات الأولية حتى تواصل عجلات المصانع الأجنبية الدوران، ويحدث أن تلك المنتجات "يجري تصديرها في معظم الأحيان من جانب كونسورتيومات قوية ذات

ارتباطات دولية، تملك العلاقات الضرورية في السوق العالمية بما يمكنها من طرح منتجاتها في ظل انسب الشروط ـ انسب الشروط لها، الشروط المناسبة لمصالح البلدان المشترية، أي بأرخص الأسعار[٣٨٨].
ويوجد في الأسواق الدولية احتكار فعلي لطلب المواد الأولية ولمرض المنتجات الصناعية، في حين أن طارحي المنتجات الأساسية، وهم أيضاً مشترون للسلع المصنعة، يعملون بصورة منفصلة. إن الأوائل، الملتفين حول الولايات المتحدة ـ التي تستهلك مثيل ما يستهلكه باقي العالم كله تقريبا ـ والذين تهيمن الولايات المتحدة عليهم، واقوياء، بينما نجد أن الأخيرين معزولون وضعفاء، مقهورون يزاحمون مقهورين. أما ما يسمى بالحركة الحرة للعرض والطلب في السوق العالمية فهو غير موجود، والموجود فعلا هو ديكتاتورية مجموعة تتسلط على الأخرى، لحساب البلدان الرأسمالية المتقدمة دائما. وتوجد مراكز صنع القرار، التي تتحدد فيها الأسعار، في واشنطن، ونيويورك، ولندن، وباريس، وامستردام، وهامبورغ، في اجتماعات مجالس الوزراء وفي أسواق الأوراق المالية. ولا أهمية تذكر أولا أهمية على الإطلاق لتوقيع اتفاقات دولية لحماية أسعار القمح (١٩٤٩)، والسكر (١٩٥٣)، والقصدير (١٩٥٦)، وزيت الزيتون (١٩٥٦)، والبن (١٩٦٢). وتبين نظرة سريعة إلى المنحنى الهابط للقيمة النسبية لتلك المنتجات أن الاتفاقات ليست أكثر من معاذير رمزية تقدمها البلدان القوية عندما تهبط أسعار منتجات البلدان النامية هبوطا فاضحا. وما تبيعه أمريكا اللاتينية يزداد رخصا باستمرار، أما ما تشتريه فهو يزداد ـ من الناحية النسبية أيضاً ـ غلاء باستمرار.

لقد كان بوسع أوروغواي في عام ١٩٤٥ أن تشتري جرارا من جرارات فورد بثمن يعادل ثمن اثنين وعشرين ثورا، أما اليوم فهي

بحاجة إلى أن تدفع ثمنا يزيد عن الضعف. وقد قدر فريق من الاقتصاديين التشيليين الذين أجر وا مسحا لحساب النقابات أنه، لو كانت أسعار الصادرات الأمريكية اللاتينية قد ارتفعت منذ عام ١٩٢٨ بالمعدل نفسه الذي ارتفعت به أسعار الواردات، لحصلت أمريكا اللاتينية على زيادة تقدر ب ٥٧ بليون دولار لقاء مبيعاتها بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٧ عما حصلت عليه بالفعل[٣٨٩]. ودون الرجوع إلى ذلك التاريخ البعيد، وباعتبار أسعار عام ١٩٥٠ أساساً، تقدر الأمم المتحدة أن أمريكا اللاتينية، بسبب تدهور شروط التبادل، خسرت أكثر من ١٨ بليون دولار في العقد الممتد من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٤. وقد استمر الهبوط بعد ذلك. والحال أن "الفجوة التجارية" ـ الفارق بين الاحتياجات من الواردات والدخل المتحقق من الصادرات ـ سوف تواصل الاتساع ما لم تتغير الهياكل الحالية للتجارة الخارجية، كما أن الهاوية تزداد عمقا كل سنة. وإذا ما حاولت المنطقة في المستقبل المباشر أن تزيد زيادة طفيفة معدل سرعة تنميتها عن معدل السنوات الخمس عشرة الماضية ـ والذي كان بطيئا للغاية ـ فإن احتياجات الاستيراد التي سوف تواجهها سوف تتجاوز بدرجة ملحوظة النمو المتوقع لدخلها المتحقق من الصادرات في صورة عملات أجنبية. ووفقا للمعهد الأمريكي اللاتيني للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي، فسوف ترتفع الفجوة التجارية إلى ٤. ٦ بليون دولار في عام ١٩٧٥، وإلى ٨. ٣ بليون دولار في عام ١٩٨٠[٣٩٠]. وهذا الرقم الأخير ليس أقل من نصف قيمة الصادرات المتوقعة لذلك العام. وهكذا فإن البلدان الأمريكية اللاتينية، وقد أجبرت على التسول، سوف تطرق باستماتة لا حد لها أبواب حيتان القروض الدولية.

ويرى ارغيري ايمانويل أن لعنة الأسعار المنخفضة لا تنوء بحملها

على منتجات محددة، وانما على بلدان محددة[٣٩١]. وعلى اية حال، فإن الفحم ـ الذي كان إلى وقت قريب أحد صادرات بريطانيا الرئيسية ـ لا يختلف عن الصوف أو النحاس من حيث كونه مادة أولية، كما أن السكر فيه من العمل أكثر مما في الويسكي الأسكتلندي أو النبيذ الفرنسي. وتصدر السويد وكندا الالواح الخشبية، وهي مادة أولية، بأسعار ممتازة. ويرى ايمانويل أن السوق العالمية تؤسس عدم التكافؤ التجاري على مبادلة ساعات عمل أكثر في البلدان الفقيرة بساعات عمل أقل في البلدان الغنية، ومفتاح الاستغلال هو أنه في الوقت الذي يوجد فيه فارق هائل بين مستويات الأجور في البلدان الفقيرة ومستويات الأجور في البلدان الغنية، فإن هذا الفارق ليس مصحوبا بفوارق مماثلة في إنتاجية العمل. ويقول ايمانويل أن انخفاض الأجور هو الذي يقرر انخفاض الأسعار، لا العكس، فالبلدان الفقيرة تصدر فقرها ـ وتزيد في ذلك السياق من افقارها لنفسها ـ بينما تحصل البلدان الغنية على النتيجة المقابلة. ويرى سمير أمين[٣٩٢] أنه، لو كانت المنتجات التي صدرتها البلدان النامية في عام ١٩٦٦ قد أنتجتها البلدان المتقدمة بالتقنيات نفسها ولكن بمستويات أجور أعلى بكثير، لاختلفت الأسعار بدرجة كان من شانها أن تسمح للبلدان النامية بالحصول على زيادة تقدر ب ١٤ بليون دولار.

ومن المؤكد أن البلدان الغنية قد استخدمت حواجز التعريفات وما تزال تستخدمها لحماية مستويات الأجور المرتفعة فيها في المجالات التي لا تستطيع منافسة البلدان الفقيرة فيها. وتستخدم الولايات المتحدة اتفاقات صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي والغات (الاتفاق العام بشأن التعريفات والتجارة) لفرض مبدا حرية التجارة والمنافسة الحرة على أمريكا اللاتينية، بما يؤدي إلى اختزال التبادلات المتعددة،

والحصص النسبية، واذون الاستيراد والتصدير، والتعريفات والرسوم الجمركية. لكنها لا تمارس بحال من الأحوال ما تدعو اليه. فالولايات المتحدة، بالطريقة نفسها التي تثبط بها نشاط الدولة في البلدان الأخرى بينما تحمي الاحتكارات في الداخل عن طريق منظومة واسعة من الإعانات ودعم الأسعار، تمارس في تجارتها الخارجية سياسة حماية صارمة تستند إلى التعريفات المرتفعة والقيود القاسية، ويجري الجمع بين الرسوم الجمركية وضرائب أخرى، والحصص النسبية وقرارات الحظر[٣٩٣]. فما الذي يمكن أن يحدث لمربي الماشية في وسط الغرب الأمريكي لو سمحت الولايات المتحدة بأن تدخل إلى أسواقها الداخلية - دون تعريفات ودون قرارات حظر تستند إلى اعتبارها صحية مزعومة - لحوم أفضل وأرخص من الأرجنتين وأورغواي؟ أن خام الحديد يدخل السوق الأمريكية بحرية، أنه إذا حول إلى كتل مصبوبة فسوق يسدد ١٦ دولاراً عن الطن الواحد، وترتفع التعريفة بما يتمشى مباشرة مع مرحلة الصقل. والشيء نفسه ينطبق على النحاس وعلى منتجات أخرى لا حصر لها، فما أن يجري تجفيف الموز، أو تقطيع التبغ، أو تحلية الكاكاو، أو نشر الخشب، أو نزع نوى البلح، حتى تتراكم التعريفات عليها بلا هوادة[٣٩٤]. وفي عام ١٩٦٩ ، أمرت الحكومة الأمريكية بوقف المشتريات من الطماطم المكسيكية - التي تشغل ١٧٠,٠٠٠ فلاح في ولاية سينالوا - إلى أن يتمكن زارعو الطماطم في فلوريدا من اجبار المكسيكيين على رفع الأسعار تفاديا للمنافسة.

لكن التناقض الأكثر اثارة للروع بين النظرية والواقع في السوق العالمية قد ظهر في "حرب البن سريع الذوبان" المكشوفة في عام ١٩٦٧ ، فقد صار من الواضح آنذاك أن البلدان الغنية وحدها هي التي تملك الحق في أن تستغل لحسابها "المزايا النسبية الطبيعية" والتي تقرر

التقسيم الدولي للعمل من الناحية النظرية. والحال أن سوق البن سريع الذوبان الاخذة في التوسع بشكل مثير تخضع لشركتي نستله وجنرال فودز، ومن المعتقد أن هاتين الشركتين سوف تتمكنان، قبل فوات وقت طويل، من تقديم ما يزيد عن نصف البن المستهلك في العالم. وتشتري الولايات المتحدة وأوروبا حبوب البن من البرازيل وافريقيا، وتتوليان تركيزه في معاملهما الصناعية، وتبيعانه في العالم قاطبة على شكل بن سريع الذوبان. أما البرازيل، أكبر منتج للبن، فهي لا تملك الحق في المنافسة عن طريق تصدير بنها سريع الذوبان، مستفيدة بذلك من تكاليفه الأدنى بشكل واضح وموفرة مخرجا لتصريف الفوائض التي اعدمتها في وقت من الأوقات والتي تخزنها الآن في مستودعات الدولة. ولا تملك البرازيل غير حق توريد البن الخام لإثراء المصانع الأجنبية. وعندما بدأت المصانع البرازيلية ـ مجرد عشرة مصانع من مجموع عالمي يصل إلى ١١٠ مصانع ـ في طرح البن سريع الذوبان في السوق الدولية، جرى اتهامها بالمنافسة الظالمة. وارتفعت شكوى البلدان الغنية إلى عنان السماء، وقبلت البرازيل فرضا مهينا، لقد فرضت ضريبة داخلية ضخمة على بنها السريع الذوبان لتخرجه من المنافسة في السوق الأمريكية الشمالية[٣٩٥].

وليست أوروبا متخلفة عن الولايات المتحدة في إقامة الحواجز الجمركية، والضريبية، والصحية ضد المنتجات الأمريكية اللاتينية. فالسوق المشتركة تراكم الرسوم على الواردات لحماية الأسعار الداخلية المرتفعة لمنتجاتها الزراعية، وتدعم في الوقت نفسه تلك المنتجات من أجل تصديرها بأسعار تنافسية، وهي تمول الدعم مما تحصل عليه من الرسوم. وهكذا تدفع البلدان الفقيرة الأموال لزبائنها الأغنياء لكي يقوموا بالمنافسة ضدها. إن سعر رطل من اللحم في بوينس ايريس أو مونتفيديو

يزيد خمس مرات عندما يتدلى من خطاف جزار في هامبورغ أو ميونيخ[٣٩٦]. وكما اشتكى، وله الحق في ذلك، مندوب للحكومة التشيلية في مؤتمر دولي، فإن "البلدان المتقدمة مستعدة للسماح لنا بأن نبيع طائرات نفاثة وأجهزة كمبيوتر، لكنها ليست مستعدة للسماح لنا بأن نبيع لها أي شيء يوجد أي احتمال في أن نتمكن من إنتاجه"[٣٩٧].

أن الاستثمارات الإمبريالية في الصناعة الأمريكية اللاتينية لم تبدل بحال من الأحوال شروط تجارتها الدولية. وتواصل المنطقة خنق نفسها إذ تستبدل بمنتجاتها الأولية المنتجات المتخصصة التي تنتجها الاقتصاديات المتروبولية. ويتركز توسع مبيعات الشركات الأمريكية جنوبي الريو غراندي في الأسواق المحلية، وليس في الصادرات. والواقع أن النسبة المصدرة قد مالت إلى الانخفاض، فوفقا لمنظمة الدول الأمريكية، صدرت فروع الشركات الأمريكية ما نسبته ١٠ في المائة من إجمالي مبيعاتها في عام ١٩٦٢ ولم تصدر بعد ذلك بثلاث سنوات غير ما نسبته ٧. ٥ في المائة[٣٩٨]. فالتجارة في المنتجات الصناعية الأمريكية اللاتينية لا تنمو إلا في داخل أمريكا اللاتينية، ففي عام ١٩٥٥، مثلت المنتجات الصناعية نسبة ١٠ في المائة من حجم التبادل فيما بين بلدان المنطقة، وفي عام ١٩٦٦، كانت النسبة قد ارتفعت إلى ٣٠ في المائة[٣٩٩].

والحال أن جون ابينك، رئيس بعثة فنية أمريكية في البرازيل، كان قد تنبا في عام ١٩٥٠ فقال، "ان على الولايات المتحدة أن تستعد ل "توجيه" التصنيع الذي سوف يحدث حتما للبلدان النامية إذا كنا نريد تجنب صدمة تنمية اقتصادية مكثفة خارج اشراف الولايات المتحدة... إن التصنيع، إذا لم تجر السيطرة عليه بطريقة ما، سوف يؤدي إلى اختزال مهم لأسواق الصادرات الأمريكية[٤٠٠]. فعلا، اليس من شان التصنيع ـ

حتى ولو كان موجها من الخارج ـ أن يحل المنتجات القومية محل السلع التي كان على كل بلد في السابق استيرادها؟ لقد لاحظ سيلسو فورتادو أنه بقدر تقدم أمريكا اللاتينية في إحلال المنتجات المستوردة الأكثر تعقيدا، فإن الاعتماد على مدخلات من المكاتب الرئيسية يميل إلى الازدياد". وبين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٤، زادت مبيعات فروع الشركات الأمريكية بنسبة الضعف بينما زادت وارداتها ـ من غير المعدات ـ بنسبة ثلاث اضعاف. ويرى سيلسو فورتادو أن "هذا الاتجاه يبدو أنه يشير إلى أن الفعالية "الاحلالية" دالة هابطة للتوسع الصناعي الذي تسيطر عليه البلدان الأجنبية"[٤٠١]. التبعية لا تنكسر بل تشهد تغيرا نوعيا، فالولايات المتحدة تبيع اليوم لأمريكا اللاتينية نسبة أكبر من المنتجات الأكثر تعقيدا والأعلى مستوى من الناحية التكنولوجية. وتقول وزارة التجارة الأمريكية أنه "في المدى البعيد، مع نمو الإنتاج الصناعي المكسيكي، سوف تكون الفرص أعظم أمام صادرات أمريكية إضافية من المواد الخام الصناعية أو المكونات الصناعية...."[٤٠٢]. وتعد الأرجنتين، والمكسيك، والبرازيل زبائن جيدين جدا للآلات الصناعية، والآلات الكهربائية، والمحركات، والمعدات، وقطع الغيار المصنوعة في الولايات المتحدة. وتزود فروع الشركات الكبرى أنفسها بالتجهيزات الواردة من مكاتبها الرئيسية بأسعار مضخمة عن عمد. وكما كتب إسماعيل بنياس وبوخينيو غاستياثورو عن شركات السيارات الأرجنتينية في الأرجنتين، "انها إذ تدفع مقابل هذه الواردات بأسعار مرتفعة للغاية، ترسل الموارد المالية إلى الخارج. وغالبا ما تكون المدفوعات من الضخامة بحيث أن المشاريع الاستثمارية لا تحقق خسائر وحسب (برغم الأسعار التي تباع بها السيارات هنا)، بل وتبدأ أيضاً في الإفلاس، مع تدهور سريع للأسهم المملوكة في البلد... والنتيجة أنه من أصل اثنتين

وعشرين شركة، منشاة، لم يبق الآن غير عشر شركات، بعضها على شفا الإفلاس"[٤٠٣].

وهكذا فإن الشركات الفرعية تحقق مجدا أعظم للشركات الام التي تنتمي إليها عن طريق التهام العملات الأجنبية المحدودة التي تحوزها البلدان الأمريكية اللاتينية. ولا تختلف خطة تشغيل الصناعة التابعة اختلافا كثيراً عن النظام التقليدي للاستغلال الإمبريالي للمواد الخام. ويرى أنطونيو غارثيا[٤٠٤]التصدير "الكولومبي" للبترول الخام كان على الدوام مجرد تحويل طبيعي لخام النفط من حقل نفط أمريكي شمالي إلى مراكز التكرير، والتسويق، والاستهلاك الأمريكية الشمالية، وأن التصدير "الهندوراسي" أو "الغواتيمالي" للموز كان عبارة عن تحويل تتولاه شركات أمريكية شمالية من مزارع كولونيالية معينة إلى مناطق تسويق واستهلاك أمريكية شمالية معينة. لكن المصانع "الأرجنتينية"، و"البرازيلية"، و"المكسيكية" ـ أن لم تذكر غير الأكثر أهمية ـ تحتل هي أيضاً موقعا اقتصاديا لا علاقة له بموقعها الجغرافي. أنها تشكل، بالتضافر مع خيوط أخرى عديدة، شبكة دولية من الشركات التي تحول مكاتبها الرئيسية الأرباح من بلد إلى بلد، محددة فواتير المبيعات بأسعار أكثر أو أقل من الأسعار النفطية تبعا للوجهة التي تزيد للأرباح المضي فيها[٤٠٥]. وهكذا تبقى العوامل الرئيسية للتجارة الخارجية في أيدي الشركات الأمريكية أو الأوروبية، التي توجه السياسات التجارية للبلدان، تبعا لمعايير لا تصدر النحاس إلى الاتحاد السوفييتي ولا إلى الصين، ولا تبيع النفط لكوبا، فإنها لا تحصل على المواد الخام والآلات من المصادر الارخص والانسب.

وطبيعي أن هذا التنسيق الفعال لأنشطة عالمية، والبعيد تماماً عن أي "تفاعل حر لقوى السوق"، لا يترجم نفسه إلى أسعار أقل بالنسبة إلى

المستهلكين المحليين، وانما يترجم نفسه إلى أرباح لحملة الأسهم الأجانب. وصناعة السيارات مثال بليغ لذلك. فالبلدان الأمريكية اللاتينية تقدم قوة عمل وافرة ورخيصة للغاية وسياسة رسمية تشجع توسع الاستثمارات بكل السبل ـ المنح المجانية من الأراضي، الرسوم الرمزية لاستهلاك الكهرباء، الخصومات الثانية من جانب الدولة لتمويل المبيعات التي تسدد اثمانها في وقت لاحق، الأموال سهلة المنال، وكما لو أن كل ذلك ليس كافيا، لجات بلدان معينة إلى اعفاء الشركات من ضرائب الدخل أو المبيعات أيضاً. ويجري زيادة تسهيل السيطرة على السوق مقدما عن طريق الهيبة السحرية التي يتم اضفاؤها، في اعين الطبقات المتوسطة، على الطرز والموديلات التي تروج لها حملات الدعاية العالمية. لكن كل هذه العوامل، بعيدا عن أن تجعل السيارات المنتجة في أمريكا اللاتينية أرخص من السيارات المنتجة في البلدان الأصلية للشركات، تجعل أسعارها أكثر تفجرا بكثير. صحيح أن الأسواق الأمريكية اللاتينية أصغر بكثير، إلا أنه صحيح أيضاً أن شهوة الشركات في هذه البلدان إلى الأرباح أكثر ضراوة مما في أي مكان اخر. إن سيارة فورد فالكون تصنع في أمريكا اللاتينية تكلف ثلاثة اضعاف ما تكلفه في الولايات المتحدة[٤٠٦]، ويصل سعر سيارة فاليانت أو فيات مصنوعة في الأرجنتين إلى أكثر من ضعف سعرها في الولايات المتحدة أو إيطاليا[٤٠٧]، وينطبق الشيء نفسه على العلاقة بين سعر سيارة فولكسفاغن البرازيلية وسعر مثيلتها في ألمانيا[٤٠٨].

آلهة التكنولوجيا لا تتكلم الأسبانية

يرى عضو الكونغرس الأمريكي رايت باتمان، أن نسبة ٥ في المائة من الأسهم في شركة كبيرة يمكنها في أغلب الأحوال أن تكون كافية

لسيطرة فرد، أو أسرة، أو مجموعة اقتصادية على هذه الشركة[٤٠٩].
وإذا كانت نسبة ٥ في المائة كافية للسيطرة على أحد المشاريع الاستثمارية الأمريكية الجبارة، فما هي النسبة المئوية الضرورية للسيطرة على مشروع استثماري أمريكي لاتيني؟ في الحقيقة فيمكن تحقيق السيطرة باقل من هذه النسبة، فالشركة "المختلطة"، وهي إحدى البقايا القليلة التي تتفاخر بها البورجوازية الأمريكية اللاتينية، لا تمارس أكثر من اداة تزين الجبروت الأجنبي بمشاركة رأسمالية قومية قد تمثل الأغلبية إلا أنها غير مسيطرة أبداً على العناصر الأجنبية، وغالبا ما تدخل الدولة نفسها في مشاركة مع مشروع استثماري إمبريالي يحصل، وقد تحول بهذه الطريقة إلى مشروع "قومي"، على كافة الضمانات المنشودة ويجد مناخا يتميز بروح التعاون ـ بل والرعاية. ويجري عادة تبرير مشاركة رأس المال الأجنبي "الصغرى" بالحاجة إلى التحويلات التقنية والتحويلات الخاصة بحقوق استخدام العلامات المسجلة فالبورجوازية الأمريكية اللاتينية، وهي بورجوازية تجارية تفتقر إلى اية ميزة خلاقة، وترتبط ارتباطا سريا بقوة الملكيات الزراعية الكبيرة، تسجد أمام الالهة تكنولوجيا. وإذا كانت ملكية الأجانب للأسهم (مهما كانت صغيرة) والتبعية التكنولوجية (التي نادرا ما تكون صغيرة) دليلين على نزع التأميم، فكم يبلغ عدد المصانع التي يمكن أن تعتبر قومية بالفعل في أمريكا اللاتينية؟ في المكسيك، مثلا، غالبا ما يطالب ملاك التكنولوجيا الأجانب باسهم في مشروع استثماري، بالإضافة إلى مواقع سيطرة تقنية وإدارية حاسمة. وبيع المنتوج لوسطاء أجانب محددين، واستيراد الآلات وسلع أخرى من مكاتبهم الرئيسية، في مقابل توقيع عقود لنقل حقوق استخدام العلامات المسجلة أو "الخبرة التكنولوجية"، وليس في المكسيك وحدها[٤١٠]. فقد صاغت بلدان ما يسمى بمجموعة الانديز

Twitter: @ketab_n

(بوليفيا، كولومبيا، تشيلي، إكوادور، بيرو) خطة للتعامل المشترك مع رأس المال الأجنبي في المنطقة، مؤكدة على البلدان التي لن تقبل الخطة أن تحدد الشركات الأجنبية التي تملك حقوق استخدام العلامات المسجلة أسعار المنتجات المعتمدة على هذه العلامات، أو أن تقرر حظر قصديرها إلى مناطق محددة.

لقد أنشيء النظام الأول لبراءات الاختراع لحماية حقوق ملكية الاختراع قبل نحو أربعة قرون على يد السير فرانسيس بيكون. وكان بيكون مغرما بفكرة "المعرفة قوة"، وأصبح واضحا منذ ذلك الوقت أنه كان محق. وليست هناك شمولية تذكر في الشوامل العلمية، أنها محصورة، من الناحية الموضوعية ضمن حدود الأمم المتقدمة. ولا تطبق أمريكا اللاتينية نتائج البحث العلمي لحسابها الخاص لسبب بسيط هو أنها لا تملك اية نتائج، ولذا فمحكوم عليها بمكابدة تكنولوجيا الأقوياء، التي تهجم على المواد الأولية الطبيعية وتنتزعها، وهي غير قادرة عن خلق تكنولوجيا خاصة بها لدعم وحماية نموها الخاص. والحال أن استيراد تكنولوجيا البلدان المتقدمة لا يجر إلى مجرد التبعية الثقافية ـ والاقتصادية، بشكل حاسم تماماً. إلا أنه تبين أيضاً، وبعد أربعة قرون ونصف من تجربة انتشار واحات حديثة وسط صحاري التخلف والجهل، أنه لم يحل اية مشكلة من مشكلات التخلف[٤١١]. فمنطقة الاميين هذه تستثمر ما يقل بمائتي مرة عما تستثمره الولايات المتحدة في مجال البحوث التكنولوجية. ويوجد في أمريكا اللاتينية أقل من ألف جهاز كومبيوتر بينما يوجد في الولايات المتحدة خمسون ألف جهاز، وطبيعي أن النماذج الإلكترونية ولغات البرمجة التي تستوردها أمريكا اللاتينية مصممة وموضوعة في الولايات المتحدة. وليس التخلف الأمريكي اللاتيني مرحلة على طريق التنمية، بل هو الوجه المقابل

للتنمية في أماكن أخرى، فالمتخلفة تتقدم دون أن تحرر نفسها من بنية تخلفها، وكما يشير مانويل سادوسكي، فإن ميزة عدم مشاركتها في التقدم ببرامجها وأهدافها الخاصة تعد ميزة وهمية(٤١٢). إن رموز الازدهار رموز للتبعية. ويجري الحصول على التكنولوجيا الحديثة بالطريقة التي كان يجري الحصول بها على السكك الحديدية في القرن الماضي، لتكون في خدمة المصالح الأجنبية التي تصوغ وتعيد صوغ الظرف الكولونيالي لهذه البلدان. ويقول سادوسكي أن ما يحدث لنا هو ما يحدث لساعة يد تشكو من تأخير عقاربها ولا يجري ضبطها. ومع أن عقاربها تواصل التحرك إلى الأمام، فإن الفارق يزيد بين الوقت كما يبدو من خلالها والوقت الفعلي".

وتخرّج الجامعات الأمريكية اللاتينية، رياضيين، ومهندسين، ومنظمي برامج على نطاق صغير، لا يمكنهم العثور على عمل إلا في المنفى، اننا نمنح أنفسنا ترف تزويد الولايات المتحدة بأفضل فنيينا وأقدر علمائنا، حيث يجري اغراؤهم على الهجرة بمرتبات عالية وامكانيات البحث العريضة المتاحة في الشمال. وفي الوقت نفسه، فكلما تحاول جامعة أو مركز من مراكز التعليم العالي الأمريكية اللاتينية تشجيع تطور العلوم الأساسية، وإرساء الأسس لتكنولوجيا غير منسوخة من الأنماط والشواغل الأجنبية، فيقع انقلابا في الوقت المناسب يدمر التجربة بحجة أنها بؤرة للتخريب(٤١٣). والواقع أن جامعة برازيليا، التي سحقت في عام ١٩٦٤، كانت مثالا لذلك، والحقيقة هي أن الملائكة المدرعة التي تحمي النظام القائم ليست مخطئة، فالسياسة الثقافية المستقلة، عندما تكون حقيقية، تتطلب وتحفز تغيرات عميقة في كافة الهياكل القائمة.

والبديل هو الاعتماد على المصادر الأجنبية، محاكاة التقدمات التي

تروجها الشركات الكبرى، التي تحتكر أحدث تقنيات إنتاج منتوجات جديدة وتحسين نوعية أو خفض تكاليف المنتوجات القائمة، وهي محاكاة تشبه محاكاة القردة للبشر. والحال أن العقل الإلكتروني يملك مناهج لا تخطئ في حساب التكاليف والأرباح ولذا تستورد أمريكا اللاتينية تقنيات إنتاج تهدف إلى توفير قوة العمل، مع أنها تتمتع بوفرة في قوة العمل وقد يشكل العاطلون قريبا الغالبية الساحقة في بلدان عديدة. وهكذا فإن عجزنا نحن يجعل تقدم المنطقة رهن مشيئة أو نزوة المستثمرين الأجانب، ولأسباب لا تخفى على أحد، تساعد الروافع التكنولوجية الشركات متعددة القوميات على السيطرة على روافع اقتصادنا الحاسمة الأخرى. وطبيعي أن المكاتب الرئيسية لا تقدم البتة لفروعها أحدث المبتكرات كما أنها لا تشجع استقلالا ليس من شانه أن يكون مناسبا لها. وقد استنتج مسح قامت به بزنس إنترناشيونال لحسان بنك التنمية الأمريكي المشترك أن من الواضح أن فروع الشركات الدولية العاملة في المنطقة لا تبذل اية إدارة لهذا الغرض ولا يتولى مهمة التكييف التقني إلا في حالات نادرة للغاية، في جين أن أقلية صغيرة أخرى من المشاريع الاستثمارية - لا تكاد توجد إلا في الأرجنتين، والبرازيل، والمكسيك - تقوم بأنشطة متواضعة في مجال البحوث"[٤١٤]. ويلاحظ راوول بريبيتش أن "المشاريع الاستثمارية الأمريكية في أوروبا تنشيء معامل وتقوم بأبحاث تساعد على تعزيز القدرات العلمية والتقنية لتلك البلدان، وهو شيء لم يحدث في أمريكا اللاتينية"، ويشير إلى مسالة بالغة الخطورة، "نظرا لغياب المعارف المتخصصة (الخبرة التكنولوجية) لدى المستثمرين القوميين، فإن الجانب الأعظم من التكنولوجيا المستوردة يتألف من تقنيات متاحة في

المجال العام إلا أنه يجري إصدار تراخيص باستخدامها كما لو كانت معارف متخصصة"[٤١٥].

وتكلف التبعية التكنولوجية تكاليف باهظة تتخذ أكثر من شكل واحد، الدولارات المدفوعة نقدا، على سبيل المثال. برغم أن التحايل البارع للشركات على إعلان تحويلاتها إلى الخارج يجعل من العسير تقدير المبلغ. على أن الأرقام الرسمية تشير إلى أن نزف الدولارات مقابل المساعدة التقنية للمكسيك قد زاد خمسة عشر ضعفا بين عامي ١٩٥٠ و١٩٦٤، في حين أن الاستثمارات الجديدة في الفترة نفسها لم تصل حتى إلى الضعف. وتتركز الآن ثلاثة أرباع الرساميل الأجنبية في المكسيك في صناعة المنتوجات الصناعية، بما يمثل ارتفاعا عن الربع الذي كان مستثمرا في عام ١٩٥٠. ولا يعني هذا التركيز للموارد المالية في الصناعة غير تحديث موروث، باستخدام تكنولوجيا سبق استخدامها، وتدفع البلاد مقابلا لها كما لو كانت أحدث تكنولوجيا. وقد نزحت صناعة السيارات بليون دولار من المكسيك بطريقة أو بأخرى، لكن قائدا لاتحاد عمال السيارات كتب بعد جولة تفقد فيها مصنع شركة جنرال موتورز الجديد في تولوكا، "انه اسوا من عتيق. أسوأ، لأنه عتيق بصورة مقصودة، حيث أنه مجهز بتجهيزات عتيقة موضوعة بعناية في صلب عمله... إن مصانع المكسيك يجري تجهيزيها عمدا بالات من شانها تخفيض الإنتاج"[٤١٦]. فما الذي يجب علينا قوله عن الجميل الذي تدين به أمريكا اللاتينية لشركات كوكا كولا وبيبسي وكرانش التي تجمع رسوم ترخيص صناعية فلكية من أصحاب امتياز إنتاج منتوجاتهما مقابل تزويدهم بعجينة تذوب في الماء وتخلط بالسكر والصودا؟

اسعوا لتحقيق نموكم مع البرازيل. تستحث الإعلانات التي تحتل مساحات واسعة في صحف نيويورك رجال الأعمال الأمريكيين على الانضمام إلى النمو المندفع لعملاق المناطق الاستوائية. تنام مدينة ساو بأولو وعيناها مفتوحتان وضجيج النمو يخرق طبلتي اذنيها، فالمصانع وناطحات السحاب، والجسور والطرق الرئيسية، تنمو بالسرعة العجيبة التي تنمو بها النباتات الاستوائية. إلا أنه لو كان للدقة مكان في عالم الإعلان، لوجب أن يكون الشعار هو، "حققوا نموكم على حساب البرازيل". فهذا النمو، برغم بريقه الخادع، عبارة عن مأدبة ليس مدعوا إليها غير عدد قليل من الناس واطباقها الرئيسية مخصصة لمعدات أجنبية. إن عدد سكان البرازيل قد وصل بالفعل إلى تسعين مليون إنسان وسوف يصل إلى ضعف ذلك العدد بحلول نهاية هذا القرن، لكن مصانعها الحديثة توفر قوة العمل. وفي المناطق الداخلية، لم تعد المزارع الكبيرة التي ما تزال على حالها تشكل مصدرا للأعمال. ويحدق صبي صغير بعينين تلمعان ذهولا في أطول نفق في العالم، افتتح مؤخرا في ريو دي جانيرو، لكن الصبي يرتدي اسمالا. ومن حق الصبي الذي يرتدي اسمالا أن يفخر ببلاده، لكنه امي ويسرق ليأكل.

وأدى غزو الرساميل الأجنبية المتجهة إلى الصناعة وفي كافة ارجاء أمريكا اللاتينية، والذي يقابل بكل هذا الحماس، إلى احتداد التباين بين "الأنماط الكلاسيكية" للتصنيع كما يصفها مؤرخو البلدان المتقدمة، والعملية المميزة للجزء الذي نحتله من العالم. إن النظام يتقيأ البشر، لكن الصناعة في أمريكا اللاتينية تضحي بالعمل أكثر من تضحيتها به في أوروبا[٤١٧]. وليست هناك علاقة منسجمة بين العمل المتاح

والتكنولوجيا المستخدمة. إلا إذا أمكن وصف ميزة استخدام قوة من أرخص قوى العمل في العالم بانها دليل على وجود مثل هذه العلاقة. أرض غنية، وثروات أغنى في باطن الأرض، وضعب هذّه البؤس، في مملكة الوفرة والتقصير هذه، أن جيش العمال الذين يلقى بهم النظام على الرصيف يؤدي إلى احباط نمو السوق الداخلية وينزل بمستوى الأجور إلى أسفل السافلين. أما تخليد نظام ملكية الأرض القائم فهو لا يؤدي وحسب إلى تفاقم المشكلة المزمنة المتمثلة في انخفاض الإنتاجية الزراعية من جراء تبوير الاض والرساميل في مزارع كبيرة غير منتجة. وتبديد العمل في مزارع صغيرة متزايدة الانتشار، أنه يتضمن أيضاً تدفقا غزيرا ومتزايدا للعمال العاطلين صوب المدن. وهكذا يتحول نقص العمالة الزراعية إلى نقص عمالة مدينية. وتنمو البيروقراطية، وتنتشر الأحياء الفقيرة انتشار مجاري لا قعر لها يسكنها ناس محرومون من حق العمل، ولا تستطيع المصانع استيعاب فائض العمل، لكن وجود هذا الجيش الاحتياطي الجرار، المتوافر دائما، يجعل الأجور أدني خمس عشرة مرة أو عشرين مرة من أجور العمال في الولايات المتحدة أو ألمانيا. ويمكن للأجور أن تظل منخفضة بينما تزيد الإنتاجية، وتزيد الإنتاجية على حساب عمليات اختزال القوى العاملة. إن طبيعة التصنيع "التابع" هي الاستبعاد، ففي هذه المنطقة التي تتميز بلطي معدل في العالم لتزايد السكان، تتضاعف الجماهير بسرعة خارقة لكن نمو الرأسمالية التابعة ـ وهو رحلة غرقاها أكثر من مبحريها ـ يحقق "فائضا" في عدد الناس يزيد كثيراً جدا عن العدد الذي يمكن لها استخدامه. والحال أن نسبة العمال في صناعة المنتجات الصناعية إلى إجمالي عدد السكان القادرين على العمل في أمريكا اللاتينية تقل بدلا من أن تزيد، ففي الخمسينيات، كان عمال المصانع يمثلون نسبة ١٤. ٥ في المائة،

أما اليوم، فإنهم لا يمثلون غير نسبة ٥,١١ في المائة[٤١٨]. ووفقا لدراسة أجريت مؤخرا، فإن العدد الإجمالي للوظائف التي يتوجب ايجادها في البرازيل سوف يصل إلى ٥,١ مليون في المتوسط سنوياً خلال العقد القادم"[٤١٩]. ومع ذلك فإن العدد الإجمالي للعمال الذين تشغلهم المصانع في البرازيل، البلد الأكثر تقدما من الناحية الصناعية في أمريكا اللاتينية، لا تزيد عن ٥،٢ مليون.

والحال أن عمالا لا حصر لهم يهجرون أفقر مناطق كل بلد، فالمدن تجتذب وتخدع اسرا كاملة بأماني العمل، بأماني فرصة في تحسين احوالها، بأماني مكان في الدائرة السحرية للحضارة المدينية. لكن الهلوسات لا تملأ المعدة. فالمدينة تزيد الفقراء فقرا، وتواجههم مواجهة غادرة بسراب ثروة هيهات أن يصلوا إليها ـ سيارات، شقق سكنية في بنايات فاخرة، الات قوية قوة الالهة أو الشياطين ـ بينما تحرمهم من الأعمال المضمونة، ومن أسقف لائقة يحتمون بها، ومن اطباق مليئة على مائدة الغداء. ووفقا لتقدير أجرته الأمم المتحدة[٤٢٠]، فإن نسبة لا تقل عن ٢٥ في المائة من سكان المدن الأمريكية اللاتينية تحيا في "أحياء لا تتمشى مع المعايير الحديثة للبناء الحضري. ـ وهذا تعبير ملطف طويل صادر عن أحد الفنيين لوصف مدن الصفيح، فافيلات ريو دي جانيرو، كاييامبات سانتياغو دي تشيلي، خاكالات المكسيك، باrrيوات كاراكاس، بارريادات ليما، والبياس ميزيرياس (المدن البائسة. ـ المترجم) في بوينس ايريس، وكانتيرجرلات مونتفيديو. وكل ليلة تنمو إضافات جديدة في مستعمرات الاكواخ المبنية من الصفيح، والطين، والواح الخشب على مشارف المدن، فالسكان المهمشون الذين دفعهم الفقر والامل إلى للمجيء يواصلون التزايد. إن كلمة هوايكو تعني سيلا من الصخور المنهارة في اللغة الكيتشوا، وهكذا يسعى سكان بيرو

الموج البشري المتدافع من الجبال إلى العاصمة الساحلية، أن حوالي ٧٠ في المائة من سكان ليما يجيئون من الأرياف. وهم يسعون في كاراكاس بالتوديروس، لأنهم على استعداد للعمل في أي شيء وكل شيء (تودو). فالمهمشون يحيون من أعمال تعد من قبيل السخرة، متشبثين بالعمل عن طريق دفع الرشاوي أو يعملون بصورة متقطعة أو يؤدون مهاما حقيرة أو غير مشروعة، انهم يصبحون خدما، شاحذين للأحجار، بنائين، كهربائيين، سباكين أو نقاشين في أعمال عرضية، سياسا، أو باعة ليمون أو أي شيء اخر. وهم يصبحون أيضاً متسولين أو لصوصا ـ انهم أيدي جاهزة لكل ات. وحيث أن الفائض البشري ينمو بدرجة أسرع من نمو العنصر "المستوعب" ، فإن مسحا أجر ته الأمم المتحدة يتنبأ بأنه في غضون سنوات قلائل "سوف تشكل المخيمات مأوى لغالبية سكان المدن". إن المهزومين سوف يكونون الغالبية. ومن ناحية أخرى، يفضل النظام إخفاء القذارة تحت البساط. أنه يخلي الفافيلات من منطقة الخليج والبياس ميزيرياس من العاصمة القومية تحت تهديد السلاح، مشتتا الفائض البشري بالألف المؤلفة. إن ريو دي جانيرو وبوينس ايريس تستبعدان منظر البؤس الذي ينتجه النظام، وسرعان ما أن يرى غير مضخات الرفاهية دون برازها في هاتين المدينتين اللتين يجري فيهما تبديد الثروة التي خلقتها البرازيل كلها والأرجنتين كلها.

والحال أن نظام السيطرة الدولي الذي يكابده كل بلد يجد ترجمة له داخل كل بلد. فتركيز الصناعة في مناطق معينة يعكس التركيز السابق للطلب في الموانئ الكبرى أو مناطق التصدير. إن ثمانين في المائة من الصناعة البرازيلية تتركز في المثلث الجنوبي الشرقي ـ ساو بأولو، ريو دي جانيرو، وبيلو هوريزونتي ـ بينما تتدهور بشكل متواصل مشاركة

الشمال الشرقي الجائع في الناتج الصناعي القومي. ويتركز ثلثا الصناعة الأرجنتينية في بوينس ايريس وروساريو، وتستوعب مونتفيديو ثلاثة أرباع صناعة أوروغواي، شانها في ذلك شان سانتياغو وبالبارايسو في تشيلي. وتتركز في ليما وميقاتها نسبة ٦٠ في المائة من صناعة بيرو[٤٢١]. والحال أن التخلف النسبي المتزايد للمناطق الداخلية المترامية الأطراف، والغارقة في هوة البؤس والحرمان، لا يعود، كما يزعم البعض، إلى عزلتها، بل يعود، على العكس من ذلك. إلى الاستغلال المباشر وغير المباشر من جانب المراكز الاستعمارية القديمة والتي تحولت الآن إلى مراكز صناعية وكما قال زعيم نقابي ارجنتيني[٤٢٢]، لقد شهد قرن ونصف قرن من تاريخنا انتهاك كل مواثيق التضامن، وخيانة العهود المقطوعة في الأناشيد والدساتير، وتسلط بوينس ايريس على الأقاليم. إن الجيوش والجمارك، والقوانين التي فرضها قليلون وكابدها كثيرون، والحكومات التي كانت باستثناء البعض، عميلة للقوى الأجنبية، قد شيدت هذه الحاضرة المزهوة التي تراكم الثروة والجبروت. لكننا لو تحرينا أسباب تلك العظمة وتبعة ذلك الزهو، فسوف نجدها في مزارع الماتي التي أقامها المبشرون، وفي المجتمعات التي قتلتها شركات فورستال لاند، وتيمبو، والسكك الحديدية، وفي ياس مصانع السكر في توكومان ومناجم خوخوي، وفي موانئ بارانا المهجورة. وفي النزوح الجماعي عن بيريسو، خريطة كاملة للبؤس تحيط مركزا للثروة تحميه ممارسة تسلط داخلي لم يعد بالإمكان اخفاؤه أو قبوله. وقد لاحظ اندريه جوندر فرانك، في دراسته لتطور التخلف البرازيلي، أنه بينما تعد البرازيل بلدا يدور في فلك الولايات المتحدة، فإن الشمال الشرقي يلعب على الصعيد الداخلي دور تابع ل "الحواضر الداخلية" الموجودة في الجنوب الشرقي. ويظهر الاستقطاب في ظواهر

عديدة، ليس فقط في تركيز الغالبية الساحقة من الاستثمارات الخاصة والعامة في ساو بأولو، وانما أيضاً في استحواذ المدينة المتحايل ـ من خلال التبادل التجاري الجائر، وسياسة أسعار تعسفية، ومستويات ضريبية داخلية مميزة، واستيلاء بالجملة على العقول واليد العاملة الماهرة ـ على الرساميل المنتجة في طول البلاد وعرضها[٤٢٣].

كما يزيد التصنيع التابع من تركيز الدخول على المستويين الإقليمي والاجتماعي. فالثروة التي ينتجها لا تتفسر عبر كل ارجاء البلاد أو عبر المجتمع كله، وانما تعزز وتعمق التفاوتات القائمة. بل أن عماله "المستوعبين" أنفسهم ـ الأقل عددا بكثير ـ لا يستفيدون بنسبة مساوية من النمو الصناعي، فثمار الإنتاجية العالية، المرة بالنسبة إلى الكثيرين جدا، تذهب إلى الفئات العليا المتربعة على قمة الهرم الاجتماعي. إن الصناعات الميكانيكية، والكهربائية، والمواصلات، وصناعة السيارات في البرازيل قد زادت الإنتاجية بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٦ بنحو ١٣٠ في المائة، لكن أجور عمالها في الفترة نفسها لم تزد من حيث قيمتها الفعلية إلا بنسبة ٦ في المائة[٤٢٤]. ولم تقدم أمريكا اللاتينية العمل الرخيص، ففي عام ١٩٦١، كان متوسط أجر العامل في الساعة دولارين في الولايات المتحدة، وكان في الأرجنتين ٣٢,٠ من الدولار، وفي البرازيل ٢٨,٠ من الدولار، وفي كولومبيا ١٧,٠ من الدولار، وفي المكسيك ١٦,٠ من الدولار، وفي غواتيمالا مجرد ١٠,٠ من الدولار[٤٢٥]، وقد اتسعت الهوة منذ ذلك الحين. فالعامل البرازيلي يجب عليه الآن أن يعمل يومين ونصف يوم ليكسب ما يكسبه العامل الفرنسي في ساعة واحدة. ويحصل العامل الأمريكي من عمل يزيد قليلاً عن عشر ساعات على ما يعادل ما يحصل عليه عامل برازيلي عن عمل يدوم شهرا. ولكي يحصل العامل البريطاني أو الألماني على أكثر مما

يحصل عليه عامل في ريو دي جانيرو لقاء يوم عمل من ثماني ساعات، فإنه لا يحتاج إلا للعمل لأقل من نصف ساعة[٤٢٦]. وينعكس مستوى الأجور المنخفضة في أمريكا اللاتينية في الأسعار المنخفضة التي تتقاضاها المنطقة عن موادها الخام في السوق الدولية، لحساب المستهلكين في البلدان الغنية. وفي الأسواق الداخلية، حيث تبيع الصناعة منزوعة التأميم سلعا مصنعة، تواصل الأسعار ارتفاعها للحفاظ على الأرباح المتضخمة للشركات الإمبريالية.

ويتفق جميع الاقتصاديين على أهمية تزايد الطلب بالنسبة إلى دفع التنمية الصناعية. لكن الصناعة الأمريكية اللاتينية التي يهيمن عليها الأجانب لا تبدي اهتماماً بتوسيع وتعميق سوق استهلاك واسع. لأنه هذا لا يمكن تحقيقه إلا على أساس خطوات عملية لتحويل الهيكل الاقتصادي، لا بد من أن تتضمن عواصف سياسية مزعجة. ومع اخضاع النقابات أو ابادتها أو تدجينها في المدن الأكثر تصنيعا، فإن نمو القوة الشرائية للعامل نمو طفيف للغاية، كما أن أسعار السلع الصناعية لا تهبط. هذه، إذا، منطقة واسعة ذات سوق ممكنة هائلة وسوق فعلية منكمشة من جراء فقر جماهيرها. إن المستهلكين الذين توجه مصانع السيارات والثلاجات الكبرى منتجاتها إليهم لا يزيدون عن ٥ في المائة من سكان أمريكا اللاتينية[٤٢٧]. ويمكن اعتبار واحد بالكاد من كل أربعة برازيليين مستهلكا من الناحية الفعلية. والحال أن الدخل الإجمالي لخمسة وأربعين مليون برازيلي يساوي الدخل الإجمالي لتسعمائة آلاف مواطن مميزين على الطرق المقابل من السلم الاجتماعي[٤٢٨].

اندماج أمريكا اللاتينية في ظل الراية ذات الخطوط والنجوم

ما زال يعتقد بعض الأبرياء أن كل البلاد تنتهي عند حافة حدودها. وهم نفس الذين يقولون أن الولايات المتحدة لها دخل كبير أو ليس لها دخل على الإطلاق بتكامل أمريكا اللاتينية، وذلك لسبب بسيط، هو أن الولايات المتحدة ليست عضوا في منطقة التجارة الحرة الأمريكية اللاتينية، ولا في السوق المشتركة لأمريكا الوسطى. وهم يقولون أن التكامل موجود بالشكل الذي أراده المحرر سيمون بوليفار، فهو لا يمضي إلى أبعد من الحدود التي تفصل المكسيك عن جارتها الشمالية القوية. والواقع أن أولئك الذين يتبنون هذه الفكرة الحارسة لعرش السيد الأمريكي يعانون من شكل ما من اشكال سقوط الذاكرة وقد لا يكون بريئا تماماً. فهم ينسون أن جيشا من القراصنة، والتجار، ورجال البنوك، ومشاة البحرية والتكنوقراطيين، وذوي القبعات الخضراء، والسفراء، وقباطنة الصناعة قد استولوا، في صفحة سوداء طويلة من صفحات التاريخ، على حياة ومصائر معظم شعوب الجنوب وأن صناعة أمريكا اللاتينية ترقد الآن في قعر جهاز هضم الإمبراطورية. إن اتحاد "نا" يخلق قوت "هم" بالدرجة التي تلجأ بها بلادنا، وقد عجزت عن الإفلات من قوالب التخلف والتبعية، إلى تحقيق التكامل بين عبوديات كل منها.

وفي وثائق الوكالة الرسمية هناك مديح لدور الرساميل الخاصة في نمو التكامل ـ وقد رأينا في فصول سابقة بيد من تتركز هذه الرساميل الخاصة. لقد اجتمع المجلس الاستشاري المعني بشئون النشاط الاستثماري في منتصف ابريل ١٩٦٩ في اسونثيون. وبين أمور أخرى،

أكد من جديد على "توجه الاقتصاد الأمريكي اللاتيني، الذي يتحقق التكامل الاقتصادي للمنطقة بالنسبة إليه عن طريق الاستناد بصورة أساسية إلى تطور المشروع الاستثماري الخاص. وقد أوصى بأن تدخل الحكومات تشريعا مشتركا لتكوين "مشاريع استثمارية متعددة القوميات، تتألف بصورة غالية (كذا) من رساميل ومستثمرين من الدلول الأعضاء"، لقد سلمت كل المفاتيح إلى اللمس. والمال أنه قبل ذلك بسنتين، في ابريل ١٩٦٧، في الإعلان الختامي لمؤتمر بونتا ديل ايستي ـ الذي ختمه ليندون جونسون نفسه بخاتمه الذهبي ـ كان قد وصل الأمر إلى حد اقتراح إنشاء سوق مشتركة للأسهم، وهي نوع من التكامل بين أسواق الأوراق المالية، بحيث يمكن شراء المشاريع الاستثمارية المتواجدة في أي مكان من أمريكا اللاتينية في أي مكان من أمريكا اللاتينية. وقد ذهبت الوثائق الرسمية إلى حد التوصية على المكشوف بنزع تأميم المشاريع العامة. فقد قرر المؤتمر الأول لصناعة تلعيب اللحوم ضمن إطار الألك، والمنعقد في مونتفيديو في ابريل ١٩٦٩ دعوة الحكومات... إلى دراسة السبل المناسبة للتحويل التدريجي لمصانع تلعيب اللحوم المملوكة للدولة إلى القطاع الخاص. وفي الوقت نفسه، اتبعت حكومة أوروغواي، التي رأس أحد أعضائها المؤتمر، سياسة تخريب سافرة لمصنع فريغوريفيكو ناشيونال لتعليب اللحوم والذي تملكه الدولة وذلك لصالح المصانع التي يملكها الأجانب.

ان المقصود من وراء نزع سلاح التعريفة الجمركية، والذي يؤدي تدريجيا إلى إطلاق انتشار السلع داخل منطقة الالك، هو إعادة تنظيم توزيع مراكز الإنتاج والأسواق الأمريكية اللاتينية لحساب الشركات الكبرى متعددة القوميات. إن "اقتصاد التصاعد" يسود الان، لقد شهدت المرحلة الأولى، التي جرت خلال هذه الأعوام الأخيرة، توطيد

السيطرة الأجنبية على منصات الإطلاق ـ المدن الصناعية ـ والتي سوف تجري السيطرة منها على السوق الإقليمية ككل. وتعد المشاريع الاستثمارية المتواجدة في البرازيل والاعظم اهتماماً بالتكامل الأمريكي اللاتيني مشاريع أجنبية على وجه التحديد، و، بالدرجة الأولى، المشاريع الأقوى. ومن بين الشركات المتعددة القوميات(٤٢٩) المملوكة في معظمها للولايات المتحدة ـ التي اجابت على استيبان أمريكي لاتيني عام ارسله بنك التنمية الأمريكي المشترك، كان أكثر من نصفها يعتزم أو يقترح أن تكون انشطته في النصف الثاني من الستينيات في سوق الالك الاخذة بالاتساع، وذلك عن طريق إنشاء أو تعزيز فروع إقليمية(٤٣٠). وفي أيلول ١٩٦٩، أعلن هنري فورد الثاني في مؤتمر صحفي في ريو دي جانيرو أنه يريد الانضمام إلى العملية الاقتصادية البرازيلية "لأن الموقف مناسب للغاية، وتتمثل مشاركتنا الأولية في شراء ويليز أوفر لاند نو برازيل. وقال أنه سوف يصدر سيارات برازيلية إلى بلدان أمريكية لاتينية عديدة". وقد استفادت شركة كاتيربيلار تراكتورز ـ وهي شركة تتعامل دائماً مع العالم باعتباره سوقا واحدة حسب تعبير بزنس انترناشونال ـ من تخفيضات التعريفة الجمركية بمجرد التفاوض عليها. وكانت تزود بالفعل في عام ١٩٦٥ مختلف البلدان الأمريكية الجنوبية بالبولدوزارات وقطع غيار الجرارات من مصنعها في ساو بأولو. وبسرعة مساوية، بدأت شركة يونيون كاربايد في امطار البلدان الأمريكية اللاتينية بالمنتجات التكتيكية الكهربائية من مصنعها في المكسيك، مستفيدة من الإعفاءات الجمركية، والضريبية، والتأمينية في منطقة القارة اللاتينية(٤٣١).

إن البلدان الأمريكية اللاتينية ـ المحكوم عليها بالفقر والعزل والتجريد من الرساميل، والتي تواجه مشكلات بنيوية خطيرة داخل

حدودها هي نفسها - تنزع تدريجيا حواجزها الاقتصادية، والمالية، والاميرية لحساب الاحتكارات والنتيجة هي أن الاحتكارات التي ما تزال تخنق كل بلد على حدة، يمكنها التحرك بحرية أوسع وتوطيد تقسيم جديد للعمل على نطاق إقليمي عن طريق إضفاء طابع التخصص على أنشطتها حسب البلدان ومجالات النشاط، وتحديد الاحجام المثلى لمشاريعها الاستثمارية الفرعية، وخفض التكاليف، والقضاء على المنافسين خارج المنطقة، وتحقيق الاستقرار للأسواق. ويمكن لفروع الشركات متعددة القوميات أن تطمح إلى الاستيلاء على السوق الأمريكية اللاتينية في مجالات معينة وفي ظل شروط معينة لا تمس السياسات العالمية لمكاتبها الرئيسية. وكما رأينا في فصل سابق، فإن التقسيم الدولي للعمل يواصل العمل مثلما كان دائماً بالنسبة إلى أمريكا اللاتينية، فالتغيرات تقع داخل المنطقة فقط. وقد أعلن الرؤساء في بونتا ديل ايستي أن "المبادرة الخاصة الأجنبية سوف تتمكن من القيام بدور مهم في ضمان تحقيق أهداف التكامل، وقد اتفقوا على ضرورة أن يزيد بنك التنمية الأمريكي المشترك المبالغ المتاحة لقروض التصدير الائتمانية في التجارة فيما بين البلدان الأمريكية اللاتينية".

وقد قدرت مجلة "فورتشن" في عام ١٩٦٧ "الفرص الجديدة المغرية" التي تتيحها السوق المشتركة الأمريكية اللاتينية أمام الشركات الاستثمارية الأمريكية، أن موضوع السوق المشتركة يتحول إلى عنصر جدي في تخطيط كثير من مجالس إدارات الشركات للمستقبل. فشركة فورد موتور دو برازيل، التي تنتج السيارات من طراز غالاكسي، تعتقد أن بوسعها التعاون على أحسن وجه مع شركة فورد الأرجنتين، التي تنتج السيارات من طراز فالكون، بما يمكنهما من استتبات اقتصاديات كبرى عن طريق إنتاج كل من السيارتين لأجل أسواق أكبر واوسع. أما

شركة كوداك، التي تصنع الآن ورق التصوير الحساس في البرازيل، فسوف تكون مستعدة لصنع الأفلام للتصدير في المكسيك واصنع أجهزة التصوير وأجهزة عرض الأفلام في الأرجنتين"[٤٣٢]. وقد أوردت المجلة امثلة أخرى ل "ترشيد" أو توسيع العمليات من جانب شركات مثل شركة التليفون والتليغراف الدولية، وشركات جنرال الكتريك، ريمنغتون راند، اوتيس ايليفيتور، ورثنغتونت، فايرستون، دير ويستنغهاوس، اير بريك واميركان مشاين اند فاوندري. وقد كتب راوول بريتش، وهو نصير متحمس، للاتحاد الأمريكي للتجارة الحرة، قبل تسع سنوات، "تتمثل حجة أخرى اسمعها، من مكسيكو إلى بوينس ايريس، مرورا بساو بأولو، وسانتياغو، في أن السوق المشتركة سوف تتيح للصناعة الأجنبية فرصا للتوسع لا تتمتع بها الآن في اسواقنا المحدودة... ويخشى من أن الفوائد التي تتيحها السوق المشتركة أن يستفيد بها من الناحية الرئيسية غير الصناعة الأجنبية، لا الصناعات القومية... وقد تقاسمت وما زالت تتقاسم هذه الخشية، ليس على مستوى التصور وحده وإنما لأنني قد تحققت من واقع هذه الحقيقة في الممارسة العملية"[٤٣٣]. لكن هذا التحقق لم يمنع بريبيتش من أن يوقع بعد ذلك وثيقة خاصة بالتكامل الجاري جاء فيها أن مما لا شك فيه أن رأس المال الأجنبي له دور مهم في تنمية اقتصادياتنا، كما تقترح انشاد شركات مختلطة "يمكن للمستثمر الأمريكي اللاتيني أن يشارك فيها بصورة فعالة ومتكافئة"[٤٣٤]. بصورة متكافئة؟ أجل، فمن الطبيعي أنه يجب الحفاظ على "تكافؤ الفرص". لقد قال اناتول فرانس بشكل لائق أن القانون في مساواته المهيبة يمنع الأغنياء والفقراء سواء بسواء من النوم تحت الجسور، والتسول في الشوارع، وسرقة الخبز، إلا أنه يحدث أنه على هذا الكوكب وفي هذا العصر تستثمر شركة استثمارية واحدة، هي، شركة جنرال موتورز، قوة

عمل عدد من العمال المنتشرين في مختلف ارجاء العالم يساوي عدد كل سكان أوروغواي القادرين على العمل، وتكسب كل سنة من الأموال ما يزيد أربع مرات عن كامل الناتج القومي الإجمالي لبوليفيا.

وتعرف الشركات، من تجربتها مع التكاملات السابقة، مزايا العمل من الداخل في التطور الرأسمالي للمناطق الأخرى. ويتميز واقع أن إجمالي مبيعات فروع الشركات الأمريكية في مختلف ارجاء العالم يزيد ست مرات عن قيمة الصادرات الأمريكية الشمالية بدلالة بليغة[٤٣٥]. وفي أمريكا اللاتينية كما في أماكن أخرى، فإن القوانين الأمريكية غير المناسبة والخاصة بمكافحة التروستات لا يسري مفعولها. فهنا، وبحرية تامة، تصبح البلدان مجرد أسماء مستعارة للشركات الاحتكارية الأجنبية التي تهيمن عليها. وقد وقع أول اتفاق تنفيذي ضمن إطار الالك في أب ١٩٦٢ من جانب الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وأوروغواي، لكنه كان في واقع الأمر اتفاقا بين شركة أي بي أم وشركة أي بي أم وشركة أي بي أم لقد ألغي رسوم الاستيراد في البلدان الأربعة على أجهزة الكمبيوتر ومكوناتها، بينما زاد الرسوم على هذه الأجهزة المستوردة من خارج المنطقة، أن شركة أي بي أم قد أبلغت الحكومات أنها أو الغت الرسوم على التجارة فيما بينها، فسوف تبني مصانع في البرازيل والأرجنتين...»[٤٣٦]. اضافت المكسيك توقيعها على الاتفاق الثاني، في هذه المرة، كانت شركتا ار. سي. ايه وفيليبس هولندية هما اللتان شجعتا على اعفاء معدات أجهزة الراديو والتليفزيون من الرسوم. وهلمجرا. أما الاتفاق التاسع، في ابريل ١٩٦٩، فقد قسم السوق الأمريكية اللاتينية في مجال معدات توليد، وارسال وتوزيع الكهرباء بين شركات يونيون كاربايد، وجنرال الكتريك، وسيمينز (المائية).

ومن ناحية أخرى، فإن السوق المشتركة لأمريكا الوسطى، وهي

محاولة لتوحيد الاقتصاديات المتداعية والمشوهة لخمسة بلدان، قد ساعدت على القضاء بضربة واحدة على المنتجين القوميين الهزيلين للملابس، والصبغات والأدوية، ومستحضرات التجميل، والبسكويت، وعلى توسيع الأرباح والفلك التجاري لشركات جنرال تاير اند رابر، بروكتر اند غامبل، غريس، كولغيت ـ بالملويف، سترلنغ برونكتس، ناشيونال بسكويت[٤٣٧]. وقد صار الاعفاء من الرسوم الجمركية في أمريكا الوسطى يدا بيد أيضاً مع تعلية الحواجز ضد المنافسة "الأجنبية الخارجية" (كما يجب أن تسمى) حتى تتمكن الشركات "الأجنبية الداخلية" من البيع بأسعار أعلى ومن تحقيق أرباح أكبر، "ان الاعانة المتحصلة من خلال الحماية الجمركية تتجاوز القيمة الإجمالية المضافة عن طريق عملية الإنتاج المحلية" كما يستنتج روجر هانسن[٤٣٨].

والحال أنه لا أحد يملك حسا بالتناسب أفضل من هذه الشركات الاستثمارية الأجنبية، تناسباتها الخاصة وتناسبات الشركات الاستثمارية الأخرى. فمثلا، ما أهمية انشاء مصنع كبير للسيارات، أو افران لصهر الصلب عن طريق استخدام التيار الهوائي، أو مصنع كيميائي مهم في أوروغواي، أو بوليفيا، أو إكوادور، بأسواقها الهزيلة؟ أن مواقع الانطلاق تختار في أماكن أخرى غلى أساس حجم الأسواق الداخلية وامكانيات نموها، أن مصنع فرنسا لإطارات السيارات في أوروغواي يعتمد على شركة فايرستون بدرجة مهمة لكن فروع شركة فايرستون في البرازيل، والأرجنتين هي التي تتوسع بهدف التكامل. فنمو المصنع الموجود في أوروغواي يجري كبحه، باستخدام نفس المعيار الذي يقرر أن شركة أوليفيتي، وهي شركة إيطالية غزتها شركة جنرال الكتريك، سوف تصنع الاتها الكاتبة في البرازيل والاتها الحاسبة في الأرجنتين. ويقول روزنشتاين ـ رودان أن[٤٣٩] "التوزيع الفعال للموارد يتطلب تطورا

غير متكافئ للأجزاء المختلفة لبلد من البلدان أو لمنطقة من المناطق، وسوف يكون لأمريكا لاتينية متكاملة جهاتها الشمالية الشرقية وأقطاب نموها. وقد قال مندوب أوروغواي عند تقييمه للسنوات الثماني عن عمر معاهدة مونتفيديو التي أدت إلى انشاء الالك، أن الاختلافات في درجات النمو بين مختلف البلدان تميل إلى الاحتدام لأن مجرد زيادة التجارة في تبادل للتنازلات المتبادلة ليس من شانه غير تعزيز انعدام التكافؤ القائم سلفا بين أقطاب مميزة ومناطق غارقة. وقد قدم سفير باراغواي شكاوى مماثلة، فقد قال أن مما يتنافى مع العقل أن البلدان الضعيفة تدعم التنمية الصناعية لأكثر بلدان منطقة التجارة الحرة تقدما، مستوعبة تكاليفها الداخلية الباهظة من خلال الإعفاءات الجمركية. وقد أضاف أن تدهور شروط التجارة قد أثر تأثيرا بالغ السوء على بلاده اكان ذلك ضمن الالك أم خارجها، "فمقابل كل طن من المنتجات تستورده باراغواي من المنطقة، تدفع طنين. وقال المتحدث بلسان إكوادور أن الواقع يتمثل في وجود أحد عشر بلدا في مراحل تطور مختلفة. بما يعني قدرات أكبر أو أقل على الاستفادة من منطقة التجارة الحرة وبما يوقد إلى استقطاب المغانم والخسائر وقد استنتج سفير كولومبيا استنتاجا واحدا فقط، أن برنامج الإعفاء يفيد البلدان الثلاثة الكبيرة أكثر كثيراً جدا من فائدته للبلدان الأخرى"[٤٤٠]. ومع استمرار التكامل، سوف تتخلى البلدان الصغيرة عن الدخول التي كانت تحصل عليها من الرسوم الجمركية ـ والتي تمول في باراغواي قرابة نصف الميزانية القومية ـ في مقابل الميزة المشكوك فيها والخاصة بالحصول، مثلا، على سيارات من ساو بأولو، أو بوينس ايريس، أو المكسيك تصنعها نفس الشركات التي تبيعها من ديترويت، أو فولفسبورغ، أو ميلانو بنصف السعر[٤٤١]. تلك هي الحقيقة الراسخة وراء النزاعات التي تثيرها عملية التكامل بشكل

متزايد. وبعد الانبثاق الناجح لحلف الانديز، والذي يجمع أمم المحيط الهادئ، أحد نتائج الهيمنة الواضحة للبلدان الثلاثة الكبيرة في إطار الالك الاوسع، أن البلدان الصغيرة تقترح الاتحاد على حدة.

الا أنه برغم كافة المشاكل الشائكة كما قد تبدو، فإن الأسواق تتوسع مع اجتذاب التابعين لتابعين جدد إلى فلك قوتهم التابعة. وفي ظل ديكتاتورية كاستيلو برانكو، وقمت البرازيل اتفاقا لضمان الاستثمارات الأجنبية يثقل كاهل الدولة بتبعات المخاطر والمعوقات التي تحف كل صفقة استثمارية. ومما له دلالته أن المسئول الذي رتب للاتفاق قد دافع عن الشروط المهينة التي يتضمنها أمام الكونغرس البرازيلي بقوله أن البرازيل سوف تستثمر رساميل في المستقبل القريب في بوليفيا، أو باراغواي، أو تشيلي وسوف تكون ساعتها بحاجة إلى اتفاقات من هذا النوع"[٤٤٢]. والواقع أنه قد تطور في الحكومات البرازيلية أثر انقلاب ١٩٦٤ اتجاه يرمي إلى قيام البرازيل يدور إمبريالي من الباطن تجاه جيرانها. والحال أن زمرة عسكرية واسعة النفوذ تصور البلاد على أنها المدير الكبير للمصالح الأمريكية في المنطقة، وتدعو البرازيل إلى أن تكون سيدة للجنوب بالشكل نفسه الذي تعتبر به الولايات المتحدة سيدة للبرازيل. وفي هذا الاتجاه، استحضر الجنرال جوليبري دو كوتوا يا سيلفا مصيرا جليا. جديدا، فقد كتب أيديولوجي "الإمبريالية من الباطن" هذا في عام ١٩٥٢، هذا هو ما سوف يحدث، خاصة وأن مصيرنا الجلي لا يتعأرض في منطقة الكاريبي مع مصير اشقائنا الشماليين الكبار"[٤٤٣]. والحال أن الجنرال يرأس الآن شركة داوكيميكال في البرازيل. ومن المؤكد أن بنية السيادة من الباطن والتي يسعون إلى خلقها لها سوابق تاريخية كثيرة، من إبادة باراغواي لحساب رجال البنوك البريطانيين بعد حرب ١٨٦٥ إلى ارسال جنود برازيليين،

بعد قرن واحد بالضبط، لتزعم عملية التضامن عندما غزا مشاة البحرية الأمريكية سانتو دومينغو.

وقد شهدت السنوات الأخيرة أحياء للمنافسة بين عملاء المصالح الإمبريالية المتمركزين في الحكومات البرازيلية والمتركزين في الحكومات الأرجنتينية فيما يتعلق بالمسالة المزعجة والخاصة بقيادة القارة. وتشير كل الدلائل إلى أن الأرجنتين ليست في وضع يسمح لها بمقاومة التحدي البرازيلي القوي، فمساحة البرازيل ضعف مساحة الأرجنتين، وعدد سكان البرازيل يزيد أربع مرات عن عدد سكان الأرجنتين، وتنتج البرازيل من الصلب ما يزيد نحو ثلاث مرات عما تنتجه الأرجنتين، وتنتج من الاسمنت ضعف ما تنتج الأرجنتين، وتنتج من الطاقة الكهربائية أكثر من ضعف ما تنتجه الأرجنتين، وتجدد أسطولها التجاري بمعدل يزيد خمس عشرة مرة عن معدل تجديد الأرجنتين لأسطولها التجاري. وعلاوة على ذلك، فإن معدل النمو الاقتصادي للبرازيل، في العقدين الماضيين، كان أعظم بدرجة ملحوظة من معدل النمو الاقتصادي للأرجنتين.

وحتى وقت قريب، كانت الأرجنتين تنتج من السيارات والشاحنات أكثر مما تنتجه البرازيل، لكن صناعة السيارات البرازيلية بالمعدل الحالي سوف تكون أكبر ثلاث مرات من صناعة السيارات الأرجنتينية بحلول عام ١٩٧٥ أما اسطولها ـ الذي كان مساويا لأسطول الأرجنتين في عام ١٩٦٦ ـ فسوف يكون حجمه مماثلا لحجم أساطيل أمريكا اللاتينية كلها مجتمعة. وتقدم البرازيل للمستثمرين الأجانب سوقها الممكنة المترامية الأطراف. وثرواتها الطبيعية الخرافية، والاهمية الاستراتيجية لموقعها ـ حيث توجد لها حدود مشتركة مع كل البلدان الأمريكية الجنوبية باستثناء إكوادور وتشيلي ـ وكل الشروط المناسبة للمشاريع الاستثمارية الأمريكية

على أرضها للتقدم بأحذية تجتاز سبعة فراسخ في خطوة واحدة. وهي تحوز قوة عمل أرخص واوفر مما لدى منافستها، فالمستوى المتوسط للأجور أدني ثلاث مرات مما في الأرجنتين في حين أن العاطلين ملايين. وليس من قبيل المصادفات أن ثلث المنتجات المصنعة وشبه المصنعة المبيعة داخل منطقة الالك يأتي من البرازيل. أنها البلد المدعو إلى أن يصبح محور تحرر كل أمريكا اللاتينية أو استعبادها. ولعل السناتور فولبرايت لم يكن يدرك المغزى الكامل لكلماته عندنا نسب إلى البرازيل، في تصريحات علنية ادلى بها في عام ١٩٦٥، مهمة توجيه السوق المشتركة لأمريكا اللاتينية.

"لن نكون سعداء، أبدا، أبدا!" ما كان قد تنبأ به سيمون بوليفار

لكي تتمكن الإمبريالية الأمريكية من دمج وحكم أمريكا اللاتينية اليوم، كان لا بد من أن تعمل الإمبراطورية البريطانية على تفرقتنا وحكمنا في الأمس. لقد ظهرت إلى الوجود مجموعة من البلاد المنفصلة نتيجة لإحباط وحدتنا القومية. وعندما كسبت الشعوب استقلالها بالسلاح، وقفت أمريكا اللاتينية على مسرح التاريخ وقد جمعت بين مختلف أقاليمها عرى تراث مشترك، ووحدة الأرض، والتكلم بلغتين أصلهما واحد، الأسبانية والبرتغالية. لكنها كانت تفتقر إلى شرط جوهري واحد لكي تشكل أمة عظيمة واحدة ـ لقد كان ينقصنا الاقتصاد المشترك.

لم تكن أقطاب الازدهار التي ترعرعت لكي تلبي حاجة أوروبا إلى المعادن والمواد الغذائية مترابطة فيما بينها، لقد كان لقضبان اجنحة المروحة قمة أخرى في الجانب الاخر من المحيط. وكان الناس ورأس

المال يتحركون حسب المصير الصاعد أو الهابط للذهب أو السكر. الفضة أو النيلة، وكان الوجود الدائم والمستقر من نصيب الموانئ والعواصم، الطفيليات النامية على حساب المناطق المنتجة. لقد ولدت أمريكا اللاتينية كأرض واحدة في خيالات وامال سيمون بوليفار، وخوسيه ارتيغاس، وخوسيه دي سان مارتين، لكنها تمزقت بشكل مسبق من جراء التشوهات الأساسية للنظام الاستعماري. والحال أن أوليغاريكيات موانئ التجارة الحرة قد اسست بنية التجزئة هذه، والتي كانت مصدر ربح لها، فلم يكن بوسع هؤلاء التجار العقلاء احتضان الوحدة القومية التي كانت جوهر البورجوازيات الأوروبية والأمريكية. وقد حرص البريطانيون طوال القرن الماضي ورثة أسبانيا والبرتغال منذ ما قبل الاستقلال، على بلورة هذه البنية عن طريق دسائس الديبلوماسيين الماكرة، وابتزازات رجال البنوك، واستعداد التجار للغواية. لقد أعلن بوليفار، "إن الوطن بالنسبة الينا هو أمريكا اللاتينية، لكن قسمت كولومبيا الكبيرة إلى خمسة بلدان ومات المحرر مهزوما. وقد قال للجنرال اوردانيتا، "أبدا لن نكون سعداء، أبدا". أما سان مارتين، الذي خانته بوينس ايريس، كان قد نزع شارة القيادة من على منكبيه في حين أن ارتيغاس، الذي كان يسمى جنوده أمريكيين لاتينيين، فقد غادر ليموت في منفى انفرادي في باراغواي، وكانت قد قسمت ولاية ريو دي لا بلاتا إلى أربع ولايات.

أما فرانشيسكو دي موراثان، مؤسس جمهورية أمريكا الوسطى الاتحادية، فقد أعدم رميا بالرصاص[٤٤٤]، ومزقت خاصرة أمريكا إلى خمس قطع ـ واضيفت إليها فيما بعد دولة بنما، القناة التي اقتطعت من كولومبيا والتي ابتدعها تيدي روزفلت.

ويرى اليوم العالم النتيجة، فاية شركة من الشركات المتعددة

القوميات تعمل بتماسك وحس بالوحدة أكبر مما لدى كومة الجزر التي تتألف منها أمريكا اللاتينية، الممزقة بكل هذه الحدود ولا حتى استطاعت الوصول لاندماج داخلي. فما هو التكامل الذي يمكن أن تحققه فيما بينها بلدان عاجزة عن مجرد التكامل داخليا، على صعيد كل منها؟ يكابد كل بلد انشطارات في جسده، وانقسامات اجتماعية مريرة وتوترات لا منتهية بين صحاريه الهامشية الكبرى وواحاته المدينية. وتتكرر المأساة على الصعيد الإقليمي. فالسكك الحديدية والطرق الرئيسية، التي أنشئت لنقل المنتجات الأجنبية بأقصر الطرق، ما تزال تشهد بشكل دامغ على عجز أو عدم قدرة أمريكا اللاتينية على تحقيق الحلم القومي الذي راود ابطالها. فلا تملك البرازيل طرقا برية دائمة للارتباط بثلاث من جاراتها، كولومبيا، وبيرو، وفنزويلا، كما أن مدن شاطئ المحيط الأطلسي لا تملك اتصالات برقية مباشرة مع المدن المطلة على شاطئ المحيط الهادئ فالبرقيات المتبادلة بين بوينس ايريس وليما، أو ريو دي جانيرو وبوغوتا، يجب أن تمر عبر نيويورك، وذات الشيء فيما يتعلق بالاتصالات الهاتفية بين منطقة الكاريبي والجنوب. وما زال كل بلد أمريكي لاتيني متوحدا بمينائه - مما يعد نفيا لجذوره وهويته الحقيقية - إلى درجة أن كافة المنتجات تقريبا يجري تبادلها عن طريق البحر، فالنقل البري غير موجود من الناحية العملية. وعلاوة على ذلك، يحدد كارتيل الشحن العالمي رسوما وخطوط رحلات تناسب مصالحه، ولا تفعل أمريكا اللاتينية غير مكابدة الرسوم الباهظة وخطوط الرحلات المثيرة للعجب. فمن بين خطوط الملاحة المنتظمة ال ١١٨ العاملة في المنقطة لا يرفع اعلاما لبلدان من المنطقة غير سبعة عشر، وتستنزف رسوم الشحن من الاقتصاد الأمريكي اللاتيني ٦,٢ بليون دولار سنويا. وهكذا فإن السلع المشحونة من بورتو اليغري إلى مونتفيديو تصل أسرع

إذا ما ذهبت عن طريق هامبورغ، والشيء نفسه بالنسبة إلى صوف أوروغواي المتجه إلى الولايات المتحدة، ونقل رسوم الشحن من بوينس ايريس إلى ميناء في خليج المكسيك عن نسبة ٢٥ في المائة إذا ما ذهبت الشحنة عن طريق ساوثهامبتون[٤٤٥]. ويكلف شحن الواح الخشب من المكسيك إلى فنزويلا أكثر من ضعف تكاليف شحن الواح الخشب من فنلندا إلى فنزويلا، مع أن الخرائط ما تزال تصر على أن المكسيك أقرب. وتكلف شحنة مباشرة من المنتجات الكيميائية من بوينس ايريس إلى تامبيكو في المكسيك أكثر بكثير مما لو ذهبت عن طريق نيواورليانز[٤٤٦].

وما أخذت الولايات المتحدة في تحقيقه لنفسها، وكانت قد حققته بالفعل، فهو شيء مختلف بالتأكيد. فقد ضاعفت المستعمرات الثلاث عشرة أراضيها, بعد سبع سنوات من استقلالها، الممتدة بالفعل وراء الإهليجين إلى ضفاف المسيسيبي، وبعد ذلك بأربع سنوات صاغت وحدتها بخلق سوق مشتركة، ثم أدى شراء أرض ليوزيانا من فرنسا في عام ١٨٠٣ إلى مضاعفة مساحة الأرض، وبعد ذلك جاءت فلوريدا، في منتصف القرن، غزو وبتر نصف المكسيك باسم "المصير الجلي". ثم شراء الاسكا واغتصاب هاواي، وبويرتو ريكو، والفلبين. لقد جعلت المستعمرات من نفسها امة. وجعلت الأمة من نفسها إمبراطورية، بتحقيقها لأهداف جرى الإعراب عنها والسعي إليها بشكل واضح منذ أيام الآباء المؤسسين البعيدة. فلقد تطور الجنوب نحو الخارج وانفجر إلى شظايا كقنبلة.

وفي الواقع فاننا في عملية التكامل الحالية لا نستعيد أصولنا من جديد كما اننا لسنا أكثر قربا من أهدافنا. وقد تنبا بوليفار نبوءة ثاقبة بأنه يبدو أن العناية الإلهية قد ارسلت الولايات المتحدة لابتلاء أمريكا

اللاتينية بالكوارث باسم الحرية. لا يجب على شركة جنرال موتورز أو شركة أي بي أم أن تتكرم علينا بلعب دورنا وترفع اعلام الوحدة والتحرر القديمة التي سقطت في ساحات القتال، كما أنه لا يمكن اليوم لخونة الابطال الذين غُدر بهم أمس أن يفدوا تضحياتهم. فهناك حمل ثقيل من العفونة لا بد من طمره في قعر البحر أثناء إعادة بناء أمريكا اللاتينية. والمهمة منوطة بالمحرومين والمهانين والملعونين. فالقضية الأمريكية اللاتينية هي قضية اجتماعية بالدرجة الأولى، ولكي تولد أمريكا اللاتينية من جديد، فيجب البدء بالإطاحة بسادتها، بلدا بلدا. اننا ندخل ازمنة جديدة من التمرد والتغيير. وهناك من يعتقدون أن المصير يتكئ على ركب الالهة، لكن الحقيقة هي أن المصير هو تحدي متقد في ضمائر البشر.

مونتيفيديو، نهاية عام ١٩٧٠

بعد سبع سنوات

١ ـ لقد مضت سبع سنوات منذ أن تم نشر الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية للمرة الأولى. لقد كتبت هذا الكتاب من أجل التحاور مع الناس. كاتب غير متخصص يوجه حديثه إلى جمهور غير متخصص، بغرض النقاش حول نقاش حقائق معينة يخفيها أو يذكرها التاريخ الرسمي، التاريخ الذي يكتبه المنتصرون.

لم تات أكثر الاستجابات تشجيعا من الصفحات الأدبية في الصحف، وإنما من بعض المشاهد الواقعية في الشارع. فمثلا، تلك الفتاة التي كانت تقرأ هذا الكتاب لجارتها في المقعد وانتهى الأمر بها أن أخذت تقرأ بصوت مرتفع حتى يستمع ركاب الحافلة التي كانت تعبر شارع بوغوتا، أو المراة التي هربت من سانتياغو تشيلي، في أيام المذبحة، بينما كان الكتاب ملفوفا في أقمطة الرضيع، أو ذلك الطالب الذي بقي أسبوعا كاملا يجوب مكتبات شارع كورينتس، في بوينس ايريس، قارئا قسما قسما، متنقلا من مكتبة إلى مكتبة، لأنه لم يكن يمتلك نقودا لشراءه.

وبنفس الطريقة، فلم تكن أفضل التعليقات التي حصل عليها الكتاب من أي ناقد مرموق وإنما من الديكتاتوريات العسكرية التي امتدحته فمنعته. فعلى سبيل المثال، فلا يمكن بيع الشرايين في بلدي، أوروغواي، ولا في تشيلي، وشجبته السلطات في الأرجنتين في

الصحف وفي التلفزيون على أساس أنه أداة لافساد الشباب. وقد قال بلاس دي اوتيرو، "لا يريدون للناس أن ترى ما أكتب، لاني أكتب ما أرى".

أظن أنه ليس ثمة غرور في بهجتي عندما أشاهد، بعد مرور الوقت، بأن الشرايين لم يكن كتابا ابكما.

٢ ـ أنا أعلم أنه قد يبدو تدنيسا للمقدسات أن يخوض هذا المرجع الواسع الانتشار في الاقتصاد السياسي باسلوب رواية حب أو رواية عن القراصنة، لكن علي أن اعترف بانني اعاني عناء شديدا عند قراءة بعض الأعمال القيمّة لبعض علماء الاجتماع، والسياسة، والاقتصاديين، والمؤرخين الذين يكتبون بلغة الألغاز. فليست اللغة العسيرة الهضم هي دائماً الثمن الذي يجب دفعه مقابل عمق الفكرة التي يجب ايصالها. فهي ربما تخفي، في بعض الحالات، عجزا عن التواصل. وأشك أن الملل يخدم، غالبا، لمباركة الفكرة السائدة، أن المعرفة هي حصر على النخبة.

ويحدث شيئاً مشابها، بالمناسبة، بالنسبة لنوع معين من الأدب المناضل الموجه إلى جمهور من المقتنعين. فاللغة التي تكرر بصورة ألية، نفس العبارات الجاهزة، وذات النعوت والصيغ الاستنكارية. ربما تكون هذه الصيغة من الأدب الباروكي أبعد ما يكون عن الثورة كما هي الاباحية أبعد ما تكون عن الاثارة الجنسية.

٣ ـ إن المرء يكتب في محاولة منه على الإجابة عن الاسئلة التي تدور في رأسه، تلك الأفكار التي تقلق منامه، وليكتسب ما يمكن أن يكتبه معنى جماعيا، بشكل ما، عندما تتطابق مع الحاجة الاجتماعية. وقد كتبت الشرايين لكي اعمم أفكار غريبة عنا وتجارب حولنا، قد

تساعد ولو قليلا، بقدر ما، في توضيح التساؤلات التي تلاحقنا منذ الأزل، فهل أمريكا اللاتينية هي اقليلم محكوم عليه بالذل والقر؟ ومن هو الذي حكم عليه؟ هل هي رغبة الالهة، أم ذنب الطبيعة؟ هل هو المناخ، أم الأجناس الوضيعة؟ هل هو الدين، أم العادات؟ اليس من الممكن أن يكون سوء الحظ هذا هو نتاج التاريخ، وهو من عمل الإنسان وبالتالي يمكن أن يتغير من خلال عمل ذات الإنسان؟

تقديس الماضي كان دائماً يبدو لي أن له أثر رجعي. فاليمين يختار الماضي لأنه يفضّل الأموات، عالم ساكن، زمن ساكن. إن ذوي النفوذ، الذين يُضفون الشرعية على امتيازاتهم الموروثة، يزرعون الحنين إلى الماضي. فتجري دراسة التاريخ كما تجري زيارة لمتحف. وما هي هذه المموميات إلا عبارة عن خدعة. انهم يزورون لنا الماضي كما يزورن لنا الحاضر، فهم يضعون قناعا على الحقيقة والواقع. ويجبرون المظلوم على تقمص ذاكرة صنعها الظالم، ذاكرة غريبة عنه، مقطعة، عقيمة. ليصبح لزاما عليه أن يعيش حياة ليست حياته وكانها الحياة الممكنة الوحيدة.

ويبدو الماضي في الشرايين دائماً وقد استحضره الحاضر، كما يبدو كما ولو أنه ذاكرة حية لزمننا. فإن هذا الكتاب هو بحث عن مفاتيح للتاريخ السحيق مسهما في توضيح الزمن الحاضر، الذي يصنع التاريخ أيضاً، على أساس قاعدة أن الشرط الأول لتغيير الواقع هو معرفته تماماً. لا يستعرض ابطال يرتدون ثيابا تنكرية، يقولون قبل أن يموتون في المعركة بعبارات طنانة، بل يتم البحث عن أصوات وآثار الجموع التي تنبئنا بمساراتنا الحالية. يأتي الشرايين من الواقع، لكنه يأتي أيضاً من كتب أخرى، أفضل من هذا الكتاب، كتب كانت قد ساعدتنا على معرفة من نحن، لكي نعرف ماذا يمكننا أن نكون، وسنحت لنا الفرصة

على الخوض أكثر عن من اين ناتي لكي نستطلع بشكل أفضل إلى اين نمضي. يوضح هذا الواقع وهذه الكتب أن التخلف الأمريكي اللاتيني ليس نتيجة لتقدم الاخرين، وأننا، نحن الأمريكيين اللاتينيين فقراء لأن الأرض التي ندوسها هي غنية، وأن الأماكن التي منحتها الطبيعة بالثروات قد لعنها التاريخ. ففي عالمنا، عالم المراكز القوية والأطراف الخاضعة، على الاقل، ليس هناك ثروة لا تثير الشك.

٤ ـ خلال الوقت الذي مر منذ طباعة الشرايين في لأول مرة فلم يكف التاريخ عن أن يكون معلما شديدا.

لقد ضاعف النظام من الجوع والخوف، وواصلت الثروة تمركزها والفقر انتشاره. هذا ما تعترف به وثائق المؤسسات الدولية المتخصصة، حيث تصف بلادنا المقهورة، بلغة معقّمة، بانها بلاد على طريق النمو وتصف الافقار للطبقة العاملة الذي لا هوادة فيه بأنه إعادة توزيع للدخل. واستمرت العملية الدولية بالعمل، فالبلاد في خدمة التجارة، والإنسان في خدمة الاشياء.

ومع مرور الوقت، اخذت تشق طريقها إلى إلى تصدير الأزمات. ليبلغ رأس المال الاحتكاري أقصى درجات التمركز والسيطرة الدولية على الاسواق، والقروض، والاستثمارات، ويصبح نقل التناقضات المنجي والمتزايد عاملا أساسيا، فتدفع الأطراف ثمن رفاهية المراكز، دون أي مقاومة تذكر.

وتبقى السوق الدولية أحد أهم المفاتيح لهذه العملية. حيث تمارس الشركات المتعددة الجنسية ديكتاتوريتها ـ وهي شركات عابرة للقومية، كما يقول سويزي، كونها تعمل في بلدان عديدة، ولكنها قومية جدا في بلادها وأماكن تواجدها. والتنظيم الدولية لا تغيرّه حقيقة أن البرازيل

تصدر اليوم، مثلا، سيارات فولكس فاغن إلى غيرها من بلدان أمريكا اللاتينية وإلى اسواق أخرى في افريقيا والشرق الاوسط. فشركة فولكس فاغن الالمانية هي من كان قد قرر، في نهاية الأمر، أنه من الانسب تصدير السيارات إلى اسواق معينة من فرعها في البرازيل، حيث تكاليف الإنتاج منخفضة، والأيدي العاملة رخيصة وهما برازيليتيان، أما الأرباح العالية فتذهب إلى ألمانيا.

ولا يتمزق قميص المجانين بفعل سحري عندما تنجح مادة أولية محددة بالافلات من لعنة الأسعار المنخفضة. كان هذا شان البترول انطلاقا من عام ١٩٧٣. إلا إذا لم يكن البترول تجارة عالمية؟ هل هي شركات عربية أو أمريكية لاتينية الستاندارد اويل في نيو جيرسي، والتي تسمى اليوم ايكسون، أو الرويال دتش شيل أو الغولف؟ من الذي يحظى بنصيب الأسد؟ ومن جانب اخر، كانت موحية تلك الضجة التي ثارت ضد البلدان المنتجة للبترول، التي استطاعت التجاسر على الدفاع عن الأسعار وتحولت فجأة إلى كبش فداء للتضخم والبطالة العمالية في أوروبا والولايات المتحدة. وهل استشارت الدول المتقدمة احدا، ذات مرة، قبل أن يتم رفع سعر أي منتج من منتجاتها؟ فسعر البترول ينخفض المرة تلو الأخرى منذ عشرين عاما. وقد أصبح سعرة الأساسي دعما ضخما للمراكز الصناعية العالمية الكبرى، التي اخذت منتجاتها، بالمقابل، ترتفع في السعر. أما بالنسبة للارتفاع المتواصل في أسعار المنتجات الأوروبية والأمريكية، لم يفعل السعر الجديد للبترول سوى العودة إلى مستويات عام ١٩٥٢. لقد استعاد البترول الخام، ببساطة، قدرته الشرائية التي كان يحظى بها منذ عقدين من الزمن.

٥ ـ كان تأميم البترول هو أحد أهم الأحداث التي جرت خلال السنوات الأخيرة في فنزويلا. لم يكسر التاميم تبعية فنزويلا بما يخص

التكرير والتسويق، لكنه فتح مجالا جديداً للاستقلال. فاحتلت الشركة الحكومية بترول فنزويلا، بعد مولدها بقليل، المرتبة الأولى بين أهم خمسمائة شركة في أمريكا اللاتينية. واخذت في البحث عن اسواق جديدة إضافة إلى الاسواق التقليلدة وسرعان ما كسبت بتروفن خمسين عميلا جديداً.

وكالمعتاد، عندما تصبح الدولة مالكة للثروة الأساسية في بلد من البلدان، فإنه لا بد لنا من التساؤل من هو مالك هذه الدولة. فلا يتضمن تاميم الموارد الأساسية، بحد ذاته، إعادة توزيع الدخل لصالح الاغلبية، كذلك لا يهدد، بالضرروة، أي سلطة ولا امتيازات الأقلية المسيطرة. ويواصل اقتصاد فنزويلا عمله. وتظهر في مركزه، طبقة اجتماعية مبذرة ومالكة للملايين. وقد زادت الواردات، في عام ١٩٧٦، بنسبة خمسة وعشرين بالمائة، لتمويل الكماليات بدرجة عالية والتي تتدفق على السوق الفنزويلية. وقد تقلص الوجود الإنساني علاقات منافسة واستهلاك، في خضم بحر من التخلف حيث تمارس أقلية محظوظة نمط حياة أغنى أغنياء المجتمعات الأكثر تطورا في العالم، فتصبح السلع الطبيعية، في ضجيج كاراكاس، مثلها مثل نيويورك، الهواء والضوء، والسكون اغلى واندر بشكل مستمر. وينبه خوان بابلو بيرث الفونسو، بطريرك القومية الفنزويلية، حول البترول، "حذار، فيمكن الموت من عسر الهضم، كما يمكن الموت من الجوع.

٦ ـ انتهيت من كتابة الشرايين في الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٠.

وتوفي خوان بيلاسكو البارادو في الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٧ على طاولة العمليات. وحملت نعشه على الاكتاف أكبر حشد من الجماهير شهدته شوارع ليما في تاريخها. كان الجنرال بيلاسكو البارادو، الذي

كان قد ولد في بيت متواضع في الأراضي الجافة في شمال البيرو، قد تزعم عملية إصلاحات اجتماعية واقتصادية. وكانت تلك هي محاولة التغيير الاعمق والاشد نطاقا في تاريخ البلاد المعاصر. وبدءا من انتفاضة عام ١٩٦٨، كانت الحكومة العسكرية قد نفذت إصلاحا زراعيا حقيقيا واخذت بفتح الطريق أمام استعادة الموارد الطبيعية التي استولى رأس المال الأجنبي عليها. ولكن مع وفاة بيلاسكو البارادو، كان قد شيع أيضاً جنازة الثورة. فلقد كانت العملية الخلاقة قصيرة العمر، وكانت نهايتها بأن تم خنقها من خلال ابتزاز المقرضين والتجار والهشاشة الموجودة في كل مشروع سلطوي ابوي وبدون قاعدة شعبية.

وبينما كان قلب بيلاسكو البارادو يخفق لآخر مرة، في عشية أعياد الميلاد في عام ١٩٧٧، كان هناك جنرال آخر، في بوليفيا، لا يشبهه في شيء كان قد أصدر قرارا بعدم العفو عن السجناء، المنفيون، والعمال المفصولين. وقد قامت أربع نساء وأربعة عشر طفلا، وصلوا إلى لاباث من مناجم القصدير، قاموا باضراب عن الطعام.

العارفون أصروا بانها ليست اللحظة المناسبة، سنبلغكن حين... وجلست النساء القرفصاء على الأرض.

إننا لا نستشيركم. إننا نعلمكم. فلقد اتخذنا القرار. هناك في المنجم، ثمة إضراب دائم عن الطعام. ما أن نولد يبدأ الإضراب عن الطعام. هناك أيضاً، سنموت. بشكل أبطأ، ولكن سنموت في كل الاحوال.

وكان رد الحكومة بالعقاب والتهديد. لكن الإضراب عن الطعام أطلق عنان قوى مكبوتة منذ زمن طويل. كشرت بوليفيا باكملها عن أسنانها. ولم يكن المضربون، بعد عشرة أيام، أربع نساء وأربعة عشر

طفلا، فقد بدأ ألف وأربعمائة عامل وطالب الإضراب عن الطعام. وشعرت الدكتاتورية أن الأرض تنشق تحت أقدامها. لتصدر العفو العام.

وعبرت دولتان من بلدان الأنديز الحدود بينهما فيما بين عام ١٩٧٧ و١٩٧٨، وكانت إلى الشمال، في الكاريبي، بنما تنتظر تحقيق الوعد بانهاء الوضع الاستعماري للقناة، في نهاية مفاوضات شاقة مع الحكومة الجديدة للولايات المتحدة، وفي كوبا، كان الشعب في حالة عيد، كانت الثورة الاشتراكية تحتفل، وهي سليمة ولم تمس، في أول تسعة عشر عاما من حياتها. وبعد أيام قليلة، اندفعت في نيكاراغوا الجماهير إلى الشوارع غاضبة. وصار الدكتاتور سوموثا، ابن الدكتاتور يتلصص من خلال ثقب المفتاح. وأشغل الغضب الشعبي عدة شركات. واحداها كانت تسمى بلازمافيرسيس، وكانت متخصصة في مص الدماء. فلقد كانت بلازمافبرسيس، التي اكلتها النيران في بدايات عام ١٩٧٨، ملكية لمنفيين كوبيين وتعمل على بيع الدم النيكاراغوي إلى الولايات المتحدة. وفي تجارة الدم كما في أي تجارة، (لا يتلقى المنتج سوى الفتات، فشركة هيمو كاريبيان تدفع مثلا للهايتيين ثلاثة دولارات مقابل كل لتر لتعيد بيعه بخمسة وعشرين دولاراً في اسواق الولايات المتحدة).

٧ ـ نشر اورلاندو ليتيلير في آب عام ١٩٧٦ مقالا يعبر فيه عن أن رعب دكتاتورية بينوشيه والحرية الاقتصادية لمجموعات القلة المتميزة هما وجهان لعملة واحدة. ليتلير الذي كان وزيرا في حكومة سلفادور الليندي، منفيا في الولايات المتحدة. ليتحول إلى اشلاء متطايرة هناك بعد وقت قصير. وكان قد اصر في مقالة على أنه يبدو من العبث التكلم عن منافسة حرة في اقتصاد مثل اقتصاد تشيلي، خاضع لاحتكارات تتلاعب بالأسعار كما يروق لها، وأنه من المضحك الحديث عن حقوق العمال في بلد تحرم فيها القوانين النقابات الأصيلة وتحدد فيها الأسعار

مراسيم الطغمة العسكرية. وكان ايتيليير قد وصف التفكيك اشامل للمنجزات التي حققها الشعب التشيلي خلال حكومة الوحدة الشعبية. فمن بين الاحتكارات الأوليغاركية الصناعية التي أممها سلفادور الليندي، أعادت الدكتاتورية النصف إلى الملاك القدامى وباعت النصف الآخر. اشترت شركة فايرستون الشركة القومية للارات، واشترت بارسونز اند وايتيمور شركة كبيرة للورق... "ان الاقتصاد التيشلي الآن أكثر تركزا واحتكارا منه عشية حكومة الليندي". حسب ليتليير. تجارة حرة أكثر من أي وقت مضى. سجناء أكثر من أي وقت مضى، ونجد أن حرية الشركات لا تتمشى مع الحريات العامة في أمريكا اللاتينية.

حرية تجارة؟ أن التجارة حرة منذ بدايات عام ١٩٧٥ في تشيلي، فمثلا هناك شركتان تسيطران على سوق الحليب، مما جعل سعر هذه المادة يرتفع بشكل مضطرد بالنسبة للمستهلكين بنسبة ٤٠ في المائة، بينما كان السعر ينخفض في مواد أخرى بنسبة ٢٢ في المائة.

وبالنسبة لوفيات الأطفال التي كانت قد انخفضت بدرجة كبيرة أثناء فترة حكم حكومة الوحدة الشبعية، فقد تزايدت بصورة رهيبة بدءا من حكم بينوشيه. وحين تم اغتيال ليتيليير في أحد شوارع واشنطن، كان ربع سكان تشيلي لا يتلقون أي دخل على الإطلاق ويبقون على قيد الحياة بفضل تبرعات الآخرين أو بسبب عنادهم وسرقتهم هم أنفسهم.

إن الهوة الموجودة في أمريكا اللاتينية بين رفاهية القلة وشقاء الأكثرية تفوق بما لا يمكن قياسه في أوروبا أو الولايات المتحدة. وبالتالي، فإن الوسائل الضرورية للحفاظ على هذه المسافة أكثر وحشية بكثير. فيوجد لدى البرازيل جيش ضخم وكامل التجهيز، لكن تخصص البرازيل لنفقات التعليم خمسة في المائة من الميزانية القومية. وتمتص

القوات المسلحة والشرطة في الأوروغواي نصف الميزانية، لتكون مهمة خمس السكان مراقبة وتعقب الباقون.

مما لا شك فيه، فإن أحد أهم الأحداث في عقد السبعينات في بلادنا، كان مأساة التمرد العسكري الذي اطاح بالحكومة الديمقراطية لسلفادور الليندي في يوم ١١ ايلول عام ١٩٧٣، ليتسبب في اغراق تشيلي في حمام من الدم.

وحل انقلاب في أوروغواي، وكان ذلك قبلها بقليل، في تموز، واخرج خارج القانون كافة النقابات وحظر كل ما يتعلق بالنشاط السياسي.

وفي اذار من عام ١٩٧٦، عاد الجنرالات الأرجنتينيون إلى السلطة، فانهارت حكومة ارملة خوان دومينغو بيرون، التي كانت قد انتهى الأمر بها إلى التعفن، دون أي مجد أو جهد.

أما اليوم، فإن بلدان الجنوب الثلاثة هي عبارة عن قرحة في جسد العالم، هي عبارة عن خبر سيء متواصل، فتحول التعذيب والاختفطافات، والاغتيالات والنفي إلى عادة يومية. هل تعتبر هذه الدكتاتوريات اورام يجب استئصالها من أجهزة عضوية سليمة أم هي الصديد الذي يشي عن تلوث النسق؟

أظن أن هناك علاقة ويقة دائماً بين كثافة الخطر وبين وحشية الاستجابات. ولا يمكن حسب ما أظن، أن نفهم ما يجري اليوم في البرازيل وفي بوليفيا دون أن نضع في عين الاعتبار تجربة أنظمة جواو اغولارت وخوان خوسية توريس. قبل أن يسقطا، كانت هاتان الحكومتان قد طبقتا مجموعة من الاصلاحات الاجتماعية وطورتا سياسة اقتصادية وطنية، عبر عملية تطور كانت قد قعطت في عام ١٩٦٤ في

البرازيل وفي عام ١٩٧١ في بوليفيا. وعلى نفس الشاكلة، يمكن القول ذات الشيء في تشيلي، الأرجنتين والأوروغواي. إن دورة التحولات العميقة أثناء فترة حكومة الليندي، ورايات العدالة التي استنفرت الجماهير العمالية الأرجنتينية وخفقت عاليا خلال الفترة القصيرة لحكم هيكتور كامبورا في عام ١٩٧٣ وتسييس الشارع المتسارعة لشبيبة أوروغواي، كانت كلها تحديات لم يكن بامكان نظام عاجز في أزمة أن يتحملها. لقد كان أوكسجين الحرية العنيف قاتلا بالنسبة للاشباح فتم استدعاء الحرس البريتوري لانقاذ النظام. إن خطة التنظيف هي خطة للابادة.

٨ ـ تسجل عادة محاضر جلسان كونغرس الولايات المتحدة شهادات لا يمكن دخضها حول التدخلات في أمريكا اللاتينية. فالضمائر التي تشعر بالتأنيب تفرّغ عن ذنوبها في سجلات اعترافات الامبراطورية. ولقد تضاعفت خلال الفترة الأخيرة، مثلا، الاقرارات الرسمية بمسئولية الولايات المتحدة عن عدة كوارث. فقد اثبتت اعترافات علنية مسهبة، أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد شاركت وبشكل مباشر، من خلال الرشوة والتجسس والابتزاز في السياسة التشيلية، وخلطت في واشنطن استراتيجية الجريمة. وكان كيسنجر منذ عام ١٩٧٠ قد اعد بجانب ادارات المعلومات بعناية اسقاط الليندي. وتم توزيع ملايين الدولارات على اعداء الحكومة الشرعية الموحدة الشعبية. وتمكن، مثلا، أصحاب عربان النقل على مواصلة اضرابهم الطويل، واستطاعوا في عام ١٩٧٣ على شل جزء كبير من اقتصاد البلاد. إن التأكد من الإفلات من العقاب يفك عقدة الالسنة. وكانت سفارة الولايات المتحدة في البرازيل أيام الانقلاب ضد غولارت وهي أكبر سفاراتها في العالم. وقد اعترف لينكولن غوردون، الذي كان سفيرا، أمام أحد الصحفيين

بعد ثلاثة عشر عاماً، بأنه قبل الانقلاب بزمن كانت حكومته قد مولت القوى المعأرضة للإصلاحات. وقال غوردون:

"لقد كانت تلك عادة، بشكل أو بآخر، في تلك الحقبة... فقد كانت إحدى عادات وكالة المخابرات المركزية أن تحصل على أرصدة سياسية. وفي ذات الحديث، اوضح غوردون أن البنتاغون كان قد ارسل حاملة طائرات ضخمة وأربع مدمرات تجاه سواحل البرازيل أيام الانقلاب، فلربما طلبت القوى المتقاتلة مع غولارت العون. إن هذا العون، كما قال، "لن يكون معنويا، بل سوف نمنح كافة المساعدات ونمدهم بكافة الامدادات بالمؤن والذخائر والبترول".

ومنذ أن بدأ الرئيس جيمي كارتر سياسة حقوق الإنسان، فقد أصبح من المألوف أن تصدر أنظمة أمريكا اللاتينية بيانات ملتهبة ضد التدخل الأمريكي الشمالي في شئونها الداخلية.

وكان كونغرس الولايات المتحدة قد قرر بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧ وقف المعونة الاقتصادية والعسكرية لعدة بلدان. إلا أن الجزء الأكبر من المساعدات الخارجية للولايات المتحدة لم يكن يمر من خلال مصفاة الكونغرس. وبالرغم من البيانات والقرارات والاحتجاجات، فقد تلقى نظام الجنرال بينوشيه خلال عام ١٩٧٦ مبلغ وقدره ٢٩٠ مليون دولار عبارة عن مساعدة مباشرة من الولايات المتحدة دون ترخيص من الكونغرس. وحين اكملت دكتاتورية الجنرال بيديلا عامها الأول في الأرجنتين كانت قد تلقت خمسمائة مليون دولار من بنوك أمريكية شمالية خاصة و٤١٥ مليون من مؤسستين هما البنك الدولي وبنك التنمية الدولي، حيث تتمتع فيهما الولايات المتحدة بنفوذ قاطع. أما حقوق السحب الخاصة للارجنتين من صندوق النقد الدولي، والتي

كانت ٦٤ مليون دولار عام ١٩٧٥، فقد أصبحت سبعمائة مليون بعد عامين.

وكان يبدو أن قلق الرئيس كارتر حول المذبحة التي تعاني منها بعض البلدان الأمريكية اللاتينية امرا جديرا بالاحترام، لكن الدكتاتوريين العالميين لم يلعموا انفسهم، فقد تلعموا أساليب القمع وفن الحكم على مناهج النتاغون في الولايات المتحدة وفي منطقة قناة بنما. وما زالت هذه الاساليب مستمرة إلى أيامنا ولم تغير محتواها في شئ. وكان العسكريين الأمريكيين الاتين الذين يشكلون أسبابا للفضيحة بالنسبة للولايات المتحدة اليوم، كانوا تلاميذا جيدين. وكان منذ بضع سنوات، حين كان روبيرت مكنمارا، الرئيس الحالي للبنك الدولي، وزيرا للدفاع، أعلنها بوضوح، "إنهم الزعماء الجدد. وليس هناك حاجة للإسهاب في شرح أهمية أن يكون في هناك رجال قد عرفوا مسبقا وعن قرب في مواقع القيادة وأن يعرفون كيف نفكر نحن الأمريكيين وكيف نصنع الاشياء. إن صداقتنا مع هؤلاء الرجال لا تقدر بثمن.

هل يستطيع من جعلونا مشلولين أن يقدموا لنا كرسي الجلات؟

٩ ـ أساقفة فرنسا يتحدثون عن نوع آخر من المسؤولية، أشد عمقا، وأقل وضوحا. "إننا، البشر الذين ننتمي إلى الأمم التي تدعي أنها أكثر الأمم تقدما في العالم، نشكل جزءا من المستفيدين من استغلال البلدان النامية. ولا نشاهد المعاناة التي يسببها في جسد وروح شعوب باكملها. إننا نسهم في تدعيم انقسام العالم المعاصر، الذي يبرز فيه إخضاع الفقراء من طرف الأغنياء، والضعفاء من طرف الاقوياء. هل نعلم أن تبديدنا للموارد وللمواد الأولية لن يكون ممكناً دون السيطرة على التبادل التجاري من طرف البلدان الغربية؟ هل نعي أن عسكرة أنظمة

الدول الفقيرة هي إحدى عواقب السيطرة الاقتصادية والثقافية التي تمارسها الدول الصناعية، حيث تتحكم فيها السعي إلى المكاسب وسلطات المال.

دكتاتوريات، جلادون، ومحققون، الرعب له موظفون مثله مثل البريد والبنوك. ويطبّق لأنه ضروري. وليس الموضوع مسألة مؤامرة للمنحرفين. بامكان الجنرال بينوشيه أن يشبه إحدى شخصيات الرسوم السوداء لغويا، أو أن يمثل وليمة يسعد بها المحللون النفسيون، أو أن يبدو وريثا لاحد التقاليد المرعبة لجمهوريات الموز. لكن المواصفات الاكلينيكية أو الفولكلورية لهذا الدكتاتور أو ذاك، والتي تنفع في إضفاء بعض التوابل إلى التاريخ، ليست هي التاريخ. فمن يجرؤ اليوم على تاكيد أن الحرب العالمية الأولى اندلعت بسبب عُقد القصير غليوم، حيث كان إحدى ذراعيه اطول من الاخر؟ كتب برتولد بريخت في أواخر عام ١٩٤٠، في يوميات العمل، "لا ينكشف طابع العنف القابع في الاقتصاد في الدول الديمقراطية، ويحدث ذات الشيء في البلدان المتسلطة بالنسبة للطابع الاقتصادي للعنف".

استولى القواد العسكريون في دول جنوبي أمريكا اللاتينية على السلطة بسبب احتاج النظام ويطبق إرهاب الدولة حين لا تعود الطبقات المسيطرة قادرة على إنجاز أعمالها بوسائل أخرى. وما كان للتعذيب في بلادنا ليوجد لو لم يكن فعالا، وكان بإمكان الديمقراطية الشكلية أن تستمر لو كان بامكانها ضمان أنها لن تفلت من سيطرة أصحاب السلطة. وتتحول الديمقراطية في الأوقات العصيبة إلى جريمة ضد الأمن القومي، أو بالأحرى، ضد امتيازات الدولة الداخلي والاستثمارات الأجنبية. إن ماكيناتنا لفرم اللحم البشري تأخذ طابعاً دولياً. ويصبغ الطابع العسكري المجتمع بأسره، وتصبح حالة الطوارئ حالة دائمة

ويصبح جهاز القمع مهيمنا نتيجة ضغط على الأزرار في مراكز النظام الإمبريالي. وحين يخيم شبح الأزمة، يصبح من الضروري مضاعفة نهب البلدان الفقيرة من أجل ضمان التشغيل الكامل لقوة العمل الكلية، والحريات العامة، ومعدلات النمو العالية في البلدان الغنية. إن العلاقة بين الضحية والجلاد، هي ذات جدل شرير، فثمة بنية من الإذلال المتصل تبدأ في الاسواق الدولية والمراكز المصرفية وتنتهي في بيت كل مواطن.

١٠ ـ تعتبر هاييتي من أفقر بلدان نصف الكرة الغربي. ويوجد فيها غاسلو اقدام أكثر من ماسحي الاحذية، وغاسلو الاقدام هم أطفال يغسلون الاقدام، مقابل قطعة معدنية. ويعتبر متوسط عمر الهايتيين أكثر قليلاً من ثلاثين سنة. وتسعة من كل عشرة هايتيين لا يعرفون القراءة أو الكتابة. ويزرعون حواف الجبال القاحلة من أجل الاستهلاك المحلي، ويزرعون السهول الخصبة من أجل التصدير، فتخصص أفضل الأراضي للبن والسكر والكاكاو، والمنتجات الأخرى التي تتطلبها السوق الأمريكية الشمالية. ولا يوجد من يلعب البيسبول في هايتي، لكن وللمفارقة، هي المنتج العالمي الأول لكرات البيسبول. ويعمل الأطفال مقابل دولار واحد في اليوم في تركيب أجهزة الكاسيت والقطع الإلكترونية. وهي منتجات للتصدير بالطبع. وتصدّر الأرباح أيضاً بالطبع بعد خصم نصيب من ينسرون الرعب. وأقل إشارة احتجاج تتضمن، في هاييتي، السجن أو الموت. وبرغم شناعة ما يبدو هذا الأمر، إلا أن أجور العمال الهايتيين كانت قد فقدت، فيما بين عام ١٩٧١ و١٩٧٥، ربع قيمتها الفعلية البالغة الانخفاض. ومما له دلالة كبيرة، أنه خلال تلك الفترة دخل فيض هائل من رؤوس الأموال الأمريكية الشمالية إلى البلاد.

وأذكر مقالة افتتاحية في إحدى صحف بوينس ايريس، نشرت منذ عامين، كانت صحفية محافظة اشتغلت غضبا لأن كان قد اظهرت إحدى الوثائق الدولية الأرجنتين باعتبارها بلدا متخلفا وتابعا. فكيف يمكن لمجتمع راقي، أوروبي، متطور، وأبيض أن يتبع لنفس معايير القياس لبلد فقير وزنجي كهاييتي؟

لا شك، أن الفروق شاسعة، رغم أنها ضعيفة الصلة بتحليلات الأوليغاركية المتغطرسة في بوينس ايريس. لكن بالرغم من كافة التناقضات، فالأرجنتين ليست بمأمن من الحبل الشرير الذي يخنق الاقتصاد الأمريكي اللاتيني بمجمله وما من جهد ذهني لطرد الأشباح يمكن أن يخرجها من الواقع الذي تتشارك به مع بقية بلدان الاقليم، زادت أو نقصت.

وليست مذابح الجنرال فيديلا، في نهاية المطاف، أكثر تحضرا من مذابح بابا دوك دوفالييه. وحول ما هو جوهري، فإن كلتي الدكتاتوريتين تعملان في خدمة نفس الهدف، تقديم أيدي رخيصة لسوق دولية بحاجة لمنتجات رخيصة.

فلقد سارعت دكتاتورية فيديلا فور وصولها إلى السلطة على منع الاضرابات وأطلقت حرية الأسعار في نفس الوقت الذي حددت فيه الأجور. وفرق القانون الجديد للاستثمارات الأجنبية المساواة في الشروط بين الشركات الأجنبية والشركات القومية بعد خمسة أشهر من الانقلاب. وعلى هذا الأساس، أنهت المنافسة الحرة الوضع الجائر الذي كانت بعض الشركات العابرة للقوميات تجد نفسها فيه أمام الشركات المحلية. ومنها، شركة جنرال موتورز المسكينة، الذي يساوي حجم مبيعاتها الدولية ما لا يقل عن صافي الناتج القومي للارجنتين

بأكلمها. كما أن هناك حرية إعادة سحب الأرباح إلى الخارج واستعادة رأس المال المستثمر.

وعندما أتم النظام عامه الأول، "كان قد تم تخفيض قيمة الأجور بنسبة ٤٠ في المائة. وكان قد تم تحقق الأمر بالتخويف. خمسة عشر ألف مفقود، وعشرة آلاف سجين، وأربعة آلاف قتيل، وعشرات الآلاف من المنفيين هم الرقم العاري لهذا الرعب" هذا ما ذكره الكاتب رودولفو والش في رسالة مفتوحة. كان قد أرسل الرسالة في يوم ٢٩ آذار في العام ١٩٧٧ إلى أعضاء العصبة الحاكمة الثلاثة. وقد تم خطف والش واختفى في ذات اليوم.

١١ ـ تشير مصادر مؤكدة إلى أن جزءا جد بسيط من الاستثمارات الأجنبية المباشرة الجديدة في أمريكا اللاتينية ياتي فعلا من بلد المنبع. فحسب استقصاء نشرته وزارة التجارة بالولايات المتحدة، ياتي اثني عشر بالمائة بالكاد من الأموال من الفروع الرئيسية للشركات في الولايات المتحدة وتمثل نسبة ٢٢ بالمئة الأرباح المحصلة في أمريكا اللاتينية وتاتي نسبة ال ٦٦ بالمائة الباقية من مصادر الإقراض الداخلي، وبالدرجة الأولى، من الإقراض الدولي. والنسبة متساوية بالنسبة للاستثمارات ذات المصدر الأوروبي أو الياباني، ولا بد من الانتباه إلى أن هذه الاثنى عشر بالمائة من الاستثمار التي تاتي من الفروع الرئيسية عادة ما تكون نتيجة نقل آلات متسعملة وتعكس السعر التعسفي الذي تفرضه الشركات ثمنا لخبرتها الفنية الصناعية، وللماركات المسجلة، والتراخيص. لا تغتصب الشركات العابرة للقوميات إذن، الائتمان الداخلي لهذه الدول، فحسب، بل إنها تضاعف الدين الخارجي لهذه البلدان.

لقد كان الدين الخارجي لأمريكا اللاتينية، في عام ١٩٧٥، بحوالي ثلاثة أضعاف هذا الدين عام ١٩٦٩. وخصصت البرازيل، والمسكيك، وتشيلي، واورغواي، في عام ١٩٧٥، بحوالي نصف دخول التصدير لدفع أقساط وفوائد الدين ولدفع أرباح الشركات الأجنبية العاملة في تلك الدول. وكانت قد ابتلعت خدمة الدين ودفعات الفوائد في ذلك العام نسبة ٥٥ بالمائة من صادرات بنما و٦٠ بالمائة من صادرات البيرو. وكان كل مواطن في بوليفيا، في عام ١٩٦٩، مدينا بمبلغ ٤٨٣ دولاراً. ولم تتم بالطبع استشارة مواطني بوليفيا ولم يروا سنتيما واحداً من تلك القروض التي وضعت رقابهم في المشنقة.

لا يظهر السيتي بنك كمرشح على أي قائمة، في البلدان الأمريكية اللاتينية القليلة التي ما زالت تجري فيها انتخابات، ولا يحمل أي من الجنرالات الذين يمارسون الدكتاتورية اسم صندوق النقد الدولي. لكن من هي اليد التي تنقذ وأي ضمير هو الذي يوجه الأوامر؟ يجب تصدير المزيد لتمويل الورادات ولمواجهة نزيف الأرباح ورسوم التراخيص التي تستنزفها الشركات الأجنبية إلى فروعها الرئيسية. وزيادة الصادرات، التي تتناقص قدرتها الشراية، يتضمن دفع أجور تجويع. والجوع الشامل، هو مفتاح النجاح لاقتصاد موجه إلى الخارج، يمنع نمو سوق الاستهلاك الداخلية إلى الحد المطلوب لاتاحة تنمية داخلية متجانسة. فتتحول بلادنا إلى أصداء وتأخذ في فقدان صوتها الخامس. لأنها تعتمد على الاخرين، وتوجد بقدر ما تكون استجابة لاحتياجات الاخرين. وإعادة ترتيب الاقتصاد حسب الطلب الخارجي، بدوره، يعيدنا إلى الاختناق الأصلي، فهو يفتح الأبواب أمام نهب الاحتكارات الأجنبية ويفرض طلب القروض الجديدة بشكل أكبر من البنوك الدولية. إن الحلقة الشريرة مغلقة تماماً، فيجبر الدين الخارجي والاستثمار الأجنبي على مضاعفة

الصادرات التي يلتهمانها. ولا يمكن إنجاز المهمة إلا بشهادة حسن سلوك. وحتى يقوم العمال الأمريكيون اللاتين بوظيفتهم كرهائن لرفاهية الآخرين، فعليهم أن يبقوا سجناء داخل أو خارج القضبان.

١٢ ـ ولا يتعارض الاستغلال الوحشي للأيدي العاملة مع التكنولوجيا المكثفة. ولم يتعارض أبدا، في بلادنا، فعلى سبيل المثال، فإن أفواج العمال البوليفيين، الذين خلفوا رئاتهم في مناجم أورورو، في زمن سيمون باتينيو، كانوا يعملون بنظام عبودية مأجورة لكن بآلات حديثة تماماً. فقد عرف بارون القصدير كيف يجمع بين أعلى مستويات التكنولوجيا في عصره وبين أدنى مستويات الأجور.

في أيامنا يتطابق استيراد التكنولوجيا، علاوة على ذكل، من الاقتصاديات المتقدمة مع عملية نزع ملكية الشركات الصناعية ذات رأس المال المحلي من جانب الشركات العابرة للقوميات القادرة على كل شئ. وتتحقق حركة تركيز رأس المال من خلال تصفية لا ترحم للمستويات الصناعية العتيقة، والتي ليس من قبيل الصدفة أن تكون هي بالضبط تلك التابعة للملكية القومية. إن نزع القومية المتسارع عن الصناعة الأمريكية اللاتينية يجلب معه تبعية تكنولوجية متزايدة، فالتكنولوجيا، هي المفتاح الحاسم للسلطة، محتكرة، في العالم الرأسمالي، من طرف المراكز المتروبوليتانية. وتاتي التكنولوجيا مستعملة، لكن تتقاضى تلك المراكز ثمن النسخ وكأنها صور أصلية. وكانت المكسيك قد دفعت في عام ١٩٧٠ ضعف ما دفعته في عام ١٩٦٨ مقابل استيراد تكنولوجيا أجنبية. وضاعفت البرازيل مدفوعاتها ما بين عامي ١٩٦٥ و١٩٦٩ وحدث نفس الشيء في نفس الفترة مع الأرجنتين.

إن نقل التكنولوجيا يزيد الديون المتضخمة للخارج وله عواقب مدمرة على سوق العمل. فيقوم نظام العمل على أساس استنزاف الأرباح إلى الخارج، فتاخد الأيدي العاملة في الشركة النمطية فرص عملها. ومقابل دافع دينامي مشكوك فيه لبقية الاقتصاد. تضحي جزر الصناعة الحديثة بالأيدي العاملة بتخفيض وقت العمل اللازم للإنتاج. ووجود جيش مهول ومتزايد من العاطلين يسهل بدوره اغتيال القيمة الفعلية للأجور.

١٣ ـ وتتحدث الآن وثائق اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية عن إعادة تقسيم دولية للعمل. فيخالج التقنيين الأمل في أنه لربما استطاعت أمريكا اللاتينية بعد بضع سنوات من تصدير مصنوعات بنفس النسبة التي تبيع فيها الآن المواد الأولية والأغذية للخارج. "إن الفروق في الأجور بين الدول المتطورة والدول النامية، بما في ذلك دول أمريكا اللاتينية، يمكن أن يكون حافز لتقسيم جديد للانشطة بين البلدان وتزيح بسبب المنافسة، الصناعات التي تكون فيها تكلفة العمل بالغة الاهمية، من البلدان الأولى إلى الثانية. فإن تكاليف اليد العاملة اللأزمة للصناعة هي على وجه العموم أقل في المكسيك أو البرازيل مما هي عليه في الولايات المتحدة.

هل هذا هو دافع للتقدم أم هو مغامرة استعمارية جديدة؟ تظهر الآلات الكهربائية وغير الكهربائية بين منتجات التصدير الأساسية للمكسيك. وتنمو في البرازيل مبيعات السيارات والأسلحة للخارج. وتعيش بعض دول أمريكا اللاتينية مرحلة جديدة من مراحل التصنيع، تدفعها وتوجهها بدرجة كبيرة الاحتياجات الأجنبية والملاك الاجانب لوسائل الإنتاج. واتساءل أن كان هذا فصلا جديداً يضاف إلى تاريخنا الطويل من "النمو نحو الخارج؟" في الاسواق الدولية، حيث لا ترتفع

الأسعار بشكل مستمر أساساً في المنتجات المصنعة، بل ترتفع أسعار السلع الأكثر تطورا وذات المكون التكنولوجي، والتي هي حكر على الاقتصاديات الأكثر تطورا. إن الناتج الأساسي للتصدير في أمريكا اللاتينية، مهما استطاعت بيع مواد أولية ومصنعة، هو الأيدي العاملة الرخيصة.

ألم تكن تجربتنا التاريخية متصلة في حلقة من التمزق والتفكك مقنعة بقناع النمو؟ لقد حرق الغزو الأراضي كي يزرع زراعات تصدير ثم أباد التجمعات الهندية في أنفاق المناجم وفي مصافي الذهب لكي يلبي الطلب على الفضة والذهب فيما وراء البحار. أما فيما يخص تغذية السكان السابقين والذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة بعد الإبادة فقد تدهورت مع التقدم الأجنبي. وينتج شعب البيرو في أيامنا هذه دقيق سمك، غني جدا بالبروتينات، من أجل ابقار الولايات المتحدة وأوروبا، بينما تغيب البروتينات عن طعام أغلبية البيروانيين. ويزرع فرع فولكس فاغن في سويسرا شجرة مقابل كل سيارة يبيعها، محافظة على البيئة، ولكن يحرق فرع فولكس فاغن في نفس الوقت في البرازيل مئات الهكتارات من الغابات التي سيخصصها للإنتاج الكثيف من اللحوم للتصدير. وتزداد باطراد مبيعات شعب البرازيل من اللحم إلى الخارج ونادرا ما يأكل هذا الشعب اللحم.

لقد ذكر لي دارسي يبيرو منذ زمن ليس ببعيد، في حوار خاص، أن جمهورية فولكس فاغن لا تختلف من الناحية الجوهرية، عن جمهورية موز. فهي تبقي في البلد المنتج ما لا يزيد عن إحدى عشر سنتيما. ومن هذه السنتيمات الأحد عشر، يمثل جزء لا يذكر نصيب عمال المزارع، فهل تتغير النسب إذا حاول بلد أمريكي لاتيني تصدير السيارات؟

ما عادت سفن تجارة العبيد تعبر المحيط. فيعمل الآن تجار العبيد

من وزارة العمل. فالأجور افريقية والأسعار أوروبية. وماذا الذي ستكون عليه الانقلابات في أمريكا اللاتينية، سوى فصول متتابعة من حروب سرقة؟ ودعوات الدكتاتوريات المظفرة للشركات الأجنبية إلى استغلال الأيدي العاملة المحلية، الرخيصة والمتوفرة، والقروض غير المحدودة، والاعفاءات الضريبية، والموارد الطبيعية الموجودة في متناول اليد.

١٤ ـ يتقاضى مستخدمو خطة طوارئ الحكومة في تشيلي أجورا تعادل ثلاثين دولاراً شهريا. ويبلغ ثمن كيلو الخبز نصف دولار، وعلى هذا الأساس، فهم ينالون كيلو غرامين من الخبز يوميا. أما الحد الادنى للأجور في أوروغواي والأرجنتين فيعادل حاليا ثمن ستة كيلو غرامات من البن. ويصل الحد الادنى للأجور في البرازيل إلى ستين دولاراً في الشهر، بينما يتقاضى العمال الزراعيين بين خمسين سنتا ودولاراً واحداً في اليوم أثناء العمل في مزارع البن، والصويا، وغيرها من محاصيل التصدير. ويحتوي العلف الذي تأكله أبقار المكسيك على بروتين أكثر مما يحتوي طعام الفلاحين الذين يرعونها. ويذهب لحم هذه الابقار إلى افواه قليلة محظوظة داخل البلاد، وإلى الاسواق الدولية في المقام الأول. وتزدهر في ظل حماية سياسة سخية للقروض والتسهيلات الرسمية في المسكيك زراعة التدصير، بينما انخفضت، بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٦ كمية البروتينات المتاحة لكل مواطن وفي المناطق الريفية نلاحظ أن واحد فقط من كل خمسة أطفال مكسيكيين يتمتع بوزن وقامة عاديين. ويترك الأرز، والذرة والفاصولياء في غواتيمالا إلى عناية الله، بينما البن والقطن وغيرها من المنتوجات المجهزة للتصدير تحتكر ٨٧ بالمائة من القروض. ومن بين كل عشرة عائلات في غواتيمالا تعمل في زراعة وحصد البن، المصدر الرئيسي للعملات الأجنبية للبلاد، تتغذى وادة بالكاد وفق مستويات الحد الادنى للتغذية. وتتجه في

البرازيل خمسة بالمائة فقط من الإقراض الزراعي إلى الارز، والفاصوليا، والمنيهوت التي تشكل الغذاء الرئيسي للبرازيليين. بينما يتجه الباقي إلى التصدير.

أما بالنسبة للتدهور الأخير في السعر العالمي للسكر فلم يسبب، كما حدث من قبل، موجة من الجوع بين فلاحي كوبا. ولم يعد في كوبا هناك وجود لسوء التغذية، بل على العكس، فإن الارتفاع المتزامن مع ذلك تقريبا في السعر العالمي للبن لم يخفف في شيء من البؤس المزمن لعمال مزارع البن البرازيلية. فارتفاع أسعار البن في عام ١٩٧٦ وهو البهجة المارقة التي أثارتها موجات الصقيع التي اجتاحت المحاصيل الزراعية، لم ينعكس مباشرة في الأجور، حسب ما أشارإليه أحد كبار المديرين في المعهد البرازيلي للبن.

وليست زراعات التصدير في واقع الأمر غير متمشية مع رفاهية السكان ولا تتناقض بحد ذاتها، مع التنمية الاقتصادية نحو الداخل. ففي نهاية الأمر، أفادت مبيعات السكر للخارج، في كوبا، كمنطلق لخلق عالم جديد يصل فيه الجميع إلى بذور التنمية وتتواجد روح التضامن في عصب العلاقات الإنسانية.

١٥ ـ وأصبح معلوما من هم المحكوم عليهم بدفع ثمن أزمات إعادة تعديل النظام. فغالبية أسعار المنتجات التي تبيعها أمريكا اللاتينية تنخفض بصورة مخيفة بالنسبة لأسعار المنتجات التي تشتريها من البلدان التي تحتكر التكنولوجيا، والتجارة، والاستثمار، والقروض. ومن أجل موازنة الفرق، ومواجهة الالتزامات تجاه رأس المال الأجنبي، فإنه من الضروري أن تتم التغطية بالكم لما يُفقد في السعر. وداخل هذا الإطار، فإن دكتاتوريات المخروط الجنوبي للقارة قد اقتطعت بمقدار النصف من أجور العمال. وحولت كافة كل مركز إنتاجي إلى معسكر للاشغال

الشاقة. وكان على العمال أن يعوضوا انخفاض قيمة قوة عملهم، التي هي الناتج الذي يبيعونه للسوق. وكان العمال مضطرين أن يغطوا بالكم، بكم ساعات العمل، ما يفقدونه في القدرة الشرائية للأجر. ويعاد هكذا إنتاج قوانين السوق الدولية في العالم المصغر لحياة كل عام أمريكي لاتيني. أما بالنسبة للعمال الذين حالفهم الحظ بالاعتماد على عمل ثابت، فإن يوم العمل ذي الثماني ساعات لا يوجد سوى في الحروف الساكنة للقوانين. فكان من المألوف أن يعمل المرء عشر، أو اثني عشر، أو حتى أربع عشر ساعة، وحرمانه أكثر من مرة من إجازة يوم الاحد.

وتضاعفت حوادث العمل، في نفس الوقت، ليصبح دما بشريا مقدما على مذبح الإنتاجية. وأقص عليكم ثلاثة أمثلة من أواخر عام ١٩٧٧ في أوروغواي:

- تضاعف محاجر السكك الحديدية، التي تنتج الأحجار، ليتضاعف الإنتاج. وليموت في بداية الربيع خمسة عشر عاملا في انفجار ديناميت.

- طوابير من العاطلين أمام شركة لإنتاج الالعاب النارية. حيث كان يعمل العديد من الأطفال في المعمل. لتسجل أرقاما قياسية. ويقع انفجار في يوم ٢٠ كانون أول لتكون المحصلة خمسة عمال موتى وعشرات من الجرحى.

- في يوم ٢٨ كانون أول، وفي السابعة صباحا، يرفض العمال دخول مصنع لحفظ الاسماك، لأنهم اشتموا رائحة غاز قوية. فيتعرضوا للتهديد في حال عدم دخولهم بفقدان عملهم. يصرون على رفضهم، ويهددونهم باستدعاء قوات الأمن، وكان هناك سابقة باستدعاء رجال الأمن من قبل الشركة. ليدخل العمال في

النهاية نتيجة هذه التهديدات. والنتجية أربعة موتى وعدد من المحتجزين في المستشفى. لقد كان هناك تسرب لغاز الامونيوم.

وتعلن الدكتاتورية وبفخر في هذه الأثناء، على أنهم يستطيعون شراء الويسكي الاسكتلدني والمربيات الإنجليزية والجامبو الدانمركي والنبيذ الفرنسي وسمك التونة الأسباني والبذلات التايوانية أرخص من أي وقت مضى.

١٦ ـ كانت ماريا كارولينا دي خيسوس قد ولدت وسط القمامة والطيور الجارحة.

كبرت وعانت، وعملت بجهد، أحبت رجالا، وأنجبت أبناء. وكانت تسجل في دفتر صغير بخط سيء أحداث عنائها.

وقد قرأ صحفي، بالصدفة تلك الدفاتر وتحولت ماريا كارولينا دي خيسوس إلى كاتبة مشهورة. وأصبح كتابها "بيت الراحة"، كتابا مشهورا وقرئ في أربعين بلدا وترجم إلى ثلاث عشرة لغة، وهو يوميات خمس سنوات من الحياة في ضاحية بائسة من ضواحي مدينة سان بأولو.

خرجت ماريا كارولينا دي خيسوس، سندريلا البرازيل، من بيت الراحة وطافت العالم، وأجري معها الأحاديث وجرى تصويرها، ونالت جوائز النقاد، ورحب بها السادة واستقبلها الرؤساء.

ومرت الأيام. وذات صباح باكر وفي أوائل عام ١٩٧٧، ماتت ماريا كارولينا دي خيسوس وسط القمامة والطيور الجارحة. فلم يعد أحد يتذكر المراة التي كتبت، "الجوع هو ديناميت الجسد الإنساني".

فاستطاعت المراة التي عاشت على الفضلات أن تكون مميزة بشكل عابر، فقد سمح لها بالجلوس على المائدة. وبعد تناول الحلوى وانتهاء المهرجان، استمر حلمها، وكانت ما تزال البرازيل البلد الذي يقدم مائة

عامل جريح كل يوم نتيجة حوادث العمل وحيث يولد أربعة، من كل عشرة أطفال، وهم مضطرون لأن يصبحوا متسولين أو لصوص، أو مشعوذين.

ومهما ابتسمت الإحصائيات، إلا أن البشر يعيشون في شقاء، فهنالك أنظمة مرتبة بشكل معاكس، حين ينمو الاقتصاد، ينمو معه الظلم الاجتماعي. وخلال أكثر فترات "المعجزة البرازيلية نجاحا، ارتفع معدل وفيات الأطفال في ضواحي أغنى مدن البلاد. وجلب الازدهار المفاجئ للبترول في إكوادور التلفزيون الملون بدلا من من المدارس والمستشفيات.

تستمر المدن بالتضخم لدرجة الانفجار. فقد كان في عام ١٩٥٠ في أمريكا اللاتينية ست مدن يفوق تعداد سكانها المليون نسمة. وفي عام ١٩٨٠ سيصبح هنالك خمس وعشرين مدينة بهذا الحجم. وجيوش العمال الضخمة التي يلفظها الريف تشارك على حواف المراكز الحضرية الضخمة، نفس المصير الذي يدخره النظام للمواطنين الشباب الزائدين. وتصل إلى حد الكمال، ويا للسخرية الأمريكية اللاتينية. لقد أظهر النظام الإنتاجي عدم كفاءة ملحوظة في خلق أعمال تمتص قوة العمل المتزايدة في الاقليم، وبالاخص الفيالق الضخمة من الأيدي العاملة في المدن.

وقد أظهرت، منذ وقت قريب، دراسة لمنظمة العمل الدولية أنه يوجد في أمريكا اللاتينية ١١٠ مليون شخص يعيشون في ظروف فقر مدقع. وهناك سبعون مليونا من بين هؤلاء يمكن اعتبارهم معوزين. ما هي نسبة السكان الذين يأكلون أقل من القدر الضروري؟ بلغة التقنيي، يتلقى دخولا أقل من من تكاليف التغذية الدنيا المتوازنة، فهناك ٤٢ بالمائة من سكان البرازيل، و٤٣ من الكولومبيين، و٤٩ من

الهندوراسيين، و٣١ بالمائة من المكسيكيين، و٤٥ من البيروانيين، و٢٩ بالمائة من التشيليين، و٣٥ بالمائة من الإكوادوريين.

فكيف يمكن خنق انفجارات الثورة للاغلبيات الشقية هذه؟ كيف يمكن التنبوء بهذه الانفجارات؟ وكيف يمكن تجنب تزايد هذه الاغلبيات باستمرار إذا كان النظام لا يعمل من أجلها؟ إذا استبعدنا الأعمال الخيرية، تبقى هناك الشرطة.

١٧ ـ تدفع في بلادنا صناعة الرعب ثمنا مرتفعا، مثل أي مكان آخر، مقابل الخبرة الغنية الأجنبية. ويتم شراءٔ وتطبيق تكنولوجيا القمع الأمريكية الشمالية، بدرجة كبيرة، تلك التكنولوجيا التي تجرب في أركان الكوكب الأربعة، لكن سيكون من الظلم عدم الاعتراف للطبقات الحاكمة الأمريكية اللاتينية بقدرة خلاقة معينة، في هذا المجال.

لم تكن بورجوازية بلادنا قادرة على صنع تنمية اقتصادية مستقلة وكان لمحاولاتها خلق صناعة قومية. وعلى مدى عمليتنا التاريخية، أعطى سادة السلطة، كذلك، براهين إضافية على افتقارهم إلى الخيال السياسي وعلى عقمهم الثقافي. وبالمقابل، عرفوا كيف يقيمون آلة ضخمة للرعب وأضافوا إضافات خاصة إلى تقنية إبادة الأشخاص والأفكار. والتجربة الحديثة، بهذا المعنى، لبلدان الريو دي بلاتا، تجربة مهمة.

"ستستغرق مهمة التطهير منا وقتا طويلا"، هذا ما أعلنه العسكريون الأرجنتينيون منذ البدء. وقد تم استدعاء القوات المسلحة من جانب الطبقات المسيطرة في أوروغواي والأرجنتين على التوالي لسحق قوى التغيير، وانتزاعها من جذورها، وتأييد نظام الامتيازات الداخلي، وصنع ظروف اقتصادية وسياسية مغرية لراس المال الأجنبي، أرض محرضة،

بلد يسوده النظام، عمال نحيلون وبخسون. ليس ثمة ما هو أكثر نظاما من جبانة، تحول السكان على الفور إلى عدو داخلي. ولك إشارة حياة، أو احتجاج، أو مجرد شك، تشكل تحديا خطيرا للأمن القومي من وجهة نظر النظام العسكري.

ومن ثم، تم تطوير آليات بالغة التعقيد للوقاية والعقاب.

وثمة عقلانية عميقة تختفي تحت الظاهر، فحتى يعمل القمع بكفاءة، يجب أن يبدو تعسفيا. وباستثناء التنفس، يمكن لكل نشاط إنساني أن يكون جنحة. وفي أوروغواي، يطبق التعذيب كنظام عادي للاستجواب، ويمكن لكل فرد أن يكون ضحية له، وليس فقط المشتبه فيهم والمذنبين بارتكاب أفعال معارضة. وينتشر على هذا النحو الرعب من التعذيب بين كل المواطنين، مثل الغازات التي تسبب الشلل حيث يغزو كل منزل ويستقر في روح كل مواطن.

وكانت محصلة المذبحة في تشيلي ثلاثين ألف قتيل، أما في الأرجنتين فلا يتم الإعدام بالرصاص، وإنما يتم الاختطاف، فتختفي الضحايا. فما من جثث ولا مسؤولين. هكذا تتحقق المذبحة. وهكذا يمكن محي وبقوة أكبر الغضب الجماعي. فلا أحد يقدم حسابا، ولا أحد يقدم تفسيرات. إن إرهاب الدولة يطرح شل السكان عن طريق الخوف الكامل.

في الأوروغواي كي تحصل على عمل أو تحافظ عليه، فلا بد من الاعتماد على موافقة العسكريين. ففي بلد يعتبر من أصعب الأمور فيه الحصول على عمل خارج معسكرات الجيش ومراكز الشرطة، يفيد هذا الشرط فيما هو أكثر من مجرد دفع جزء كبير من الثلاثمائة ألف مواطن المسجلين بوصفهم يساريين إلى الخروج من البلاد.

ولم يعد من الضروري في الأرجنتين حظر أي كتاب بمرسوم. فقانون العقوبات الجديد يعاقب، كما هي الحال دائما، أي كاتب أو ناشر الكتاب الذي يعتبر تخريبيا. لكنه يعاقب أيضاً من يطبعه، حتى لا يجرؤ أحد على طبع نص في موضع شك، كما يعاقب الموزع وصاحب المكتبة، كي لا يجرؤ أحد على بيعه، كما يعاقب، القارئ، حتى لا يجرؤ أحد على قراءته ناهيك عن الاحتفاظ به. وهكذا ينال مستهلك الكتاب المعاملة التي تخصصها القوانين لمستهلك العقاقير المخدرة.

ويعتبر في أوروغواي عدم الوشاية بالجيران جريمة. وعند الالتحاق بالجامعة، يقسم الطلبة، كتابة، على أنهم سيبلغون عن كل من يقوم في الحرم الجامعي باي نشاط خارج أعمال الدراسة. يجعل الطالب من نفسه مشاركا في مسئولية أي مشهد يحدث في وجوده. ففي مشروع مجتمع من السائرين نياما، يجب على كل مواطن أن يكون شرطيا على نفسه وعلى الآخرين. ورغم ذلك يستمر النظام بعدم الثقة بأحد، وله كل الحق في ذلك. ويبلغ مجموع الشرطة مائة ألف، ومجموع المخبرين مائة ألف أخرى. ويعمل الجواسيس في الشوارع وفي المقاهي وفي الحافلات، وفي المصانع والمدارس، وفي المكاتب والجامعات. ومن يحتج بصوت مرتفع على غلاء الحياة وقسوتها، ينتهي به الأمر إلى السجن، فقد اقترف "تعديا ضد الروح المعنوية للقوات المسلحة"، يدفع ثمنه من ثلاث إلى ست سنوات في السجن.

١٨ ـ كان التصويت بنعم على دكتاتورية بينوشيه في استفتاء كانون أول من عام ١٩٧٨ يتم برسم صليب تحت علم تشيلي. بينما صوت اللا بالمقابل كان يتم بوضع علامة تحت مربع أسود.

يريد النظام أن يخلط بينه وبين البلاد. فالنظام هو البلاد. هذا ما تقوله

الدعاية الرسمية التي ترن في آذان المواطنين صباح مساء. وعدو النظام هو خائن للوطن. والقدرة على الإحساس بالمهانة تجاه الظلم والرغبة في التغيير تشكلان البراهين على الخيانة. فنجد في الكثير من دول أمريكا اللاتينية أن من لم يصبح منفيا خارج الحدود، يعيش منفاه الخاص في بلده نفسها.

ولكن بينما كان بينوشيه يحتفل بانتصاره أطلقت الدكتاتورية على الاضرابات التي اندلعت في كل أرجاء تشيلي رغم الرعب اسم "غياب جماعي للعمال". وتتكون الغالبية العظمى من المختطفين والمختفين في الأرجنتين من عمال شاركوا في نوع من أنواع النشاط النقابي. وتندرج في الخيال الشعبي، بشكل دائم، الذي لا حدود له أشكال جديدة من النضال. مثل العمل بحزن، والعمل باضطراب، ويبلغ التضامن أبعاداً جديدة لتجنب الخوف. وقد جرت عدة اضرابات جماعية في الأرجنتين على مدار العام ١٩٧٧ حين كان خطر فقدان الحياة أكيدا كخطر فقدان العمل. لا يمكن تدمير القدرة على الرد، بجرة قلم، لدى طبقة عاملة منظمة وذات تقاليد كفاحية طويلة. وحين أجرت دكتاتورية الأوروغواي في أيار من نفس العام تقييما لبرنامجها لافراغ الضمائر وإجراء إخصاء جماعي، وجدت نفسها مضطرة للاعتراف بأنه "ما زال هناك سبعة وثلاثون في المائة من المواطنين مهتمون بالسياسة في البلاد".

لا نشهد في هذه البلاد الطفولة الوحشية للرأسمالية، بل نشهد شيخوختها الدموية. لا يعتبر التخلف مرحلة من مراحل التقدم، بل هو نتيجة له. وتخلف أمريكا اللاتينية ينبع من التنمية الخارجية والتي ما زالت تغذيه. نظام عاجز نتيجة آليته كخاضع في المجال الدولي، ونتيجة احتضاره منذ مولده. أنه يطرح نفسه باعتباره قدرا ويتمنى أن يتم الخلط بينه وبين الأبدية. وكل ذاكرة مخرّبة، كونها مختلفة، وكذلك كل

مشروع للمستقبل. يتم العمل على إجبار الزومبي على تنأول طعامه بدون ملح، فالملح خطر، ويمكن أن توقظه من سباته. فالنظام يجد مثيلا له في مجتمع النمل الغير قابل للتغيير. ولهذا فهو لا يستريح لتاريخ البشر، كونه تاريخ متحرك ومتغير باستمرار. ولأن كل فعل تدمير في تاريخ البشرية، يجب إن يتم الرد عليه، أن عاجلا أو آجلا بفعل خلاّق.

إدواردو غاليانو

كاليا، برشلونة، نيسان من عام ١٩٧٨

الهوامش

١. J. H. Elliott, *La España imperial,* Barcelona, 1965.

٢. L. Capitán y Henri Lorin, El *trabajo en América, antes y después de Colón,* Buenos Aires, 1948

٣. Daniel Vidart, Ideologa y realidad de América, Montevideo, 1968.

٤. Luis Nicolau D'Olwer, Cronistas de las culturas precolombinas, México, 1963
ولقد كرس المحامي أنطونيو دي ليون بينيلو مجلدين لتوضيح أن جنة عدن موجودة في أمريكا. فقد ضم في كتاب "الجنة في العالم الجديد" (مدريد، ١٦٥٦)، خريطة مريكا الجنوبية يمكن أن تشاهد: في مركزها، جنة عدون حيث يرويها نهر الامازون، ونهر الريو دي لا بلاتا، ونهر الاورينوكو، ونهر المجدلينا، وكان الموز هو الفاكهة المحرمة. واوضحت الخريطة الموضع الدقيق الذي ابحرت منه سفينة نوح، عند حدوث الطوفان العظيم.

٥. J. M. Ots, El Estado espanol en las Indias, México, 1941

٦ Earl J. Hamilton, American Treasure and the Price Revolution in Spain (1501–1650), Massachusetts, 1934

٧. Gonzalo Fernndez de Oviedo, Historia general y natural de las Indias, Madrid, 1959
أصبح هذا التفسير مدرسة. واتفاجاً عند القراءة في كتاب للتقني الفرنسي رينيه ديمون، وهو، "كوبا، هل هي اشتراكية؟" باريس، ١٩٧٠، ما يلي، "لم تتم إبادة الهنود تماماً. فإن جيناتهم ما زالت باقية في كروموسومات الكوبيين. كانوا عازفين عن الجهد الذي يتطلبه العمل المتواصل، حتى أن بعضهم انتحروا قبل أن يقدموا على عمل السخرة..."

٨. Guillermo Vázquez Franco, *La conquista justificada,* Montevideo, 1968, y J. H. Elliott, Op. cit

٩. حسب ما ذكره الرواة الهنود للاب برناردينو دي ساهاغون في المخطوط الفورنسي. ميغيل ليون – بورتيلا، "وجهة نظر الرابحون"، المكسيك، ١٩٦٧

١٠. هذه المصادفات المذهلة اثارت افتراضية أن الالهة للديانات في أمريكا اللاتينية كانت في الحقيقة أوروبية ا صل وصلت إلى هذه ا رض قبل كريستوفر كولومبس. رافائيل بينيدا يانيز، "الجزيرة وكولومبس" بوينس ايريس، ١٩٦٦.

١١. Tacquetta Hawkes, *Prehistoria,* en *la Historia de la Humanidad,* de la UNESCO, Buenos Aires, 1966.

١٢. Miguel León–Portilla, El reverso de la conquista. Relaciones aztecas, mayas e incas, México, 1964

١٣. Miguel León–Portilla, Op. cit.

١٤. Gustavo Adolfo Otero, Vida social en el coloniaje, La Paz, 1958

١٥. Autores anónimos de Tisteloico e informantes de Saha gún, en Miguel León–Portilla, op. cit.

١٦. Dercy Ribeiro, las Américas y la civilizacin, tomo r، La civilizacin occidentai y nosotros. Los pueblos testimonio, Buenos Aires, 1969.

١٧. Miguel León–Portilla, op. cit. Ibid.

١٨. Ibid.

١٩. لإعادة معرفة الذروة التي وصلت إليها بوتوسي، راجع المؤلف شهادات شهود الماضي التالين:

Pedro *Vicente* Cañete y Domínguez, *Potosí colonial, guía bisrórica, geográfica, política, civil y legal del gobierno e intendencia de la provincia de Potosí,* La Paz, 1939*; Luis* Capoche, *Relación general de la Villa Imperial de Potosí,* Madrid, 1959*; y Nicolás* de Martínez Arzanz y Vela, *Historia de la Villa Imperial de Potosí,* Buenos Aires, 1943 *Además,* las *Crónicas potosinas,* de Vicente G. Quesada, *París,* 1890*, y La ciudad única,* de Jaime *Molins.* Potosí, 1961.

٢٠. Earl J. Hamilton, op. cit.

٢١. Citado por Gustavo Adolfo Otero, op. cit.

٢٢. J. H. Elliott, op. cit., y Earl J. Hamilton, op. cit.

٢٣. Roland Mousnier, Los siglos XVI y XVII, volumen IV de la Historia general de las civilizaciones, de Maurice Crouzet. Barcelona. 1967.

٢٤. J. Vicens Vives, director, *Historia social y económica de España y América,* Barcelona, 1957

٢٥. Jorge Abelardo Ramos, Historia de la nacin latinoamericana, Buenos Aires, 1968.

٢٦. J. H. Elliott, op. cit.

٢٧. La especie no se ha extinguido. Abro una revista de Madrid de fines de 1969, leo، ha muerto dona Teresa Bertin de Lis y Pidal Gorouski y Chic o de Guzmn, duquesa de Albuquerque y marquesa de los Alcaices y de los Balbases, y la llora el viudo duque de Albuquerque, don Beltrn Alonso Osorio y Diez de Rivera Martos y Figueroa, marqués de Alcaices, de los Balbases, de Cadreita, de Cuéllar, de Cullera, de Miontaos, conde de Fuensaldaa, de Grajal, De Huelma, de Ledesma, de la Torre, de Villanueva de Caedo, de Villahumbrosa, tres veces Grande de Espaa.

٢٨. John Lynch, Administracin colonial espanola, Buenos Aires, 1962

٢٩. Ernest Mandel, *Tratado de economía marxista*, México, 1969.

٣٠. Ernest Mandel, *La teoría marxista de la acumulación primitiva y la industrialización del Tercer Mundo*, revista Amaru, núm. 6, Lima, abril–junio de 1968.

٣١. Paul Batan, *Economía política del crecimiento*, México, 1959.

٣٢. Celso Furtado, *La economía latinoamericana desde la conquista ibérica hasta la revolución cubana*, Santiago de Chile, 1969, y México, 1969.

٣٣. J. Besuiesu–Garnier, *L'économie de 1'Améreque Latine,* París, 1949.

٣٤. Sergio Bagú, *Economía de la sociedad colonial.* Ensayo de historia comparada de América Latina, Buenos Aires, 1949.

٣٥. Alexander von Humboldt, *Ensayo sobre el Reino de la Nueva España*, México, 1944

٣٦. Sergio Bagu, op. cit.

٣٧. André Gunder Frank, *Capitalism and Underdevelopment in Latin America*, Nueva York, 1967.

٣٨. Álvaro Alonso–Barba, *Arte de los metales*, Potosí, 1967.

٣٩. Gustavo Adolfo Otero, op. cit.

٤٠. Fernando Carmona, prólogo a Diego López Rosado, *Historia y pensamiento económico de* México, México, 1968

٤١. D. Joseph Ribera Bernárdez, Conde Santiago de la Laguna, *Descripción breve de la muy noble y leal ciudad de Zacatecas,* en Gabriel Salinas de la Torre, *Testimonios de Zacatecas,* México, 1946.

٤٢. John Collier, *The Indians of America*, Nueva York, 1947

٤٣. Segun Darcy Ribeiro, op. cit., con datos de Henry F. Dobyns, Paul Thompson y otros.

٤٤. Emilio Romero, *Historia económica del Perú,* Buenos Aires, 1946.

٤٥. Enrique Finot, *Nueva historia de Bolivia,* Buenos Aires, 1946.

٤٦. Obras citadas.

٤٧. Antonello Gerbi, Una disputa del Nuevo Mundo, México, 1960, y Daniel Vdart, op. cit.

٤٨. Lewis Hanke, *Estudios sobre fray Bartolomé de Las Casas y sobre la lucha por la justicia en la conquista española de América*, Caracas, 1968.

٤٩. J. M. Ot Capdequí, op. cit.

٥٠. أحد أعضاء الإدارة ا مريكية الشمالية للحفاظ على التربة. حسب ما أورده جون كوليير في العمل المذكور انفا.

٥١. Daniel Valcárcel, *La rebelión de Túpac Amaru*, México, 1947.

٥٢. Alexander von Humboldt, *Ansicbten des Natur, tomo tr. Citado* en Adolf Meyer-Abich y otros, Alejandro de Humboldt (1769–1969), Bad Godesberg, 1969

٥٣. Tulio Halperin Donghi, *Historia contemporánea de América Latina,* Madrid, 1969.

٥٤. Ernest Gruening, *Mexico and its Heritage,* Nueva York. 1928

٥٥. Alonso Aguilar Monteverde, *Dialéctica de la economía mexicana*, México, 1968.

٥٦. كان آخر هنود التشاروا بقوا على قيد الحياة. حوالي عام ١٨٣٢، بالاستيلاء على الثيران في الريف البدائي في شمال أوروغواي، قد عانوا من خيانة الرئيس فركتروسو ريبيرا. فبعد أن ابتعدوا عن الإدغال التي كانت تحميهم، مترجلين ونازعي السلاح بفعل وعود الصداقة الكاذبة، سحقوا في موضع يسمى فم النمر. يحكي الكاتب إدواردو ليثيدو دياث (صحيفة لا ايوكا، عدد ١٩ آب ١٨٩٠) فيقول، "دق النفير نوبة قطع الرؤوس".

٥٧. John Kenneth Turner, *México bárbaro*, México, 1967. Arturo Bonilla Sánchez, Un problema que se agrava، la subocupación rural, en Neolatifundismo y explotación, De Emiliano Zapata a Anderson Clayton & Co., varios autores, México, 1968.

٥٨. René Dumont, *Tierras vivas. Problemas de la reforma agraria en el mundo,* México, 1963.

٥٩. Eduardo Galeano, *Guatemala, país ocupado,* México, 1967

٦٠. آمن هنود المايا – كيتشيه باله واحد، ومارسوا الصيام، والتوبة، والامتناع، والاعتراف، امنو بالطوفان، وبنهاية العالم، ولم تحمل إليهم المسيحية تجديدات كبيرة. وقد بدا التحلل الديني مع الاستعمار. فلم تستوعب الديانة الكاثوليكية إلا بعض الجوانب السحرية والطوطمية من ديانة المايا، في جهد عبثي من أجل اخضاع العقيدة الهندية يديلوجية الفاتحين. وفتح سحق الثقافة ا صلية المجال أمام التوفيق بين العقائد، وهكذا تبدو في الوقت الحاضر، مثلا، دلائل على الارتداد، بشأن التطور الذي تم تحقيقه، "السيد فولكان يحتاج لحما بشريا محمصا جيدا". كارلوس غوزمان بوكلير و جان – لوب هيربيرت، "غواتيمالا، تفسير تاريخي – اجتماعي" المكسيك، ١٩٧٠.

٦١. كان رواد بانديراس جماعات جواله ذات تنظيم شبه عسكري وقوة متباينة. وقد لعبت بعثاتهم دورا هاما في استعمار عمق البرازيل.

٦٢. Celso Furtado, op. cit.

٦٣. Celso Furtado, Formacin economica del Brasil, México, 1959

٦٤. C. R. Boxer, The Golden Age of Brazil (1695–1750), California, 1969

٦٥. Augusto de Lima Júnior, *Vila Rica de Ouro Preto. Sintese histórica e descritiva*, Belo Horizonte, 1957.

٦٦. C. R. Boxer, op. cit.

٦٧. C. R. Boxer, op. cit.

٦٨. Joaquim Felício dos Santos, *Memórias do Distrito Diamantino*, Río de Janeiro; 1956.

٦٩. Augusto de Lima Junior, op. cit.

٧٠. Allan K. Manchester, British Preeminence in Brazil، it، Rice and Fall, Chapel Hill, Carolina del Norte, 1933.

٧١. Celso Furtado, op. cit.

٧٢. اوغوستو دي ليما جونيور. يشعر الكاتب بالغبطة الشديدة نتيجة "توسع الإمبريالية الاستعمارية، والتي يصفها جهلة اليوم، بتأثير من سادقم الموسكوفيين، بانها جريمة".

٧٣. Roberto C. Simonsen, *História económica do Brasil* (1500-1820), São Paulo, 1962.

٧٤ Eponina Ruas, *Ouro Preto. Sua história, seus templos, monumentos,* Río de Janeiro, 1950.

٧٥ Fernando Ortiz, *Contrapunteo cubano del tabaco y el azúcar,* La Habana, 1963.

٧٦ Caio Prado Júnior, *Historia económica del Brasil, Bue*nos Aires, 1960.

٧٧ Sergio Begú, *Economía de la sociedad colonial.* Ensayo de historia comparada de América Latina, Buenos Aires, 1949.

٧٨ Celso Furtado, *Formación económica del Brasil*, México - Buenos Aires, 1959.

٧٩ Josué Castro, *Geografía da forre,* São Paulo, 1963.

٨٠ Josué Castro, *Geografía da forre,* São Paulo, 1963.

٨١ مغامر إنجليزي، هنري كوستر، أعاد سبب عادة اكل التراب إلى تواصل ا طفال البيض مع السود، "الذين ينقلون لهم هذه الرذيلة الافريقية".

٨٢ يعاني شمال الغرب، بطرق مختلفة، من حظ الاستعمار الداخلي لصالح الجنوب الصناعي. في شمال شرق البلاد، في نفس الان، فإقليم سيرتاو تابع لمنطقة السكر التي تمتد، ولاتيفونديات السكر التي تعتمد على النبات لتصنيع المنتج. والمؤسسة القديمة في ازمة، وقد التهمت المطاحن المزارع.

٨٣ حسب دراسات مؤسسة خواكيم نابوكو دي بيسكويساس، والتي ذكرها كيت سيم تايلور في كتابه "شمال الشرق البرازيلي، السكر والفائض، مراجعة شهرية"، رقم ٦٣، سانتياغو دي تشيلي، حزيران ١٩٦٩.

٨٤ Franklin de Oliveira, *Revolución y contrarrevolución en Brasil,* Buenos Aires, 1965.

٨٥ René Dumont, *Tierras vivas. Problemas de la reforma agraria en el mundo*, México, 1963.

٨٦ Josué de Castro, op. cit.

٨٧ Celso Furtado, *Dialética do desenvolvimento*, Río de Janeiro, 1964.

٨٨ Karl Marx, Discurso sobre el libre cambio, en *Miseria de la filosofía*, Moscú, s. f.

٨٩ . Vincent T. Harlow, *A History of Barbados,* Oxford, 1926.

٩٠ Tadeusz Lèpkowski, Haiti, tomo I, La Habana, 1968

٩١ Tadeusz Lèpkowski, Hait, tomo I, La Habana, 1968

٩٢ هناك رواية رائعة لاليخو كاربينتير، "مملكة العالم" (مونتفيديو، ١٩٦٦)، حول هذه الفترة العجيبة في حياة هاير. تحتوي على وصف متكامل حول رحلة بأولينا وزوجها في الكاريبي.

٩٣ يذكره مانويل مورينو فراغينالس، "الطرافة"، ١٩٦٤.

٩٤ وكانوا قد كسروا بالفعل الملاحات في الريو دي لا بلاتا. ا رجنتين وا وروغواي، اللتان ما كانتا منفصلتان عندها ولا كانتا يطلق عليهما اسمائهما الحالية، كانتا قد هيئتا اقتصادها لتصدير وعلى نطاق واسع اللحوم المملحة والجلود والدهون والشحوم. وكانتا البرازيل وكوبا، ووقتها من المراكز الكبيرة لتجار الرقيق في القرن التاسع عشر أسواق ممتازة للشحوم والدهون الرخيصة الثمن وسهلة النقل والتخزين.

٩٥ Manuel Moreno Fraginals, op. cit

٩٦ Celso Furtado, *La economía latinoamericana desde la Conquista ibérica hasta la Revolución Cubana*, Santiago de Chile, 1969, México, 1969.

٩٧ لاحظ مرينو فراخيناليس، بأن أسماء المطاحن التي ولدت في القرن التاسع عشر كانت تعكس صعود وهبوط منحنى السكر.

٩٨ René Dumont, *Cuba (intento de crítica constructiva)*, Barcelona, 1965.

٩٩ Celso Furtado, *La economía lationamericana*, op. cit.

١٠٠ صرح مدير برنامج السكر في وزارة الزراعة للولايات المتحدة بعد الثورة بقليل، "منذ أن خرجت كوبا من المشهد، فنحن لا نحمي هذا البلد، البلد الذي يصدر أكبر كمية على مستوى العالم، والذي كان لديه كمية كبيرة من الاحتياطي، يرسلها عند الحاجة إلى اسواقنا" انريكي رويز غارثيا، "أمريكا اللاتينية تشريح ثورة"، مدريد، ١٩٦٦

١٠١ Leland H. Jenks, *Nuestra colonia de Cuba,* Buenos Aires; 1960

١٠٢ بويرتوريكو، مصنع سكر اخر، بقي حبيس. فمن وجهة نظر الولايات المتحدة، البيورتوريكيين ليسوا جيدين بما فيه الكفاية ليعيشون في وطن خاص بهم، ولكن مع ذلك، فبالمقابل نعم يكنهم أن يموتون في جبهة فيتنام باسم الوطن الذي ليس لهم. وحسب التقدير السكاني، فإن "الدولة الحرة المرتبطة" لبويرتوريكو لديها جنود يحاربون في شرق اسيا. أما البورتوريكيين الذين يرفضون أداء الخدمة الإلزامية في فيتنام يرسلوهم خمس سنوات إلى السجون في اتلانتا. وهناك ارث من الاهانات ا خرى الموروثة بعد الغزو عام ١٨٩٨ والتي باركها القانون (قانون كونغرس الولايات المتحدة). فبويرتوريكو لديها تمثيل رمزي في الكونغرس ا مريكي، دون تصويت، وتقريبا من دون صوت. وفي مقابل هذا الحق، كان لدى بويرتوريكو عملتها الخاصة حتى الاحتلال ا مريكي وتجارتها الخاصة والمزدهرة مع ا سواق الرئيسية. واليوم العملة هي الدولار ويتم تحديد التعريفات الجمركية في واشنطن، وتتخذ القرارات في كل ما يجب القيام به في التجارة والتبادل التجاري للجزيرة. وينطبق نفس الشيء على العلاقات الخارجية والنقل والاتصالات وا جور وظروف العمل. والمحكمة الاتحادية للولايات المتحدة هي التي تصدر احكامها على البورتوريكيين، الجيش المحلي يندمج في الجيش الشمالي. الصناعة والتجارة في أيدي المصالح ا مريكية خاصة. التجريد من الجنسية يكون كاملا عن طريق التهجير، دفع الفقر بأكثر من مليون

بورتوريكي للبحث عن حظ أفضل في نيويورك، ليكون الثمن كسر هويتهم الوطنية. ولتتشكل هناك طبقة دنيا في أكثر ا حياء المكتظة وأكثرها فقرا.

١٠٣ Fidel Castro, *La Revolución cubana (discursos)*, Buenos Aires, 1959.

١٠٤ A. Núñez Jiménez, *Geografía de Cuba*, La Habana, 1959

١٠٥ René Dumont, op. cit.

١٠٦ Dudley Seers, Andrés Bianchi, Richard Jolly y Max Nolff, *Cuba, the Economic and Social Revolution*, Chapel Hill, Carolina del Norte, 1964.

١٠٧ K. S. Karol, *Les guérrilleros au pouvoir. L'tinéraire politique de la révolution cubaine*, París, 1970

١٠٨ لعبت أسعار السكر المستقرة في الدول الاشتراكية، دورا حاسما في هذا الصدد. وأيضاً كسر الحصار الذي وضعته الولايات المتحدة، والذي دمرته تجارة مكثفة مع أسبانيا وبلدان أخرى في أوروبا الغربية. ثلث الصادرات الكوبية توفر الدولار، أي عملة قابلة للتحويل إلى البلاد. والمقايضة مع الاتحاد السوفييتي ومنطقة الروبل تتطبق. ويشمل هذا النظام التجاري أيضاً بعض الصعوبات، فالتوربينات السوفييتية لمحطات الطاقة هي من نوعية ممتازة، مثل جميع المعدات الثقيلة التي ينتجها الاتحاد السوفييتي، ولكن لا يحدث نفس الشيء مع السلع الاستهلاكية الخفيفة والمتوسطة.

١٠٩ تقرير حول كوبا للمؤتمر الوطني الحادي عشر لمنظمة راو، تشرين أول ١٩٧٠

١١٠ رئيس شركة تكرير السكر ايلسوروث بونكر ، كان المبعوث الخاص لليندون جونسون إلى الدومينيكان بعد التدخل العسكري. تم الحفاظ على مصالح السكر الوطنية في البلد الصغير تحت العين الساهرة للبونكر، انسحبت قوات الاحتلال لمغادرة السلطة بعد انتخابات ديمقراطية جدا، خواكين بالاغير، الذي كان الذراع اليمنى للتروخيو على طول دكتاتورية شرسة. وكانت سانتو دومينغو قد خاضت في الشوارع وعلى أسطح المنازل، بالعصي والمناجل والبنادق ضد الدبابات، والبازوكا ومروحيات القوات ا جنبية، مطالبين بعودة السلطة إلى الرئيس المنتخب دستوريا، خوان بوش، والذي كان قد اطيح به في انقلاب عسكري. والقصة، بشكل ساخر، تلعب بالتنبؤات. ففي اليوم الذي افتتح فيه خوان بوش فترة رئاسته القصيرة، بعد ثلاثين عاما من الطغيان لتروخيو، ليندون جونسون، الذي كان آنذاك نائب رئيس الولايات المتحدة، احضر إلى سانتو دومينغو هدية رسمية من الحكومة وكانت سيارة اسعاف.

١١١ L. Capitan y Henri Lorin, *El trabajo en América, antes y después de Colón*, Buenos Aires, 1948.

١١٢ Sergio Bagu, op. cit.

١١٣ Daniel P. Mannix y M. Cowley. *Historia de la trata de negros*, Madrid, 1962

١١٤ Eric Williams, *Capitalism and Slavery*, Chapel Hill, Carolina del Norte, 1944.

١١٥ Daniel P. Mannix y M. Cowley, op. cit.

١١٦ لم يكن القانون ا ول لمنع العبودية في البرازيل قانونا برازيليا. لقد كان وليس من قبيل المصادفة إنجليزيا. لقد صوت البرلمان البريطاني له يوم ٨ آب عام ١٨٤٥. اوسني دوارتي بيريرا، "من يتخذ القوانين في البرازيل؟"، ريو دي جانيرو، ١٩٦٣

١١٧ Daniel P. Munnix y M. Cowley, op. cit.

١١٨ Fernando Ortiz, op. cit.

١١٩ Philip Reno, *El drama de la Guayana británica*. Un pueblo desde la esclavitud a la lucha por el socialismo, Monthly Review, núm. 17/18, Buenos Aires, enero–febrero de 1965

١٢٠ Edison Carneiro, *O quilombo dos Palrnares, Río de* Janeiro, 1966

١٢١ Nina Rodrigues, *Os africanos no Brasil,* Río de Janeiro, 1932.

١٢٢ Décio de Freitas A *guerra dos escravos,* inédito.

١٢٣ استيبان مونتيخو كان لديه أكثر من قرن من العمر عندما قص حكايته لميغيل بارنيت "سيرة ذاتية لهارب"، بوينس ايريس ١٩٦٨

١٢٤ Roberto C. Simonsen, *História económica do Brasil (1500–1820)*, São Paulo, 1962.

١٢٥ مانويل مورينو قسيس شاب، كونت دي كاسا بايونا قرر أن يذل نفسه أمام عبيده. تلهبه حماسة مسيحية، قرر أن يغسل اقدام اثني عشر عبدا وجعلهم يجلسون لتأول الطعام معه على طأولته. كان العشاء ا خير، ففي اليوم التالي، تمرد الزنوج، وأضرموا النار في الطاحون. وسمرت رؤوسهم فوق اثني عشر رمح.

١٢٦ Eduardo Galeano, *Los dioses y los diablos en las favelas de Río*, en Amaru, núm. 10, Lima, junio de 1969.

١٢٧ Rodolfo Teófilo, *Historia de Séca do Ceará (1877–1880)*, Río de Janeiro, 1922.

١٢٨ فرانس برس، في ٢١ نيسان عام ١٩٧٠. في عام ١٩٣٨ حج أحد رعاة البقر في طريق سيرتاو المتفحمة كانت قد أدت إلى واحدة من أفضل روايات التاريخ ا دبي في البرازيل. آفة الجفاف في أراضي الماشية في الداخل، التابعة لمصانع السكر في الساحل، لم تتوقف، و لم تتغير عواقبها كذلك. عالم "حياة جرداء" لا تزال على حالها، كان الببغاء يقلد نباح الكلب، ن أصحابه ما عادوا يستخدمون الصوت البشري. "حياة جرداء"، هابانا، ١٩٦٤

١٢٩ بأولو شيلينغ، "إبادة جماعية جديدة"، مونتفيديو تموز ١٠ ١٩٧٠ في تشرين أول ١٩٧٠ شكي أساقفة باررا للرئيس الاستغلال الوحشي الشمالي الشرقي للبرازيل من قبل الشركات التي كانت تكمل بناء الطريق السريع العابر للأمازون. وكانت الحكومة قد سمته "مشروع القرن".

١٣٠ Aurélio Pinheiro, *A margem do Amazonas*, São Paulo. 1937

١٣١ Rodolfo Tefilo, op. cit.

١٣٢ شوهت بوليفيا في حوالي مئتين ألف كيلومتر مربع. وقد تلقت تعويض مالي في عام ١٩٠٢ عبارة عن مليونين جنيه إسترليني وخط سكك حديدية يفتح الطريق بين أنهر ماديرا والامازون.

١٣٣ في بداية القرن، كانت جبال الغابات للمطاط قد عرضت لبيرو وعود فردوس جديد. فرانسيسكو غارثيا كالديرون كتب في "البيرو المعاصر"، نحو عام ١٩٠٨، بأن المطاط كان هو الثروة الكبيرة للمستقبل. يستعرض ماريو فارغاس جوسا في روايته "البيت ا خضر" (برشلونة، ١٩٦٦)، ا جواء المحمومة في اكويتوس وفي الادغال، حيث نهب المغامرون الهنود واقتتلوا بينهم. لتنتقم الطبيعة، فقد كانت تملك الجذام وأسلحة أخرى.

١٣٤ Domingo Alberto Rangel, *El proceso del capitalismo contemporáneo en Venezuela*, Caracas, 1968.

١٣٥ Domingo Alberto Rangel, *Capital y desarrollo*, tomo I, *La Venezuela agraria*, Caracas, 1969

١٣٦ يمنح لقب عقيد في البرازيل بسهولة، إلى أصحاب ا راضي المعروفين، وبالتالي لجميع ا شخاص المهمين. مقتبس من رواية خورخي امادو، سان جورج قديس اليوس (مونتفيديو، ١٩٤٦)، وفي المقابل فإنه "حتى الصبية لم يكونوا يلمسون ثمار الكاكاو. كانوا يشعرون بالخوف من تلك الثمار الصفراء، ذات التربة الصلبة، التي تجعلهم سجناء حياة الثمار واللحم القديد هذه". إذ أنه، في العم، "كان الكاكاو هو السيد ا كبر الذي يخشاه حتى الكولونيل". خورخي امادو، كاكاو، بوينس ايريس، ١٩٣٥). وفي رواية أخرى، هي، "غابريـيلا، قرنفل وقرفة"، تتحدث إحدى الشخصيات عن اليوس عام ١٩٢٥، رافعة إصبعا مؤكدا، "لا توجد حاليا، في شمال البلاد، مدينة ذات تقدم أسرع". واليوم منطقة اليويس لا تصل إلى ظلها من حيث القيمة.

١٣٧ في إشارة إلى ارتفاع أسعار الكاكاو والقهوة، تقول اللجنة الاقتصادية مريكا اللاتينية التابعة للأمم المتحدة أن لها "سمة عابرة نسبيا وأنها تشبع "بدرجة كبيرة فترات فواصل بين المحاصيل". دراسات اقتصادية حول أمريكا اللاتينية، ١٩٦٩ "اقتصاد أمريكا اللاتينية في ١٩٦٩" سانتياغو دي تشيلي، ١٩٧٠

١٣٨ Roberto C. Simonsen, op. cit.

١٣٩ Caio Prado Jnior, Formaço do Brasil contemporneo, So Paulo, 1942

١٤٠ اللجنة الدولية للتطور الزراعي، بيرو، "حيازة ا راضي والتنمية الاجتماعية والاقتصادية للقطاع الزراعي"، واشنطن، ١٩٦٥

١٤١ José Carlos Mariátegui, *Siete ensayos de interpretación de la realidad peruana*, Montevideo, 1970

١٤٢ اللجنة الدولية للتطور الزراعي، بيرو، حيازة ا راضي والتنمية الاجتماعية والاقتصادية للقطاع الزراعي"، واشنطن، ١٩٦٦

١٤٣ Alonso Aguilar M. y Fernando Carmona, *México riqueza y miseria*, México, 1968.

١٤٤ ماريو اررويبا، "دراسات حول التخلف في كولومبيا"، ميديلين، ١٩٥٩. ينقسم السعر كالتالي، ٤٠ في المائة من أجل الوسطاء، والمصدرين والمستوردين، و١٠ بالمائة من أجل ضرائب كلتا الحكومتين، و١٠ في المائة من أجل متعهدي النقل، و٥ في المائة للدعاية التي يقوم بها المكتب ا مريكي للبن، في واشنطن، و٣٠ بالمائة من أجل ملاك المزارع، و٥ بالمائة جور العمال.

١٤٥ Banco Cafetero, La industria cafetera en Colombia, Bogot, 1962.

١٤٦ Panorama econmico Latinoamericano, num. 87, La Habana, septiembre de 1963.

١٤٧ Pierre Monbeig, *Pionniers et planteurs de São Paulo*, París, 1952.

١٤٨ بيانات من البنك المركزي، المؤسسة البرازيلية للقهوة، ريو دي جانيرو ١٩٦٨

١٤٩ حسب التحقيقات التي أجر لها لجنة التجارة الاتحادية. سيد سيلفيرا، "القهوة، مأساة الاقتصاد الوطني". ريو دي جانيرو، ١٩٦٢

١٥٠ اللجنة الاقتصادية "التجارة العالمية والتطور في أمريكا اللاتينية"، المكسيك – بوينس ايريس ١٩٦٤

١٥١ Roberto C. Simonsen, op. cit.

١٥٢ Mario Arrubla, op. cit.

١٥٣ Luis Eduardo Nieto Arteta, *Ensayos sobre economía colambiana,* Medellín, 1969

١٥٤ Germán Guzmán Campos, Orlando Fals Borda y Eduardo Umaña Luna, *La violencia en Colombia. Estudio de un proceso social,* Bogotá, 1963–64.

١٥٥ Germán Guzmán, *La violencia en Colombia* (parte descriptiva), Bogotá, 1968

١٥٦ Naciones Unidas, Crisis y proyecciones del desarrollo económico, en *El desarrollo económico de Colombia,* Nueva York, 1957

١٥٧ وجد ا ستاذ خيرمان راما أن بعض هذه المعاهد الاكاديمية الموقرة تحتفظ في مكتبتها، كأهم تراث ثقافي، بالمجموعة المجلدة من ريدرز دايغست. خيرمان راما، "تربية والحركة الاجتماعية في كولومبيا، بوغوتا، كانون ثاني ١٩٦٩

١٥٨ Edelberto Torres–Rivas, *Procesos y estructuras de una sociedad dependiente* (Centroamérica), Santiago de Chile, 1959

١٥٩ Carlos Guzmán Böckler y Jean–Loup Herbert, *Guatemala una interpretación histórico–social*, México, 1971

١٦٠ Darcy Ribeiro, *Las Américas y la civilización*, tomo III Los pueblos trasplantados. Civilización y desarrollo, Buenos Aires, 1970.

١٦١ Gregorio Selser, *Diplomacia, garrote y dólares en América Latina,* Buenos Aires, 1962

١٦٢ Claude fulien, L'Empire American. Paris, 1968

١٦٣ Publicado en *Common Sense,* noviembre de 1935. Leo Huberman, *Man's Wordly Goods. The Story of the Weaith of Nations,* Nueva York, 1936.

١٦٤ William Krehm, *Democracia y tiranías en el Caribe*, Buenos Aires, 1959

١٦٥ هذا موضوع رواية الفارو ثيبيدا ساموديو، "البيت الكبير" (بوينس ايريس، ١٩٦٧)، وكذلك يشغل أحد فصول رواية مائة عام من العزلة (بوينس ايريس، ١٩٦٧) لغابريل غارثيا ماركيز

١٦٦ تضم المجموعة روايات "الريح القوية"، و "البابا ا خضر"، و "عيون المدفونين". وهي الثلاثية التي نشرت في بوينس ايريس في الخمسينات. وفي الريح القوية تقول إحدى الشخصيات، وهي المستر بيلي، بصورة تنبؤيه، "لو اننا بدل أن ننشيء مزارع جديدة، اشترينا من المنتجين الخاصين فاكهتهم، فسوف نكسب الكثير نحو

المستقبل". وهذا هو ما يجري حاليا في غواتيمالا، فاليونايتد فروت – وهي ا ن يونايتد براندر – تمارس احتكارها للموز من خلال اليات التسويق، ا كثر كفاءة والاقل خطرا من الإنتاج المباشر. ويجدر بالذكر أن إنتاج الموز انخفض بحدة خلال عقد الستينات، بدءا من لحظة أن قررت اليونايتد فروت بيع و/أو تأجير مزارعها في غواتيمالا، والتي كان يتهددها خطر فورات التحريض الاجتماعي.

١٦٧ Edelberto Torres–Rivas, op. cit.

١٦٨ Gregorio Selser, *Sandino, general de hombres libres,* Buenos Aires, 1959.

١٦٩ Carleton Beals, *América ante América,* Santiago de Chile, 1940

١٧٠ William Krehm, Op. Cit. Krehm vivió largos años en Centroamérica como corresponsal de la revista norteamericana *Time.*

١٧١ Eduardo Galeano, *Guatemala, país ocupado*, México, 1967.

١٧٢ محاضرة في مؤسسة الكتب ا كثر مبيعا في أمريكا، واشنطن، ١٠ حزيران عام ١٩٦٣.

١٧٣ J.P. y G.P. Robertson, *La Argentina en la época de la Revolución*. Cartas sobre el Paraguay, Buenos Aires, 1920

١٧٤ Washington Reyes Abadie, Oscar H. Bruschera y Tabaré Melogno, *El ciclo artiguista,* tomo IV, Montevideo, 1968.

١٧٥ Nelson de la Torre, Julio C. Rodríguez y Lucía Sala de Touron, *Artigas tierra y revolución,* Montevideo, 1967

١٧٦ Nelson de la Torre, Julio C. Rodríguez y Lucía Sala de Touron, op. cit. De los mismos autores, *Evolución económica de la Banda Oriental,* Montevideo, 1967, y *Estructura económico–social de la Colonia,* Montevideo, 1968.

١٧٧ Vivian Trías, *Reforma agraria en el Uruguay,* Montevideo, 1962. Este libro constituye todo un prontuario, familia por familia, de la oligarquía uruguaya.

١٧٨ Eduardo Galeano, *Uruguay: Promise and Betrayal,* en *Latin America: Reform or Revolution?,* ed. por J. Petras y M. Zeitlin, Nueva York, 1968.

١٧٩ كلية الاقتصاد، "تطور الاقتصاد ا وروغواي، مساهمة في دراسة تطور وافاق"، مونتفيديو ١٩٦٩. في فترات ازدهار الصناعة القومية، التي تحميها وتدعمها الدولة بشدة، كان جزء كبير من أرباح الريف يتجه نحو المصانع الوليدة. وحين دخلت الصناعة دورة ا زمة الطاحنة، تحولت أرباح رأسمال تربية الماشية إلى وجهات أخرى. نحت من الشقاء القومي أكثر قصور بونتادل استي بذخا ولا جدوى، وأطلقت المضاربة المصرفية، فيما بعد، حمى من يصطادون في مياه التضخم العكرة. لكن رؤوس ا موال هربت، في المحل ا ول، رؤوس ا موال وا رباح التي ينتجها البلد، عاما أثر عام. وفيما بين ١٩٦٢ و١٩٦٦، حسب البيانات الرسمية، طارت من أوروغواي ٢٥٠ مليونا من الدولارات باتجاه المصارف ا منه في سويسرا والولايات المتحدة. وكذلك البشر، البشر من الشباب، هبطوا من الريف إلى المدينة، منذ عشرين عاما، ليقدموا أذرعهم للصناعة النامية، واليوم يمضون، برا أو بحرا، نحو الخارج. وواضح أن حظهم مختلف. فرؤوس ا موال تستقبل بأذرع مفتوحة، أما المهاجرين فينتظرهم مصير صعب، المنفى والنوم في العراء، المغامرة غير المضمونة. وأوروغواي عام ١٩٧٠، الذي

يرتجف نتيجة أزمة ساحقة، لم يعد الواحة ا سطورية للسلام والتقدم الذي وعدوا به المهاجرين ا وروبيين، بل بلدا مضطربا يحكم بالهجرة على نفس سكأنه، ينتج العنف ويصدر البشر، بصورة طبيعية مثلما ينتج ويصدر اللحم والصوف.

١٨٠ German Wettstein y Juan Ruduir, *La sociedad rural,* en la colección *Nuestra Tierra,* núm. 16. Montevideo, 1969

١٨١ Jesús Silva Herzog, *Breve historia de la Revolución mexicana,* México–Bueno, Aires, 1960.

١٨٢ John Kenneth Turner, *México bárbaro,* publicado en Estados Unidos en 1911, México, 1967.

١٨٣ جون كينيث تيرنر، كانت المكسيك هي البلد المفضل لاستثمارات أمريكا الشمالية، وكان يتجمع فيها عند نهاية القرن أقل قليلا من ثلث رؤوس أموال الولايات المتحدة المستثمرة في الخارج. وفي ولاية شيهوالها وغيرها من ا قاليم الشمالية، كان ويليام راندولف هيرست، المواطن كين الشهير في فيلم اورسون ويلز، يمتلك أكثر من ثلاثة ملايين هكتار، "مأساة أمريكا اللاتينية، حالة المكسيك"، المكسيك، ١٩٦٤

١٨٤ John Womack Jr., *Zapata y la Revolución mexicana*, México, 1969

١٨٥ John Womack Jr., op Cit.

١٨٦ Fernando Carmona, Op. cit

١٨٧ Edmundo Flores, *¿Adónde va la economía de México?*, en Comercio exterior, vol. XX, núm. l, México, enero de 1970.

١٨٨ Ana María Flores, *La magnitud del hambre en Méxic*o, México, 1961.

١٨٩ Alonso Aguilar M. y Fernando Carmona, Op. Cit. Véase también, de los mismos autores y Guillermo Montaño y Jorge Carrión, *El milagro mexicano,* México, 1970.

١٩٠ Rodolfo Stavenhagen, Fernando Paz Sánchez, Cuauhtémoc Cárdenas y Arturo Bonilla, *Neolatifundismo y explotación. De Emiliano Zapata a Anderson Clayton & Co.,* México, 1968.

١٩١ Carlos Fuentes, *La muerte de Artemio Cruz*, México 1962

١٩٢ FAO, Anuario de la prodoccin, vol 19, 1965.

١٩٣ Alberto Baltra Cortés, Problemas del subdesarrollo ecolatinoamericano, Buenos Aires, 1966.

١٩٤ D. F. Maza Zavala, *Explosión demográfica y crecimiento económico*, Caracas, . 1970.

١٩٥ Paul Bairoch, *Diagnostic de 1'évotution économique du Tiers Monde*. 1900–1966, París, 1967.

١٩٦ Rui Facó, *Cangaceiros e fanáticos,* Río de Janeiro, 1965.

١٩٧ يمثل السهل المصنع من وجهة نظر الرأسمالي مربي الماشية نقلا لراس المال إلى استثمار أغلي، وأكثر مخاطرة، وأقل ربما في نفس الوقت من الاستثمار التقليدي في الماشية الكثيفة. وهكذا تدخل المصلحة الخاصة للمنتج في تناقض مع مصلحة المجتمع في مجموعه، فنوعية الماشية وربحيتها لا يمكن زيادتهما، عند نقطة معينة، إلا من خلال زيادة خصوبة التربة. والبلاد تحتاج إلى أن تنتج الابقار لحما أكثر والاغنام صوفا أكثر، لكن أصحاب ا رض يكسبون أكثر مما يكفي عند مستوى الربحية الحالي. والنتائج التي توصل إليها معهد الاقتصاد في جامعة أوروغواي (العمل المذكور انفا) يمكن تطبيقها. بمعنى معين، على ا رجنتين أيضا.

١٩٨ Dardo Cúneo, *Comportamiento y crisis de la clase empresaria*, Buenos Aires, 1967.

١٩٩ CEPAL, Estudio economico de América Latina, Santiago de Chile, 1964 y 1966, y El uso de fertilizantes en América Latina, Santiago de Chile, 1966.

٢٠٠ M. Darcy Ribeiro, *Las Américas y la civilización*, tomo I, Los pueblos nuevos, Buenos Aires, 196

٢٠١ Edward C. Kirkland, *Historia económica de Estados Unidos,* México, 1941.

٢٠٢ Celso Furtado, *Um projeto para o Brasil,* Río de Janeiro, 1969.

٢٠٣ Lewis Hanke y otros autores de *Do the Américas Have a Common History?* Nueva York, 1964

٢٠٤ Sergio Bagú, op. cit.

٢٠٥ Edwin y Lieuwen, The United States and the Challenge to Segurity in Latin America, Ohio, 1966.

٢٠٦ Philip Courtney, en un trabajo presentado ante el II Congreso Internacional de Ahorro e Inversion, Bruselas, 1959

٢٠٧ Harry Magdoff, *La era del imperialismo,* en *Month1y Review,* selecciones en castellano, Santiago de Chile, enero–febrero de 1969 y Claude Julien, *L'Empire Américan*, Paris, 1969.

٢٠٨ بالمقابل، انتبهت حكومة المكسيك في الوقت المناسب إلى أن البلاد، وهي أحد المصدرين ا ساسيين للكبريت في العالم، اخذت تفرغ منه. كانت شركتا تكساس غولف سيلفر وبان اميركان سيلفر قد اكدتا أن الاحتياطيات التي تتمتع بها أماكن امتيازاتهما تفوق ست مرات ما هي عليه في الحقيقة. وقد قررت الحكومة، عام ١٩٦٥، الحد من المبيعات للخارج.

٢٠٩ Sergio Allmaraz Paz, *Réquiem para una república,* La Paz, 1969.

٢١٠ Claude Julien, op. cit.

٢١١ توفي ارثر ديفيز، رئيس الومنيوم كومباني لمدة طويلة، توفي عام ١٩٦٢ وترك ميراثه وقيمته ثلاثمائة مليون دولار للمؤسسات الخيرية، بشرط صريح هو عدم إنفاق هذه الثروة خارج أراضي الولايات المتحدة. و لم تستطع غويانا حتى بهذه الطريقة أن تنقذ ولو جزءا من الثروة التي انتزعتها منها الشركة.

٢١٢ Harry Magdoff, op. cit

٢١٣ Hermano Alves, *Aerolotogrametria*, en Correio de Manhã. Río de Janeiro, 8 de junio de 1967

٢١٤ تقرير اللجنة البرلمانية للتحقيق في بيع ا راضي البرازيلية شخاص عينية أو اعتبارية أجنبية، برازيليا، ١٩٦٨

٢١٥ Correio da Manha, Ro de Janeiro, 30 de junio de 1968.

٢١٦ Paulo R. Schilling, *Brasil para extranjeros,* Montevideo; 1966

٢١٧ أن الطيور المنتجة للغوانو هي أثمن طيور العالم، كتب روبيرت كوشمان مورفي بعد الازدهار بكثير، "بسبب ربحها بالدولارات في كل وجبة"، وهي تفوق، قال، عندليب شكسبير الذي كان يغني على شرفة جوليت وتفوق الحمامة التي حلقت فوق سفينة نوح، وتفوق بالطبع، السنونوات الحزينة لبيكير

٢١٨ Óscar Bermúdez, *Historia del salitre desde sus orígenes basta la Guerra del Pacífico*, Santiago de Chile, 1963.

٢١٩ José Carlos Mariátegui, *Siete ensayos de interpretación de la realidad peruona,* Montevideo, 1970

٢٢٠ فقدت البيرو مقاطعة تارباكا التي تستخرج النترات وبعض جزر الغوانو الهامة، لكنها احتفظت بمكامن الغوانو على الساحل الشمالي. وقد ظل الغوانو هو السماد ا ساسي للزراعة البيروانية، حتى قضى صعود دقيق ا سماك بدءا من عام ١٩٦٠، حتى قضى على طيور الاطيش والنوارس. استولت شركات ا سماك، ا مريكية الشمالية في غالبيتها، بسرعة على ضفاف الانشوجة القريبة من الساحل، من أجل تغذية خنازير وطيور الولايات المتحدة وأوروبا بالدقيق البيرواني، واخذت الطيور المنتجة للغوانو تقتضي اثار الصيادين في البحر إلى مدى تزايد بعدا وكانت تسقط في البحر لعدم مقدرتها على العودة. وكانت طيور أخرى لا تمضي إلى البحر، وهكذا أمكن، عام ١٩٦٢، رؤية اسراب طيور الاطليش تبحث عن غذاء في الشارع الرئيسي في ليما، وحين لم تعد تستطيع التحليق، بقيت طيور الاطيش ميتة في الشوارع.

٢٢١ Hernán Ramírez Necochea, *Historia del imperialismo en Chile,* Santiago de Chále, 1960

٢٢٢ Hernán Ramírez Necochea, *Balmacedo y la contrarrevolución de* 1891, Santiago de Chile, 1969.

٢٢٣ Hernn Ramirez Necochea, op. cit.

٢٢٤ نفس الشركات التي كانت تعمل في الصناعات المعدنية التشيلية في المعامل البعيدة، اناكوندا اميريكان براس، اناكوندا واير اند كابل و كينيكوت واير اند كابل تبدو هي المعامل الرئيسية لتصنيع البرونز والكابلات والاسلاك في العالم اجمع. جوسي كادعارتوري، "الاقتصاد التشيلي"، سانتياغو دي تشيلي، ١٩٦٨

٢٥٥ R. J. Grant–Suttie, *Sucedáneos del cobre,* en Finanzas *y Desarrollo,* revista del *FMI* y el *BIRF,* Washington, junio de 1969

٢٢٦ Mario Vera y Elmo Catalán, *La encrucijada del cobre.* Santiago de Chile, 1965

٢٢٧ وصفته النيويورك تايمز الصادرة في ١٣ اب عام ١٩٦٩ بهذه المبادرة. حين كانت تصف بنشوة الإجازة التي قضاها دوق ودوقة وندسور في الظلمة التي ترجع إلى القرن السادس عشر والتي يملكها باتينيو عند مشارف لشبونة. "يروق لنا أن نمنح الخدم بعض الهدوء والسلام"، اعترفت السيدة بذلك، وهي تشرح لشارلوت كورنتيس برنامج اليوم.

بعد ذلك، يحين وقت الإجازة في الجبل في سويسرا، اندفع المصورون والصحفيون ليقفزوا على الدوقين وعلى فتاتي الموضة في سان مورتيز. فقدت مليونيرة في الخمسين لتوها زوجها الثاني، نائب رئيس شركة فورد، وتبتسم أمام فلاشات المصورين، تعلن زواجها القريب لشاب يمسكها من ذراعها وينظر بعيون خائفة. وإلى جانبها زوجآخر من أعضاء المجتمع الراقي. الرجل قصير القامة ذو ملامح هندية، حواجب كثيفة، وعيون قوية، وانف افطس، ووجنات بارزة. ما زال انتيمنور باتينيو يبدو بوليفيا. وفي إحدى المجلات يظهر انتينور باتينيو متنكرا في زي امير شرقي، مرتديا العمامة وكل شيء، بين عدة امراء حقيقيين اجتمعوا في قصر البارون الكسيس دي ريديه، هم اميرة الدنمارك مارغاريتا، وا مير انريكي، وماريا بيادي سابويا وابن اختها ا مير ميغيل دي بوربون - بارما، وا مير لوبكوفيتس وغيرهم من العمال.

٢٢٨ حين أعلن الجنرال الفريدو اوفادو، في تموز من عام ١٩٦٦، أنه قد توصل إلى اتفاق مع شركة كلوتشنير ا لمانية لإقامة افران الدولة، قال "انه سيكون ثمة مصير جديد لتلك المناجم البائسة التي لم تفد، حتى الان، سوى في فتح فجوات في رئات إخواننا عمال المناجم". وهؤلاء الرجال الذين يهبون حياتهم من أجل المعدن، كما يقول سيرخيو الماراث، "لا يملكونه، و لم يملكوه ابدا، لا قبل ولا بعد ١٩٥٢، ن ما يحدث هو أن القصدير لا يساوي شيئا في الاستفادة المباشرة منه ما لم يكن في شكل سبائك لامعه. والمعدن، هذا التراب الثقيل ذي المظهر الطيني، لا يفيد بالتأكيد في شيء سوى أن يلقي في فوهة فرن".

وقد حكى الماراث قصة أحد الصناعيين، هو ماريانو بيرو، الذي شن حربا بمفرده، على طول أكثر من ثلاثين عاما، حتى يكرر القصدير البوليفي في اوروور وليس في ليفربول، وفي عام ١٩٤٦، وبعد أيام قليلة من سقوط الرئيس الوطني غوالبيرتو بيارويل، دخل بيرو إلى الى القصر المحترق. جاء ليأخذ سبيكتين من القصدير. كانتا أول سبيكتين تنتجان من معمل صهره في اوروورو، و لم يعد ثمة معنى في أن يستمر هذان الرمزان، اللذان يجسدان الامة، في تزيين مكتب رئيس الجمهورية. كان بيارويل قد شنق على عمود نور في ميدان موريبيو واعيدت سلطة الحلقة ا وليغاركية بدءا من سقوطه، أخذ ماريانو بيرو السبيكتين ومضى بهما، وكانتا ملطختين بدم جاف.

٢٢٩ "حين أحس بنفسي، احدني سكران. أرى الناس ثلاثة، أو أربعة. لا أستطيع أن اكل وحدي. انا طفل، اذن، طفل". إن ساتورنينو كوندوري، البناء العجوز لمعسكر عمال منجم القرن العشرين، ما زال ممدا منذ أكثر من ثلاث سنوات على فراش في مستشفى كاتابي. وهو أحد ضحايا مذبحة ليلة القديس خوان، عام ١٩٦٧. و لم يكن حتى قد احتفل على الإطلاق. فقد عرضوا أن يدفعوا له ثلاثة اضعاف إذا عمل يوم السبت ٢٤. وهكذا قرر، بخلاف ا خرين جميعا، إلا ينخرط في اللهو والخمر. واوى إلى فراشه مبكرا. وفي تلك الليلة حلم بأن فارسا يقذفه بالشوك في حسمه، "قذفني بأشواك ضخمة". استيقظ عدة مرات، ن مطر الرصاص انطلق على المعسكر منذ الخامسة صباحا". تحطم حسمي، تفتت، وامسكت بخناقي شبه رعشة، كنت مفزوعا، كنت مفزوعا،

هكذا، قالت لي زوجتي، هيا، اهرب بجلدك. لكنني، ماذا فعلت؟ لم اخرج إلى أي مكان. هيا، اذهب. اذهب، قالت لي. كان ثمة إطلاق رصاص بالليل. ماذا يكون ذلك. ماذا يكون، تاتا – تاتا – تاتا – تاتا. وانا افيق وانام على فترات، وحتى بهذه الطريقة لم أفلت. قالت لي زوجتي، حسنا اذهب، حسنا اذهب. اهرب. ماذا سيفعلون بي، انا بناء خصوصي، ماذا سيفعلون بي، استيقظ حوالي الثامنة صباحا. انتصب فوق السرير. اخترقت الرصاصة السقف. واخترقت قبعة امراته ودخلت في جسمه ومزقت عموده الفقري.

٢٣٠ Sergio Almaraz Paz, op. cit.

٢٣١ Salvador de la Plaza, en el volumen colectivo *Perfiles de la economía venezolana,* Caracas, 1964.

٢٣٢ Osny Duarte Pereira, *Ferro' e Independencia. Um desafio a dignidade nacional,* Río de Janeiro, 1967

٢٣٣ *Inmovable Mountains*, en Fortune, abril de 1965.

٢٣٤ Citado por Mário Pedrosa, *A opção brasileira,* Río de Janeiro, 1966.

٢٣٥ De Lyndon Johnson a Ranieri Mazzili, 2 de abril de 1964, versin de Associated press.

٢٣٦ Según informó el diario *O Estado de São Paulo,* 4 de mayo de 1964.

٢٣٧ José Stacchini, *Mobilizaçio de audácia,* São Paulo, 1965.

٢٣٨ Philip Siekman, «When Executives turned Revolutionaires», en *Fortune,* julio de 1964.

٢٣٩ راجعوا الشهادات أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس نواب الولايات المتحدة. التي أوردها هاري ماغدوف في عمله المذكور سابقا، وكذلك المقال المهم ايوجين ميتفين، في مختارات من ريدرز دايجست با سبانية، عدد كانون أول ١٩٦٦، وحسب رواية ميتلين، فإنه بفضل الخدمات الحميدة للمعهد ا مريكي لتطوير النقابة الحرة، ومقره واشنطن، استطاع الانقلابيون تنسيق تحركات قواتهم بالبرق، وكافا النظام العسكري الجديد المعهد ا مريكي لتطوير النقابية الحربة بتعيين أربعة من خريجيه "ليقوموا بتطهير النقابات التي يسيطر عليها الحمر..."

٢٤٠ Osny Duarte Pereira, op. cit.

٢٤١ حسب البيانات المنشورة لمنظمة الدول المصدرة للبترول. فرانسيسكو ميريس، "البترول والبنية الإشكالية الفترويلية"، ١٩٦٩

٢٤٢ تقرير من الكونغرس ا مريكي، تقارير سرية حول شئون البترول، بوينس ايريس، ١٩٦١، وهارفي اكونور، "امبراطورية البترول"، هابانا، ١٩٦١

٢٤٣ Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, *El capital monopolista*, México, 1970.

٢٤٤ Francisco Mieres, op. cit.

٢٤٥ Michael Tanzer, *The Political Economy of International Oil and the Underdeveloped Countries*, Boston, 1969.

٢٤٦ هارفي اوكونر، "ا زمة العالمية للبترول"، بوينس ايريس، ١٩٦٣.

-وما زالت هذه الظاهرة مألوفة في بلدان عديدة. ففي كولومبيا، مثلا، حيث يصدر البترول بحرية ودون دفع اية ضرائب، تشتري معامل التكرير الحكومية البترول الكولومبي من الشركات ا جنبية بزيادة ٣٧ في المائة عن السعر العالمي، وعليها أن تدفع بالدولار

٢٤٧ Jesús Silva Herzog, *Historia de la expropiación de las empresas petroleras,* México. 1964

٢٤٨ Vivian Trías, *Imperialismo y petróleo en el Uruguay,* Montevideo, 1963. Véase también el discurso del diputado Enrique Erro en el diario de sesiones de la Cámara de Representantes, núm. 1211, tomo 577, Montevideo, 8 de septiembre de 1966.

٢٤٩ Petrobrás figura en el primer lugar en la lista de las quinientas mayores empresas, publicada por *Conjuntura económica*, vol. 24, núm. 9, Río de Janeiro, 1970.

٢٥٠ تصريحات المهندس ماريكو ليتي ثيسارينو، في صحيفة لا مانها، ريو دي جانيرو، ٢٨ كانون ثاني عام ١٩٦٧

٢٥١ *Correio da Manhá* publicó un amplio extracto del documento en su edición del 19 de febrero de 1967.

٢٥٢ René Zavaleta Mercado, *Bolivia. El desarrollo de la conciencia nacional,* Montevideo, 1967.

٢٥٣٢٥٣ لم يدخر السيناتور لونج نعتا في وصف ستاندارد اويل، فقد دعاها بجرمة، صانعة شر، ولصة. وقاتلة محلية، وقاتلة أجنبية، ومتامرة دولية، وعصابة من قاطعي الطرق واللصوص المتوحشين، وبجموعة من المخربين واللصوص.

٢٥٤ تتعدد ا مثلة في التاريخ، القريب أو البعيد، ففي ٢٨ كانون أول عام ١٩٥٠، أبلغ ايرفينج فلورمان، سفير الولايات المتحدة في بوليفيا دونالد دوسون، من البيت ا بيض بأنه، "منذ وصلت إلى هنا، عملت بدأب في مشروع الفتح الكامل للصناعة البترولية لبوليفيا لتغلغل الشركات الخاصة ا مريكية الشمالية، وفي مساعدة برنابحنا للأمن القومي على نطاق واسع". وكذلك، "عرفت أن سيادتك سيهمك سماع أن صناعة بترول بوليفيا وكل هذه البلاد برمتها مفتوحتان جيدا ا ن أمام المبادرة الحرة ا مريكية الشمالية. لهذا، فإن بوليفيا هي أول بلد في العالم قام بإلغاء التأميم، أو بتأميم مقلوب. وانني لاحس بالفخر نني استطعت إتمام هذه المهمة لبلدي وللإدارة". وقد اعيد نشر الصورة الفوتوغرافية لهذا الخطاب، المأخوذ من مكتبة هاري ترومان، في مجلة ناكلا نيوزلتير، في نيويورك، شباط عام ١٩٦٩.

٢٥٥ Marcelo Quiroga Santa Cruz, interpelación del 11 y 12 de octubre de 1966 en la Cámara de Diputados, en la *Revista jurídica,* edición extraordinaria, Cochabamba, 1967.

٢٥٦ حين تفجرت الفضيحة، لم تلتزم سفارة الولايات المتحدة بالصمت الحكيم. فقد بلغ ا مر بأحد موظفيها أن يؤكد عدم وجود أي أصول لاتفاقية تالار

٢٥٧ Georgie Anne Geyer, Seized U.S. Oil Firm Made Napalm, en el New York Post, 7 de abril de 1969.

Para la redacción de este capítulo, el autor ha utilizado, además de las obras ya ٢٥٨

Orlando Araújo, ،citadas de Harvey O'Connor y Francisco Mieres, los libros siguientes *Operación Puerto Rico sobre Venezuela,* Caracas, 1967; Federico Brito, *Venezuela siglo XX,* La Habana, 1967; M. A. Falcon Urbano, *Desarrollo e industrialización de Venezuela,* Caracas, 1969; Elena Hochman, Héctor Mujica y otros, *Venezuela 1.°,* Caracas, 1963; William Krehm, *Democracia y tiranías en el Caribe,* Buenos Aires, 1959; los ensayos de D. F. Maza Zavala, Salvador de la Plaza, Pedro Esteban Mejía y Leonardo Montiel Ortega en el volumen citado en la nota *27;* Rodolfo Quintero, *La cultura del petróleo,* Caracas, 1968; Domingo Alberto Rangel, *El proceso del capitalismo contemporáneo en Venezuela,* Caracas, 1968; Arturo Uslar Pietri, *¿Tiene un porvenir la juventud venezolana?,* en *Cuadernos Americanos,* México, marzo–abril de 1968; y Naciones Unidas–CEPAL, *Estudio económico de América Latina,* 1969, Nueva York–Santiago de Chile, 1970

Time, edición para América Latina, 11 de septiembre de 1953 ٢٥٩

Williar. W. Kaufmann, *La política británica y la independencia de la América Latina (1804–1828)*, Caracas, 1963 ٢٦٠

Manfred Kossok, *El virreinato del Río de la Plata. Su estructura económico–social,* Buenos Aires, 1959 ٢٦١

H. S. Ferns, *Gran Bretaña y Argentina en el siglo XIX*, Buenos Aires, 1966. ٢٦٢

Ibid. ٢٦٣

Alexander von Humboldt, *Ensayo sobre el reino de la Nueva España*, México, 1944 ٢٦٤

Emilio Romero, *Historia económica del Perú,* Buenos Aires, 1949. ٢٦٥

Ibid. ٢٦٦

Hernán Ramírez Necochea, *Antecedentes económicos de ia independencia de Chile*, Santiago de Chile, 1959. ٢٦٧

Caio Prado Júnior, *Historia económica del Brasil*, Buenos , Aires, 1960 ٢٦٨

The University Society, *Bolivia en el primer centenario de su independencia,* La Paz, 1925 ٢٦٩

Luis C. Alen Lascano, *Imperialismo y comercio libre,* Buenos Aires, 1963 ٢٧٠

Pedro Santos hlartirez, *Las industrias durante el virreinato (1776–18101),* Buenos Aires, 1969 ٢٧١

Ricardo Levene, introducción a Documentos para la historia argentina, 1915, en *Obras completas,* Buenos Aires, 1962 ٢٧٢

Woodbine Parish, *Buenos Aires y las Provincias del Rio de la Plata*. Buenos Aires, 1958. ٢٧٣

Paulo Schilling, *Brasil para extranjeros*, Montevideo, 1966. ٢٧٤

٢٧٥ Alan K. Manchester, *British Preeminente in Brazil its Rise and Decline*, Chapel Hill, Carolina del Norte, 1933.

٢٧٦ Celso Furtado, *Formación económica del Brasil,* México Buenos Aires, 1959.

٢٧٧ J. F Normano, *Evolucão económica do Brasil*, São Paulo, 1934.

٢٧٨ Gustavo Beyhaut, *Raíces contemporáneas de América Latina*, Buenos Aires, 1964

٢٧٩ Hernán Ramírez Necochea, *Historia del imperialismo en Chile,* Santiago de Chile, 1960.

٢٨٠ دعا هذا الاقتصادي ا لماني، المولود في عام ١٧٨٩، في الولايات المتحدة وفي بلاده، إلى الحماية والتنمية الصناعية. وقد انتحر في عام ١٨٤٦. إلا أن أفكاره قد وجدت صدى بعيدا لها في كل من البلدين.

٢٨١ Claudio Véliz, La mesa de tres patas, en *Desarrollo económico*, vol. 3, núms. 1 y 2, Santiago de Chile, septiembre de 1963.

٢٨٢ "إذا كان دعاة التجارة الحرة لا يمكنهن أن يفهموا كيف يمكن لامة أن تثري على حساب أمة أخرى، فليس في ذلك ما يدعونا إلى الاستغراب ن هؤلاء السادة يرفضون أيضاً أن يفهموا كيف يمكن لطبقة داخل بلد واحد أن تثري على حساب طبقة أخرى". كارل ماركس حول مسالة التجارة الحرة. في بؤس الفلسفة، موسكو

٢٨٣ Luis Chávez Orozco, *La industria de transformación mexicana (1821–1867),* en Banco Nacíonal de Comercio Exterior, Colección de documentos para la historia del comercio exterior de México, tomo VII, México, 1962.

٢٨٤ Alonso Aguilar Monteverde, *Dialéctica de la economía mexicana*, México, 1968

٢٨٥ Jan Bazant, *Estudio sobre la productividad de la industria algodonera mexicana en 1843–1845* (Lucas Alamán y la Revolución industrial en México), en Banco Nacional de Comercio Exterior, op. cit.

٢٨٦ Luis Chلvez Orozco, op. cit.

٢٨٧ في عام ١٨٥٠، نشرت في مجلة ال سيغلو القرن التاسع عشر بيانات مختلفة تدعو إلى فرض الحماية، "بانتهاء فتح الحضارة ا سبانية وقرون سيطرتها العسكرية الثلاثة، دخلت المكسيك عصرا جديدا، يمكن أن يسمى هو أيضاً فتحا، لكنه فتح علمي وتجاري... إن قوته هي الملاحة التجارية وعقيدته هي الحرية الاقتصادية المطلقة، ومبدأه الجبار مع الشعوب ا قل تقدما هو قانون التبادل. انهم يقولون انا، "فلتحضروا إلى أوروبا اية منتجات يمكنكم احضارها (ولكن فيما عدا تلك التي نحظرها)، وفي المقابل، دعونا نحضر لكم المنتجات التي يمكننا احضارها، مع أنها قد تدمر صناعاتكم"... اننا لو تبنينا المذاهب التي تسمح لهم (سادتنا عبر المحيط والريو غراندي) بأن يقدموا دون أن يأخذوا، فقد لا تستفيد خزانتنا كثيرا ... لكننا بذلك لن نشجع عمل الشعب المكسيكي بل عمل الشعوب الإنجليزي والفرنسي والسويسري وا مريكي الشمالي.

٢٨٨ Miron Burgin, *Aspectos económicos del federalismo argentino,* Buenos Aires, 1960.

٢٨٩ Juan Alvarez, *Las guerras civiles argentinas,* Buenos Aires, 1912

٢٩٠ أن عصابة المونتينيرا "تولد في السهول كزوبعة. وهي تضرب، وتهدر، وتسحق كزوبعة، ثم تتوقف وتتلاشى فجأة كزوبعة". (داردو دي لافيجاديات).

وفي كتاب "مارتين فيرو". وهو أكثر الكتب شعبية في ا رجنتين، يصوغ خوسيه هيرنانديز (الذي كان جنديا اتحاديا) محنة الغاوشو، المنفى في مأواه والذي تضطهده السلطات في اغنية:

يحيا النصر في عشه،

يحيا النمر في الاجمة،

والثعلب في أي كهف،

لكن الغاوشو وحده.

في حظه المتقلب،

يحيا تائها حيثما ساقه القدر

لان:

الغياهب في انتظاره،

وليس في أي شيء يقوله حق،

مع أن له حقا وفيرا

حق ناقوس كنيسة خشبي،

حق الفقير

ويلاحظ خورخي ابيلاردو راموس أن اللقبين الحقيقيين الواردين في "مارتين فيرو". هما انشورينا وغاينثا — وهما اسمان يمثلان ا وليغاركية التي ابادت الكريول المسلحين. وقد اندمج الاسمان اليوم في العائلة التي تملك صحيفة لابرينسا اليومية.

اما الوجه الاخر لمارتين فيرو فيظهر في كتاب ريكاردو غويرالدس "دون سيغوندو سومبوا"، (١٩٢٩)، فهنا نجد الغاوشو الذي جرى تدجينه، والمرتبط باجره اليومي، والذي يتودد إلى سيده، والذي يعتبر نموذجا مفيدا لفولكلور الحنين إلى الماضي والشفقة.

٢٩١ رودولفو اورتيغا بينيا وادواردو لويس دوهالدي، "فيليبي فارلا ضد الإمبراطورية البريطانية"، بوينس ايريس، ١٩٦٦. في عام ١٨٧٠، أيضاً أغرق الغزاة ا جانب باراغواي في حمام دم، وكانت باراغواي هي البلد ا مريكي اللاتيني الوحيد الذي لم يكن قد دخل بعد السجن الإمبريالي.

٢٩٢ Miron Burgin, op. cit.

٢٩٣ Juan Alvarez; op. cit.

٢٩٤ Jorge Abelardo Ramos, op. cit.

٢٩٥ José Luis Busaniche, *Rosas visto por sus contemporáneos*, Buenos Aires, 1955.

٢٩٦ خوسي ريفيرا اندارتي في كتابه الشهير "جدأول الدم" وضع قائمة بجرائم روساس لكي يثير فزع الحساسيات ا وروبية. ووفقا لمجلة أطلس فإن بيت مسؤول لافون المصرفي البريطاني قد دفع للكاتب مليما لقاء

كل جثة. وكان روساس قد ضرب الإمبراطورية بقوة عندما حظر صادرات الذهب والفضة، وكان قد حل البنك ا هلي، الذي كان أداة التجارة البريطانية.

٢٩٧ Vívian Trías, *Juan Manuel de Rosas.* Montevideo, 1970

٢٩٨ خطاب غيرفاسيو ا. دي بوساداس، والذي ذكره داردو كونيو، "سلوك وأزمة طبقة التجار"، بوينس ايريس، ١٩٦٧

٢٩٩ Armando Raúl Bazán, *Las bases sociales de la montonera,* en Revista de historia americana y Argentina, núms. 7 y 8, Mendoza, 1962–63.

٣٠٠ Domingo Faustino Sarmiento, *Facundo,* Buenos Aires 1952.

٣٠١ Mario Margulis, *Migración y marginalidad en la sociedad argentina*, Buenos Aires, 1968

٣٠٢ Para escribir este capítulo, el autor consultó las siguientes obras، Tuan Bautista Alberdi, *Historia de la guerra del Paraguay,* Buenos Aires, 1962; Pelham Horton Box, *Los orígenes de la Guerra de la Triple Alianza,* Buenos Aires - Asunción, 1958; Efraím Cardozo, *El imperio del Brasil y el Rio de la Plata,* Buenos Aires, 1961; Julio César Chaves, *El presidente López,* Buenos Aires, 1955; Carlos Pereyra, *Francisco Solano López y la guerra del Paraguay,* Buenos Aires, 1945; Juan F. Pérez Acosta, *Carlos Antonio López, obrero máximo. Labor administrativa y constructiva,* Asunclón, 1948; José María Rosa, *Lo guerra del Paraguay y las montoneras argentinas,* Buenos Aires, 1965; Bartolomé Mitre y Juan Carlos Gómez, *Cartas polémicas sobre la guerra del Paraguay*, con prólogo de J. Natalicio González, Buenos Aires, 1940. Tambíen un trabajo inédito de Vivian Trías sobre el tema.

٣٠٣ في التواريخ الرسمية، يجري تصوير فرانثيا على أنه بطل من ابطال الرعب. على أن التشويهات البصرية التي فرضتها الليبيرالية ليست حكرا على الطبقات الحاكمة في أمريكا اللاتينية، ذلك أن كثيرين من المثقفين اليساريين الذين ينظرون إلى تاريخ بلادنا من خلال نظارات غربية يقبلون بعض الخرافات، والتقبلات والاستبعادات اليمينية، أن النشيد الشامل لبابلو نيرودا يشيد اشادة مؤثرة بالشعوب ا مريكية اللاتينية، لكنه يكشف بشكل واضح عن هذا الزيغ. فنيرودا لا يبالي بارتيغاس أو بكارلوس أنطونيو أو بفرانسيسكو لوبيث. بينما يتعاطف بدلا من ذلك مع سارمينتو. وهو يصف فرانثيا بانه "ملك مصاب بالجذام"، وهو ليس أكثر ودا تجاه روساس.

٣٠٤ كان ع الرهبان جمعية يسوع المتعصبون، "الحرس ا بيض للبابا"، قد أصبحوا مدافعين عن نظام العصر الوسيط ضد القوى الجديدة التي اخذت تقتحم المسرح ا وروبي. لكن الارساليات اليسوعية في أمريكا ا سبانية قد تطورت تطورا تقدميا، لقد تمكنت من أن تطهره عن طريق نكران الذات وعن طريق ضرب المثل في الزهد، كنيسة كاثوليكية كانت قد استسلمت للكسل والاستغلال الطليق للخبرات التي كان الفتح قد اتاحها لرجال الدين، وكانت ارساليات باراغواي هي التي وصلت الي لسمي مستوى، ففي غضون ما لا يزيد كثيرا عن قرن ونصف (١٦٠٣ – ١٧٦٨)، بررت بالكامل غايات مؤسسيها. لقد استخدم اليسوعيون الموسيقى لاجتذاب الهنود الغوارانيين الذين كانوا يبحثون عن ملاذ لهم في الغابات، والذين كانوا قد مكثوا هناك بدلا من الانضمام إلى "العملية التمدينية" التي دشنها الولاة وكبار ملاك ا راضي. وهكذا تمكن ١٥٠.٠٠٠ غواراني من العودة إلى

تنظيمهم المشاعي البدائي وأحياء فنونهم وحرفهم التقليدية. وكان نظام اللاتيفونديا غير معروف في الارساليات، إذ كانت تجري زراعة ا رض لإشباع الحاجات الفردية. من ناحية، ولتنمية مشاريع تخص الصالح العام. من ناحية ثانية، ولتدبير موارد للحصول على أدوات العمل الضرورية، التي كانت ملكية عامة، من ناحية ثالثة. وقد نظمت حياة الهنود تنظيما ذكيا، وكان الموسيقيون، والحرفيون، والمزارعون، والنساجون، والممثلون، والرسامون، والبناة يجتمعون في ورش ومدارس. و لم تكن النقود معروفة، وكان ممنوعا على التجار أن يدخلوا المنطقة وكان عليهم عقد اية معاملات من فنادق على بعد مسافة كافية. وقد خضع التاج في النهاية لضغط الولاة الكريول وطُرد اليسوعيون من أمريكا اللاتينية، وأخذ كبار ملاك ا راضي وتجار العبيد يتعقبون الهنود. وكانت الجثث تتدلى من ا شجار في مناطق الارساليات، وبيعت مجموعات بشرية بأكملها في أسواق العبيد البرازيلية. وقد لجا هنود كثيرون إلى الغابات ثانية. واستخدمت مكتبات اليسوعيون وقودا للأفران أو لصنع خراطيش البارود. خورخي ابيلاردو راموس، "تاريخ أمم أمريكا اللاتينية"، بونيس ايريس، ١٩٦٨

٣٠٥ ما زال سولانو لوبيز حيا في الذاكرة، ففي أيلول عام ١٩٦٩، عندما أعلن المتحف التاريخي القومي في ريو دي جانيرو أنه سوف يخصص لوحة لرئيس باراغواي، انتاب العسكريين الغضب. وفي حديث إلى الصحف، قال الجنرال موريااو فيلهو، الذي كان قد دشن انقلاب ١٩٦٤، "ان ريح جنون تجتاح البلاد. إن سولانو لوبيز شخصية يجب محوها إلى ا بد من تاريخنا، فهو نموذج للديكتاتور ا مريكي الجنوبي العسكري. لقد كان جزارا دمر باراغواي، إذ قادها إلى حرب مستحيلة".

٣٠٦ قبل انتخابات ١٩٦٨، زار الجنرال سترويسنر الولايات المتحدة. وقال لوكالة الصحافة الفرنسية "عندما التقيت بالرئيس جونسون، أوضحت له انني قد اديت مهمة رئيس الوزراء لمدة اثني عشر عاما بتفويض استفتائي. وقد رد جونسون بأن ذلك يعد سبباآخر لمواصلة أداء المهمة في الفترة القادمة".

٣٠٧ Presidencia de la Nación, Secretaría Técnica de Planificación, *Plan nacional de desarrollo económico y social,* Asunción, 1966.

٣٠٨ اختار فلاحون كثيرون في نهاية ا مر العودة إلى منطقة المزارع الصغيرة في وسط البلاد، أو انضموا إلى النزوح الجماعي الجديد إلى البرازيل. حيث يقدمون قوة عملهم الرخيصة إلى مزارع الماتي في كورتيتبيا وماتو غروسو أو مزارع البن في بارانا. أما المحنة ا قسى فهي محنة الرائد، الذي يجد نفسه وجها لوجه مع الغابة، محروما تماماً من المعرفة التقنية أو المساعدة الائتمانية، مع أراض ممنوحة من الحكومة يتعين عليه أن يتخلص منها ما يكفي لإطعامه وسداد ديونه — نه أن لم يدفع الثمن المحدد للأرض فإنه لن يحصل على حق حيازتها.

٣٠٩ R. Scalabrini Ortiz, *Política británica en el Río de la Plata,* Buenos Aires, 194

٣١٠ J. Fred Rippy, *British Investments in Latin America* (1822–1949), Minneapolis, 1959.

٣١١ Celso Furtado, op. cit.

٣١٢ Robert Schnerb, Le XIX siécle. *L'apogée de 1'expansion européenne (1815–1914),* tomo VI de la Historia general de las civilizaciones dirigida por Maurice Crouzet, París, 1968

٣١٣ R. Scalabrini Ortiz, op. cit.

٣١٤ J. Eduardo Retondo, *El bosque y la industria forestal en Santiago del Estero*, Santiago del Estero, 1962.

٣١٥ Citado por André Gunder Frank, *Capitalism and Underdevelopment in Latin America*, Nueva York, 1967

٣١٦ Edward C. Kirkland, *Historia económica de Estados Unidos*, México, 1441

٣١٧ Celso Furtado, op. cit.

٣١٨ Claude Folilen, *L'Amérique anglo–saxonne de 1815 à nos jours*, París, 1965.

٣١٩ Robert Schnerb, op. cit.

٣٢٠ لقد أصبح الجنوب مستعمرة داخلية للرأسماليين الشماليين. وبعد الحرب، اتخذت الدعاية الموجهة إلى انشاء مصانع للغزل في كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا والاباما ابعاد حرب صليبية. لكن ذلك لم يكن انتصارا لقضية أدبية، و لم تكن وراء الصناعات الجديدة اية نزعة إنسانية خيرية خالصة، لقد كان الجنوب يقدم قوة عمل وطاقة أرخص وأرباحا فلكية، تصل أحيانا إلى نسبة ٧٥ في المائة. وقد تدفق رأس المال من الشمال لربط الجنوب بمركز جاذبية النظام. وكانت صناعة التبغ، المتمركزة في كارولينا الشمالية، خاضعة لتروست دوك مباشرة وهو التروست الذي جعل مقره الرئيس في نيوجرسي للاستفادة من قوانين مناسبة أكثر، وفي عام ١٩٠٧، وقمت شركة فحم وحديد تنيسي، التي كانت تستغل حديد وفحم الاباما، تحت سيطرة تروست الصلب ا مريكي، الذي أخذ منذ ذلك الحين فصاعدا في تحديد ا سعار وقضي بذلك على المنافسة المزعجة. وفي بداية القرن العشرين كان دخل الفرد في الجنوب قد هبط إلى نصف ما كان عليه قبل الحرب الاهلية.

٣٢١ Claude Fohlen, op. cit.

٣٢٢ أصبح الجنوب مستعمرة داخلية للرأسماليين الشماليين. بعد الحرب، الدعاية من أجل بناء المصانع في كارولينا وجورجيا والاباما، اخذت طابع حرب صليبية.

٣٢٣ قبل أربعين سنة، كانت الاستثمارات ا مريكية في الصناعات التحويلية لا تشكل غير نسبة ٦ في المئة إجمالي الرساميل ا مريكية المستثمرة في أمريكا اللاتينية. وفي عام ١٩٦٠، تجاوزت نسبة ٢٠ في المائة، وواصلت التزايد لتصبح ثلث الإجمالي.

٣٢٤ Secretaría General de la Organización de Estados Americanos, *El financiamiento externo para el desarrollo de la América Latina*, Washington, 1969. Documento de distribución limitada; sextas reuniones anuales del CIES.

٣٢٥ بيانات من وزارة التجارة في الولايات المتحدة واللجنة المشتركة ا مريكية بشأن التحالف من أجل التقدم. ا مانة العامة لمنظمة الدول ا مريكية

٣٢٦ Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, *El capital monopolista*, México, 1971

٣٢٧ J. J. Servan–Schreiber, *El desafío americano*, Santiago de Chile, 1968.

٣٢٨ Citado por Alfredo Parera Dtnnis, Naturaleza de las relaciones entre las clases mica y social, n econpolis, en Fichas de investigacidominantes argentinas y las metr Buenos Aires, diciembre de 1964.

٣٢٩ Ministério do Planejamento e Coordenario Geral, A industrializaço brasileira، diagnstico e perspectivas, Rio de Janeiro, 1959.

٣٣٠ Dardo Cúneo, *Comportamiento y crisis de la clase empresaria*. Buenos Aires, 1967.

٣٣١ قامت تشيلي وكولومبيا واورغواي أيضاً ببعض محاولات التصنيع كبديل للاستيراد في الفترات المشار إليها هنا. وكان رئيس أوروغواي خوسيه باتييه أي اوردونوييث (١٩٠٣-١٩٠٧-و١٩١١-١٩١٥) نبيا للثورة البورجوازية في أمريكا اللاتينية قبل ذلك. وقد سبقت أوروغواي الولايات المتحدة في تطبيق يوم عمل من ثماني ساعات بموجب قانون. و لم تكن تجربة دولة الرعاية الاجتماعية التي قام بها باتييه قاصرة على تنفيذ أكثر القوانين الاجتماعية تقدما في ذلك الزمن، فقد قدمت أيضاً تشجيعا قويا للتطور الثقافي ولتربية الجماهير، واممت الخدمات العامة ومختلف ا نشطة الإنتاجية المهمة من الناحية الاقتصادية. إلا أنها لم تمس قوة كبار ملاك ا راضي، كما لم تؤمم البنوك أو التجارة الخارجية، وتعاني أورغواي اليوم من تقصيرات النبي التي ربما كانت حتمية كما تعاني من خيانات خلفائه.

٣٣٢ أن تحويل منتوج معين إلى الإنتاج الداخلي ليس من شانه غير "تعويض"، جزء من إجمالي القيمة المستخلصة سلفا من خارج الاقتصاد... وكلما توسع استهلاك هذا المنتوج "المعوض" بسرعة، كلما أمكن للطلب الناشيء عن ذلك على الواردات أن يتجاوز بسرعة اقتصاد العملة ا جنبية" (ماريا دي كونسيبار تافاريس).

٣٣٣ Ismael Viñas y Eugenio Gastiazoro, *Economía y dependencia (1900–1968)*, Buenos Aires, 1968.

٣٣٤ في ٢٧ تشرين ثاني عام ١٩٥٣، أجاب وزير الشئون الاقتصادية على سؤال مندوب لمجلة "ليزيون" على النحو التالي:

باستثناء صناعة النفط، ما هي الصناعات ا خرى التي تريد ا رجنتين تنميتها بالتعاون مع رأس المال ا جنبي؟

"لكي نكون محددين، لنذكر حسب ا ولوية النفط... ثانيا، صناعة الصلب... الصناعات الكيميائية الثقيلة ... صناعة وحدات النقل... صناعة إطارات السيارات وعجلات السيارات. وبناء محركات الديزل".

٣٣٥ Octavio Ianni, *O colapso do populismo no Brasil,* Río de Janeiro, 1968

٣٣٦ Luciano Martins, *Industrialização, burguesia nacional e desenvolvimento*, Río de Janeiro, 196

٣٣٧ Fernando Henrique Cardoso, *Ideologías de la burguesía industrial en sociedades dependientes (Argentina y Brasil)*, México, 1970.

٣٣٨ François Bourricaud, Jorge Bravo Bresani, Henrí Favre, Jean Piel, *La oligarquía en el Perú*, Lima, 1969. El dato proviene del trabajo de Favre.

٣٣٩ ريكاردو لاجوس اسكوبار، "تركيز السلطة الاقتصادية. نظريتها. الواقع التشيلي" (سانتياغو دي شيلي، ١٩٦١) وفيفيان ترياس، الإصلاح الزراعي في أوروغواي، مونتفيديو، ١٩٦٢، تقدم أمثلة مقنعة، بضع مئات من ا سر تملك المصانع وا راضي والشركات الكبرى والبنوك.

٣٤٠ " أصبح الرأسماليون المكسيكيون أكثر تنوعا وأكثر طموحا. بغض النظر عن ا عمال التي كانت بمثابة نقطة انطلاق لزيادة ثرواتهم، فلديهم شبكة من القنوات المفتوحة على كل شيء، أو على ا قل أكثر وضوحا، يوفرون دائما القدرة على التكاثر وربط مصالحهم من خلال الصداقة والشراكة في مجال ا عمال التجارية والزواج والمحسوبية، ومنح امتيازات متبادلة، والعضوية في بعض النوادي أو الجماعات والتجمعات الاجتماعية المتكررة، وبطبيعة الحال، تقارب في المواقف السياسية". "ألونسو أغيلار مونتيفيردي، "في المعجزة المكسيكية"، من خلال عدة مؤلفين، المكسيك، ١٩٧٠.

٣٤١ كان كارلوس بيليجريني. عندما كرمه نادي الفروسية عن طريق تحرير خطاباته، وألغى الصناعيين الذين كانوا يدعمون أطروحة التصنيع. داردو كونيو، مرجع سابق.

٣٤٢ خطاب للوزير هيليو بيلتراو، في إفطار غرفة التجارة لريو دي جانيرو، ٢٤ أيار ١٩٦٩

٣٤٣ CEPAL–BNDE, *Quince años de política económica en el Brasil*, Santiago de Chile, 1965.

٣٤٤ يقدر يوجينو غدوين، وهو اقتصادي يحبذ الاستثمارات ا جنبية كثيرا، أن البرازيل قد منحت الشركات ا مريكية وا وروبية، تحت هذا البند وحده، ما لا يقل عن بليون دولار. ووفقا لمواسير بايكاسو، فإن المزايا المقدمة إلى صناعة السيارات في فترة انبثاقها كانت تعادل الميزانية القومية من حيث حجمها المالي. ويلاحظ بأولو شيلينغ أنه بينما كانت الدولة البرازيلية شخصية في المزايا التي قدمتها إلى الشركات الدولية، حيث سمحت لها بتحقيق أقصى ا رباح مقابل أدنى الاستثمارات، فإنها قد رفضت مساعدة المصنع القومي للسيارات، الذي أنشيء في عهد فارغاس. وفيما بعد، في ظل نظام كاستيلو برانكو، بيع هذا المشروع الذي تملكه الدولة لشركة ألفاً روميو.

٣٤٥ Mauricio Vinhas de Queiroz, *Os grupos multibilionarios*, en Revista do Instituto de Ciéncias Sociais, Universidade Federal de Río de Janeiro, enero–diciembre de 1965.

٣٤٦ وجدت اللجنة أن رأس المال ا جنبي قد سيطر في عام ١٩٦٨ على نسبة ٤٠ في المائة من سوق الرساميل في البرازيل، وعلى نسبة ٦٢ في المائة من التجارة الخارجية، وعلى نسبة ٨٢ في المائة من النقل عبر المحيط، وعلى نسبة ٦٧ في المائة من النقل الجوي الخارجي، وعلى نسبة ١٠٠ في المائة من إنتاج السيارات، وعلى نسبة ١٠٠ في المائة من إنتاج إطارات السيارات، وعلى نسبة تزيد عن ٨٠ في المائة من الصناعات الدوائية، وعلى نسبة تصل إلى نحو ٥٠ في المائة من الصناعة الكيماوية، وعلى نسبة ٥٩ في المائة من إنتاج ا لات ونسبة ٦٢ في المائة من إنتاج قطع غيار السيارات، وعلى نسبة ٤٨ في المائة من إنتاج ا لومنيوم ونسبة ٩٠ في المائة من إنتاج الاسمنت. وكان نصف الرساميل ا جنبية يخص الشركات ا مريكية تليها الشركات ا لمانية، وتجدر الإشارة، بالمناسبة، إلى الثقل المتزايد لاستثمارات جمهورية ألمانيا الاتحادية في أمريكا اللاتينية، فمن كل سيارتين تصنعان في البرازيل، تأتي واحدة من مصنع فولكسفاغن، أكبر مصنع في المنطقة كلها. وكان أول مصنع للسيارات في أمريكا الجنوبية

ألمانيا – مرسيدس بتز ا رجنتين، الذي تأسس في عام ١٩٥١. وتسيطر الشركات ا لمانية، باير، هوكست، بي. ايه. اس. اف، وشيرينغ على جانب مهم من الصناعات الكيميائية في أمريكا اللاتينية.

٣٤٧ Suplemento especial del New York Times, 19 de enero de 1969.

٣٤٨ Sergio Nicolau, *La inversión extranjera directa en los países de la ALALC*, México, 1968.

٣٤٩ Rogelio García Lupo, *Contra la ocupación extranjera*, Buenos Aires, 1968.

٣٥٠ Citado por Naciones Unidas, CEPAL, Estudio económico de América Latina, 1968, Nueva York–Santiago de Chile; 1969.

٣٥١ Reportaje de la revista Vision, 3 de febrero de 1967.

٣٥٢ José Luis Ceceña, *Los monopolios en México*, México, 1962

٣٥٣ José Luis Ceceña, *México en la órbita Imperial*, México, 1970, y Alonso Aguilar y Fernando Carmona, *México, riqueza y miseria,* México, 1968.

٣٥٤ ظهرت هذه الشهادة في تقرير للجنة برلمانية معنية بالتحقيق في المعاملات بين المشاريع القومية وا جنبية، مؤرخ في ٦ أيلول ١٩٦٨. وقد نشر كامبوس بعد ذلك بوقت قصير تفسيرا غريبا للموقف القومي لحكومة بيرو. فوفقا له، لم تكن مصادرة حكومة بيلاسكو البارادو لممتلكات شركة ستاندارد اويل أكثر من "استعراض فارغ للرجولة". وقد كتب يقول أن الهدف الوحيد للروح القومية هو اشباع حاجة الانسان البدائية إلى الكراهية. على أنه أضاف أن "الكرامة لا تحفز الاستثمارات كما أنه ليس من شاها أن تعمل على زيادة الرساميل..." (صحيفة أو غلوبو اليومية، ٢٥ شباط ١٩٦٩).

٣٥٥ Samuel Lichtensztejn y Alberto Couriel, *El FMI y la crisis económica nacional*, Montevideo, 1967; y Vivian Trías, *La crisis del know–how,* Montevideo, 1970.

٣٥٦ Fernando Gasparian, en *Correio da Manhã,* 1ero. de mayo de 1968.

٣٥٧ Secretaria General de la OEA, op. cit.

٣٥٨ International Banicing Survey, journal of Commerce, Nueva York. 25 de febrero de 1968.

٣٥٩ Robert A. Bennett y Karen Almonti, *International Activities of United States Banks en The American Banker,* Nueva York, 1969.

٣٦٠ Ministério do Planeiamento e Coordenaçiao Económica, *Programa de Açao Económica do Govérno,* Río de Janeiro, noviembre de 1964.

٣٦١ "التحويلات المالية من البرازيل تظهر زيادة في التشريعات بدءا من عام ١٩٦٥، الذي عقد في وزارة التجارة في الولايات المتحدة. " زيادة تدفق الفوائد وا رباح وأرباح ا سهم والإتاوات. أحكام وشروط القروض تخضع لالتزام مع صندوق النقد الدولي. "التجارة الدولية"، ٢٤ أبريل ١٩٦٧.

٣٦٢ ا مانة العامة لمنظمة الدول ا مريكية، اعترف الرئيس كينيدي بأنه "في عام ١٩٦٠، حين كان العالم النامي بحاجة إلى رؤوس ا موال، سحب منه ١.٣ مليار دولار بينما لم يتم استثمار أكثر من مائتان مليون" (خطاب إلى المؤتمر من AFL-CIO، في ميامي يوم ٨ ديسمبر ١٩٦١)

٣٦٣ بلغ السهو والاخطاء الغامضة، على سبيل المثال، بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٦، أكثر من مليار دولا في فنزويلا و٧٤٣ في ا رجنتين، و٧١.٦ في البرازيل، ٣١٠ في ا وروغواي. ا مم المتحدة، اللجنة الاقتصادية

٣٦٤ Fichas de investigacin econmica y social, Buenos Aires, junio de 1965.

٣٦٥ V. A. Cheprakov, *El capitalismo monopolista de Estado*, Moscú, s. f.; Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, op. cit., y Vivian Trías, op. cit.

٣٦٦ *O Estado de São Paulo*. 24 de enero de 1963

٣٦٧ International Commerce, 4 de febrero de 1963.

٣٦٨ Wall Street Journal, 31 de enero de 1968

٣٦٩ International Commerce, 17 de julio de 1967 .

٣٧٠ Secretaria General de la OEA, op. cit.

٣٧١ على سبيل المثال، في أوروغواي، وقع على نص العقد على ٢١ مايو ١٩٦٣ بين بنك التنمية وإدارة الحكومة في مونتفيديو، لتوسيع المجاري.

٣٧٢ على سبيل المثال، في بوليفيا، وقع على نص العقد على ١ أبريل ١٩٦٦ بين بنك التنمية وجامعة مايور دي سان سيمون في كوتشابامبا، لتحسين تدريس العلوم الزراعية.

٣٧٣ Documento publicado por el diario *Ya*, Montevideo, 28 de mayo de 1970.

٣٧٤ *Panorama,* Centro de Estudios y Documentación Sociales, México, noviembre – diciembre de 1965

٣٧٥ كما تلقت دكتاتورية دوفاليه وعدا، اعترافا بالجميل، بإنشاء طريق رئيسي إلى المطار. وينفق كتاب عديدون على أن ذلك كان حالة من حالات الرشوة. لكن الولايات المتحدة لم تف بوعدها لهاييتي. وقد شعر "بابا دوك" دوفاليه، حارس الموت في ميثولوجيا الفودو (عقائد زنوج هاييتي القائمة على السحر)، بانه قد تعرض للخديعة. ويقال أن الساحر العجوز قد دعا الشيطان أن ينتقم له من الرئيس كينيدي. وأنه ابتسم ابتسامة راضية عندما قتلت الرصاصات الرئيس في دالاس.

٣٧٦ Reportaje por Georgie Anne Geyer, *The Miami Herald,* 24 de diciembre de 1966

٣٧٧ Declaración ante la subcomisión de la Cámara de Representantes. Citado por Nelson Werneck Sodré, *História militar do Brasil,* Río de Janeiro, 1965

٣٧٨ Frederick B. Pike, *The Modern History of Peru*. Nueva York, 1968.

٣٧٩ Amado Canelas, *Radiografía de la Alianza para el Atraso*, Là Paz, 1963; Mariano Baptista Gumucio y otros, *Guerrilleros y generales sobre Bolivia,* Buenos Aires, 1968; y John Gunther, *Inside South America,* Nueva York, 1967.

٣٨٠ بعد ذلك بوقت قصير، قررت بيجي، ابنة روكفيللر، الذهاب والعيش في فافيلا من فافيلات ريو دي جانيرو اسمها جاكاريزنهو. والحال أن والدها، وهو أحد أغنى الناس في العالم، قد ذهب إلى البرازيل لمتابعة أحوال استثماراته التي يصل حجمها إلى ملايين عديدة من الدولارات وزار شخصيا منزل ا سرة المتواضعة الذي اختارته بيجي للإقامة فيه مع ساكنيه. وقد جرب تناول عشاء متواضع واكتشف منزعجا أن المنزل مليء بالشقوق وأن الفئران تدخل من عقب الباب. وعند مغادرته المنزل، ترك شيكا بمبلغ هائل على المائدة. وقد اقامت بيجي هناك بضعة أشهر، حيث تعاونت مع فيلق السلام. و لم تتوقف الشيكات عن الوصول، وكان مبلغ كل واحد منها يساوي المبلغ الذي يمكن لرب البيت كسبه من خلال عمل متواصل على مدار عشر سنوات. وعندما رحلت بيجي في نهاية ا مر، كان قد حدث تحول لمنزل وأسرة جاكاريزينهو، أن الفافيلا لم تعرف قد ثروة كهذه. لقد هبطت بيجي عليها من السماء مباشرة. وكان ا مر أشبه ما يكون بالفوز بكل أوراق اليانصيب مرة واحدة. وعندئذ صار رب البيت بمثابة مصدر بركة للنظام. لقد انفلت عقال النشرات التلفزيونية والاذاعية ومقالات الصحف والمجلات، فالرجل نموذج يجب على جميع البرازيليين الاقتداء به. لقد خرج من الفقر بفضل إصراره الذي لا يلين على العمل وقدرته على الادخار. انظروا، انظروا، أنه لا ينفق ما يكسبه على العربدة. وهو لديه ا ن جهاز تليفزيون وثلاجة كهربائية واثاث جديد واحذيه طفاله! على أن الدعاية قد اغفلت الإشارة إلى جزئية واحدة، زيارة بيجي، الام الروحية الحنون. والحال أن البرازيل تضم تسعين مليون انسان و لم تحدث المعجزة إلا لواحد فقط منهم.

٣٨١ ليس من قبيل المصادفات أن هذا النص القانوني يشير بشكل محدد إلى التدابير المتخذة ضد المصالح ا مريكية "في أول كانون ثاني ١٩٦٢ أو تاريخ لاحق". ففي ١٦ شباط ١٩٦٢، أمم المحافظ ليونيل بريزولا شركة التليفونات، إحدى فروع شركة التليفون والتلغراف في ولاية ريو غراندي دو سول البرازيلية، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين واشنطن وبرازيليا. و لم تقبل الشركة التعويض الذي اقترحته الحكومة.

٣٨٢ International Commerce, abril 10 de 1967.

٣٨٣ Citado por NACLA *Newsletter,* mayo–junio de 1970

٣٨٤ ADELA Annual Report, 1968. Citado por NACIA, op. cit.

٣٨٥ Banco Interamericano de Desarrollo, *Décimo informe anual,* 1969, Washington, 1970

٣٨٦ Harry Magdoff, *La era del imperialismo, Monthly Review,* selecciones en castellano, enero–febrero de 1969.

٣٨٧ The World Bank, IFC and IDA, Policies and Operations, Washington, 1962.

٣٨٨ The World Bank, *IFC and IDA,* op. cit

٣٨٩ يرى بلاك أن "المساعدة الخارجية تحفز تطور أسواق خارجية جديدة للشركات ا مريكية، وتوجه الاقتصاديات القومية نحو نظام للاستثمار الحر يمكن للمؤسسات الخاصة ا مريكية أن تزدهر فيه"، (مجلة كولومبيا للتجارة العالمية، المجلد ا ول، ١٩٦٥)

٣٩٠ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit., y *Estudio económico de América Latina, 1969,* Nueva York–Santiago de Chile, 1970.

٣٩١ وفقا لتوقعات معهد أمريكا اللاتينية للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي، "العجز التجاري والتكامل في أمريكا اللاتينية"، المكسيك وسانتياغو دي شيلي، ١٩٦٧.

٣٩٢ Pierre Jalée, *Le pillage du Tiers Monde*, París, 1966

٣٩٣ في سنوات ١٩٦٦ -١٩٦٨ الثلاث، عاد البن على كولومبيا بنسبة ٦٤ في المائة من إجمالي دخل صادراتها، وعلى البرازيل بنسبة ٤٣ في المائة، وعلى السلفادور بنسبة ٤٨ في المائة، وعلى غواتيمالا بنسبة ٤٢ في المائة، وعلى كوستاريكا بنسبة ٣٦ في المائة. وعاد الموز على الإكوادور بنسبة ٦١ في المائة، وعلى كوستاريكا بنسبة ٣٦ في المائة، وعلى هندوراس بنسبة ٤٧ في المائة. واعتمدت نيكاراغوا بنسبة ٤٢ في المائة على القطن، وجمهورية الدومينيكان بنسبة ٥٦ في المائة على السكر . وحققت اللحوم، والجلود، والصوف وروغواي نسبة ٨٣ في المائة من دخل تشيلي التجاري وعن نسبة ٢٦ في المائة من دخل بيرو التجاري، ومثل القصدير بالنسبة لبوليفيا نسبة ٥٤ في المائة من قيمة صادراتها، وجاءت نسبة ٩٣ في المائة من عملات فنزويلا ا جنبية من البترول.

اما فيما يتعلق بالمكسيك، فإنها "تعتمد بنسبة تزيد عن ٣٠ في المائة على ثلاثة منتجات، وبنسبة تزيد عن ٤٠ في المائة على خمسة منتجات، وبنسبة تزيد عن ٥٠ في المائة على عشرة منتجات، معظمها غير مصنعة وتصريفها الرئيسي في السوق ا مريكية الشمالية" (بابلو غونزاليث كازانوفا)، "الديمقراطية في المكسيك"، المكسيك، ١٩٦٥

٣٩٤ Marco D. Pollner en el volumen colectivo de INTAL–BID, *Los empresarios y la integración de América Latina*, Buenos Aires,

٣٩٥ Central Unica de Trabajadores de Chile, *América Latina, un mundo que ganar,* Santiago de Chile, 1968.

٣٩٦ Instituto Latinoamericano de Planificacion Econmica y Social, op. cit.

٣٩٧ A. Emmanuel, *El cambio desigual,* México

٣٩٨ Citado por André Gunder Frank, *Totuard a Theory of Capitalist Underdevelopment*, introducción a la antología Underdevelopment.

1965 and 1970, ،L. Delwart (*The Future of Latin American Exports to the United States* Nueva York, 1970) publica una lista muy elocuente de las restricciones en vigencia a la . importación de productos latinoamericanos

٤٠٠ Harry Magdolf, op. cit.

٤٠١ Revista *Fator*, Río de Janeiro, noviembre–diciembre de 1968.

٤٠٢ Carlos Quijano, *Las víctimas del sistema en marcha*, Montevideo, 23 de octubre de 1970.

٤٠٣ New York Times, 3 de abril de 1968

٤٠٤ اظهر مسح شامل للشركات الفرعية ا مريكية في المكسيك، أجر ي لحساب الناشيونال شامبو فانودشن في عام ١٩٦٩، أن نصف الشركات التي اجابت على أسئلة الاستبيان ممنوع من بيع منتجاته في الخارج بناء على أوامر من مكاتبه الرئيسية ا مريكية. فالشركات الفرعية لم تتشكل لهذا الغرض.

و لم تتجاوز العلاقة بين صادرات المنتجات الصناعية والناتج الصناعي الإجمالي نسبة ٣ في المائة في عام ١٩٦٣ في ا رجنتين. والبرازيل، وبيرو، وكولومبيا، وإكوادور، وكانت ٣.٧ في المائة في المكسيك و٣.٢ في تشيلي.

٤٠٥ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit.

٤٠٦ *Jornal do Comercio*, Río de Janeiro 23 de marzo de 1950

٤٠٧ Celso Furtado, *Um projeto para o Brasil*, Río de Janeiro, 1968

٤٠٨ International Commerce, 24 de abril de 1967

٤٠٩ Ismael Vinas y Eugenio Gastiazoro, op. cit.

٤١٠ Antonio García, *Las constelaciones del poder y el desarrollo latinoamericano*, en Comercio exterior, México, noviembre de 1969.

٤١١ من المؤكد أن هذه الالية ليست جديدة. لقد حقق المصنع الإنجليزي لتعليب اللحوم على الدوام خسائر في أورغواي لكي يحصل على اعانات من الدولة ويزيد أرباح محال الجزارة التابعة له في لندن – التي يصل عددها إلى ستة آلاف محل – حيث يباع كيلو اللحم المصدر من أوروغواي بسعر يزيد أربع مرات عن السعر الذي تصدر أوروغواي به.

٤١٢ تصريح الرئيس سلفادور الليندي، ١٢ كانون أول ١٩٧٠

٤١٣ Dato publicado en el diario *La Razón*, Buenos Aires, 2 de marzo de 1970.

٤١٤ *Resultados da indústria automobilística*, estudio especial de Conjuntura económica, febrero de 1969

٤١٥ NACLA Newsletter, abril–mayo de 1969

٤١٦ Miguel S. Wionczek, *La trasmisión de la tecnología a los países en desarrollo*، *proyecto de un estudio sobre México*, en Comercio exterior, México, mayo de 1968

٤١٧ Víctor L. Urquidi en *Obstacles to Change in Latin America*, de Claudio Véliz y otros, Londres, 1967

٤١٨ في معرض تصويره لطبيعة الوهم التنموي، يستشهد سادوسكي بشهادة أحد احصائي منظمة الدول ا مريكية، "يقول جورج لاندار أن البلدان النامية تتمتع بمزايا معينة بالمقارنة مع البلدان المتقدمة لها حين تستخدم عملية أو تقنية جديدة معينة فالها تختار عادة أكثر انماطها تقدما، وهكذا تجني ثمار سنوات من البحث وثمار استثمارات ملحوظة كان على البلدان ا كثر تقدما من الناحية الصناعية تكريسها لتحقيق تلك النتائج.

٤١٩ Oscar J. Maggiolo en el volumen colectivo *Hacia una política cultural autónoma para América Latina*, Montevideo, 1969

٤٢٠ Gustavo Lagos y otros, *Las inversiones multinacionales en el desarrollo y la integración de América Latina*, Bogotá, 1968

٤٢١ Raúl Prebisch, *La cooperación internacional en el desarrollo latinoamericano*, en Desarrollo, Bogotá, enero de 1970.

٤٢٢ تعتبر الفروع ا جنبية، على اية حال، أحدث بكثير من المشاريع الاستثمارية القومية. ففي صناعة المنسوجات مثلا – إحدى القلاع ا خيرة لراس المال القومي – تعد درجة الاتمتة منخفضة بصورة مزرية. وفقا لتقارير اللجنة الاقتصادية مريكا اللاتينية، فقد استثمرت أربعة بلدان أوروبية في عامي ١٩٦٢ و١٩٦٣ في المعدات الجديدة لصناعات النسيج فيها ما يزيد ست مرات عما استثمرته أمريكا اللاتينية كلها لذلك الغرض في عام ١٩٦٤.

٤٢٣ في عام ١٩٥٧ – لا توجد وثائق أحدث –، شغلت الفروع ا مريكية الشمالية في الصناعة ا وروبية، قياسا إلى رأس المال المستثمر، أيد عاملة أكثر بكثير مما فعلت في أمريكا اللاتينية.

٤٢٤ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit

٤٢٥ F. S. O'Brien, *The Brazilian Population and Labor Force in 1968*, documento para discusión interna, Ministério do Planejamento e Coordenação Geral, Rio de Janeiro, 1969

٤٢٦ Naciones Unidas, CEPAL, Estudio económico de América Latina, 1967, Nueva York–Santiago de Chile, 1968.

٤٢٧ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit.

٤٢٨ n, De Frente, Buenos Aires, 25 de Raimundo Ongaro, carta desde la prisi septiembre de 1969.

٤٢٩ André Gunder Frank, *Capitalism and Underdevelopment in Latin America*, Nueva York, 1967

٤٣٠ Ministério do Planejamento e Coordenaçao Econmica, op. cit.

٤٣١ Z. Romarova, *La expansión económica de Estados Unidos en América Latina,* Moscú, s. f.

٤٣٢ Datos de Serge Bim, técnico norteamericano en organización del trabajo, según *Jornal do Brasil*, Río de Janeiro, 5 de enero de 1969.

٤٣٣ André Gunder Frank, op. cit

٤٣٤ وفقا لهذه الدراسة ذاتها التي أجر تها اللجنة الاقتصادية مريكا اللاتينية، فإن عملية هامة لإعادة توزيع الدخل بصورة تدريجية قد جرت في ا رجنتين في السنوات السابقة لسنة ١٩٥٣. ومن بين السنوات الثلاث التي تتوافر عنها معلومات أكثر تفصيلا، فقد كانت هذه السنة على وجه التحديد هي السنة التي كان التفاوت فيها أقل مما في سواها، بينما كان التفاوت أعظم بكثير في سنة ١٩٥٩... وفي المكسيك، في الفترة ا طول الممتدة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٦٤. فإن هناك مؤشرات تدل على أن الخسائر لم تكن نسبية فقط بل ومطلقة أيضاً بالنسبة إلى ٢٠ في المائة من الاسر ذات الدخول ا كثر انخفاضا.

٤٣٥ Mauricio Vinhas de Queiroz, op. cit.

٤٣٦ كانت نسبة ٦٤ في المائة من المشاريع الاستثمارية، مستفيدة من التنازلات التي قدمتها الالك، تصدر داخل المنطقة منتجات كيميائية وبتروكيميائية، والالياف الاصطناعية، والمواد الإليكترونية، وا لات الصناعية والزراعية، ومعدات المكاتب، والمحركات، وأدوات القياس، والمواسير المصنوعة من الصلب، ومنتجات أخرى.

٤٣٧ Business Internacional, LAFTA, Key Amenca's 200 Million Consumers, reportaje de n, junio de 1966.investigaci

٤٣٨ Fortune, *A Latin American Common Market Makes Common Sense For U. S. Businessmen Too*, junio de 1967.

٤٣٩ Raúl Prebisch, Problemas de la integración económica, en *Actualidades económicas financieras*, Montevideo, enero de 1962.

٤٤٠ Prebisch, Sanz de Santamaría, Mayobre y Herrera, *Proposiciones para la creación del Mercado Común Latinoamericano*, documento presentado al presidente Frei, 1966

٤٤١ جود بولك (المجلس ا على لغرفة التجارة الدولية في أمريكا) و س. ب. كينديلبيرغر (مؤسسة الماساشوستس التكنولوجية) يقدمون معلومات وبيانات واراء مهمة حول امركة الاقتصاد العالمي في منشورات وزارة الخارجية، واشنطن ١٩٦٩

٤٤٢ Business International, op. cit.

٤٤٣ E. Lízano F., *El problema de las inversiones extranjeras en Centro América*, en la Revista de Banco Central de Costa Rica, septiembre de 1966.

٤٤٤ En *Columbia Journal of World Business*. Citado por NACLA Newletter, enero de 1970.

٤٤٥ Paul N. Rosenstein–Rodan, *Reflections on Regional Development*. Citado en Bonn, varios autores, op. cit.

٤٤٦ يرى مدير الاوكتاد أن التكامل بوصفه مجرد عملية لاختزال الحواجز التجارية سوف يحافظ على جيوب متقدمة للغاية داخل قارة متدهورة تدهورا عاما.

٤٤٧ تعد صناعة السيارات أجنبية بنسبة ١٠٠ في المائة في البرازيل وا رجنتين وأجنبية بصورة رئيسية في المكسيك.

٤٤٨ على سبيل المثال وافقت أوروغواي على زيادة وارداتها من ا لات من البرازيل في مقابل مزايا كإمداد أوروغواي بطاقة كهربائية برازيلية. واليوم لا تستطيع محافظتنا ارتيغاس وريبيرا في أوروغواي زيادة استهلاكها من الطاقة دون إذن من البرازيل.

٤٤٩ Golbery do Couto e Silva, *Aspectos geopolíticos do Brasil*, Río de Janeiro, 1952.

٤٥٠ كتب غريغوريو بوستامانتي ماثيو يصف اعدام موراثان، "لقد أمر جنوده سرية الإعدام بوضع أسلحتهم موضع الاستعداد، وعرى رأسه. وامرهم بالتصويب، وصحح التصويب، ثم أصدر ا مر بإطلاق النار، وسقط مضرجا بدمه، ومع ذلك فقد رفع رأسه النازف وقال، انني حي، وأنهى وابلآخر من الرصاص حياته".

وفي ساحة تيغوثيغاليا، تعزف الفرقة الموسيقية موسيقى خفيفة مساء كل يوم أحد حول قاعدة تمثال موراثان البرونزي لكن النقش المكتوب على قاعدة التمثال مغلوط، أن الهندوراسيين الذين ذهبوا إلى باريس أثر الإعدام لتكليف أحد النحاتين نيابة عن الحكومة بنحت تمثال لموراثان قد أنفقوا النقود على العربدة وانتهوا بشراء تمثال للمارشال تاي من سوق الروبابيكيا. وسرعان ما أصبحت مأساة أمريكا الوسطى مهزلة.

٤٥١ Naciones Unidas, CEPAL, *Los fletes marítimos en el comercio exterior de América Latina*, Nueva York–Santiago de Chile, 1968.

٤٥٢ Enrique Angulo H. en el volumen colectivo *Integración de América Latina, experiencias y perspectivas*, México, 1964.

٤٥٣ mica en América Latina, México, n econSidney Dell, Experiencias de la integraci 1966.

٤٥٤ مقابلة مع جان بيير كليرك في جريدة العالم، باريس، أيار ١٩٧٧

٤٥٥ *The Nation*, 28 de agosto.

٤٥٦ وقعت الجريمة في واشنطن، يوم ٢١ أيلول ١٩٧٦. وكان عدد من المنفيين السياسيين من أوروغواي وتشيلي وبوليفيا قد اغتيلوا، قبلها، في ا رجنتين. وكان من أشهرهم الجنرال كارلوس براتس، الشخصية المحورية في الهيكل العسكري لحكومة الليندي، الذي انفجرت سيارته في أحد كراجات بوينس ايريس يوم ٢٧ أيلول ١٩٧٤، والجنرال خوان خوسيه توريس، الذي كان قد تزعم حكومة مناهضة للإمبريالية لوقت قصير في بوليفيا، الذي اخترقته الرصاصات يوم ١٥ تموز ١٩٧٦، والمشرعان ا ورغوايان ثيلمار ميشيليني واكتور غوتييريث رويث، اللذان اختطفا، وعُذبا، واغتيلا في بوينس ايريسي كذلك، بين ٧ و٢١ آذار ١٩٧٦

٤٥٧ كذلك هُدم الإصلاح الزراعي الذي كان قد بدأ تحت حكم الديمقراطية المسيحية وتعمق من جانب الوحدة الشعبية.

٤٥٨ بعد ثلاثة أشهر، جرت انتخابات في الجامعة. كانت هي الانتخابات الوحيدة الباقية. وحصل مرشحو الدكتاتورية على ٢.٥ بالمائة من أصوات الجامعة. وبالتالي، ودفاعا عن الديمقراطية، سجنت الدكتاتورية حشودا كبيرة وسلمت الجامعة إلى تلك الاثنين ونصف بالمائة

٤٥٩ *Veja*, núm 444, San Pablo, 9 de marzo de 1977.

٤٦٠ U. Túpac. House of Representatives, Committee on Appropriations, Foreign Operations Appropriations for 1963, Hesrings 87th Congress, 2nd. Session, Part. 1.

٤٦١ شهادة لورديس، تشرين أول عام ١٩٧٦

٤٦٢ الرواية، بويرتو برينثيي، هاييتي، ١٩ – ٢٠ آذار ١٩٧٧. معلومات ذكرها اغوستين كويفا في "تطور رأس المال في أمريكا اللاتينية، القرن الحادي والعشرين"، المكسيك، ١٩٧٧

٤٦٣ Ida May Mantel, «Sources and uses of funds for a sample of majorityowned foreign affiliates of U.S. companies, 1966–1972», U.S. Department of Commerce, Survey of Current Business, julio de 1975.

٤٦٤ Naciones Unidas, Comisión Económica para América latina (CEPAL), *El desarrollo económico y social y las relaciones externas de América Latina*, Santo Domingo, República Dominicana, febrero de 1977.

٤٦٥ أن النقود، التي تملك اجنحة، تسافر دون جواز سفر، وجزء كبير من ا رباح المتولدة عن استغلال مواردنا يهرب إلى الولايات المتحدة، وسويسرا، وألمانيا الاتحادية، أو إلى غيرها من البلاد. حيث قفز قفزة بهلوان لتعود إلى أقاليمنا وقد تحولت إلى قروض.

٤٦٦ Agustin Cueva, op. cit

٤٦٧ Idem.

٤٦٨ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit

٤٦٩ UNCTAD, The marketing and distribution system for bananas. diciembre de 1974

٤٧٠ «Reflexiones sobre la desnutricin en México», Comercio exterior, Banco Nacional de Comercio Exterior, S.A., vol. 28, nm. 2, México, febrero de 1978.

٤٧١ Roger Burbach y Patricia Flynn, «Agribusiness Targets Latin America», NACLA, volumen XII, núm. 1, Nueva York, enero–febrero de 1978

٤٧٢ Idem.

٤٧٣ Datos de fuentes sindicales y periodísticas, publicados en *Uruguay Informations*, núms. 21 y 25, París.

٤٧٤ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit.

٤٧٥ Idem.

٤٧٦ OIT, Empleo, crecimiento y necesidades esenciales, Ginebra, 1976.

٤٧٧ Naciones Unidas, CEPAL, op. cit.

٤٧٨ في أوروغواي، اكتسب المحققون ملامح حديثة. هي مزيج غريب من البربرية والحس الرأسمالي. فلم يعد العسكريون يحرقون الكتب، إذ يبيعونها ا ن إلى شركات الورق. وشركات الورق تفرمها وتحولها إلى اب الورق وتعيدها إلى السوق الاستهلاكية. ليس صحيحا أن ماركس ليس في متناول الجمهور. أنه في متناول الجمهور، ليس في شكل كتاب، بل على شكل مناديل ورقية.

٤٧٩ مؤتمر صحفي للرئيس اباريثيو مينديث. يوم ٢١ أيار ١٩٧٧، في باباساندو، قال الرئيس "اننا نجنب البلاد مأساة الحماس السياسي. فالرجال الطيبون لا يتحدثون عن الدكتاتوريات ولا يفكرون في الدكتاتوريات، ولا يطالبون بحقوق الانسان".

الفهرس

في العام ٢٠٠٩ زار الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز الولايات المتحدة الأمريكية وقدم كتاب إدواردو غاليانو «شرايين أمريكا اللاتينية المفتوحة» .كان الكتاب يحتلّ في موقع أمازون للكتب الترتيب ٦٠٢٨٠.

التقطت الصحف صورة الرئيسين والكتاب بينهما ونُشرت في الغد. يومها قفز الكتاب إلى الرقم ٢ الأعلى مبيعاً في أمريكا والرقم ١١ في أوروبا.

لم يكن «غاليانو» يعلم عندما كان في الواحدة والثلاثين من عمره أن كتابه الشرايين عام ١٩٧٠.... سيكون واحداً من أكثر الكتب إثارة للجدل في مجمل تاريخ أمريكا اللاتينية... الكتابُ الذي مُنِع عند صدوره في أغلب دول أمريكا اللاتينية وكان مثارَ جدل لدى كافة الطبقات السياسية والشبابية. الكتاب الذي مثّل إنجيلاً لجيل كامل من الأمريكيين اللاتينيين لعقود طويلة في صراعهم المستمر مع القوى الداخلية والخارجية، ولا يزال.

هذا الكتاب صورةُ الوحش الذي يلتهم البشر والمال والغابات والأنهار.



تصميم: منال العويبيل
Manalines Design

طوى
للثقافة والنشر والإعلام